

رَفَع

جهد الرسوخ الجفري
أسكنم الله الفردوس
www.moswarat.com

نساء

في زمن النبوة

إبعه وأشرف عليه وقدم له فضيلة الشيخ

محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد

سكينة بنت الحسين سكينة	أم كلثوم بنت النبي أم كلثوم	رقية بنت النبي رقية	عائشة بنت طلحة عائشة	زينب بنت النبي زينب
سلمى مولاة رسول الله سلمى	رملة بنت معاوية رملة	رملة بنت الزبير ابن العوام رملة	آمنة بنت وهب (أم الرسول) آمنة	هند بنت عتبة هند
زينب بنت أبي معاوية زينب	فاطمة بنت الخطاب فاطمة	أم معبد الخزاعية أم معبد	أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث ميمونة	فاطمة بنت عبد الملك فاطمة
حبيبة بنت سهل الأنصارية حبيبة	حفصة بنت سيرين حفصة	ريحانة بنت زيد ريحانة	أم البنين بنت عبدالعزيز ابن مروان أم البنين	درة بنت أبي هب درة

جمع وترتيب/ أحمد السعدني



ومجموعة نساء أخرى

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

نساء في زمن النبوة

إجمعه وأشرف عليه وقدم له فضيلة الشيخ

محمد صالح المنجد



حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

٢٠١٣ / ١٤٣٤ هـ

رقم الإيداع: ٢٠١٣/٢٢٨٨٥

الناشر
مركز
الدراسات
والمؤتمرات
بجامعة
البحرين

المنصورة - عزبة عقل - شارع عبد الهادي

ت ٠٥٠٢٣٧٥٩٤٣

فاكس ٠٥٠٢٢٦٧٣٩٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الشيخ محمد حسان

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ﷺ وبعد:

فما من أمة من الأمم إلا وهي تعز بتاريخها، وتفخر برجالها ونسائها، وإن أحقَّ أمة الأرض بهذا الاعتزاز والفخر، بجدارة واقتدار، بل وبشهادة العزيز الغفار، هي أمة نبينا المختار ﷺ قال تعالى: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ .
فلقد أنجبت الأمة الميمونة المباركة رجالا ونساءً سيظل التاريخ يقف أمام سيرهم وقفة إعزاز وإجلال وإكبار وانبهار.

وقد يكون من اليسير أن نرى نجمة تتلأأ وسط السماء ولكن حتما من العسير أن نحصر عدد نجوم السماء!! وقد يكون من اليسير أن نقطف زهرة يتيمة في صحراء مقفرة، لكن من العسير أن نقطف زهرة جميلة في حديقة غناء تضم كل ألوان الزهور وتحوي كل أطياف العبير.

فتعالوا بنا لنلقي السمع والبصر والفؤاد بحب وتقدير واحترام بين يدي «نساء في زمن النبوة».

لنقدم المثل الأعلى والقدوة الطيبة للمرأة المسلمة خاصة والنساء عامة في زمن تحتاج فيه المرأة المسلمة للقدوة الصالحة الطاهرة ووالله إن كل كلمات اللغة لتتوارى خجلا وحياءً أمام «نساء في زمن النبوة» لأخي الفاضل الشيخ / أحمد عبد الرحمن السعدي حفظه الله وجزاه الله خير الجزاء على هذا الجهد المبارك والجمع البديع والعبارة الرقيقة، وأسأل الله أن ينفع به وأن يتقبل منا ومنه وأن يقر أعيننا بعز الإسلام والمسلمين.

وأدعو المرأة المسلمة أن تُقبل على هذا البستان اليانع لتجمع ما تشتهي من الرحيق والزهر والثمر، وتنزل هذا النهر العذب لتلتقط الجواهر واللائي والدرر، وتقف طويلاً في هذا المحراب المهيب لتستلهم الدروس والعظات والعبر، فقد آن الأوان أن ترنو ببصرها وتتعلق بروحها وقلبها بهذه النماذج الطيبة والقدوات الصالحة والمُثل الطاهرة.

فالأمّة الآن في حاجة شديدة إلى صانعة الأجيال ومربية الرجال، لتستعيد مكائنها التي أرادها لها ربها جل وعلا.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

وكتبه أبو أحمد محمد حسان

القاهرة ١٤٣٤ هـ

قال تعالى :

﴿وَالسَّابِقُونَ الْأُولُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

أولئك أتباع النبي وحزبه
ولولا همو كادت تميد بأهلها
ولولا همو كانت ظلامًا بأهلها
ولولا همو ما كان في الأرض مسلم
ولكن رواسيها وأوتادها همو
ولكن همو فيها بدور وأنجم
«ابن القيم» .

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

المقدمة

الحمد لله هو المبدئ المعيد ، الغني الحميد ، ذو العفو الواسع ، والعقاب الشديد ، من هداه فهو السعيد السديد ، ومن أضله فهو الطريد البعيد ، ومن وفقه فهو الرشيد ، يعلم ما ظهر وما بطن ، وما يخفي وما يعلن ، وهو أقرب إلى الكل من حبل الوريد ، قسم الخلق قسمين ، وجعل لهم منزلتين ، فريقاً في الجنة ، وفريقاً في السعير ، إن ربك فعال لما يريد ، من عمل صالحاً فلنفسه ، ومن أساء فعليها ، وما ربك بظلام للعبيد ، أحمده وهو أهل الحمد والتحميد ، وأشكره والشكر لديه من أسباب المزيد ، وأشهد أن لا إله إلا الله ذو العرش المجيد ، والبطش الشديد ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، البشير النذير ، أشرف من أظلت السماء ، وأقلت البيداء ، صلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد :

لا يخفى على ذي لبّ ما تعانيه مجتمعاتنا الإسلامية من تحبط وشتات ، ذلك الداء العضال الذي نلحظه جلياً ، وقد أصاب أمتنا في صميم قلبها ، ومصدر نبضها ؛ ألا وهو شبابها ، ولعل أحد أسباب ضياع شباب الأمة الذين هم حاضرها ومستقبلها ، هو فقدهم لهويتهم ، وضياع انتمائهم لقضايا دينهم ، وانغماسهم في سفاسف الأمور دون معاليها .

وأرى السبب في ذلك يكمن في غياب القدوة ، وضياع المثل الأعلى من ذاكرتهم ، وأخص بالذكر بناتنا ، فإذا كان أعداؤنا يقولون : «كأس وغانية يحطمان أمة محمد أكثر من ألف مدفع» ، فما بالكم لو أن هذه المرأة الغانية التي

سلطوها علينا كانت من بني جلدتنا وبناتنا ، فقد انسلخت عن إهابها الإسلامي ، وسارت في الظلمات تتخبط يمينا ويسرة ، تتشبه بالمرأة الأجنبية لا في شيء إلا جرأتها على ربه ، وإفسادها لبنات جيلها ، وسعيها في تدمير شبابنا ، ولا أبالغ إذا قلتُ : إن المرأة هي خط الدفاع الأول للإسلام ، فما إن ضعفت وارتمت في أحضان العلمانية ، وشعاراتها الجوفاء ، وتركت حياض الدين نهبا للذئاب ، ترعى فيها حتى صارت معولا للهدم وحربا على الإسلام ، وما كان سيفها ليظهر من قبل إلا لنصرة الدين ومحاربة أعدائه .

وقد رأيت أن أجمع طاقات مُنورة يفوح شذاها ، وينتشر أريج عبقها في كل مكان ، يُعطر الأرجاء ، ويدفع إلى التأسّي الحسن في المواصفات والمعايير التي التزمها شخصيات كتابنا هذا ، فكانوا بحق خير القرون ، وكانوا بصدق أفضل الناس لما التزموا وعاشوا به ومن أجله .

وكنت في كتاب سابق تحدثت عن ثلّة من نساء مبشرات بالجنة على لسان النبي ﷺ ، إذ شهد هن بالإيمان ، وخبر بيواطن نفوسهن ، وأدرك ما في قرار ضمائرهن من إيمان ، وصبر ، ويقين ، وسخاء ، وتضحية ، وفداء ، فكان أن وقّع ﷺ لهم شهاداتٍ تحوّلهم دخول الجنة بإذن الله ، ونحن اليوم على موعد مع طائفة أخرى من نساء حول الرسول ﷺ ، مبرزًا دورهنّ الرائد عبر الواقع والأحداث التي جرت في زمن النبوة المعطاء ، وذلك بقصد رسم الصورة المعبرة ، والإطار العام لكل شخصية ، مع كشف الفوائد والدروس والعبر الهادفة ، وصولاً إلى الحكّم المبتوثة في ثنايا العرض لكل شخصية ، ومن ثمّ نجلي الأسوة الحسنة ، ونوضح الاقتداء الصالح بهن فيما عُرفن به وأثر عنهنّ .

وقد سجلت حياة كل امرأة وما اتصفت به من خُلق قويم ، ومشاعر مفعمة

بالإيمان ، واليقين الصادق ، معرجًا على أهم الأحداث في حياتها ، وما تتمتع به من مكانة مرموقة ، وما يتصل بها من أخبار تومض ، وأحداث تضيء .

والله تعالى أسأل أن ينفع بهذا الكتاب كما نفع بسابقه : «نساء مبشرات بالجنة» إنه سميع عليم .

ولابد أن أقدم جزيل الشكر والعرفان إلى الأستاذ أسامة فياض – صاحب مكتبة فياض العامرة ، لما له من أيادٍ بيضاء على نشر التراث والكتب القيمة ، فجزاه الله خير الجزاء .

ولا يفوتني أن أقدم خالص شكري لأستاذي الحبيب ، وشيخي فضيلة الدكتور الشيخ / محمد حسان ، الذي قدم وأشرف وتجشم عناء قراءة كتابي السابق «نساء مبشرات بالجنة» ، فله مني وافر الشكر والعرفان ، وجزاه الله كل خير .

﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾

[هود: ٨٨] .

اللهم علّمنا ما ينفعنا ، وانفعنا بما علمتنا ، وزدنا علماً يا أرحم الراحمين .
اللهم آت نفوسنا تقواها ، وزكها أنت خيرٌ من زكاها ، أنت وليها ومولاها ،
والحمد لله رب العالمين .

المؤلف

فضيلة الشيخ / أحمد عبد الرحمن السعدني

من علماء الأزهر الشريف

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنم الله الفردوس
www.moswarat.com

زينب بنت النبي ﷺ

كبرى بنات خديجة ﷺ وأولى حبات العقد المونق في البيت النبوي الطاهر
عاشت زينب بين أكرم أبوين في الدنيا .
تزوجها أبو العاص بن الربيع ، وقد أثنى عليه النبي ﷺ خيرًا .
كان لزينب قلادة ، وكان لها كبير الأثر في حياة النبي ﷺ وحياتها .
توفيت زينب في السنة الثامنة من الهجرة ، ودفنت بالبقيع .

زينب بنت النبي ﷺ

أولى حبات العقد الفريد :

لو قدر في يوم من الأيام أن تصاغ الكلمات من عبير الزهر المندي برحيق الورد المصفي ، وتكتب بها سير الكرماء ، و حياة الفضلاء ، لكانت السيدة زينب بنت النبي ﷺ أحق الناس في هذا الإنعام ؛ لتكون سيرتها ندية شذية عطرة ، كتابةً وقراءةً وسماعاً وحفظاً وجلاءً للأفهام .

وليتني أستطيع كتابة حياة زينب على أوراق الورد ، وبفتات المسك ، لتكون سيرتها حياة كل بيت وكل أسرة ، وكل فتاة وتكون معالمها في كل وردة تفوح شذاها على الدنيا بأسرها ، وليس هذا فحسب بل لتكون سيرتها قدوة وقبساً لكل امرأة تُريد مرضاة الله ﷻ في هذه الحياة الدنيا لتفوز بنعيم الدار الآخرة .

إن سيرة نساء أهل البيت خير زاد لنساء الدنيا في كل الأزمان ، فهي تجعل القلوب تتدفق بالخير والعطاء ، وتتصل بحبل متين من التقوى والسناء بأولئك اللواتي نلن التشريف بالارتباط في بيت النبوة الكريم ، فكن سادة النساء في دنيا السيادة والتكريم .

كان البيت النبوي يزينه صمت وقور ، فالنبي محمد في حجرته ، موصول القلب بخالق الكون يناجيه ، يذكره ويفكر في عظمته ، بينما كانت زوجته الطاهرة خديجة بنت خويلد ﷺ في سرور روعي فياض فهي ترى بعين بصيرتها أنواراً تفيض في دارها - قرب البيت العتيق - كأنها تنسكب من الأفق العلوي ، وصارت تنسم روائح زكية ، وتهدهد بعبيرها الفواح رفيف الروح ، وتغمر النفس بنشوة صافية سرمدية الحب تشرح الصدور ، وتملأ الجوانح

بالرحمة والدفء والحنان .

كانت خديجة تشعر بأن شيئاً نورانياً لطيفاً ، يداعب وجدانها ، ويدل أنها مقبلة على أيام مباركة ، وأن أنوار اليقين تشرق في نفسها فتبدد كل ما يربطها بالدنيا حتى لتكاد ترى أن حقائق ميمونة تنكشف لها عياناً .

كانت تنعم بمشاعر نبيلة كلها روحانية ، فتلهج بالثناء على الله تعالى أن خصها برحمة منه ولطف خفي ، تشعر به هي وحدها ، إذ منَّ عليها بزواج كريم هو محمد بن عبد الله ﷺ .

كان رسول الله ﷺ في ريعان الشباب ، وقد خصه سبحانه بكل مكرمة ، واختصه برحمته وفضله ، فكان يغرس في نفس زوجته خديجة حبّ الفضائل ، وعلمها أن تكون حركاتها وسكناتها لله ﷻ ، لا تُريد بذلك إلا وجهه الكريم ، فقادها بذلك إلى ينبوع السعادة الحقيقية ، وإلى نبع الصفاء بالقرب من الله ﷻ وتعريض قلبها لنفحات رحمته - وقد امتدحه ﷺ أحد الفضلاء بقوله :

رؤوف عطوف أوسع الناس رحمة وجادت عليهم بالنوال غمائمه
له الحسن والإحسان في كل مذهب فأثاره محبوبة ومعالمه
به ختم الله النبيين كلهم وكل فعال صالح فهو خاتمهم

مضت بضعة شهور وخديجة في كنف محمد ﷺ ، وخلال هذه المدة تبدلت فيها نظرُها إلى الحياة وإلى الكون ، وذوقت الروح حلاوة تلك الصحبة والحياة الزوجية ، وأشرقت في نفسها أنوار المعرفة الحققة لله ﷻ ، فتذوقت نعيم هذه المعرفة ، وغدت تنظر بأنوار الحق وتجليات الفكر .

وها هي الأيام تنطوي فإذا بحدث سعيد يجدد السرور في نفس خديجة فانبسطت أساريرها فأفضت إلى محمد ﷺ أنها حامل وإن هي إلا أيام وشهور

حتى تضع ما في بطنها .

كانت خديجة ﷺ مسرورة بأخبار هذا الحدث السعيد ، فمحمد ﷺ رجل فريد لا كالرجال ، وأب كريم لا كالأباء ، وأخلصت في دعائها إلى ربها أن يهبها الذرية الصالحة حتى تتحقق سعادتها كاملة بأمومة من أبي القاسم الأمين في قريش ، وهل هناك سعادة تفوق هذه السعادة ؟

أما الحبيب محمد ﷺ فقد عرف السرور طريقه إلى قلبه الشريف ، فقد نشأ وحيداً يتيماً لم يذق حنان الأبوة ، ولا طعم قرابة الأخوة ، لكنه ﷺ ذاق طعم الاستبشار بالأنس بخالقه ﷻ .

إن سيدنا وحبيبنا محمداً ﷺ بشر مثلنا يتأثر بها يتأثر به الناس ، وهل هناك فرحة أعظم لرجل مثله من أن يكون له ذرية ؟ لقد كان سروره عظيماً بالنبأ السعيد الذي أخبرته به زوجته الطاهرة خديجة بأن سيكون أباً في الأيام المقبلة . وتمضي الأيام والحبيب المصطفى ﷺ يغمر زوجته الطاهرة بعطفه ويرعى سيدة نساء قريش ، بل سيدة الدنيا بأسرها ، رعاية الزوج والأخ والأب إلى أن وضعت خديجة طفلة جميلةً ، أضفت على البيت جمالاً وأنساً وطيباً ، فشكر الزوجان الله على ما آتاهما وسأها رسول الله ﷺ : « زينب » ، وستكون زينب جوهرة فريدة من جواهر العقد الفريد في نساء أهل البيت الطاهرات الخيرات . قال أبو عمر القرطبي رحمه الله : « كانت زينب أكبر بناته ﷺ » .

ومع زينب بنت سيد ولد آدم محمد بن عبد الله بن عبد المطلب القرشية الهاشمية ^(١) ، ستكون رحلتنا معطاءة معطارة - بإذن الله - في هذه الصفحات .

(١) طبقات ابن سعد (٨/ ٣٠ - ٣٦) ، والمعارف (ص ٧٢ ، ١٢٧ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢) ،
والعروة والتاريخ (٣/ ٢٧٠) ، والمستدرک (٤/ ٣٠٤ ، ٣٠٥) ، وأسد الغابة (٦/ ١٣٠ ،
١٣١) ، ترجمة رقم (٦٩٥٦) .

الصَّهْرُ الكَرِيمُ :

كانت الأيام تمضي ، وزينب بنت رسول الله ﷺ تكبر ، وكانت تجدد الرعاية الكريمة بين أكرم أبوين في دنيا الكرم ودنيا الفضائل ، ومن أكرم من الحبيب المصطفى ﷺ ، ومن زوجه الطاهرة خديجة بنت خويلد ﷺ ؟

بلغت زينب ﷺ مبلغ النساء فإذا بخالتها هالة بنت خويلد تُقبل على دار أختها خديجة فأفضت لخديجة بأنها ترغب في خطبة زينب لابنها أبي العاص بن الربيع القرشي العبشمي .

كان أبو العاص بن الربيع أحد فتيان مكة الذين عُرفت عنهم محاسن الشمائل ، وعُرف بالأمانة والمروءة والنجدة ، وكان ذا مال كثير ، وتجارة واسعة .

قال الحافظ ابن عساكر رحمته الله : كان يقال له : الأمين وكان لرسول الله ﷺ مصافياً له ، وأخاه له ، وكان يقال لأبي العاص : الأمين ، وكان رسول الله ﷺ يكثر غشيان أبي العاص في منزل أمه هالة بنت خويلد ^(١) .

رحبت خديجة بأختها هالة ، وأقبلت عليها مسرورة ، فابن أختها أبو العاص كان يغشى بيتها كلما سنحت له الفرصة أو قدم من تجارة له ، إنها الأمنية الحلوة أن تكون زينب في رعاية خالتها هالة ، بيد أن خديجة رحمته الله التمسث أن تنتظرها حتى تستأذن زوجها أبا القاسم .

أخبرت خديجة رحمته الله رسول الله ﷺ بما جاءت به أختها هالة ، فأثنى رسول الله ﷺ على أبي العاص ، وأعلن موافقته على الخطبة .

وسعدت زينب ابنة رسول الله ﷺ برضا أبويها ، وزفت إلى أبي العاص ،

(١) انظر : مختصر تاريخ دمشق (٢٩/٤٣) .

وقد أهدتها أمها خديجة قلادة كانت أثيرةً لديها .

عاشت زينب ﷺ في بيت أبي العاص ، وولدت له أمامة ^(١) ، التي تزوج بها علي بن أبي طالب بعد فاطمة الزهراء ، ثم ولدت له علي بن أبي العاص الذي يقال : إن رسول الله ﷺ أردفه وراءه يوم الفتح ومات صبياً ^(٢) .

كان رسول الله ﷺ يزور ابنته زينب في دار زوجها أبي العاص بن الربيع ، وكان سعيداً بابنته ، وزاده غبطة أن صهره أبا العاص قد عُرف في مكة بالأمين ، كما عُرف هو بذلك من قبل ، وكان يكرم هالة أخت زوجته خديجة لما لخديجة من مكانة في نفسه ، وكانت هالة نفسها تحب شمائل رسول الله ﷺ ، وتكرمه وتكرم أولاده وبناته .

زينب وأنوار النبوة :

عاش رسول الله ﷺ مع الناس في حياتهم إنساناً يعاشرهم ، ويتبادل معهم مطالب الحياة التي تقتضيها طبيعة البشر في دائرة أفضل الكمالات التي يمكن أن يكون عليها إنسان في حياته مع الناس والأشياء .

وهذه الكمالات الإنسانية هي التي نشأ عليها ، وعرفت له في قومه وبلده مكة ، فتزوج وولد له بنون وبنات ، وقام على رعاية أولاده وزوجته وأصهر إلى أكرم قومه ، يلجأ إليه قومه ، ويرضونه لحل معضلاتهم ويشاركونهم في أعمال الشرف والمروءة .

لهذا كله أحبه القريب والبعيد ، وأصبح الأمين في نفوس قريش ، وغدا

(١) اقرأ سيرة أمامة في كتابنا نساء مبشرات بالجنة ، ط فياض .

(٢) سير أعلام النبلاء (٢/٢٤٦) .

محط آمالهم ، ومجمع كل فضيلة ، وناصية كل مكرمة .

بلغ الحبيب المصطفى ﷺ أربعين سنة ، فنزل عليه الوحي وأمره ربه بتبليغ أمره للناس كافة ، فامتثل الأمر الإلهي ، وقام بأداء الرسالة ، وكان من البدهي أن تكون طليعة هؤلاء السابقين زوجة الطاهرة الوفية خديجة ؓ ، وكذلك أولاده الأطهار ، فأولاده الذكور : القاسم ، وعبد الله ، وإبراهيم ابنه من مارية المصرية ، ماتوا جميعاً في عمر الزهور ، وفي سن الطفولة البريئة .

وأما بناته الطاهرات - رضي الله عنهن : زينب ، ورقية ، وأم كلثوم ، وفاطمة ، فكلهن أدركن الإسلام وأسلمن ^(١) ، وكن مع أمهن في طليعة أسبق السابقين والسابقات إلى ساحة الإيمان به ﷺ ، نبياً ورسولاً ، وكانت زينب ؓ أكبر أخواتها من السيدات اللاتي أكرمهن الله ﷻ بالمسارعة إلى التصديق برسالة أبيها ﷺ .

وسبق البنات الطاهرات وفي مقدمتهن زينب رضي الله عنهن جميعاً لا يحتاج إلى نص أو دليل ، أو برهان ، والله در القائل :

وهبني قلت هذا الصبح ليل أيعمى العالمون عن الضياء ^(٢)

وفي هذا يقول الإمام الزرقاني رَحِمَهُ اللهُ فِي «شرح المواهب اللدنية» : «ولم يذكر بناته - أي في عداد السابقين إلى دوحة الإيمان - لأنه لا شك في تمسكهن قبل البعثة بهديه وسيرته» .

ومما تُعْطَرُ به الأسماع في هذا المجال الكريم - ما رواه ابن إسحاق رَحِمَهُ اللهُ عَنْ

(١) الكامل (٢/ ٤٠) .

(٢) ديوان المتنبي (١/ ١٠) .

أما عائشة الصديقة بنت الصديق ﷺ قالت : « لما أكرم الله نبيه بالنبوة أسلمت خديجة وبناته » .

وفي رواية أخرى عنها أنها قالت : « أسلمت رقية حين أسلمت أمها خديجة وبايعت حين بايع النساء ، وأسلمت أم كلثوم حين أسلمت أخواتها وبايعت معهن » .

أما سيدتنا فاطمة الزهراء ﷺ فقد ولدت ونشأت على الإسلام وأتقى التقى .

قال الإمام الزرقاني رحمته الله : « والحاصل أنه لا يحتاج للنص على سبقهن إلى الإسلام لأنه معلوم » ، وهو يقصد بهذا إلى أن ذلك نتيجة لازمة لزوماً قطعياً ، لنشأتهن بين أحضان أصدق أبوة وأكرمها ، وأفضل أمومة وأنبهها ، يأخذن عن أبيهن أكرم المكارم وعن أمهن حصافة العقل الذي لا يُوزن به عقل امرأة في السابقين ولا في اللاحقين .

فزینب وأخواتها الطاهرات - رضي الله عنهن - في قرْنٍ مع أمهن السيدة خديجة ينظمن معها عقد أسبق السابقين والسابقات إلى ارتشاف رحيق الإيمان منذ ظهرت تباشير ينابيعه الثرة ، وكن من السابقات إلى دوحه الإسلام والتصديق برسالة أبيهن سيدنا وحبينا رسول الله ﷺ الذي كان أباً كريماً قبل أن يكون رسولاً رؤوفاً رحيماً بالمؤمنين .

كانت مكارم أخلاقه الحسان ، وعظيم شهرته بها ، ورفيع صفاته تلك التي تميز بها عن سائر بيئته وقومه بين أيديهم يرينها رأى البصر والبصيرة ، ويسمعن أحاديث الناس عنها ، والولد على نهج أبيه وأمه ينشأ في الغالب .

إن زينب رضوان الله عليها عاشت في محضن البيت النبوي ، وكانت كبرى بناته الطاهرات ، وأخذت عن أبيها ﷺ خلقه ، وعمله مشاهدة ومحاكاة ، وسمعت منه ما يأمر به ، ويرغب فيه من الخير ، وما ينهى عنه وينفر من مقارفته من الشر فتشربت من يقينه وإيمانه ، وحكمته وآدابه ، وشرائعه ، ما يطبق قلبها وروحها حمله ، وترسم عقلها ما تستطيع إدراكه من مشاهدة آثار النبوة والوحي وإشراق الرسالة ؛ لذلك كان إيمانها بالله ﷻ وتوحيدها والتصديق برسالة أبيها فطرياً طبيعياً اقتضته الفطرة النقية التي قادت إلى منابع النقاء والصفاء ، وإلى نور الحق وأنوار اليقين .

زينب وأبو العاص :

أخذت زينب بنت رسول الله ﷺ تقص على زوجها أبي العاص قصة الإيمان ، وتحديثه عن نبوة رسول الله محمد ﷺ ، وأخبرته بإيمان أمها خديجة وإيمانها وإيمان أخواتها ، وشهادتهن أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .

كانت زينب ﷺ تتحدث إلى زوجها وقلبا يخفق عطفاً وخوفاً ، فقد كانت ترجو الله ﷻ أن يشرح قلبه للإيمان بالدعوة المحمدية ، فهي تحبُّ له الخير والسعادة والهداية ، وخشيت أن تأخذه العزة بالإثم ، فيعرض عن الإسلام كما فعل طغاة قريش ، ويسلك طريقاً غير طريقها المستقيم فيهوي في مهاوي الردى والخسران .

اشتدَّ وجيب قلبها ، واستولى عليها خوف شديد ، فزوجها أبو العاص لم يجبهها بشيء بل تركها ، وخرج وتوجه إلى الكعبة ، ولما عاد إلى منزله قال لها : «لقيتُ أباك اليوم في الكعبة ، ودعاني إلى الإسلام» .

ولم تكن زينب ﷺ تتصور أن يستسلم زوجها لعواطفه ، وينقاد لمواريث

الجاهلية ، ويعرض عن دعوة الإيمان ، بل كانت ترى أن أبا العاص ذو رأي وحكمة ، وسيسرع إلى الانتظام في ثلة الأولين الذين فازوا بقصب السبق إلى راية الحق ودعوة الخير .

تعجب أبو العاص من إيمان زينب بدعوة الحق ، ولاحظت زينب ذلك فقالت له : «والله ما كنت لأكذبُ أبي ، وإنه والله لكما عرفت أنت وقومك أنه الصادق الأمين» .

لم تقنط زينب من رحمة الله ﷻ ، ولم تقف وقفة قاسية أمام إعراض زوجها عن الإسلام ، وإنما ظلت تدعوهُ إلى الإسلام مرةً بعد مرةً ويومًا بعد يوم ، ولكن أبا العاص كانت تعلقو ملامح وجهه إشاراتٌ وجومٍ وعلاماتٌ استفهام لا يستطيع تفسيرها هو نفسه .

وفي أحد الأيام قال لزينب بلسان الحقيقة وهي تدعوهُ إلى الله : «والله ما أبوك عندي بمتهم ، وليس أحب إليَّ أن أسلك معك يا حبيبة في شِعْبٍ واحد ، ولكنني أكره لك أن يقال : إن زوجك خذل قومه ، وكفر بأبائه إرضاء لامرأته» .

أعتقد أن أبا العاص كان يودُّ لو يستجيبُ للإيمان حيث إن كلامه ينضح بالدفء ، وصدق اللهجة ، وكانت تكمن في نفسه ينابيع المودة للدعوة المحمدية ، ولكن حواجز خفية لم يستطع أن يعبرها قد حالت بينه وبين أنوار اليقين .

وأعتقد أن زينب ﷺ قد أدركت ذلك في شخص زوجها أبي العاص بن الربيع ، وتوسلت إلى الله ﷻ أن يكشف عن قلبه هذه الحواجز والسُّتور ؛ ليهنأ في نعيم الإيمان ، ويزيح عن كاهله رجس الجاهلية ، ليكون من فرسان مدرسة النبوة .

زينب وإخلاص زوجها :

أخذ عبير الإسلام يعطر الأجواء في مكة المكرمة ، وراحت القلوب الكبيرة تمتلئ بحب الإيمان ، وتتصل بخالقها الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ، ليظهره على الدين كله ، وسعى المؤمنون الأوائل لإعلاء كلمة الله ﷻ والدعوة إليه بالحكمة .

وتتابع الناس يدخلون في دين الله أفواجا رجالا ونساء حتى فشا ذكر الإسلام بمكة ، وتحدث الناس سرا وعلانية ، وأقبل الذين فتح الله بصائرهم وبصيرتهم على الحق ، ينعمون بمحاسن الإسلام ومكارمه ، بينما طاشت عقول بعض سادات قريش ، ولجأت في الظلام وكرهوا هذا الدين الجديد ، وحاربوه بكل وسيلة ليطفئوا نور الله ، ولكن الله متم نوره ولو كره المشركون .

مضى الحبيب المصطفى ﷺ يسير في دعوته بينما أخذ كفرة المشركين وفجارهم يصبون جام غضبهم على المؤمنين ، ويؤذونهم بألوان الأذى ، ويحاربونهم بوسائل شتى ، وكانوا في خصامهم يريدون أن ينالوا من رسول الله ﷺ ويشغلوه عن أمر الدعوة .

وتفتق خيالهم الشيطاني عن فكرة ظنوا أنهم يوهنون بها الدعوة الإسلامية فرأوا أن يشغلوا رسول الله ﷺ ببناته ، فقالوا : إنكم قد فرغتم محمداً من همه فردوا عليه بناته فاشغلوه بهن .

ومشى سادات الكفار في قريش إلى أبي العاص بن الربيع ، وبعد حديث عن الدعوة وعن رسول الله ﷺ وقربوا له وبعثوا ، ثم قالوا - بعد أن ظنوا أن أبا العاص قد لآن في أيديهم : فارق صاحبك بنت محمد ، ونحن نزوجك أي امرأة شئت من قريش .

إلا أن ما نطق به أعيان الفجرة راح أدراج الرياح ، ولم تثمر مكيدتهم هذه عند أبي العاص الذي كان يحبُّ زوجته زينب ، فهو لا يطيق فراق ابنة خالته ، التي لم ير منها إلا كل خير ووفاء ، وفوجئ القوم الكافرون بأبي العاص وهو يقول بوضوح : « لاها الله إذا لا أفارق صاحبتني ، وما أحب أن لي بامرأتي امرأة من قریش »^(١) .

إن أبا العاص أبى أن يفارق زينب أو يطلقها ، وإن كانت على غير دينه فهو يحب زينب ويحل أباهها ، ولكن مفارقة دين قریش كان يصعب عليه صعوبة شديدة ، ولكن لكل أجل كتاب .

زينب والزوج الأسير :

هاجر الحبيب المصطفى ﷺ إلى المدينة المنورة ، ولحق به أصحابه هناك ، بينما ظلت ابنته زينب في مكة في بيت زوجها أبي العاص بن الربيع تنتظر أمر الله ﷻ في الهجرة ، وظل قلبها يخفق حتى جاءها الخبر اليقين بأن أباهها قد استقر في عرين الأنصار الذين يؤثرون على أنفسهم ، ولو كان بهم خصاصة .

وها هي ذي مدينة رسول الله ﷺ طيبة تنبض بالحياة ، فقد أكرم الأنصار مثوى المهاجرين ، وعاش جميعهم في حب ووفاء ، يمدون الله الذي هداهم إلى الطيب من القول ، وإلى صراط الحميد .

وأطل العام الثاني للهجرة وأهل هلال شهر رمضان ، فإذا بمشركي مكة يخرجون نحو المدينة لقتال المؤمنين .

ولكن ما هو شعور زينب ابنة الحبيب المصطفى ﷺ ، تلك التي خرج

(١) تاريخ الطبري (٢/٤٢) ، ومجمع الزوائد (٩/٢١٤) .

زوجها مع المشركين لقتال رسول الله ﷺ؟ بل ما هو شعور أبي العاص في تلك اللحظة؟

أعتقد أن أبا العاص صهر الرسول ﷺ قد خرج كارهاً للقتال ، ويبدو أن الأحداث لم تترك أبا العاص بعيداً عن ضغطها واحتوائها ، فخرج إلى بدر تتناوشه الأفكار المتناقضة ، والأوهام المصطنعة من كبار فجار الكفار ، بزعامة أكفر الكفرة الفجرة أبي جهل عمرو بن هشام المخزومي .

ولما دفع أبو جهل بن هشام بقريش وفتيانها دفعاً إلى خوض غمار المعارك ، امتشق أبو العاص سيفه ، وهو يرجو ألا يلقى أحداً من المسلمين ، وخشي أن يلقى محمداً ﷺ ؛ إذ الحياء ألجمه أن يلقى بالسيف أقرب الناس إليه ، وأحبهم إلى زوجه زينب فطالما زاره في بيت خالته خديجة قبل أن يتزوج زينب ، وألقى إليه سمعه وأعجب بحلاوة حديثه ، وكمال خلقه ، وما أكثر ما اجتمع به بعد زواجه من ابنته ، وكان له خير أسوة وخير ناصح أمين ﷺ .

التقى الجمعان في بدر ، ودارت رحى الحرب في شراسة ، تعبأت لها القلة المؤمنة من المسلمين ، مستهدفة إعلاء كلمة الله ﷻ ، ودارت رحى القتال ، وما هي إلا جولة وأخرى بعدها حتى خفقت ألوية النصر على رؤوس المؤمنين ورפרفت أعلامُ الظفر باسمه فوقهم ، وأنزل الله نصره على المؤمنين ، وحلت الهزيمة المنكرة بطغاة الكفر والمشركين .

أخذ المسلمون يقتلون فريقاً ويأسرون فريقاً ، بينما هرب باقي المشركين نحو مكة كاسفاً بهم ، ترهق وجوههم ذلة الهزيمة ، وتملاً نفوسهم غصة الآلام .

كان أبو العاص بن الربيع قد وقع أسيراً بيد المسلمين أسره عبد الله بن جبير الأنصاري ، وكان أبو العاص من الذين لم يُسمع لهم في المعركة صوت ، ولم

يعرف لهم رأي ، ولا شوهدت لهم في قتال جولة ، وقُرن في الحبال مع زملائه الذين كُتب عليهم الإسار في هذه المعركة الفاصلة .

ووضعت الحرب أوزارها ، ورفرت رايات النصر فوق رؤوس المؤمنين ، وسار محمد رسول الله ﷺ ، والذين معه ليدخلوا المدينة ، ومعهم الأسرى مقرنين في الأصفاد ، وهناك قال رسول الله ﷺ : « استوصوا بالأسارى خيراً » . كان أبو العاص بن الربيع مستأسراً مع رهط من الأنصار ، فأكرموا مثواه ، وعرفوا مكانه في البيت النبوي ، فلم يلق منهم إلا كل خير وإكرام وكرامة .

لترك أبا العاص نفسه يحدثنا عن كرم الأنصار ، وعن مكارمهم وإيثارهم النبيل عندما كان أسيراً لديهم ، فيقول : كنت مع رهط من الأنصار - جزاهم الله خيراً - كنا إذا تعشنا أو تغدينا آثروني بالخبز وأكلوا التمر ، والخبز معهم قليل والتمر زادهم ، حتى إن الرجل لتقع في يده الكسرة فيدفعها إليّ^(١) .

وقر في صدر أبي العاص أن هذه المعاملة الرفيقة الرقيقة لا تصدر إلا عن عظماء تربوا في مدرسة النبي ﷺ ، وتغذوا على مائدة التقوى ، ونشؤوا على محاسن الفضائل ، فكانوا سادة الناس في العادات ولا غرو ، فعادات السادات سادات العادات .

وأخذت الأفكار تتدفق في مخيلة أبي العاص ، وتعود به إلى الأيام الخالية ، إنه يعرف الأنصار هؤلاء - الأوس والخزرج - من قبل أن يقدم عليهم رسول الله ﷺ إنه يعرفهم معرفة حقيقية لممارسته التجارة ، فما كانوا على مثل هذا الخلق الكريم العطر ، فلما هاجر إليهم رسول الله ﷺ ، ومكث بينهم بضعة

(١) مختصر تاريخ دمشق (٢٩ / ٤٤) .

شهور كانت المعجزة النبوية آتت أكلها سريعاً حيث تخلقوا بأخلاقه الشريفة ، واهتدوا بهديه القويم فصنعوا الأعاجيب .

واستمر أبو العاص في تفكيره ، فإذا بفؤاده يهوي إلى الدين القيم الذي يدعو إلى مكارم الأخلاق ، ووجد نفسه تنجذب إلى نور الهداية المنبعثة من الإسلام الذي يدعو إليه رسول الله ﷺ ، ولكنه أسير الآن ، ولا يدري ما سيفعل بالأسرى ، ولكن هذا الأسر كان درساً له قرّبه من الإسلام خطوات .

القلادة الزينية :

أخذ الناس يلقون رسول الله ﷺ بالتحية والتهنئة ، بما فتح الله عليه في غزاة بدر ، ودخل النبي ﷺ المدينة ، ووضع الأسرى تحت حراسة مولاه شقران ، وكان من بينهم أبو العاص بن الربيع صهر رسول الله الكريم .

وكان أبو العاص مشتت التفكير فيما وصل إليه وقفز به خياله إلى أم القرى ، حيث غادر زينب ؓ ، غادرها هذه المرة ليحارب أباه ، وليس للتجارة إلى الشام وغيرها .

لقد خرج مع مشركي قومه وسفهاثهم إلى المدينة لتسمع بهم العرب فتهاجم أبد الدهر - كما زعموا - كان في فورة حماس ، لم يفكر في مشاعر زوجته التقية الودود زينب وقد خرج لحرب أبيها .

عاد به خياله إلى واقعه أنه أسير مع الأسرى في مدينة رسول الله ﷺ ، تُرى ما حال زينب ؟ إنه يدرك تماماً أنها لا تعدل بأبيها أحداً .

أما زينب ؓ فقد كانت في مكة المكرمة تبتهل إلى الله ﷻ أن يشرح صدر أبي العاص إلى الإسلام ، وإلى الهداية وطريق النور ، وكانت تخشى أن يصاب

رسول الله ﷺ أو أن يصاب زوجها أيضًا بأذى .

لم تطل الأيام فقد جاء من يخبر زينب بأن أبا العاص قد وقع أسيرًا بيد رسول الله ﷺ ، بالإضافة إلى سبعين من المشركين قد وقعوا أيضًا في الأسر ، وها هم أولاء أهلهم يتجهزون للخروج إلى المدينة المنورة ليدفعوا الفدية إلى المسلمين .

كانت زينب ﷺ تحب أن تبعث إلى أبيها من يفتدي منه زوجها أبا العاص ، وتهللت بالفرح لما جاءت الأخبار العطرة تحمل نصر الله لرسوله ﷺ والمؤمنين ، ولكنها شعرت بالحزن يسري في أعماقها لأسر زوجها ، إلا أنه كان عندها إحساس غامر وفراصة صادقة بأن عقل زوجها سيسلمه في يوم من الأيام إلى خير ، وشعرت بأن أباها سيقدر حالتها وحالة زوجها الأسير .

ودت زينب ﷺ لو تستطيع أن تخرج لتفتدي زوجها ، وترى أباها ، وتهنته بنصر الله ﷻ ، إلا أنها كانت عاجزة عن الخروج وحدها فهي بين ملاء قد ملئت قلوبهم حقدًا على أبيها وعلى الذين معه ، ولو همت بالخروج لأوذيت أذى شديدًا .

لجأت زينب إلى أهل زوجها ليذهبوا في فداء أبي العاص ، فقدم عمرو بن الربيع في فداء أخيه أبي العاص بن الربيع ، ووصل المدينة المنورة ، فقدم إلى رسول الله ﷺ ما أرسلت به ابنته زينب في فداء زوجها أبي العاص ، فإذا به مال وقلادة لها كانت أمها خديجة الطاهرة قد أدخلتها بها على أبي العاص حين بنى بها في مكة حتى تتزين بها ، فلما رأى رسول الله ﷺ القلادة ترقق الدمع في عينيه الشريفتين ، فقد ذكرته هذه القلادة بالطاهرة خديجة سيدة نساء

العالمين ، وأعادته إلى تلك الأيام التي قضاها معها ؛ إذ كانت له وزير صدق على الإسلام .

لقد كانت هذه القلادة الخديجية الزينية مبعث ذكريات رسول الله ﷺ ، وذكريات زوجية وذكريات أسرية ، وذكريات عاطفية قبل أن تأتيه رسالة الله ﷻ بمنهجها الرباني القويم .

فالحبيب المصطفى ﷺ أب له من عواطف الأبوة أرفع منازلها في سجل المكارم الإنسانية وأشرفها في فضائل الحياة ، فتذكر برؤيته هذه القلادة ابنته الكبرى في مكة وحيدة مع زوجها مسلمة مؤمنة ، وهو على كفره لم تفكر قط في مفارقتة ؛ لأنه كان بها حفيًا وفي معاشرتها وفيًا محبًا معتزًا بها .

ويؤسر زوجها في أشرف قومه ، ويتطلب الموقف فداءه فترسل قلادتها الأثيرة لديها فداء له ، ويرى رسول الله ﷺ هذه القلادة الغالية ، فيتذكر الذكريات ؛ ذكريات السيدة خديجة الطاهرة وفرحها وهي تدخل على ابن أختها هالة بنت خويلد ، وتحليها بأحسن ما عندها من الحلي ، وتزينها بقلادة تهديها إليها في فرحة العمر ، فتقدمها زينب فداء لزوجها طيبة بها نفسها ، وفاء لحياتها الزوجية مع أبي العاص ابن خالتها ، فيعظم ذلك في نظر رسول الله ﷺ .

والرسول الكريم ﷺ أب رحيم ، وكافل لأسرة قاعدتها أولاده وقمتها وزوجه ، وزير الصدق ومأنس القلب ، ومفرجة الأزمت والشدائد عنه بما أنعم الله عليها من عقل رشيد ، ورأي سديد ، فحينما رأى هذه القلادة الكريمة - بعد غياب طويل - ذكرته بالود الهامس وابتسامة الحياة الهادئة مع أظهر الطاهرات خديجة رضوان الله عليها .

إنه يذكرها في كل مناسبة ، وهنا تذكرها في هذه القلادة الغالية العزيزة فماذا

فعل ﷺ؟

تذكر المصادر الوثيقة: «أنه لما بعث أهل مكة في فداء أسراهم، جاء في فداء أبي العاص بن الربيع أخوه عمرو بن الربيع، وبعثت معه زينب في فداء زوجها بمال، وبعثت فيه بقلادة من جزع ظفار، كانت خديجة أدخلتها بها على أبي العاص حين زواجها من أبي العاص، فلما رأى رسول الله ﷺ القلادة عرفها، ورق لها رقة شديدة، وذكر خديجة، وترحم عليها، فتوجه إلى أصحابه الكرام ﷺ متلطفًا يطلب إليهم في رجاء الأعرز الأكرم، رجاء يدفعهم إلى العطاء ولا يسلبهم حقهم في الفداء، لو أنهم أرادوا الاحتفاظ بهذا الحق وهو في أيديهم يملكون التصرف فيه فقال لهم: «إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردّوا عليها الذي لها فافعلوا».

قالوا: نعم يا رسول الله.

فأطلقوا أبا العاص بن الربيع وردوا إلى زينب متاعها.

وكان رسول الله ﷺ قد أخذ العهد على أبي العاص أن يخلي سبيل زينب، وكانت من المستضعفين من النساء ففعل ووفى بما وعد^(١).

رحلة الوفاء بالعهد:

عندما سرح الحبيب المصطفى ﷺ أبا العاص من الأسر، خرج أبو العاص عائداً إلى مكة فرحاً مسروراً، واستبشر الناس بعودة من كان من الرجال المعدودين مالاً وأمانة وتجارة، وقبل أن يتوجه إلى بيته طاف بالبيت العتيق سبغاً، ثم توجه وهو في شوق شديد إلى زينب ﷺ الزوجة الوفية التي بعثت

(١) سير أعلام النبلاء (٢/٢٤٦)، ومختصر تاريخ دمشق (٢٩/٤٤، ٤٥).

في فدائه بأعز ما تملك قلاذتها الغالية .

تذكر أبو العاص كيف رقى رسول الله ﷺ رقة شديدة لما شاهد القلادة الزينية الخديجية ، وتذكر أيضًا أنه وعد رسول الله ﷺ أن يخلي سبيل زينب ويرسلها إلى المدينة المنورة لتكون مع أخواتها ، ومع أهل البيت في رعاية أبوية تعوضها عن مرارة الفرقة والبعد فيما مضى من الزمان .

إنه وعد أليم موجه لقلب أبي العاص ، إنه سيقوض البيت الزينبي الهانئ الهادئ الذي عجزت عواصف الأحداث من قبل عن أن تززع أركانه ، وهو لا يستطيع أن ينكث وعده وإلا لطح أمانته بالأوحوال ، تلك الصفة التي اشتهر بها بين قومه ، وسما بها عن رجالات قريش .

حقًا إن هذا الموقف لخرج ، ولكن أبا العاص سيفي بما وعد وبما عاهد ، وها هو ذا قد بلغ داره ، ولما وقعت عيناه على زينب أسرعت إليه ودموع الفرح تغسل وجهها ، وسعد أبو العاص بهذا اللقاء بعد الغياب الطويل ، ولكن تدفق من أعماقه ووجدانه صوت الوعد الذي قطعه على نفسه ، وها هو ذا صوت رسول الله ﷺ يرنُّ في أعماقه ، فإذا به يقول لزوجته زينب : «لقد وعدتُ أباك أن تلحقي به ، سوف أفي بما وعدته ، وقد كان كريماً معي» .

ويظهر أن زينب رضي الله عنها قد فوجئت بما نطق به أبو العاص ، ونظرت إليه في دهشٍ ، وهي لا تكاد تصدق ما تسمع ، ولكن أبا العاص أكد لها ذلك ، وأفهمها أن الإسلام قد فرق بينهما .

لقد عاهد أبو العاص رسول الله ﷺ أن يحمل زينب إلى المدينة المنورة فور وصوله مكة ، وكان يعلم قسوة ذلك العهد على قلبه ، ولكنه لن ينكث وسينجز ما قطعه على نفسه .

أما زينب - رضوان الله عليها - فقد غدت تقاوم مشاعرها ، وهي تتجهز للهجرة والخروج إلى مدينة رسول الله ﷺ ، كانت العواطف والمشاعر تتصارع في داخلها في تلك اللحظات ، ولكن لقاء رسول الله ﷺ لا يعدله شيء ، ولا تقف أمامه عواطف الدنيا كلها ، وكان لسان حالها يقول : «السمع والطاعة لله ﷻ ولرسوله ﷺ» .

أسلمت زينب أمرها إلى الله ﷻ ، فهو العليم الخبير ، بيده مقاليد السموات والأرض ، وأخذت تتجهز للحقوق بأبيها ﷺ .

في تلك الساعات المتوجة بالعواطف المتنوعة تظهر مروءة امرأة لم يكن من المتوقع أن تساعد زينب في شيء من أمرها ؛ لأن هذه المرأة قتل أبوها وعمها وأخوها يوم بدر ، وما يوم بدر منها ببعيد ، ولكن حديث مروءتها وشهامتها يستحق التأريخ ، ويستحق الحفظ في الصدور ، هذه المرأة النبيلة هي «هند بنت عتبة» ﷺ ، إحدى فرائد نسوة قريش حزمًا وعقلًا ورأيًا ومكانة .

وعلى الرغم مما كان بين هند بنت عتبة ﷺ وبين الرسول الكريم ﷺ ، فإن هنداً كانت عاقلة ، تنظر إلى الأمور نظرة كريمة ندية ، فقد نُمي إليها أن زينب بنت رسول الله ﷺ قد عزمت على الهجرة إلى المدينة المنورة ، فذهبت إليها عندما هدأت الأصوات ، وسكن الليل ، وعرضت عليها أن تقدم لها المساعدة ، لتمكن من الوصول إلى المدينة المنورة ، وقالت لزينب : يا بنت محمد ، بلغني أنك تودين الرحيل واللحوق بأبيك فهل هذا صحيح ؟

فأجابت زينب في حذر وتخوف : من أنبأك هذا ؟ إنني ما أردت ذلك ، فقالت هند في هدوء : أي ابنة العم لا تفعل ذلك ، ولا تكذبيني ، فإن كانت لك حاجة في متاع أو ما يرفق بك في سفرك أو مالٍ تتبلغين به إلى أبيك ، فإن

عندي حاجتك فلا تستحي مني ، فإن ما بين الرجال لا يتعداهم إلى النساء ، وإن أوّلَى الناس بإسعادك ابنة عمك .

وشعرت زينب رضي الله عنها بأن هند بنت عتبة صادقة فيما تقول ، وما جاءتها إلا لتقدم المعونة والمشورة والنصح والمال بدافع من المروءة العربية الصرفة ، ولكن زينب ظلت حذرة إلى حد ما ، واستعانت على قضاء حاجتها بالكتمان والهدوء ، وردت على هند ردًّا جميلاً وصرفتها مصحوبة بالثناء والشكر لهذه المروءة الفريدة .

تجهزت زينب رضي الله عنها حتى إذا ما فرغت من جهازها تقدم أخو زوجها «كنانة ابن الربيع» وحملها على بعيرٍ فركبته ، وأخذ قوسه وكنانته ، ثم خرج بها نهاراً يقود بعيرها وهي في هودج لها ، وتحدث بذلك الرجال من قريش والنساء كذلك ، وأقبل بعضهم بذي طوى «موضع قرب مكة» ، وكان أول من سبق إليها «هبار بن الأسود» ونافع بن عبد عمرو ، فروعها هبار بالرمح وهي في هودجها وكانت حاملاً ، فعدت تنزف دمًا فما كان من حموها «كنانة بن الربيع» إلا أن برك ونثر كنانته بين يديه ، وأخذ منها سهمًا فوضعه في كبد القوس ، وراح يهدد القوم قائلاً : «والله لا يدنو مني رجل إلا وضعت فيه سهمًا» ، فتكركر - رجع - الناس عنه وخافوه ، وأتى أبو سفيان بن حرب في جلة من قريش ، فأقبل أبو سفيان حتى وقف عليه وقال له : «أيها الرجل ، إنك لم تُصب ولم تحسن ، خرجت بالمرأة على رؤوس الناس علانية جهازًا في وضح النهار ، وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا ، وما دخل علينا من محمد أبيها بالأمس القريب ، فيظن الناس إذ خرجت بابنته إليه علانية أن ذلك على ذل أصابنا ، وأن ذلك منا وهن وضعف ، ارجع اليوم حتى إذا هدأت الأصوات ، وتحدث الناس أننا رددناها ، فإذا كان الليل سلَّها سرًّا وأخرجها خفية وألحقها بأبيها ،

وإذ ذاك لا يكون علينا ولا عليك حرج^(١) .

وراحت زينب ﷺ تنظر إلى الدم الذي ينزف منها في خوف ، ورأى كنانة ابن الربيع أن يعود بها إلى مكة استجابة لتوسل أبي سفيان ومن معه ، وحفظاً لحياة زينب ﷺ .

ورجع القوم نحو مكة فلقيتهم هند بنت عتبة وهم عائدون ، وعلمت ما فعله هبار بن الأسود من عمل شائن مع البضعة النبوية زينب ، فتأثرت هند وعيرتهم ، وذكرت جنبهم ومهانتهم في الحرب ، وتشاجعهم على ردّ امرأة في سفرها إلى أبيها ، فأنشدت تدمهم وتهجوهم :

أفي السلم أعيارُ جفاء وغلظة وفي الحرب أشباه النساء العوارك
وبينما كانت زينب ﷺ في طريق عودتها إلى مكة ألقت ما في بطنها^(٢) ،
وأصابها الضعف والمرض .

مكثت زينب ﷺ بضعة أيام حتى استردت بعض قواها ، وهدأ صخب مشرقي قريش عنها وغوغاء الفجار عن هجرتها ، وعندئذ حملها كنانة بن الربيع على بعيرها ، وخرج وهو يسلمها سلاً خفياً خشية الطلب ثانية .

وكان رسول الله ﷺ لما خلى سبيل أبي العاص بعث زيد بن حارثة ورجلاً من الأنصار ، وقال لهما : «كونا يبطن يأجج حتى تمر بكما زينب ، فتصحباهما حتى تأتيايها»^(٣) ، وذلك بعد بدر بسنة .

خرج زيد وصاحبه ينتظران حتى خرج كنانة بن الربيع ليلاً يقود هودج

(١) تاريخ الإسلام للذهبي ، المغازي (ص ٦٩) .

(٢) مجمع الزوائد (٩/ ٢١٢) .

(٣) تاريخ الإسلام للذهبي (ص ٦٩) .

زينب رضي الله عنها ، فسلمها إلى زيد وصاحبه الأنصاري ، وهو يذكر ما حصل له مع هبار ومع مشركي قريش ، وينشد قائلاً :

عجبت لهبار وأوباش قومه يريدون إخفاري بنت محمد
ولست أبالي ما بقيت ضجيعهم إذا اجتمعت يوماً يدي بمهند ^(١)

وسار الرجلان حتى قدما بزینب رضي الله عنها على النبي صلى الله عليه وسلم ، فاستقبل ابنته العزيزة الكريمة العائدة إلى دار الإسلام والسلام ، وعلم صلى الله عليه وسلم ما بزینب من آلام سببها هبار بن الأسود ، وعرف ما كان من قسوته ، فأهدر دمه ودم صاحبه نافع بن عبد عمرو ، وقال : «إن لقيتموهما فاقتلوهما» ^(٢) .

أقامت زينب - رضوان الله عليها - بالمدينة المنورة وهي مستظلة بظلال الحنان والأنس برعاية أبيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنست بأختها أم كلثوم وفاطمة ، بينما كانت رقية توفيت عندما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة بدر .

وبقيت زينب رضي الله عنها في المدينة المنورة قرابة ست سنين ، حتى فتح الله على زوجها أبي العاص بالإسلام ، وكان لإسلامه قصة لطيفة ظهرت فيها زينب رضي الله عنها بأجمل صور كرامة المرأة ، ودقة وجدانها وصون كرامتها .

أما كيف كان ذلك فنحن - بإذن الله - مرسلو القول فيه لنسعد ونحن نعيش هذه اللحظات المباركة في ظلال البيت النبوي الذي أذهب الله عنه الرجس وطهره تطهيراً .

كرامتها وإسلام زوجها :

إن كرامة المرأة في الإسلام تتناول شخصها وسيرتها ، وتشمل مشهدها

(١) منح المدح لابن سيد الناس (ص ٢١٣) .

(٢) سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٤٧) ، والسيرة النبوية (١/ ٦٥٤) .

ومغيبها فمن حقها أن تكون هي في موطن الرعاية والعناية ، وأن يكون لها من الحرمة والكرامة ما يضمنُ حريتها .

وهذا ما كان لزينب بنت الرسول ﷺ ، فقد عرف الإسلام لها حقها ، وأشاد بمكانتها ، وحفظ لها مكانها ، لما أجارت زوجها أبا العاص ؛ وإذ ذاك فتح الله ﷻ بصيرته وأكرمه بنعمة الإيمان ، وأضحى أحد فرسان المدرسة المحمدية .

أقام أبو العاص بن الربيع زمناً على الشرك ، وذلك بعد هجرة زينب ، وكان يعمل بالتجارة فخرج تاجرًا إلى الشام ، قبل فتح مكة ، وكان رجلاً مأمونًا ، وكانت معه بضائع وأموال قريش ، بالإضافة إلى ماله ، وفي طريقه إلى الشام تذكر زوجته زينب ، وطالما تذكرها ، وذكرها في شعره ، ومما قال فيها :

ذكرت زينب لما وركت أرمًا فقلت سقيا لشخص يسكن الحرما
بنت الأمين جزاها الله صالحة وكل بعلي سيثني بالذي علما

دخل أبو العاص الشام ، وباع وربح أموالاً كثيرة ، فلما رجع من تجارته لقيته سرية لرسول الله ﷺ قوامها سبعون ومائة راكب ، يرأسها زيد بن حارثة ﷺ ، وأحاط زيد ومن معه بعير قريش ، وإذ ذاك وجد رجال القافلة أنهم عاجزون عن الدفاع ، فأسلموا أنفسهم وتجارهم لرجال السرية ، وكان فيها فضة كثيرة لصفوان بن أمية ، وأصابوا كل ما في القافلة ، واستاقوا العير بيننا أفلت أبو العاص فأعجزهم هربًا .

قدم زيد وأصحابه بالغنائم على رسول الله ﷺ ، فقسمها بينهم ، وأقبل أبو العاص بن الربيع في الليل حتى دخل على زينب فاستجار بها فأجارته ، وسألها

أن تطلب له من رسول الله ﷺ رد ماله عليه ، وما كان معه من أموال الناس فوعده خيراً .

وترامت في جنبات المدينة صوت بلال بن رباح وهو يؤذن بالفجر ، فحَفَّ زيد بن حارثة وأصحاب رسول الله ﷺ ليصلوا خلف رسول الله ﷺ .

ووقف الرسول الكريم ﷺ ، واصطف المسلمون خلفه في هدوء ، فلما دخلوا في الصلاة وكبر الرسول ﷺ ، وكبر الناس معه ، إذ بصوت ابنته زينب رضي الله عنها يدوي في المسجد ، وينبعث من صفة النساء تقول : «أيها الناس ، إني قد أجرت أبا العاص بن الربيع» ^(١) .

فلما قضيت الصلاة وسلم النبي ﷺ أقبل على أصحابه الكرام قال : «ما علمت بهذا ، وإنه يجير على الناس أدناهم» .

ثم انصرف الحبيب المصطفى ﷺ ، فدخل على ابنته زينب رضي الله عنها ليعرف حقيقة الأمر ، ثم إنه قال لها : «قد أجرنا من أجرت ، والمؤمنون يد على من سواهم ، يجير عليهم أدناهم» ^(٢) .

وسأله زينب رضي الله عنها أن يرد على أبي العاص ما أخذ منه ، فصمت قليلاً ، ثم أمرها بألا يقربها ما دام مشركاً ، وقال : «أي بنية ، أكرمي مثواه ، ولا يخلص إليك ، فإنك لا تحلين له» ^(٣) .

كانت زينب مسلمة ، وكان أبو العاص مشركاً لا يزال على دين الوثنية ،

(١) مجمع الزوائد (٢١٣/٩) ، وتاريخ الطبري (٤٤/٢) ، والكامل (١٣٥/٢) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٤/١٩٧) ، و(٣٦٥/٢) .

(٣) مجمع الزوائد (٢١٦/٩) ، ودر السحابة (ص ٢٨٢) .

وقد حرم الله ﷻ نكاح المؤمنات على المشركين .

وخرج رسول الله ﷺ ، وبعث إلى السرية من أصحابه الذين أصابوا مال أبي العاص ، وقال لهم : «إن هذا الرجل منّا حيث قد علمتم ، وقد أصبتم له مالاً ، فإن تحسنوا وتردوا عليه الذي له فإننا نحب ذلك ، وإن أبيتم فهو فيء الله الذي أفاء عليكم فأنتم أحقُّ به» .

فقالوا جميعاً : بل نردهُ عليه يا رسول الله .

فردوا عليه ما أصابوا حتى إن الرجل ليأتي بالقربة القديمة ، والرجل بالإداوة ، والرجل بالحبل ، فما تركوا قليلاً أصابوه ولا كثيراً إلا ردوه عليه ، وعاد أبو العاص بأموال قريش وتجارته التي عقدت بناصيته أمانتها ، في وقت استحكمت فيه شدائد الأزمات بينها وبين المسلمين ، لم يفقد منها شيئاً ، فكان موفور الكرامة ، وفيّاً أميناً ، وأعطى كل إنسان ما كان له من مال في هذه التجارة ، ثم نادى في قريش علانية فقال : يا معشر قريش ، هل بقي لأحدٍ منكم معي مال لم أرده عليه؟

قالوا : لا ، فجزاك الله خيراً ، قد وجدناك وفيّاً كريماً .

وعند ذلك أعلن أبو العاص بن الربيع إسلامه ، وشهد شهادة الحق ، وقريش مجتمعون عليه ، فقال وهو مستبشر مشرق الوجه ، مطمئن القلب والضمير : «أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، أما والله يا معشر قريش ما منعني أن أسلم قبل أن أقدم عليكم إلا خشية أن تظنوا بي إنما أسلمت لأذهب بأموالكم ، فلما أداها الله إليكم ، وفرغت أسلمت»^(١) .

(١) عن تاريخ الإسلام للذهبي «المغازي ص ٧٠» ، ومختصر تاريخ دمشق (١٤٦/٢٨) ، مع

يد المكارم النبوية :

كانت زينب رضي الله عنها ترى بثاقب نور بصيرتها أن زوجها أبا العاص بن الربيع لن يسلمه عقله وتفكيره إلا إلى خير ، وقد تحققت فراستها المنبعثة من نور الله ، وها هو ذا أبو العاص يعلن إسلامه أمام الملائكة الوثنى القرشي دون خوف أو وجل ، فقد استضاء بنور الله ، واستشعر عظمته في نفسه ، فلم يعد يخشى أحداً إلا الله .

خرج أبو العاص رضي الله عنه مهاجراً وأفكاره تتألق في وجدانه ، إنه قد اعتنق الإسلام بعد تدبر وتأمل وتفكير ، اعتنقه بمحض إرادته وحرية بعد أن طرح عن كاهله ما ورثه من سخافات الجاهلية البغيضة .

وبلغ أبو العاص المدينة المنورة ، فاتجه إلى بيوت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستقبله المسلمون بالترحاب ، استقبلوه استقبال المهاجرين إلى الله عز وجل ، فقد كانت هجرته إلى الله ورسوله .

كانت زينب رضي الله عنها أكثر الناس سروراً بعودة أبي العاص بن الربيع إلى الإيمان وإلى المدينة المنورة ، وإلى دوحة المؤمنين ، وأصبح من الراشدين ، وكانت عودة أبي العاص مهاجراً في المحرم سنة سبع من الهجرة ، فردّ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم زوجته زينب بذاك النكاح الأول .

أخرج أصحاب السنن وغيرهم عن ابن عباس رضي الله عنهما : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ردّ ابنته إلى أبي العاص بعد سنين بنكاحها الأول ، ولم يحدث صداقاً » ^(١) .

كان أبو العاص معدوداً في رجالات قومه ثراءً وتجارة وأمانة ، وشهامة ،

(١) أخرجه أبو داود برقم (٢٢٤٠) ، والترمذي برقم (١١٤٣) .

ومروءةً وصدقًا وإخلاصًا ، أصهر النبي ﷺ قبل البعثة ، واختارته خديجة لابنتها زوجًا ، ورضيه النبي ﷺ له صهرًا ، فكان من أكرم الناس وفاءً في عشرته الزوجية ، وتقديرًا لهذا الإصهار الأكرم ، وكان النبي ﷺ يثني عليه في مصاهرته كما روي في الصحيح .

فالحبيب المصطفى ﷺ بسط يد مكارمه لهذا الرجل الذي كان صاحبه وصفه قبل البعثة ، وفتح طريق الهداية بعد بعثته ، فوفى له وفاءً بوفاء ، وبوأه منه منزلة المصاهرة ، وهي منزلة لا تكون إلا بين متصافيين ، ووقف منه موقف حفظ عليه كرامته بين قومه ، وأقر جوار ابنته له حتى يطمئن وهو متطلع إلى ردِّ ما أخذ منه ليرده على أصحابه .

«لهم دار السلام» :

اجتمع شملُ زينب وأبي العاص بعد أن كان ممزقًا ، وكاد أن يتلاشى ، لولا أن تدارك الله أبا العاص برحمته ، وتلاقى الزوجان المؤمنان الحبيبان بعد فراق طال قرابة ست سنين عددًا .

وفي كنف رسول الله ﷺ عاشت زينب وزوجها ينهلان من أدب النبوة ومن معينها الصافي ، وراح أبو العاص يحضر مع رسول الله ﷺ الصلاة في المسجد النبوي الشريف ، ويتدارك ما فاتته من المعرفة في الأيام الخالية .

أما زينب عليها سحائب الرضوان فقد لازمها المرض ، وسكنت الآلام في أحشائها ، ومضت بضعة أعوام وزينب تعاني المرض ، ولكنها كانت سعيدة بخروج زوجها من الظلمات إلى النور إلى صراط العزيز الحميد .

أطلت السنة الثامنة^(١) من الهجرة على المدينة المنورة ، فإذا بزینب بنت

(١) سير أعلام النبلاء (٢/٢٥٠) ، وتاريخ الطبري (٩٢/١٤٤) ، والمواهب اللدنية (٢/٦٠) .

رسول الله ﷺ تودع هذه الدنيا لتنتقل إلى دار السلام عند ملك مقتدر ، وهي متأثرة بعلتها التي لزمها منذ أيام هجرتها إلى المدينة المنورة .

توفيت زينب رضي الله عنها أول سنة ثمان للهجرة ، وتركت في نفس زوجها جرحًا غائرًا لفراقها ؛ إذ كان اللقاء عامًا أو أكثر بعد إسلام أبي العاص ، ولكنه مليء بالخيرات .

دوى في المدينة المنورة خبر وفاة زينب بنت رسول الله ﷺ ، فجاء الناس حتى يشيعوها إلى مثاها الأخير .

وجاءت الصحابية الكريمة أم عطية الأنصارية لتقوم بواجبها تجاه زينب رضي الله عنها ، وتروي أم عطية توجيه الرسول ﷺ في كيفية غسل زينب ، تقول أم عطية : لما ماتت زينب بنت رسول الله ﷺ قال : «اغسلنها وترًا ثلاثًا أو خمسًا ، واجعلن في الآخرة كافرًا أو شيئًا من كافر ، فإذا غسلتها فأعلممني» ، فلما غسلناها أعطانا حقوه - إزاره - فقال : «أشعرنها إياه» ^(١) .

وروت أم عطية رضي الله عنها قالت : لما غسلنا بنت رسول الله ﷺ قال لنا رسول الله ﷺ ونحن نغسلها : «ابدؤوا بميامنها ومواضع الوضوء» ^(٢) .

وصلى عليها رسول الله ﷺ في مسجده ، ثم شيعها إلى مثاها الأخير في البقيع .

وقد ذكر ابن الأثير رحمته الله : «نزل رسول الله ﷺ في قبرها وهو مهموم ومحزون ، فلما خرج سري عنه ، وقال : «كنت ذكرت زينب وضعفها ، فسألت

(١) أخرجه البخاري في الجنائز ، باب غسل الميت برقم (١٢٥٤ ، ١٢٥٨ ، ١٢٦٠) .

(٢) انظر : السمط الثمين (ص ١٨٧) .

الله تعالى أن يخفف عنها ضيق القبر وغمه ، ففعل وهوّن عليها» .

عاش أبو العاص ﷺ أربعة أعوام بعد زينب ﷺ ، حيث توفي في خلافة سيدنا أبي بكر الصديق في ذي الحجة من السنة الثانية عشرة من الهجرة النبوية .
هذه شذرات مباركة ووقفات ندية شذية من سيرة زينب بنت رسول الله ﷺ ، أرجو أن أكون قد وفقت في الحديث عنها ؛ إذ إنها أولى حبات العقد النبوي من البنات الطاهرات .

رضي الله عن أمنا زينب بنت رسول الله ﷺ ، وزوجها أبي العاص بن الربيع ، وأدخلنا الجنة وإياهما بمعية الهادي الشفيع .
ورزقنا الخلق الرفيع ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله والأصحاب الطيبين الطاهرين .



زينب بنت عليّ

عقيلة بني هاشم رضي الله عنها

ابنةُ فاطمة الزهراء رضي الله عنها .

رضعت أفويق البلاغة ، وتغذت على رحيق الفصاحة .

شهدت مصرع أخيها الحسين بن علي بين الأسنة والرماح .

شُجاعة ، رابطة الجأش ، خطيبة ، فصيحة بليغة ، ولها مكانة مرموقة .

زينب بنت علي

عقيلة بني هاشم

من الذرية الطاهرة :

فتاةٌ عرفها المجد منذ أن رأت عيناها نور الشمس ، وعرفت هي المجد منذ أن وعت مكانتها من الذرية الطاهرة ، والنسب الزكي الذي ثبت أصله ، وزكا فرعه ، وحسنت غصونه ، وازدانت أوراقه ، وطابت ثماره .

هذه الابنة الكريمة من تلك الشجرة النبوية الطاهرة التي لا تشبهها شجرة في هذا الوجود ، وابنة هذه الصفحات غصن رطيبٌ من تلكم الشجرة المباركة ، الندية المنداة بنفح الطيب ، وبرحيق النبوة ، وأريج النسب العريق المعرق .

إنها تحدرت من أصل زكي أصلاً وفرعاً بل هي :

من معشر حُبهم دين وبغضهم كفر وقربهم منجى ومُعتصم
 إن عُد أهل التقى كانوا أئمتهم أو قيل من خير أهل الأرض؟ قيل هم

وهي من دوحة مورقة فينانة ، قد وصل أهلها النهار بليله في طاعة ،
 وصلاتهم موصولة بصيام ، كحلت مُقلُّهم بتقوى الله ، فهم كما خاطبهم أيمنُ
 بن خزيم الأسدي مشيراً إلى صفاتهم وتعبدهم :

نهاركم مكابدةٌ وصوم وليلكم صلاة واقتراء^(١)

والآن دعونا نقرب بهدوء وجلال كيما نتعرف هوية ابنة الصحابي هذه الطاهرة التي تُندي القلوب بالحديث عنها ، ونجلو النفوس في قراءة أخبارها ،

(١) الأغاني (٢٠/٣٢٤) ، «اقتراء» : قراءة .

ونمتع الأسماع بمكارم فضائلها ، وفضائل مكارمها :

فهي بدر بلا خسوف وشمس دون كسفٍ والبضعة الزهراء
إذا فضيفة هذه الصفحات من بنات البيت النبوي الطاهرات ، ذلك البيت
المتفرد في الدنيا بجميع المحامد والمكارم ، وآل ذلك البيت جاء مدحهم في
الكتاب المبين ، نعم أحبائي الكرام ، ومن يوفي كمال من اغترفوا من المعين
النبوي حقهم أو شيئاً من ذلك ؟

لا يُضاهي آل النبي وصيف لا يوفي كمالهم أدباً
شرفت منهم النفوس وساروا حيثما أشرفوا منهم شرفاء
فمن هذه إذاً التي يطيب الحديث عنها في هذه الصفحات المباركات ؟ إنها
التي امتدحها أحدهم بقوله :

وزينب وردة الزهراء بنت علي أخت الحسين لها بين الوري شأن
قالت لنا بلسان الشكر واصفة نسل الرسول الذي حياهُ قرآن
الله أكبر إننا نعيش إذاً في ظلال سبطة رسول الله ﷺ ، وابنة ابنته فاطمة
الزهراء سيدة نساء العالمين ، وإحدى نساء أهل البيت الذي أذهب الله عنه
الرجس ، وطهره تطهيراً ، نعيش مع زينب بنت علي بن أبي طالب ، الهاشمية ،
القرشية ، المدنية ، أشهر بنات الصحابة اللاتي برزن في تواريخ النساء بكل
فضيلة ومكرمة .

زينب وكرم الأعراق :

إذا قلنا : إن زينب ابنة علي ؑ من أعلى بنات الصحابة أصلاً ، وحسباً ،
ونسباً ، فلن نبالغ في ذلك ؛ إذ إن عراقتها في بنات الصحابة واضحة وضوح
البدر في ليلة تمامه ، بل إن المكارم تحيطُ بها إحاطة السوار بالمعصم .

فلقد ولدت زينب عليها السلام في المدينة المنورة سنة خمس من الهجرة النبوية ، وهي أكبر بنات علي من زوجه فاطمة الزهراء رضي الله عنهم جميعاً ، وولد معها نصيبها من شرف المحامد ، وفتحت عينيها على الشرف الوافي الذي ترعرعت بين أزاهره ، وتربت على أندائه .

فهذا جدُّها : ومن كجدها سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله ؟

فهو الرسولُ الخاتم ، والنبيُ المفخَّم ، سيّدُ العرب والعجم ، رأسُ البيت النبوي ، ورأسُ كل فضل وفضيلة وشرف ، و

فانسُب إلى ذاته ما شئت من شرفٍ وانسب إلى ذاته ما شئت من عظم
فإن فضل رسول الله ليس له حد فيعرب عنه ناطق بقم
نعم إن جدها :

نبي كريم رؤوف رحيم بنص الكتاب وحكم العُقُول
إمام الهدى المجتبي المصطفى بأزكى شهيدٍ وأهدى دليلٍ
به أظهر الله دين الهدى وعلم كيف سواء السبيل

وأبوها : فارسُ الفتیان ، وفتى الفرسان ، منزلتهُ في عالم الشجعان لا تخفى
على كل ذي لبٍّ وجنان ، آمن برسول الرحمن ، ولما يبلغ مبلغ السُّبَّان ، وهو
فوق هذا وذاك ابنُ عم رسول الله صلى الله عليه وآله وصهره ، وحبيبه ، وأبو سبطيه
أبو الحسين بل فارسه وسيفه .

وإن عليًّا كان سيف رُسوله وصاحبه السامي لمجد مشيد
وصهرُ النبي المجتبي وابن عمه أبو الحسين المحتوى كل سُودد
وأقربهم للحق فيها كلهم أولو الحقِّ لكن كان أقرب مهتدي

وهو الخليفة الراشد الرابع ، ذو الفضل بالإجماع بلا مدافعة ولا ممانعة ، صاحب القدر الرفيع أمير المؤمنين رضي الله عنه وأرضاه ، ولله در الناظم حيث أنشد في الخلفاء الراشدين ، ثم ذكر عليًّا فقال :

والرابع ابن عم خير الرُّسل أعني الإمام الحق ذا القدر العلي
من كان للرسول في مكان هارون من موسى بلا نكران

وعمها : جعفر بن أبي طالب ذو الجناحين ، الكريم الجواد السخي المعطاء ، أشبه الرجال بأعلى الناس قدرًا وخيرهم أجمعين النبي ﷺ الذي قال له : «أشبهت خَلْقِي وَخُلُقِي» ، وجعفر هذا ذلك الصحابي البليغ الخطيب الذي تكلم بالبيان الإلهي أمام النجاشي في أرض الحبشة :

راعاه جعفر بقول مبین فرأى الحق واضحًا واليقينا

واهتدى قلب النجاشي وأثر دين الحق ، ودين الصدق ، فهذا خاتم الأنبياء والمرسلين وهؤلاء أتباعه إذًا فليقل النجاشي أمام جعفر :

رب إني آمنْتُ فاغفر ذُنُوبي واهدني في عبادك المؤمنين

وأما عمُّ أبيها فحمزة بن عبد المطلب : فهو ليثُ الله ، وليثُ رسوله ، وسيد الشهداء ، وأخو رسول الله ﷺ من الرضاعة :

ففاض وأضحى سيد الشهداء في ملائكة الرحمن يسعى ويغتدي

وزاد إلى فضل العمومة أنه أخوه رضاعًا هكذا المجد فاشهدي

وأما عمُّ أبيها الآخر فالعباس : وهل يخفى فضل العباس على أحدٍ ؟ فهو عمُّ النبي ﷺ وصنوُّ أبيه :

فقد بلغ العباسُ في المجد رتبة تقول لبدر التم قصرت فابعد

وقال رسول الله فيه على ما عليه وأيضًا مثله في التزيد

ألا إن عم المرء صنو أبيه كي يزيدهم في بره المتأيد
وأما أخواها الشقيقان : فهما الحبيان الأثيران لحبيبتنا محمد عليه السلام ، فهما الحسن
والحسين عليهما السلام .

فالحسن بن علي الإمام السيد ريحانة الرسول عليه السلام وسبطه ، وسيد شباب
أهل الجنة ، وشبيه جده الرسول عليه السلام .

والحسين الإمام الشريف الكامل ، سبط رسول الله ، وريحانته من الدنيا ،
ومحبوبه ، والحسن والحسين :

هما قرتا عين الرسول وسيدا شباب الورى في جنة وتخلد
وقال :

هما قرتا عين الرسول ريحانتان أحب من أحبهما فأصدقهما الحب تسعد
هما اقتسما شبه الرسول تعادلا وماذا عسى يحصيه فيه تعددي

وأما زوجها : فهو الجواد عبد الله بن جعفر الصحابي ابن الصحابي ابن
الصحابية ، وهو السيد العالم أبو جعفر القرشي الهاشمي ، له صحبة ورواية ،
وهو أحد الأجواد المعدودين في دنيا الجود وعالم البذل والسخاء والعطاء ،
وهو حاتم الأجواد وخاتم الكرماء :

فهي تهرب الأموال من جود كفه كما يهرب الشيطان من ليلة القدر
ذلك نسب زينب من جهة الرجال ، أما طيب عنصرها من جهة النساء فلم
يكن أقل من الرجال ، حيث جمعت الشرف من أطرافه .

فجدتها لأمها : إحدى كوامل النساء في دنيا الكمال ، وأول من نطق
بالشهادتين ، وهي الطاهرة في الجاهلية والإسلام ، صديقة المؤمنات ووزيرة

الصدق لإمام الصادقين ، أمنا وسيدتنا وواسطة العقد الفريد في نساء أهل البيت ، خديجة بنت خويلد عليها سحائب الرضوان .

وجدها من جهة أبيها : من السابقات في مواكب الفضيلة ، ورياض المكارم ، فهي أول هاشمية تزوجت هاشمياً ، وأول هاشمية ولدت هاشمياً ، وولدت خليفة ، وأول هاشمية حظيت بكفالة النبي ﷺ ، إذ كانت من بعد أمه أمًا ، وهي مع هذا وذاك من المهاجرات الأول ، ومن عالمات الهاشميات ، روت عن النبي ﷺ (٤٦) حديثاً ، إنها فاطمة بنت أسد الهاشمية القرشية رضي الله عنها وأرضاها .

أما أم زينب : سيدتنا فاطمة الزهراء أفضل الناس بعد أبيها ﷺ ، وسيدة نساء أهل الجنة ، وابنة سيدة من سيدات نساء العالمين ، بل ابنة رسول رب العالمين ، وخاتم الأنبياء والمرسلين ، أشهر بنات الدنيا على الإطلاق ، وأطهر الطاهرات ، وأم الذرية الطاهرة ، ومن ترشح عنها الفضائل ، ونستلهم من مسيرتها المحاسن والمكارم ؛ إذ سيرتها عطر المجالس وأنس المجالس ، وروح وريحان لكل إنسان رضي الله عنها وأرضاها .

وخالتها : زينب بنت رسول الله ﷺ ، أولى بنات النبي ﷺ وأكبرهن ، ثم رقية وأم كلثوم زوجا عثمان بن عفان ؓ .

وهؤلاء البنات الطاهرات كن مع أمهن الطاهرة خديجة أول من استجاب للإسلام ، فهي أول نساء الدنيا إسلاماً وإيماناً برسالة النبي ﷺ .

وحماؤها : من أوائل النساء اللاتي تحلقن حول مائدة الحق ، ونطقن بالشهادتين ، وأمنَّ مع السابقين والسابقات ، وهي مهاجرة الهجرتين ، ومصلية القبلتين ، زوج السيد الشهيد علم المجاهدين جعفر بن أبي طالب ،

إنها أسماء بنت عميس الخثعمية ، إحدى الأخوات المؤمنات ، اللواتي حظين بهذه الشهادة ذات الرحيق المختوم من النبي المعصوم ﷺ ، عندما قال عنها وعن أخواتها : «إن الأخوات لمؤمنات»^(١) ، وهي مع هذا وذاك أكرم الناس أصهاراً ، فمن أصهارها : رسول الله ﷺ وحمزة والعباس ﷺ ، وحسبك بهؤلاء الكرام فضلاً ورفعة .

وهكذا عرفنا كرم أعراق زينب بنت علي ﷺ ، وأن أهلها أسياد الأسياد ، وسادات السادات ، فلهذا در أهل هذا البيت :

حبُّ آل النبي خالط عظمي وجرى في مفاصلي فاعذروني
أنا والله مُغرم بهواهم عللوني بذكرهم عللوني
فمن يعدل بأهل هذا البيت ؟
فلا تعدل بأهل البيت خلقاً فأهل البيت هم أهل السيادة
زينب في أحضان الزهراء :

في تلكم البيئة الطاهرة المطهرة نشأت زينب ابنة علي ﷺ ، وهي تملأ وجدانها من نفحات البيت الطاهر المضمخ بالأريج النبوي ، والفواح بأزاهر التقوى من أمها الزهراء ، سيدة النساء التي رأت فيها مجمع كل فضيلة .

وكانت سيدتنا فاطمة الزهراء تتدفق بكل ألوان العطف والرحمة على ابنتها زينب ؛ لتكون على نهجها ونهج جدتها خديجة بنت خويلد ، الصديقة المتفردة بين نساء الأنبياء بأنها زوجة خاتمهم ، وسيدة نساء العالمين ، وأول أمهات المؤمنين وأولاهن بقلب النبي ﷺ .

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٨/ ٢٧٨) .

وكانت فاطمة الزهراء كثيراً ما تضيء على جلستها مع ابنتها زينب جمال الحديث عن سيدة الطاهرات خديجة ، وكانت زينب تستمع وتستمتع بسيرة جدتها التي تزددان بها المجالس ، ولعلها ذكرت كلماتها الشهيرة يوم نزل الروح الأمين جبريل على النبي ﷺ وقالت له : «إنك لتصدق الحديث ، وتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، وتؤدي الأمانة»^(١) .

وكانت زينب ابنة الزهراء تصغي إلى أحاديث أمها العذاب ، وهي تحكي لها عن العذاب الذي لقيته الأسرة المحمدية من العصبة القرشية المشركة ، وكيف كانت تصد عن سبيل الله بكل سبيل ، ولكن الله متم نوره ولو كره المشركون . ولعل الزهراء قد مرت بأقسام أحاديثها على قصة الهجرة وربما ذكرت لها فدائية والدها علي بن أبي طالب ونومه في فراش النبي ﷺ في تلك الليلة الشهيرة في عالم الليالي التي غيرت وجه التاريخ ، بل بدأ التاريخ حياته من يوم الهجرة .

ويبدو لي أن الزهراء ﷺ كانت تغرس في نفس صغيرتها ألوان التربية الفاضلة وألوان المعرفة ، وإن كانت ما تزال عُصناً رطيباً متفتح الزهر ، لم تظهر ثماره بعد ، إلا أن زينب كانت تستنشق تلك الهمسات اللطيفة التي تستروحها من أمها الرؤوم .

زواجها وأولادها :

عندما بلغت زينب رضوان الله عليها مبلغ النساء توافد عليه القوم من

(١) قطعة من حديث طويل في الصحيح ، إذ أخرجه البخاري برقم (٣) ، ورقم (٣٣٩٢) ،

قريش يتقدمون لخطبتها ، وذلك ليحظوا بالنسب والحسب ، ولكن أباهما قد اختار لها ابن أخيه عبد الله بن جعفر ، وكان عبد الله جوادًا كريماً ميمون النقيبة حظي بدعوة مباركة من النبي ﷺ حينما قال له : « اللهم بارك له في تجارته » ، وهو آخر من رأى رسول الله ﷺ من بني هاشم ، ومناقب عبد الله كثيرة لا تحصى ، وأنباء جوده تندي الأرواح والقلوب ، كما تعطر الأسماع ، وتزيد الأوراق ، وكيف لا ؟ وأبوه جعفر أحد الأجواد المعدودين ، وأحد الأسخياء المجودين ؟

وتزوج عبد الله بن جعفر زينب بنت علي ، وعاشت في كنفه مرعية الجانب ، موفورة المكانة ، فقد كان عبد الله يعرف قدر ذرة البيت الهاشمي في عصرها « زينب بنت علي » ، فقد كانت صافية السريرة ، نقية الروح ، موصولة القلب بالله ، كبيرة الشأن ، سادت أقرانها بالشمائل الكريمة كما أن زوجها عبد الله بن جعفر أحد الأعلام الكبار ، إذ يُعد من صغار الصحابة ، ومن نهل من الأنداء المحمدية حيث عاش في كنف الحبيب المصطفى ﷺ بعد استشهاد أبيه في سرية مؤتة ، وناهيك بها حياة كريمة مباركة في ظلال الأفياء النبوية ، والبيت النبوي الكريم .

وقد بارك الله هذا الزواج بين الأسرة الجعفرية والأسرة العلية ، فولدت زينب لعبد الله بضعة ذكور هم : علي ، وعون الأكبر ، وعباس ، ومحمد ، كما أنها أنجبت له ابنة واحدة تدعى أم كلثوم بنت عبد الله بن جعفر ^(١) .

وعاش هؤلاء الأولاد في كنف هذين الأبوين الكريمين ، ونهلوا ما شاء الله

(١) طبقات ابن سعد (٨/ ٤٦٥) ، وأسد الغابة (٦/ ١٣٣) ، وتاريخ مدينة دمشق «تراجم

النساء» (ص ١٢١) ، والدر المنثور (ص ٢٣٣) .

منها ، فغدوا من رواية الحديث النبوي الشريف ، وكذلك نهلوا من علوم القرآن .

زينب في رحاب خلافة أبيها :

كان شطر حياة زينب الأول في المدينة المنورة حيث كانت تحظى بمكانة سامقة باسقة ، وكان لزوجها عبد الله بن جعفر مكانة عظيمة عند الخلفاء الراشدين أبي بكر ، وعمر ، وعثمان رضي الله عنهم ، وكان لآل علي موقف طيب عند حصار عثمان بن عفان رضي الله عنه .

ففي أواخر سنة خمس وثلاثين من الهجرة حاصر جماعة من المصريين عثمان رضي الله عنه ، نحو شهرين وعشرين يوماً ، ثم اقتحم منزله أراذل من أوباش القبائل فقتلوه ، وكان عليٌّ قد أرسل ابنه الحسن إلى عثمان ، وقال : إن شئت أتيتك للنصر ، ولكن عثمان قُتل فكان شهيداً سيداً كما جاء في الصحيح ^(١) .

ورثاه شاعر الرسول حسان بن ثابت ببضع قصائد ، ومن روائع مراثيه فيه قوله يخاطب قتلته بأبيات منها :

قتلتم وليَّ الله في جوف داره وجئتم بأمر جائر غير مُهتد
فلا ظفرت أيمان قوم تباعوا على قتل عثمان الرشيد المسدد ^(٢)

وحزنت زينب بنت عليٍّ على ذي النورين ، فهو سلف أبيها وزوج خالتيها رقية وأم كلثوم ابنتي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة وأحد الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه .

وبايع المسلمون أباهما علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، ولكنه غادر المدينة وتوجّه إلى

(١) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة برقم (٣٦٩٩) ، وأبو داود (٤٦٥١) .

(٢) انظر في هذا سير أعلام النبلاء (٣/٤٦٠) .

الكوفة في أرض العراق واصطحب معه أسرته وأقرباءه ، ومنهم ابنته زينب ، ومعها زوجها الجواد ابن الجواد عبد الله بن جعفر الذي حلق في ميدان الفروسية يوم صفين حيث كان أميراً على قريش وأسد وكنانة يومذاك .

زينب ومقتل أبيها ووصيته :

ظل علي بن أبي طالب ﷺ قرابة نصف عقد من الزمن في العراق ، ولكنه لم تستقم له الأمور تمامًا ؛ إذ خالفه أهلها وخذلوه ، وتحلوا عنه مع علمهم بمناقبه التي لا تُعد ومن أكبرها : زواجه من البتول الزهراء ، وحمله اللواء في أكثر الغزوات ، وأنه شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ومُحَمَّدت مواقفه بل فضل علي خالد بن الوليد ﷺ في الشجاعة ؛ لأن شجاعة خالد فارسًا ، وشجاعة علي فارسًا ، وراجلاً ، وفضائله يعز حصرها .

وكل مناقب الخيرات فيه وحبُّ رسول ربِّ العالمينا ومع هذا وذلك طالته يدُ الغدر ، فقتل شهيدًا يوم الجمعة في السابع عشر من رمضان سنة أربعين من الهجرة ، وصلى عليه ابنه الحسن ، ودفن في الكوفة بقصر الإمارة وغُيِّبَ قبره .

وتروي المصادر أنه لما حضرته الوفاة أوصى أولاده وصية جامعة ، ومن أزهرا تلكم الوصية الرائعة الجميلة نقتطف بعض رياحينها كي نشمَّ عيبرها ونستضيء بما جاء فيها من روائع ؛ إذ هي من أجمل الوصايا في عالم الوصايا ومن هذه الوصية قوله :

«بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أوصى به علي بن أبي طالب ، أوصى أنه يشهد أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدًا عبدهُ ورسوله ، أرسله

بألهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون»^(١) .

ثم يوصي ابنه الحسن وسائر أولاده بالتقوى وصلة الرحم ، والتواصل والمكارم ، فيقول ما ملخصه : «ثم أوصيك يا حسن وجميع ولدي وأهلي بتقوى الله ربكم ، ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ، انظروا إلى ذوي أرحامكم فصلوها يهون الله عليكم الحساب ، الله الله في الأيتام ، والله الله في جيرانكم ، الله الله في القرآن ، الله الله في الصلاة ، الله الله في أصحاب نبيكم ، فإن رسول الله ﷺ أوصى بهم ، وقولوا للناس حسناً كما أمركم الله ، ولا تتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وعليكم بالتواصل والتبادل ، وإياكم والتدابير والتقاطع والتفرق ، حفظكم الله من أهل بيت وحفظ فيكم نبيكم ، أستودعكم الله ، وأقرأ عليكم السلام ورحمة الله»^(٢) .

ثم إنه أخذ يكثر من قول لا إله إلا الله حتى قبض وغسله ابنه الحسن والحسين وصهره عبد الله بن جعفر ، ثم دفن بالكوفة رضي الله عنه وأرضاه .
وأصيبت زينب بأبيها كما أصيب المسلمون به جميعاً ، وكان استشهاده أليماً على الدنيا بأسرها ، وصبرت زينب صبراً جميلاً ، وإن حفرت حادثة مقتل أبيها أخاديد في أعماقها ، وتركت آثاراً صعبة بين ضلوعها وحناياها .

ويبدو أن زينب قد عادت مع أخويها وأهلها وزوجها إلى المدينة المنورة لتتابع من هناك رحلة الحياة ، وتشهد أحداثاً من أبرزها وفاة أخيها الحسن في

(١) انظر : تاريخ الطبري (٥/١٤٧، ١٤٨) ، والبداية والنهاية (٧/٣٢٨، ٣٢٩) ، مع الجمع والاختصار .

(٢) انظر : تاريخ الطبري (٥/١٤٧، ١٤٨) ، والبداية والنهاية (٧/٣٢٨، ٣٢٩) ، مع الجمع والاختصار .

سنة (٤٩ هـ) ، وعمره إذ ذاك سبعة وأربعون عامًا ، وحزنت زينب علي وفاة أخيها سيد شباب أهل الجنة وسبط رسول الله صلى الله عليه وآله وريحانته وأحد الذرية الطاهرة .

ودفن الحسن في المدينة المنورة في بقيع الغرقد ، دُفن إلى جنب أمه فاطمة الزهراء عليها السلام (١) .

زينب ومقتل أخيها الحسين :

ها هي الأيام تسير في قوافل الزمن فيطوي الزمن السنين ، ولكنه لم يستطع أن يطوي الأحداث من ذاكرته هو ، ومن ذاكرة الناس ، وخصوصًا من ذاكرة زينب بنت علي عليها السلام .

وفي رحلة المواقف الخطيرة ظهر معدن زينب الأصيل ، وكانت كما وصفها ابن الأثير بقوله : كانت زينب امرأة عاقلة لبيبة (٢) .

وظهرت زينب بهذه الصفات كلها في ذلك الموقف الحرج في يوم كربلاء ، يوم أن قُتل أخوها الحسين وعدد كبير من أهلها في سنة إحدى وستين من الهجرة في العراق .

ففي تلك الأيام كان مع الحسين عدد من نساء البيت الهاشمي وهن : زينب أخته الشقيقة وأخته الأخرى فاطمة بنت علي ، وكذلك ابنتاه : فاطمة ، وسكينة ، وزوجه الرباب بنت امرئ القيس الكلبية وهي أم ابنته سُكينة ، وكان معه كذلك أم محمد بنت الحسن بن علي وإماء هن كن في صحبتهن (٣) .

(١) نهاية الأرب (٢٠/٣٢٢) .

(٢) أسد الغابة (٦/١٣٣) ، ترجمة رقم (٦٩٦١) .

(٣) سير أعلام النبلاء (٣/٣٠٣) .

ويظهر أن زينب كانت بقرب أخيها الحسين ليلة قُتل ، وكان أصحاب الحسين يتكلمون بكلام يشبه بعضه بعضاً في وجه واحد ، وقالوا للحسين : والله لا نفارقك ، ولكن أنفسنا لك الفداء ونقيك بنحورنا وجباهنا وأيدينا وأبداننا ، فإذا نحن قتلنا وفينا وقضينا ما علينا ^(١) .

ويبدو أن زين العابدين واسمه عليُّ بن الحسين كان على مقربة من عمته زينب في كربلاء في تلك العشية ، وكان مريضاً تُشرف عليه ، ويروي لنا ما دار بين الأخوين : الحسين وأخته زينب فيقول :

إني لجالس تلك العشية التي قُتل أبي في صحبتها وعمتي زينب تمرضني ؛ إذ اعتزل أبي في خباء له وعندي حوى مولى أبي ذر ، وهو يعالج سيفه ويصلحه وأبي يقول :

يا دهر أف لك من خليل كم لك بالإشراق والأصيل
من صاحب أو طالب قتيل والدهر لا يقنع بالقليل
وإنما الأمر إلى الجليل وكل حي سالك السبيل

فأعاد ذلك مرتين أو ثلاثاً ، فلما سمعته زينب لم تملك نفسها أن وثبت تجرُّ ثوبها ، وإنها لحاسرةٌ حتى انتهت إليه فقالت : وا ثكلاه ليت الموت أعدمني الحياة اليوم ، ماتت فاطمة أُمي ، وعلي أبي ، وحسن أخي ، يا خليفة الماضي وثمان الباقي .

فنظر إليها أبي وقال لها : يا أختي زينب لا يُذهبن حلمك الشيطان ، قالت زينب وعبرات الأسي تترقرق في مآقيها : بأبي وأمي أنت نفسي فداؤك يا أخي .
فردد غصته وترقرقت عيناه ، ثم قال متمثلاً : لو تُرك القطا ليلاً لنا ، هذا

(١) انظر : نهاية الأرب (٢٠ / ٤٣٥) .

عجز بيت شهير لحذاء ابنة الريان تقول :

ألا يا قومنا ارحلوا وسيروا فلو تُرك القطا ليلاً لنا ما

فقلت زينب والجزع بادِ علي وجهها : يا ويلتا أفتغتصب نفسك اغتصاباً ؟

فذلك أقرح «أي أجرح» لقلبي وأشد على نفسي ، ثم خرت مغشياً عليها .

فقام إليها والدي الحسين وصب عليها الماء ، فأفاقت وأوصاها قائلاً : يا

أخية اتقي الله ، وتعزي بعزاء الله ، واعلمي أن أهل الأرض يموتون ، وأن

أهل السماء لا يبقون ، وأن كل شيء هالك إلا وجه الذي خلق الأرض بقدرته ،

ويبعث الخلق فيعودون وهو فرد وحده ، وأبي خير مني ، وأمي خير مني ،

وأخي خير مني ، ولي ولهم ولكل مسلم أسوة برسول الله صلى الله عليه وآله .

وعزاها بهذا ونحوه ، ثم قال موجهًا ناصحًا ومشفقًا : يا أخية وإني أقسم

عليك فأبري قسمي .

قالت : وما هو يا أخي ؟

قال : أقسم عليك ألا تشقي علي جيبًا ولا تحمشي علي وجهًا ، ولا تدعي

عليّ بالويل والثبور إذا أنا هلكت ^(١) .

وقام الحسين وأهله وأصحابه تلك الليلة وهم يصلون ويستغفرون

ويدعون ويتضرعون .

وفي اليوم التالي كانت الفاجعة الكبرى فقتل الحسين رضوان الله عليه ،

وكتب في عداد الشهداء بعد أن وُجد في جسده ثلاث وثلاثون طعنة ، وأربع

(١) نهاية الأرب (٢٠/٤٣٦، ٤٣٧) ، والكامل لابن الأثير (٤/٥٩) .

وثلاثون ضربة غير الرمية (١) .

وشهدت زينب مصرع أخيها الحسين بين الأسنة والرماح ، كما شهدت مصرع سبعة عشر رجلاً كلهم من أولاد فاطمة الزهراء عليها السلام (٢) .

شجاعته ورباطة جأشها :

بعد مصرع الحسين رضوان الله عليه ، وبُعِيدَ تَلْكُمْ الموقعة المفجعة أذن مؤذن عمر بن سعد بالرحيل إلى الكوفة ، ثم إنه حمل معه بنات الحسين وأخواته ، ومن كان معه من الصبيان ، وكان بينهم عليُّ بن الحسين يعاني المرض ويكابد الآلام .

واجتاز الركب على الحسين وأصحابه صرعى فوق أرض كربلاء ، فصاح إذ ذاك النساءُ صيحة عظيمة ، ولطمن خدودهن ، وصاحت زينب أخته باكية : يا محمداه ، صلى عليك ملائكة السماء ، هذا الحسين بالعراء ، مُرْمَلٌ بالدماء ، مقطوع الأعضاء يا محمداه ، وبناتك سبايا وذريتك مقتلة تسفي عليها الصبا (٣) ، فأبكت كل عدو وصديق .

وتحكي المصادر : أن آل الحسين وأخواته أُدخلوا على عُبيد الله بن زياد ، فلبست زينب أردل ثيابها ، وتنكرت ، وحف بها إمامها ، فلما دخلت جلست فقال عُبيد الله : من هذه الجالسة ؟ فلم تكلمه حتى قال ذلك ثلاثاً ، وهي كل ذلك لا تكلمه .

(١) نهاية الأرب (٢٠/٤٦٠) .

(٢) البداية والنهاية (٨/١٩٤) .

(٣) نهاية الأرب (٢٠/٤٦٤، ٤٦٥) .

فقال بعض إمائها : هذه زينب بنت فاطمة الزهراء .

فقال لها ابن زياد : الحمد لله الذي فضحككم وقتلكم ، وأكذب أحدوثكم .

فقالت : الحمد لله الذي أكرمنا بمحمد ﷺ ، وطهرنا تطهيرًا لا كما تقول إنها يفتضح الفاسق ويكذب الفاجر .

قال : فكيف رأيت صنع الله بأهل بيتك ؟

قالت : كتب عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم ، وسيجمع الله بينك وبينهم ، فتحاجون إليه وتخاصمون عنده .

فغضب ابن زياد ثم قال لها : قد شفى الله نفسي من طاغيتك ، والعصاة المردة من أهل بيتك .

فبكت ثم قالت : لعمرى لقد قتلت كهلي ، وأبرزت أهلي ، وقطعت فرعي ، فإن يشفك هذا فقد اشتفيت ، فقال لها عبيد الله بن زياد : هذه شجاعةٌ ، فلعمرى لقد كان أبوك شجاعًا .

قالت : ما للمرأة والشجاعة ؟ إن لي عن الشجاعة لشغلاً^(١) .

ويقول الرواة وأهل الأخبار أيضًا : إن عبيد الله قد نظر إلى علي بن الحسين فقال له : ما اسمك ؟

فقال : أنا عليُّ بن الحسين .

قال : أو لم يقتل الله علي بن الحسين ؟

فسكت ، فقال له ابن زياد : ما لك لا تتكلم ؟

(١) الكامل لابن الأثير (٤/ ٨١، ٨٢) ، والبداية والنهاية (٨/ ١٩٣) ، وتاريخ الطبري (٣/ ٣٣٦، ٣٣٧) .

قال : قد كان لي أخ يُقال له : علي فقتله الناس .

قال : إن الله قتله .

فسكت علي ، فقال : ما لك لا تتكلم ؟

قال : ﴿ اللَّهُ يُتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ [الزمر: ٤٢] ، ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ

أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١٤٢] .

قال : أنت والله منهم ، ثم قال ابن زياد لرجل : اقتله .

فقال علي : من توكل بهؤلاء النسوة ؟

وتعلقت به عمته زينب ، فقالت : يا ابن زياد ، حسبك منا أما رويت من

دمائنا ؟ هل أبقيت منا أحداً ؟ واعتنقت ابن أخيها علياً وقالت : أسألك بالله

إن كنت مؤمناً إن قتلته لما قتلتني معه .

وقال عليٌّ : يا ابن زياد ، إن كان بينك وبينهن قرابة ، فابعث معهن رجلاً

تقياً يصحبهن بصحبة الإسلام .

ثم نظر ابن زياد إلى القوم فقال : يا عجباً للرحم ، والله إنني أظنها - أي

زينب - وددت لو قتلته أني قتلتها معه دعوا الغلام ، انطلق مع نسائك .

زينب أمام يزيد في دمشق :

بعد الحوار الذي كان بين زينب وعبيد الله بن زياد ، تمضي الروايات في

طريقها لتنقلنا إلى دمشق مع زينب ومن معها من آهائها وأقربائها ، وجميعهم

يقفون أمام يزيد بن معاوية في صورة بائسة ، وإذا بفاطمة بنت الحسين تقول

ليزيد متعجبة : أبنت رسول الله سبايا يا يزيد ؟

فقال : يا ابنة أخي أنا لهذا كنت كارها .

فقام رجل من أهل الشام فقال ليزيد : هب لي هذه - يعني فاطمة بنت علي - فأخذت بثياب أختها زينب - وكانت أكبر منها - فقالت زينب : كذبت ولو مت ما ذلك لك ولا له ، أي : ليزيد .

وتقول الرواية : إن يزيد بن معاوية لما سمع ما قالته زينب في حقه انتفض كالعصفور بلله القطر ، وغضب غضباً شديداً ما عليه من مزيد ، وقال لزينب وسورة الغضب تتدفق من كلمته :

كذبت والله ، إن ذلك لي ، ولو شئت أن أفعله لفعلته .

فقالت زينب ليزيد ، وهو في تلك السورة وحمأة الغضب ما تزال تتأجج في صدره : كلا والله ، ما جعل الله ذلك لك إلا أن تخرج من ملتنا وتدين بغير ديننا .

ويقول الراوي : فغضب يزيد واستطار ، ثم قال لزينب والشرر يتطاير من عينيه : إياي تستقبلين بهذا ؟ إنما خرج من الدين أبوك وأخوك ؟ قالت زينب : بدين الله ودين أبي وأخي اهتديت أنت وأبوك وجدك .

قال يزيد : كذبت يا عدوة الله .

قالت زينب : أنت أمير تشتم ظالماً ، وتقهر بسطانك .

قال الراوي وقد غير موجة بحر يزيد الهائج إلى أنسام عطرates تتدفق بالحنان : فاستحيى يزيد وسكت ، ثم إن زينب وأخواتها أخرجن من مجلس يزيد ، وأدخلت دوره ، فلم تبق امرأة من آل يزيد إلا أتتهن ، وأقمن المآثم وسألتهن عما أخذ منهن ، فأضعفنه هن ، وكانت سكينه بنت الحسين تقول : ما

رأيت كافرًا بالله خيرًا من يزيد بن معاوية»^(١).

إكرام يزيد لزینب وأهل البيت :

قال أصحاب التاريخ ومنهم ابن الأثير في «كامله» ما مفاده :

لما أراد يزيد بن معاوية أن يُسير زينب وآل الحسين إلى المدينة المنورة ، أمر الصحابي ابن الصحابي النعمان بن بشير الأنصاري رضي الله عنه ، أن يجهزهم بما يُصلحهم ، ومن ثم يبعث معهم رجلاً أميناً شهماً من أهل الشام في ثلة من الأمناء ، ومعه خيل تسير بهم إلى المدينة المنورة ، ثم إنه دعا علي بن الحسين كيما يودعه ، وكان مما قال له : يا علي كاتبني بأية حاجة تكون لك ، ثم إن يزيد أوصى بهم ذلك الرجل الشامي ، وأن يحسن صحبتهم ويستوصي بهم .

وخرج بهم الشامي فكان يسايرهم ليلاً ، فيكونون أمامه بحيث لا يفوتون عنه طرفة ، وإذا نزل تنحى عنهم هو وأصحابه ، فكانوا حولهم كهيئة الحرس وكان يسائلهم عن حوائجهم ، ويلطف بهم حتى دخلوا المدينة المنورة .

وفي المدينة أحب نسوة أهل الحسين أن يكافئن الرجل الشامي لحسن صحبتته ، فقالت فاطمة بنت علي لأختها زينب : يا أختي ، لقد أحسن هذا الرجل الشامي إلينا في صحبتنا فهل لك أن نصله بشيء ؟

فقالت زينبُ : والله يا أختي ، وما معنا ما نصله به إلا حلينا .

قالت : فنعطيه حلينا فأخرجتا سوارين فبعثتا بهما إليه واعتذرتا فردَّ الجميع وقال : لو كان الذي صنعه للعنينا لكان في هذا ما يُرضيني ، ولكن والله ما

(١) انظر : نهاية الأرب (٢٠/٤٦٩ ، ٤٧٠) ، بتصرف يسير .

فعلته إلا الله عليه السلام ولقرابتكم من رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) .

زينب في المدينة المنورة :

مكثت زينب في المدينة المنورة بعد أن خلّفت في كربلاء شقيقها وפלذة كبدها ، حيث قُتل ولداها : عون ومحمد مع خالهما الحسين على أرض العراق ، وطار نباً مقتلهما إلى أبيهما عبد الله بن جعفر عليه السلام ، الذي كان في المدينة فاستسلم لقضاء العزيز الحميد الذي له مُلكُ السموات والأرض ، وكان له يومذاك موقف مشهود أورده ابن الأثير فقال :

لما بلغ عبد الله بن جعفر قتل ابنه مع الحسين عليه السلام ، دخل عليه بعض مواليه يعزيه ، والناس يعزونه فقال مولاه : هذا ما لقيناه من الحسين فحذفه ابن جعفر بنعله ، وقال : يا بن اللخناء أللحسين تقول هذا ؟ ولو شهدته لأحببتُ ألا أفارقه حتى أقتل معه ، والله إنه لما يُسخي بنفسي عنهما ويهون علي المصاب بهما أنهما أصيبا مع أخي وابن عمي مواسيين له صابرين معه ، ثم قال : إن لم تكن آست الحسين يدي فقد آساه ولداي (٢) .

ولعل هذه الكلمات الوضيئات الصادقات قد صافحت أسماع زينب بنت علي فعلمت صدق زوجها ووجهه لأخيها وإيثاره له ، فازدادت مكانته عندها ، وكانت كما وصفتها أختها فاطمة بنت علي بقولها : كانت أختي زينب أكبر مني وأعقل .

(١) انظر : الكامل (٤ / ٨٨) ، وتاريخ الطبري (٣ / ٣٣٩ ، ٣٤٠) ، والبداية والنهاية (٨ / ١٩٤ ، ١٩٥) ، وسير أعلام النبلاء (٣ / ٣٠٩ ، ٣١٠) ، وأعلام النساء (٢ / ٩٤ - ٩٨) ، ومختصر تاريخ مدينة دمشق «تراجم النساء» (ص ١٢٢ ، ١٢٣) .

(٢) الأعلام (٣ / ٦٧) نقلاً عن الهاشمي .

وفاتها ومكانها :

لم تعش زينب بعد مقتل أخيها وولديها أكثر من سنة حيث لبت نداء المليك المقتدر جل جلاله وتقدست أسماؤه في سنة (٦٢هـ) .

أما عن مكان وفاتها فلم تشر المصادر إشارة يقينية إلى هذا ، لكنه من الجدير بالذكر أن بعض المصادر أشارت إلى أن زينب دفنت بمصر أو بالشام ، غير أن صاحب كتاب «الخطط التوفيقية» يأتي بالخبر اليقين تعليقا على المتداول بين الناس من أن زينب بنت علي هي المدفونة في الحلي المعروف الآن باسمها في القاهرة : لم أر في كتب التاريخ أن السيدة زينب بنت علي عليها السلام جاءت إلى مصر في الحياة أو بعد الممات .

وأغلب الظن أن زينب بنت علي قد توفيت في المدينة المنورة ، والله تعالى أعلى وأعلم .

ومع وداع زينب بنت علي عليها السلام تلك المرأة الصابرة التقية نتذكر قول جدّها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله عند ذكر المصائب في الحديث الذي رواه علي بن الحسين عن جده رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال :

«ما من مسلم يُصاب بمصيبةٍ فيتذكرها ، وإن تقادم عهدا فيحدث لها استرجاعًا إلا أعطاه الله من الأجر مثل يوم أُصيب بها» .

رحم الله زينب البتول وأمها الزهراء الطهور ، وأدخلها الجنة مع الأبرار الصابرين ، وورزقنا حبهم ، وحب من يحبهم ، وجمعنا وإياهم في جنات النعيم .



عائشة بنت طلحة رضي الله عنها

امرأة سبّاقة في ميادين المكارم والعز والمجد والنسب الطاهر .

قال ابن كثير : كانت بارعة الجمال ، عظيمة الحسن ، لم يكن في زمانها أجمل

منها ، أدبية ، عفيفة ، راوية للحديث النبوي .

كانت إحدى ثلاث نساء حملن العلم عن عائشة أم المؤمنين .

عائشة بنت طلحة رضي الله عنها

من ذروة البيوت :

إذا أردنا أن نتحدث عن هذه المرأة التي عاشت في عصر الإسلام الذهبي ، فعلينا أن نعرف أنها من بيت زكي طاب أصله ، وكَرَّمَ فرعُهُ عن رحيق الحسب الزاكي ، وتناول في سماء الشرف ، والعطاء ، والإيثار .

فقد جمعت لها أروية المجد من جميع أطرافها واكتفتها عناية ، فقيهة الأمة المحمدية ، إذ ربته على كريم الفضائل ، وجميل الخصال ، فبلغت درجة عليا تُغبط عليها .

وقد جباها الله ﷺ جمالاً باهراً ، كأنها هي إحدى حور الجنة في هذه الدنيا .

رأها سيدنا أبو هريرة رضي الله عنه فقال : ما رأيت أجمل من عائشة بنت طلحة إلا معاوية على منبر رسول الله ﷺ .

وهي مع هذا كله ابنة صحابي كريم من الصحابة الأبرار الأكابر ممن سبقوا العالمين إلى التصديق برسول الله ﷺ ، وهو أحد الستة أصحاب الشورى ، وأحد الثمانية السابقين ، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، وأحد الأجواد الأسخياء الكرماء الذين سبقت لهم الحسنى من الكريم الرحيم المنان .

وقبل أن نقرأ سيرتها سوياً تعالوا نقرأ سوياً بطاقة هذه الابنة الكريمة المعطاءة ، تعالوا نطوف في رحاب نسبها الزاكي العريق ، إذ كانت ماجدة الأعراق ، طيبة الأخلاق ، عفيفة دينة صينة .

فأبوها : طلحة بن عبيد الله بن عثمان التيمي القرشي المكي المدني المبشر

بالجنة ، وهو الفارس الفصيح المليح ، الجواد الخير ، الفياض ، روى عن رسول الله ﷺ (٣٨) حديثاً ، وحضر المشاهد كلها ، كان كريماً ، نحر جزوراً للمسلمين في غزاة تبوك ، وكانوا في حالة شديدة من الجوع ، فقال له النبي ﷺ : «أنت طلحة الفياض» ، وسماه يوم أحد «طلحة الخير» ، ويوم حنين «طلحة الجود» ، وذلك لكثرة إنفاقه على العسكر ، ذلكم هو طلحة الخير والجود :

طلحة الخير طلحة الجود أبشر	صرت تُدعى بطلحة الفياض
نفحة بعد نفحة وانتهاض	في مجال السخاء بعد انتهاض
في حُنين يد وفي أحد أخرى	وهذين بتبوك ملأى الوفاض
حزبته الأمور في طاعة الله	فما همّ مرة باعتراض
عالم أن أفضل المقادير ما شاء	وخير الأمور ما هو قاض
لك في المسلمين يا بن عبيد الله	برق مبارك الإيماض
تستهل الصنائع الغر إن لاح	وتجرى الصلات ملء الحياض
هكذا المؤمن الموفق يُغنى	في مروءاته غناء المواضي

وأما : أم كلثوم بنت أبي بكر الصديق ، عاشت في كنف أختها عائشة بنت أبي بكر ، وتخرجت في مدرستها العظيمة المتفردة في الدنيا ، وروت عنها الحديث .
وجدها لأُمها : شيخ الصحابة وسيدهم وأعلامهم وأتقاهم وأولهم إسلاماً ، ذو المواقف المشهودة ، والمشهورة الرفيعة المنيعة ، منها قصته يوم ليلة الإسراء وثباته وجوابه للكفار في ذلك ، وهجرته مع رسول الله ﷺ ، وترك عياله وأطفاله وملازمته له في الغار ، وسائر الطريق ، وناهيك ثباته يوم وفاة رسول الله ﷺ ، وخطبته الناس وتسكينهم وقتاله أهل الردة ، واستخلافه فاروق الأمة عمر رضي الله عنه ، وكم من مواقف وأثار ومن يحصي مناقبه ؟ بل من يحيط بفضائله غير

الله ﷺ؟ هذا العلم الكريم أفضل الصحابة على التحقيق سيدنا أبو بكر الصديق عليه سحائب المغفرة والرضوان .

وجدتها لأبيها : الصعبة بنت الحضرمي ^(١) ، إحدى أمهات الصحابة المؤمنات ، أسلمت وهاجرت وكتبت من الذين سعدوا .

وجدتها لأمها : حبيبة بنت خارجة بن زيد الأنصارية زوج أبي بكر الصديق أسلمت وبايعت ^(٢) .

ولا زلنا - عزيزي القارئ - في رحلة النسب العريق ، والمسك الفتيق ، لهذه الابنة ذات القدر الكبير .

فخالتها : أمنا عائشة أم المؤمنين بنت الصديق ، وأفقه نساء الأمة على الإطلاق ، ومن فضلها على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام ، ومن نزلت براءتها من السماء وتلى في المحارب إلى ما شاء الله ، ومن نزل الوحي في بيتها ، وكفى بهذه المنقبة فخراً وعزاً وبركة .

وخالتها الأخرى : أسماء بنت أبي بكر ذات النطاقين ، امرأة فارس الإسلام ، وحواري خير الأنام الزبير بن العوام ، وأسماء إحدى عالمات الصحابة ، وراويات الحديث ومناقبها حجة .

وأما أخوالها : فهم عبد الله ، وعبد الرحمن ، ومحمد ، بنو أبي بكر الصديق من أعلام المسلمين ، ومن الشجعان المذكورين من الأوائل في سائر الميادين .
بقي أن نعرف هذه الابنة التي تفرعت من هذه الدوحة الباسقة السامقة

(١) اقرأ سيرتها في موسوعتنا «نساء مبشرات بالجنة» (ص ٧١٣) .

(٢) الإصابة (١٢/١٩١) ، والاستيعاب بهامش الإصابة (١٢/٢٠١ ، ٢٤٩) .

الشاهقة في الشرف والفضائل ، ومن ذاك البيت الرفيع العماد :
 في البيت ذي الحسب الرفيع من أهل التقى والبر والصدق
 هذه الابنة السباقة في ميادين المكارم هي عائشة بنت طلحة بن عبيد الله
 التيمية بنت أخت أم المؤمنين عائشة أم كلثوم بنت الصديق رضي الله عنه (١) .
 ومع عائشة بنت طلحة رحمها الله – سنصحب سيرتها في هذه الصفحات
 العطرة .

نشأتها وطفولتها :

عندما قُتل سيدنا طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه ، كانت عائشة في طفولتها البريئة ،
 لا تعرف من الحياة إلا كما يعرفه الأطفال من لهو ونوم ولعب بريء .
 ولعل أم كلثوم بنت أبي بكر لم تحدث ابنتها عائشة عن دموعها التي في
 مآقيها ، وعن حزنها لمقتل زوجها طلحة والد عائشة ، فقد كانت أم كلثوم ترى
 في وجه ابنتها الملائكي الجميل كل براءة وعذوبة ، فكانت تضمُّها إلى صدرها
 وتمس في أذنيها بعض الترقيصات التي كانت سائدة في ذلك العصر .

ودرجت عائشة بين أهلها ووالدتها ، وهي تقطع أعوامًا وأعوامًا لم تلق
 خلالها بأسًا وعناءً ، ولكنها عرفت نعيم الحياة ، ورخاءها حيث ترك لها أبوها

(١) سير أعلام النبلاء (٤/٣٦٩، ٣٧٠) ، وطبقات ابن سعد (٥/١٨٣، ١٩٤) ، و(٨/٤٦٧) ،
 والبداية والنهاية (٩/٣٠٢) ، والنجوم الزاهرة (١/٢٩٠) ، والكامل في التاريخ
 (٤/٢٧٤، ٣٣٣) ، و(٦/٢٥٩) ، وتهذيب التهذيب (١٠/٤٩٠) ، رقم الترجمة (٨٩٣٣) ،
 ودولة النساء للبرقوقي (ص٢٦ – ٣٠) ، ونسب قريش (ص٣١٤) ، والدر المنثور
 (ص٢٨٣، ٢٩١) .

ثروة طيبة عاشت من خلالها منعمة راضية موفورة العيش .

ولم يحدثنا تاريخ عائشة كثيرًا عن طفولتها ، ولعله كان غافلاً عنها قليلاً ، فقد عصفت بعض الأحداث العظام بذاكرته وبالناس ، عندما كانت عائشة في سن الطفولة البريء الهامس .

ولعل التاريخ قد غفل عن عائشة أيضًا ، فلم يسجل أحلامها وتطلعاتها ، ولكنه سجل صورًا من حياتها وهي تعيش في كنف خالتها عائشة تنهل من معارفها وعلومها ، ومن هذه الومضات بدأ التاريخ يزيع الستار عن مجاهل طفولة عائشة بنت طلحة ، وبدأ التاريخ من وقتها يرسم حياتها بشيء من الوضوح ، وبدأت حياتها تقترب من نافذة التاريخ لتظهر جلية أمام ريشته الصادقة ، وفي الصفحات التالية سنعيش بعض الصور من حياة عائشة بنت طلحة ، ونبرز شخصية عائشة كما ينبغي لها ، ولمثيلاتها أن تخرج للناس بصورة صحيحة .

زواج عائشة من ابن خالها :

عندما أيفعت عائشة بنت طلحة وبلغت مبلغ النساء ، كان ابن خالها عبد الله ابن عبد الرحمن بن أبي بكر قد خطبها برأي وإشارة خالتها عائشة أم المؤمنين ، ويبدو أن عائشة بنت طلحة لم تكن لديها رغبة كاملة في هذا الخاطب ، وإن كان قريبًا - كما تزعم بذلك المصادر - ولكن عائشة أم المؤمنين قد رغبتها في هذا الزواج فوافقت وتزوجته ، وكان لهذا الزواج ثمار جنية من الأولاد ، فقد ولدت عائشة لعبد الله أربعة أولاد ذكور هم : عمران وبه كانت تكنى - وطلحة - وعبد الرحمن - وأبو بكر ، كما ولدت له ابنة واحدة تدعى نفيسة^(١) .

(١) انظر : جمهرة أنساب العرب لابن حزم (١/١٣٧) .

وقد نشأ أبناء عائشة بنت طلحة نشأة خيرة طيبة ، واشتهر منهم في عالم المشاهير وعالم الأجواد والكرماء ابنها طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن ^(١) .

وكان طلحة ابن عائشة ، هذا أحد الأسخياء الكرام ، وأحد الأوفياء العظام ، فقد ذكر ابن حجر رحمه الله - نقلاً عن الزبير بن بكار أن عروة بن الزبير - أحد فقهاء المدينة السبعة قد أودع طلحة ابن عائشة مالاً وأودع غيره مالاً أيضاً ، وذلك لما سافر إلى الشام - فلما رجع جحده بعضهم ، ورد طلحة ماله ، فقال عروة فيه هذين البيتين :

فما استخبأت في رجل خبيئاً كدين الصدق لو ينسبُ عتيق
ذوو الأحساب أكرم ما تراه وأصبر عند نائبة الحقوق ^(٢)

وفي حياة طلحة ابن عائشة مواقف مزهرة بأزاهر الفضل ، لم يكن ذلك الموقف النبيل مع عروة هو الموقف الوحيد في حياته ، وإنما كان وفيّاً كريماً مع الناس كلهم ، حتى مع جماعة الشعراء ، فهذا الخزين الديلي يذكر كرمه ويشير إلى أصله العريق من جهة أبيه وأمه عائشة فيقول :

فإن تك يا طلح أعطيني هذا فرة تستخف الضفارا
فما كان نفعك لي مرة ولا مرتين ولكن مرارا
أبوك الذي صدق المصطفى وسار مع المهدي حيث سارا
أمك بيضاء تيمية إذا نُسب الناس كانت نُصارا

وأما نفيسة بنت عائشة بنت طلحة فتدل الأخبار على أنها تزوجت الوليد

(١) تهذيب التهذيب (٤/ ١١١) ترجمة رقم (٣١٠٤) .

(٢) انظر : تهذيب التهذيب (٤/ ١١١) بتصرف يسير جداً .

بن عبد الملك بن مروان ، والجدير بالذكر أن أولاد عائشة كان لكل واحد منهم عقب ونسل^(١) ، وظل لعائشة بنت طلحة عقب من أولادها منهم ابن عائشة البصري المتوفى سنة (٢٢٧هـ)^(٢) .

وتشير بعض المصادر إلى أن حياة عائشة مع ابن خالها كانت مضطربة بعض الاضطراب ، فقد استقبلت حياتها معه غير راضية ذلك الرضا التام عن هذا الزواج ، ولعلها كانت تشعر معه بالضيق الذي يدعوها إلى الانقباض عنه ، وزعموا أنها تكون جالسة بين صويحباتها تتحدث إليهن ، ويتحدثن إليها ، وهي مشرقة الوجه ، باسمه الثغر ، مبتهجة النفس ، راضية القلب ، فإذا ما قيل لها : يا أم عمران ، إن زوجك قد جاء هنا ، تقطب وجهها ، وكأن شيئاً حدث مما يؤدي بصويحباتها إلى الدهشة والتعجب من هذا ، فمن ذا الفتى الذي لا يعطف على فتى كعبد الله زوجها ، إذ لا تمنحه ابتسامة رقيقة أو نظرة فيها شيء من الرفق ؟

حكّت بعض المصادر أن عائشة كانت تصادم زوجها ، فقد خرجت من داره مغضبة ذات مرة ، تريد خالتها عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ، فمكثت عندها قريباً من أربعة أشهر ، وكان عبد الله قد آلى^(٣) منها رضي الله عنها ، فأرسلت عائشة أم المؤمنين : إني أخاف عليك الإيلاء^(٤) ، فضمها إليه مؤلياً ، فقيل له : طلقها .

(١) انظر : نهاية الأرب (٤/ ٢٩١) .

(٢) الكامل في التاريخ (٦/ ٥٢٩) .

(٣) «آلى» حلف وأقسم .

(٤) «الإيلاء» : اليمين ، وفي الشرع : أن يقسم الزوج ألا يقرب امرأته ، وحكمه أن يتربص بها أربعة أشهر ، ثم يوقف فيما أن يطلق وإما أن يرجع .

فقال عبد الله :

يقولون طلقها لأصبح ثاوياً مقيماً على الهم أحلام نائم
وإن فراقى أهل بيت أحبهم لهم زلفة عندي لإحدى العظام
فكيف يصفو العيش من بعد بينهم وسخطهم يوماً على الأنف خاطمي^(١)

ويظهر أن عائشة - كما تقول الروايات - حاولت أن تستأنف حياتها مع زوجها عبد الله في مشقةٍ وعُسْرٍ ونفورٍ ، فقد كانت سيئة العشرة معه ، لا تخلو إليه ، ولا تتحدث إليه ، ويبدو أن عبد الله كان راضياً أحياناً ، ساخطاً أحياناً أخرى ، وكان سعيداً وشقيماً بأن واحد مع زوجته عائشة ، وعلى الرغم من أنها لم تنجب من غيره إلا أنها لم تكن مبتهجة به ، ناهيك بأن الأولاد قد توثقُ عرى المحبة بين الزوجين ، إلا أن هذا لم يحدث بين عائشة وعبد الله ، كما يزعم الرواة .
وتمضي الأيام وحياة عائشة مع زوجها عبد الله شاقة عسيرة ، وظلت نافرة منه لم تغير من مصارمتها له شيئاً ، ولكن الأيام لم تطل بعبد الله ، فقد وافته المنية وهي عنده فما فتحت فاهها عليه ، ولم تذرف دمعاً على فراقه - كما زعموا - وكانت عائشة بنت أبي بكر أم المؤمنين ﷺ قد تأثرت كثيراً لوفاة ابن أخيها عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر ؛ ولذلك فإن أم المؤمنين عائشة كانت تعد عائشة بنت طلحة في ذنوبها التي تعددها عدم تأثرها لموت زوجها عبد الله ، وعدم اكتراثها لذلك^(٢) .

وبعد انقضاء عدتها توافد عليها الحُطَّاب ، ولكن فاز منهم أحد نجباء أبناء الصحابة ، ترى من هذا الفتى النجيب الذي فاز بقلب عائشة ؟ وقبل أن

(١) نوادر المخطوطات (١/ ٧٠) .

(٢) انظر : نهاية الأرب (٤/ ٢٩١، ٢٩٢) ، وأعلام النساء (٣/ ١٣٩، ١٤٠) .

نجيب عن هذا ونتعرف أخباره وأخبار عائشة ، دعونا نقف وقفة لطيفة مع ملاحه وجمال عائشة الذي شهرها في دنيا النساء .

جمالها وملاحظتها بين الثناء والإعجاب :

أجمع كل من عرف عائشة ابنة طلحة أنها كانت أجمل نساء عصرها ؛ إذ جباها الله طلعة بهية ، وجمالاً نادر الوجود ، استرعى انتباه النساء اللواتي عاصرنها ، فأطرين جمالها وملاحظتها ، وأجمعن بأنها إذا كشفت وجهها افتضحت الشمس والقمر لبديع حسنها ، وأزرت بالجمان واللؤلؤ والمرجان ، فقد ملكت الحسن وملكته الملاحه .

ومما جاء في صفتها ووصفها ما ذكرته عزة الميلاء وغيرها من النساء ، بأنها ممتلئة الترائب ، زجاء العينين ، هدبة الأشفار ، واضحة الثغر ، نقيه الوجه ، فرعاء الشعر .

ووصفت عزة هذه عائشة ابنة طلحة لمصعب بن الزبير فقالت له : رأيت وجهاً أحسن من العافية ، ولها عينان نجلاوان هما مسكن هاروت وماروت ، من تحت ذلك أنف أقنى ، وخذان أسيلان ، وفم كفم الرمانه ، وعنق كإبريق الفضة^(١) .

وجاء وصفها في مكان آخر بأنها من الحور العين ، ووصفت جاريتها وجهها فقالت لها : والله لوجهك أحسن من كل زينة .

وقالوا في وصف جمالها أيضاً : كانت من أحسن الناس وجهاً في زمنها ، وأجمل ما أظلت سماء الحجاز .

قال الحافظ ابن كثير رحمته الله : كانت بارعة الجمال عظيمة الحسن ، لم يكن في

(١) مختصر تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء) (ص ٢١٧) .

زمانها أجمل منها^(١) .

وقال الحافظ ابن حجر رحمته الله : كانت فائقة الجمال^(٢) .

وقال الذهبي وقد ذكر جمال عائشة : وكانت أجمل أهل زمانها ، وأحسنهن ، وأرأسهن^(٣) .

ويقول حماد الراوية في وصفها : إنه لم يكن لها شبهة في زمانها حسناً ودمائةً وجمالاً وهيبَةً ومثانةً وعفةً .

هذا بعض ما قيل في جمال السيدة عائشة بنت طلحة ، ذلك الجمال الذي كان أشهر من وضع النهار في عصرها .

عائشة في كنف مُصعب بن الزبير :

كان مصعب بنُ الزبير فتىً وسيماً قسيماً أنيقاً رشيقاً ، وكان أمير العراق ، ومن أجمل فتيان قريش ، حيث كان يُغبط على جماله وملاحظته ، وكان مع هذا كله فارساً شجاعاً مقداماً جواداً ، رفيع المكانة ، بعيد الصوت ، ذا شباب ، باسمًا مبتهجًا ، وفيه قال عبيد الله بن قيس الرقيات :

إنما مُصعب شهاب من اللـه تجلت عن وجهه الظلماءُ

وكان مصعب قد تزوج سُكينة بنت الحسين بعد موت زوجته فاطمة بنت عبد الله بن السائب أم ولديه عيسى وعكاشة ، وكانت سُكينة فتاة قد تأيمت بعد وفاة زوجها عبد الله بن الحسن بن علي - وهو ابن عمها - وكانت سُكينةُ

(١) البداية والنهاية (١٣/٣٠٢) .

(٢) تقريب التهذيب (٢/٨٦٩) ترجمة رقم (٨٩٣٣) .

(٣) سير أعلام النبلاء (٤/٣٦٩) .

رائعة الجمال أيضًا ، منقطعة الحُسن في النظر ، فصيحة اللسان ، عذبة الحديث ، خفيفة الروح ، كثيرة المرح ، في براءة الطاهرات ، وخفر العابدات .

وتروي كتبُ الأخبار والأسفار أن مصعبًا هذا كان يتمنى أن يتزوج عائشة بنت طلحة التيمية ، هذه التي تمتاز عن نساء جنسها وبنات قريش بجمال الوجه ونقائه وإشراقه ، كما تمتاز بكل ألوان الملاحة المحببة في النساء ، وكانت قد تأيمت من زوجها عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق .

وآن لمصعب أن يحقق حلمه ، فتكون عنده عقيلتا قريش : سكينة بنت الحسين ، وعائشة بنت طلحة ، ولكن كيف السبيل إلى عائشة ؟

لم تطل حيرة مصعب حيث أرشده المرشدون إلى امرأة خبيرة بالنساء ، وبألوان جماهن ، عارفة بأسرار ملاحظتهن ، إنها عزة الميلاء ، جوابة البيوت ، عارفة الأسرار ، وصاحبة النظرة الصحيحة بينات جنسها .

وتذكرُ كتب الأدب والأسفار بأن عزة هذه من أهل المدينة ذات صوت عذب ، ووجه مشرق جميل ، يألفها الأشراف عندما تدخل بيوتهم ، وذلك لمعرفة أمور وأحاديث النساء ، وأخبار البيوت وقصصها .

وينطلق مصعبُ إلى عزة الميلاء ثم يقول لها : إني خطبتُ فانظري لي .

قالت عزةُ : ومن خطبت ؟

قال : عائشة ابنة طلحة بن عبيد الله التيمية .

قالت : حسنًا ، فانتظر حتى أرجع إليك بالخبر اليقين عنها ، فإني خبيرة بالنساء .

ثم انطلقت فدخلت على عائشة بنت طلحة ، وسلمت عليها ، وباسطتها في

الحديث ، ثم قالت لها : فديتك يا عائشة ، لقد كنت في مأدبة لقريش ، فتذاكروا جمال النساء وخلقهن فذكروك ، وذكروا ملاحظتك ، فلم أدر كيف أصفك ؟ فألقي ثيابك ، فألقت عائشة ثيابها ، وأقبلت وأدبرت فارتج منها كل شيء ، ثم إن عزة رجعت إلى مصعب فقال لها : ما صنعت ؟ قالت : أما عائشة فلا والله ما رأيت مثلها مقبلة ومدبرة ، ثم أخذت تصف أشياء لا نستطيع ذكرها ههنا^(١) ، ثم أردفت قائلة : وفيها عيبان : أما أحدهما فيواريه الخمار ، وأما الآخر فيواريه الخنف^(٢) .

وتزوج مصعب عائشة وجمع بين عقيلتي قريش ، بالإضافة إلى ولاية العراق ، وبذلك تحققت أمنيته وأحلامه^(٣) .

ولهذا اعتبره عبد الملك بن مروان أشجع العرب وأفرسهم .

وورد أن عبد الملك قال يوماً لجلسائه : من أشجع العرب ؟

قيل : شبيب ، وقيل : فلان وفلان .

فقال : إن أشجع العرب رجل ولي العراقين خمس سنين ، فأصاب ألف

ألف وألف ألف وألف ألف - وتزوج سكينه بنت الحسين وعائشة بنت طلحة ، ذلك مصعب بن الزبير^(٤) .

ولما تزوج مصعب عائشة أمهرها مليون درهم ، واحتلت عنده مكانة رفيعة

(١) اقرأ الخبر كاملاً في الأغاني ، حيث تجد العجب العجيب في هذا المضمار .

(٢) تشير عزة هنا إلى عظم أذني وقدمي عائشة .

(٣) انظر : سير أعلام النبلاء (٤ / ١٤١) بتصرف .

(٤) النجوم الزاهرة (١ / ٢٩٠) باختصار .

مرموقة ، ووصل خبر هذا المهر العظيم إلى عبد الله بن الزبير أخي مصعب ، فكتب إليه يؤنبه على زواجه بامرأة مهرها مليون درهم .

عائشة ومُصعب وأخبار طريفة :

لا تخلو كُتُبُ الأدب والأخبار من بعض القصص الطريفة الظريفة ، ومنها قصص عن مصعب وعائشة تحمل في أروانها طرافة ورقة وخفة ظل ، وإن كانت ضعيفة الحبكة نشك فيها .

روى الهيثم بن عدي هذه الطرفة فقال : دخل مصعبُ بن الزبير على عائشة بنت طلحة وهي تمتشط ، فتمثل بقول جميل بثينة :

ما أنسى لا أنسى منها نظرة سلفت بالحجر لما جلتها أم منظور
لا انسلبتها خرسًا جياترها إلى من ساقط الأوراق مستور

ف قيل لمصعب : إن أم منظور ههنا امرأة كانت عجوزًا من قبيلة عذرة ، وهي ما تزال حية تُرزقُ ، فاستدعى بها فحملت إليه مكرمة فقال لها : أخبريني عن قول جميل : «ما أنسى لا أنسى إلخ» كيف كانت هذه الجلوة ؟ وكيف كان جلاؤك لبثينة ؟ فقالت أم منظور : مشطت رأسها ، وضفرت شعرها ، وجعلتُ فيه شيئًا من الخلق «نوع من الطيب» ، وألبستها وشاحًا وقلادة من بلح ، ومررنا بجميل راكبًا ناقته ، فجعل ينظر إليَّ بمؤخرة عينه ، ويلتفت إليها حتى غاب عنها .

فقال لها مُصعب : فإني أقسم عليك يا أم منظور ألا جلوتِ لي عائشة بنت طلحة مثلما جلوتِ بُثينة .

ففعلت أم منظور ذلك ، وركب مصعب ناقته وأقبل عليها ، وجعل ينظر

إلى عائشة بمؤخرة عينه ، ويسيرُ حتى غاب عنها ، ثم رجع ^(١) .

وبهذا التصرف تحول حُلم مصعب إلى حقيقة ، واستطاع أن يتمثل بأبيات جميل مع زوجه عائشة ، هكذا أراد راوي هذا الخبر الهيثم بن عدي ، وهو كذاب .

حيلة طريفة لدفن عائشة بالحياة :

تطلع علينا كتب الآداب والأخبار بقصة أخرى طريفة حدثت لعائشة مع مصعب ومغاضبتها إياه ، وتزعم القصة بأن عائشة بنت طلحة كانت مثل أكثر نساء بني تيم معجبة بنفسها ، تياهة صعبة المراس ، ومن أشد الناس مغاظة لأزواجها ، وكان مصعب من أشد الناس إعجابًا بها ، وبجمالها ، ولكن لم تكن حياة عائشة عند مصعب كلها هنيئة مرئية ، فقد كان مُصعب ملكًا عظيمًا ، ولم تكن عائشة سلسلة القياد ، ولكنه يحاول أن يكسب رضاها ووصفها بأنها سيدهُ نساء المسلمين ، وغاضبته مرة فلم تزل حالها معه على مثل ذلك حتى شكها ما به إلى كاتبه ابن أبي فروة ، ولم يستطع انتزاع غضبها عليه إلا بالحيلة والتهديد والوعيد ، وبشيء من الترهيب ثم الترغيب :

فلنعش لحظات حلوة مع هذه القصة الطريفة ، والحيلة اللطيفة التي عملها مُصعب بالاتفاق مع كاتبه حتى استطاع أن يسلس قياد عائشة ذات الدل والدلال الكثير ، والإعجاب المفرط بنفسها :

تقول القصةُ : زعموا أن مصعب بن الزبير شكها إلى كاتبه عبد الله بن أبي فروة كثرة إعجاب عائشة بنفسها ، لعل هذا يجد له مخرجًا من هذا الضيق الذي

(١) الأغاني (٨/ ١١٢) ، ومختصر تاريخ دمشق «تراجم النساء» (ص ٦٦) .

يعتريه من مغايرتها إياه ، وهجرانها له ، فقال له ابن أبي فروة : أنا أكفيك هذا إن أذنت لي ، قال مصعب : نعم افعل ما شئت ، فإنها أفضل شيء نلته من الدنيا .

فقال ابن أبي فروة : أفتأذن لي في حيلة خطرت بيالي تنبذك من هذا الهجران والضيق ؟

قال : نعم ، اصنع ما بدا لك يا بن أبي فروة .

وأخذ عبد الله بن أبي فروة يجهز أمر حيلته فاستدعى عبدين أسودين غليظين ، ثم أتى منزلها ليلاً ، فاستأذن في الدخول عليها .

فقال متعجبة من مجيئه في الهزيع الأخير من الليل : أفي مثل هذه الساعة يا ابن أبي فروة ؟

قال : نعم يا ابنة الكرام .

فأدخلته ، فدخل معه الأسودان ، فقال لهما بنبرة الشدة والحزم : احفرا ههنا بئراً عميقاً .

فقال له جاريتها ، وقد تعجبت من هذا الأمر : وما تصنع بالبئر الآن ؟ فقال وهو يظهر الجد في القول : شؤم مولاتك عائشة بنت طلحة وسوء طلعتها .

فقالت الجارية : وما علاقة شؤمها بحفر البئر ؟

قال : أمرني هذا الفاجر الظالم مصعب أسفك من خلق الله لدم حرام وأقتله للناس ، أن أدفنها حية في هذه البئر ، فأخبرت الجارية عائشة بما جرى ، فقالت عائشة له : فأنظري أذهب إليه ، لعله يقلع عن الطلب العظيم .

فقال ابن أبي فروة بشيء من الجحد مُظهرًا الخوف من مصعب : هيهات هيهات يا ابنة الكرام ، لا سبيل إلى ذلك فقد فات الأوان ولا أقدر على مراجعته فيما أمر .

ثم التفت إلى الأسودين وقال لهما بصوت عالٍ : ويحكما احفرا .

فلما رأت عائشة منه الجذبكت ، وقالت : ويحك يا بن أبي فروة ، إنك لقاتلي أما هناك وسيلة تنقذني بها ؟

قال : نعم يا ابنة الكرام ، وليس لدي حيلة ، وإني لأعلم أن الله ﷻ سيجزيه بعدك ، وسيجزيه جزاء عمله هذا ، ولكنه كما تعلمين قد غضب غضبًا شديدًا في هذه الساعة ، وهو شديد الغضب ، صعب المراس .

قالت عائشة وفؤادها يرتجفُ من الخوف : وفي أي شيء غضبه ؟ ومن أي شيء ؟

قال ابن أبي فروة وقد تصنع الجحد أكثر وأكثر : إنه ثائر غاضب في امتناعك منه ، وقد ظن أنك تبغضينه ، وأنتك تتطلعين إلى غيره ، وقد جُنَّ لذلك وغضب أشد الغضب ، فما عاد يعقل شيئًا أمامه .

فقالت عائشة : أنشدك الله يا بن أبي فروة إلا عاودته ، فلعله قد سكن عنه الغضب وسكن ما به .

قال ابن أبي فروة في لهجة خوف شديد : إني أخاف أن يقتلني أترديدن أن يسفك دمي في هذا الليل ، وفي هذا الوقت ؟

وسكت ابن أبي فروة ، فبكت عائشة ، وبكت جواربها معها ، فلما أن رأى ذلك ، ولمس أنها قد استكانت ولانت ، قال لها بلهجة المشفق الخائف : يا هذه ،

قد رقتُ لك ، وأقسم لك أنني سأغررُ بنفسِي من أجل بكائك ، فما أقول لمصعب وهو بهذه الحالة ؟

قالت : اضمن عني ألا أعود أبدًا إلى مخالفته ومصارمته ، وهجره ، قال ابن أبي فروة وقد تأكد من نفاذ حيلته : فما لي عندك يا ابنة الكرام ؟

قالت عائشة : قيام بحقك ما عشتُ .

قال : فأعطيني الموائيق حتى أخطر بنفسِي .

فأعطته الموائيق وحلفت أغلظ الأيمان أنها ستكون موافقة له ، وهناك قال ابن أبي فروة : مكانكما حتى أعود إليكما ، ثم انطلق فأتى مصعبًا والبسمة تعلق وجهه وأخبره بحيلته ، وبما جرى له مع عائشة ، وأخبره أنه استوثق منها بالأيمان ، فقال له مصعب : أحسنت ، ثم أمره أن يستوثق منها ثانية بالأيمان لتتم حيلته وتنظلي عليها .

وعاد ابن أبي فروة فأتى عائشة وقال لها وهو يظهر الخوف والرجاء : إن مصعبًا قد سكن بعض السكون وفتّر عنه الغضب لكن احلفي لي ألا تخالفيه ثانية .

فحلفت له ووثقت أيمانها ، وفعلت ما أمرها به ، وبعد ذلك صلحت لمصعب بفضل تلکم الحيلة اللطيفة والدرس البديع المريع لهذه الحسنة الظلوم الغشوم^(١) .

(١) عن نوادر المخطوطات (١/ ٨٠) ، وأعلام النساء (٣/ ١٤١ ، ١٤٢) ، والأغاني (١١/ ١٨٦ ، ١٨٧) ، ونهاية الأرب (٤/ ٢٩٢ ، ٢٩٣) ، والدر المنثور (ص ٢٨٤) .

من طرائف عائشة مع أشعب :

في حيلة أخرى طريفة تحمل بين ثناياها خفة الظل ، نرى عائشة بنت طلحة تضحك من الفكه الظريف أشعب ، إذًا فبطل هذه الحكاية في هذه المرة هو أشعب ، الطماع الذي يُضرب به المثل في الطمع ، والمتوفى سنة (١٥٤ هـ) .

فقد جاء في بعض المصادر أن عائشة قد غضبت مرة على مصعب ، وكان لا يقدر على ذلك ؛ إذ كانت من أحب الناس إليه فشكا ذلك إلى أشعب بن جبير المدني وكان يألف مصعبًا .

فقال له أشعبُ : ما لي إن رضيت عائشة عنك ؟

قال مصعبُ : حكمتك يا أشعبُ .

قال : عشرة آلاف درهم تدفعها لي حالًا .

قال مصعب : هي لك خذها .

فانطلق أشعب مستبشرًا بالدرهم حتى أتى عائشة بنت طلحة ، فاستأذن

عليها ، فأذنت له ، وسألته : ما جاء بك إلينا ؟

قال : جُعلت فداك يا ابنة الأكرمين ، قد علمت احترامي لك قديمًا وحديثًا

من فائدة أنالها ، وهذه حاجة قد عرضت لي تقضين بها حقي وترهنين بها

شكري ما عشتُ .

قالت : وما الذي عرض لك يا بن جبير ؟

قال أشعبُ وإشراقة الأمل ترتسم على وجهه : إن الأمير قد جعل لي عشرة

آلاف درهم آخذها منه إن رضيت عنه وصالحته .

قالت عائشة : ويحك يا أشعبُ لا يمكنني ذلك فأنا غَضِبِي عليه من مدة .
فقال أشعب بشيء من الحُبث والظَّرْف : بأبي أنت وأمي يا ابنة الأخيار ،
ارضي عن الأمير وكلميه حتى آخذ منه تلك الدراهم ، ثم بعد ذلك عودي إلى
ما عودك الله عليه من سوء الخلق وشراسة الطبع .

فضحكت عائشة من قول أشعب ورضيت عن مصعب ^(١) .

من أخبار مناقبها وفخرها :

كانت عائشة بنت طلحة في بسطةٍ من المال يُحسب حسابها ، وكانت تحب أن
ترى أثر نعمة الله عليها فقد ورد أنها لما أرادت الحج ، حملت متاعها وما تحتاج
إليه على ستين بغلاً من بغال الملوك عليها الهودج والرحائل ، فقال عروة بن
الزبير أحد الفقهاء السبعة :

عائش يا ذات البغال الستين أكل عام هكذا تحجين؟

وهذه الصفات جعلت عائشة تفخر على من سواها بما أنعم الله عليها من
نعم ظاهرة وباطنة ، فقد ورد أنها حجت مرة مع ضرثها سكينة بنت الحسين ،
وكانت عائشة أحسن آلة وثقلاً ، فقال حادياها يحدو بقول عروة بن الزبير :

عائش يا ذات البغال الستين أكل عام هكذا تحجين؟

فشق ذلك على سَكينة ونزل حادياها فقال :

عائش هذه ضرة تشكوك لولا أبوها ما اهتدى أبوك

فأمرت عائشة حادياها أن يكف فكفَّ احتراماً لسكينة .

(١) أعلام النساء (٣/ ١٤٠، ١٤١)، ودولة النساء (ص ٢٧، ٢٨)، مع الجمع والتصرف اليسير ،
وذلك نقلاً عن الأغاني (١١/ ١٨١، ١٨٢)، والكامل (٢/ ٧٨٢، ٧٨٣) .

معارفها وعلمها :

قلَّ أن تجد امرأة أوتيت سعة من المال ، ورزقت حظًا من الجمال أن تهتم بالمعرفة والعلم ، غير أن عائشة بنت طلحة ومن في طبقتها من النساء كنَّ يختلفن عن غيرهن من النسوة ممن يشغلهن الديباج والحلي والحلل واللؤلؤ والمرجان عن كل شيء ، فقد كانت عائشة رحمها الله ذات عقل وبديهة حاضرة ، وجرأة في الكلام ، وسعة في المعارف المتنوعة ، ومن الأخبار التي تشهد لها بالعلم والجرأة على قول الحق ، ما روي عنها أنها وفدت على هشام بن عبد الملك بدمشق .

فقال لها : ما أوفدك يا عائشة ؟

قالت : حبست السماء المطر ، ومنع السلطان الحق .

قال : فإني أصل رحمك وأعرف حقك .

ثم بعث إلى مشايخ بني أمية فقال : إن عائشة بنت طلحة التيمية عندي فاسمروا عندي الليلة ، فحضروا ، فما تذاكروا شيئاً من أخبار العرب وأشعارها وأيامها إلا أفاضت معهم فيه ، وما طلع نجم ولا غار إلا سمته ، فقال لها هشام متعجباً : أما الأول - أخبار العرب وأشعارها - فلا أنكروه ، وأما النجوم فمن أين لك هذا ؟

قالت : أخذتها عن خالتي عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ، فأمر لها هشام بمائة ألف درهم ، وردها إلى المدينة معززة مكرمة ^(١) .

وظلت عائشة بنت طلحة من أندر نساء عصرها حُسنًا وجمالًا ، وهيئة وأدبًا ،

(١) انظر : أعلام النساء (٣/ ١٥٤) .

وعفة وعلماً .

مكرمة لعائشة وأبيها طلحة :

كان لسيدنا طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه أربع بنات من أمهات شتى وهنّ : أم إسحاق ، وعائشة ، ومريم ، والصعبة .

ولكن عائشة كانت أشهرهن وأرأس نساء زمانها .

وعندما قتل طلحة سنة (٣٦هـ) وكانت عائشة لا تزال في عمر الزهور ، ولكنها تعرف بعض صفاته وملاحمه ، وتعرف أنه مدفون بظاهر البصرة من أرض العراق في قنطرة قرية من قرأها .

وبعد مضي أكثر من ثلاثين سنة على موت طلحة تراه عائشة في نومها ، وهو يطلب منها أن تغير مكانه فقد تأذى من نزل الماء ، فأعدت عائشة العُدّة لذلك ، ونفذت وصية أبيها ، ولكن كيف ذلك ؟

ذكر ابن قتيبة في «المعارف» وابن سعد في «الطبقات» والنووي في «تهذيب الأسماء واللغات» وغيرهم من المصنفين قصة ذلك الحلم الذي رآته عائشة في أبيها طلحة - ومفادها : أن طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه قد دفن بقنطرة قرية بظاهر البصرة لما قُتل ، رُمي يوم الجمل بسهم فقتله ، فرأته ابنته عائشة بعد دفنه بثلاثين سنة في المنام يشكو إليها النز ويقول : يا بنية ، أخرجيني من هذا الماء الذي يؤذيني فإن النز قد آذاني .

وانتبهت عائشة من نومها وصورة والدها ما تزال مرتسمة في مخيلتها ، وعرفت أن ذلك لم يكن أضغاث أحلام ، أو مجرد أوهام بل إن ذلك حقيقة ، ولا تكاد تفاصيل تلك الرؤيا تفارق ذاكرتها .

وفي صباح تلك الليلة جمعت عائشة أعوانها وأقاربها ، وقصت عليهم رؤياها وعزمت على تحويله من مكانه ، ثم ركبت في أهلها وحشمها ، وقدموا مكان قبره ، وأمرت به فاستخرج صحيحًا طريًا كما دُفن منذ ثلث قرن تقريبًا ، لم تنحسر له شعرةٌ ، والكافور لم يتغير سوى جنبه الذي يلي الأرض قد اخضر كالسلق من الماء كان يسيلُ عليه وينز بقربه ، فنزلوا فنزفوا عنه الماء ، ثم استخرجوه من مكانه .

وكان الذي تولى إخراجه من قبره عبد الرحمن بن سلامة التيمي ، فلفه في الملاحف واشترت له عائشة دارًا من دور آل أبي بكر بعشرة آلاف درهم ، فدفنته فيها ، وبنت حوله مسجدًا فكانت النساء من أهل البصرة يُقبلن بقوارير من البان والمسك فيفرغنها على قبره ، فلم يزلن يفعلن ذلك حتى صار تراب قبره مسكًا أذفر ، وقبره هناك مشهور معروف بظاهر البصرة ^(١) .

وهكذا كانت عائشة بارة بوالدها طلحة بعد وفاته ، وهذا من توفيق الله ﷻ لها ، وكرامة من كراماتها التي اختصت بها عائشة رضي الله عنها .

وفاتها :

أما عن وفاة عائشة بنت طلحة فتشير المصادر إلى أنها توفيت بعد المائة ، وحدد الذهبي والياضي وابن العماد أنها توفيت في سنة (١٠١ هـ) رحمها الله ، ويبدو أنها توفيت في المدينة المنورة .

رحم الله عائشة بنت طلحة ، وتغمدها برحمته ، وبوأها ما تستحقه من منازل الجنان ، وأنزلها مع الأبرار .

(١) المعارف (ص ٢٢٩) ، وطبقات ابن سعد (٣/ ٢٢٣ ، ٢٢٤) ، وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٤٠) ، والعقد الفريد (٥/ ٦٧) ، تحقيق سعيد العريان .

رقية بنت النبي ﷺ

تزوج عثمان رقية بنت النبي ﷺ في مكة المكرمة .

هاجرت إلى الحبشة بصحبة زوجها عثمان فكانت سيدة نساء المهاجرين،
ثم هاجرت إلى المدينة .

ضربت أوفى الأمثلة في الصبر والاستسلام لأوامر العزيز الحميد .

كانت رقية أول بنات النبي ﷺ وفاة بالمدينة المنورة ، ودفنت بالبقيع .

ماتت في حياة أبيها في السنة الثانية من الهجرة إبان غزاة بدر

فرضي الله عنها .

رقية بنت النبي ﷺ

الحياة مع الأبرار :

من نعم الله ﷻ على رسوله الكريم أن أقر عينه برؤية أهل بيته خديجة وبناتها رضي الله عنهن أجمعين ، تحفهن عناية الله ، فيشرق نور الإيمان في قلوبهن مختارات طائعات ، عابدات ساجدات ، محبات لله ورسوله ، فلم يؤثر عنهن إلا الطاعة والصبر ، وهذا ما هياً للنبي ﷺ الراحة النفسية والسعادة والطمأنينة تجاه بيته الذي عُمِّرَ بالإيمان من جميع أركانه وجوانبه ، وما أشدها من مصيبة عليه ﷺ لو كان في البيت معارضون ، أو منافرون ، ألم يكن في بيت نبي الله نوح ، ونبي الله لوط ؟ إنها من نعم الله على نبيه وأهل بيته الأخيار الأبرار ، فها هي ذي الابنة الثانية للنبي ﷺ تسير في هذا الدرب الإيماني ، وتبدي من ضروب الشجاعة والصبر ما يجعلها جديرة أن تكون بنت محمد ﷺ النبي المرسل تُرى من هذه الابنة الميمونة ؟

إنها رقية بنت رسول الله ﷺ الهاشمية^(١) ، فهل أتاك حديث صبرها وهل أتاك حديث إيمانها وهجرتها وجهادها ؟

إن الحديث عن هذه المكارم لحديث عذب لطيف تشتهيهِ الأنفس ، وتتمتع به الأسماع ، وتتحلى به الأفواه ، وخاصة إذا كان عن سيدتنا رقية بنت رسول الله ﷺ .

(١) طبقات ابن سعد (٨/٣٦، ٣٧) ، والاستيعاب (٤/٢٩٢، ٢٩٦) ، وأسد الغابة (٦/١١٣-١٣٥) ، ترجمة رقم (٢٩٢١) ، والإصابة (٤/٢٩٧) ، وسير أعلام النبلاء (٢/٢٥٠-٢٥٢) .

وإذا كان حديثنا فيما مضى عن سيدتنا خديجة أم المؤمنين ينضح بعرف الطيب ، فلا شك في أن رقية رضي الله عنها قد استمدت كثيراً من شمائل أمها وفضائلها ، وتمثلتها قولاً وفعلاً في حياتها من أول يوم تنفس فيه صبح الإسلام ، وافتر ثغر الإيمان ، إلى أن كانت رحلتها الأخيرة إلى الله تعالى .

نفحات من الإنعام الإلهي :

لا شك في أن العناية الإلهية كانت تحف البيت النبوي الكريم ، وكانت نفحات الإنعام الإلهي المباركات تجود بهطائلها على آل البيت الطاهر فلا يجارُ الله لمن طهرهم إلا الخير ، وإلا الخيرات ، ولا يضعهم إلا في المواضع الطيبة التي أرادتها مشيئة الله تعالى لهم .

وهذا ما كان من السيدة المؤمنة البضعة النبوية رقية رضوان الله عليها ، إذ اختصها الباري سبحانه بمكارم النفحات العطرة ، ونفحات المكارم الندية ، منذ أن أيفعت إلى أن لقيت وجهه الكريم .

قال أصحاب السيرة وكتاب التراجم والطبقات : « كانت السيدة رقية رضي الله عنها قد خطبها عتبة بن أبي لهب ، وخطب أختها أم كلثوم أخوه عتبية بن أبي لهب ، ولكن الله تعالى قد أكرم البيت النبوي بأن خلّصه من أبي لهب وزوجه أم جميل بنت حرب ، بأن جعل المقادير تجري لصالح رقية رضي الله عنها ، وتصرف أبا لهب عن الخطبة وعن الزواج » .

فلنعش - أحبابي - مع البيت النبوي تلك اللحظات التي تنزلت فيها نفحات الإنعام عليه ، وظلت تحفه إلى غير نهاية .

أخذ سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يدعو إلى الإسلام سرّاً فاستجاب الله تعالى من شاء من الرجال والنساء والولدان .

وأوحى الله ﷻ إلى عبده قائلاً : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ (٢١٤) وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢١٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنْ بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (٢١٦) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾ [الشعراء: ٢١٤-٢١٧].

وتوكل الحبيب المصطفى ﷺ على العزيز الرحيم ، وقام بتنفيذ أمر ربه الذي تنزل ندياً بقوله ﷻ : ﴿ فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الحجر: ٩٤].

ويبدو أن بعض عمات رسول الله ﷺ قد نصحنه ألا يدعو عمه أبا لهب؛ لكيلا ينغص حياة ابنتيه رقية وأم كلثوم ، ولكيلا تثور هائجته فلا يدري بما يتكلم ، وحتى لا تنفث زوجه أم جميل سمومها في بنات النبي ﷺ ، فقد كان أبو لهب وأولاده ألعوبة في يد أم جميل التي ينهش الحسد قلبها إذا ما أصاب غيرها خير .

بلغ رسول الله ﷺ الدعوة ، وأخبر أقرباءه بأن الله ﷻ أمره أن ينذر عشيرته الأقربين ، وأنه لا يملك لهم من الدنيا منفعة ولا من الآخرة نصيباً ، إلا أن يقولوا : « لا إله إلا الله » .

وعندها وقف أبو لهب يلعبُ به الغرور ، ويركبه الطيش الأحمق المجنون ، وقال : « تَبًّا لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ » .

وانصرف أبو لهب تصاحبه اللعنات ، وترمقه عيون الأقربين بشيء من الاحتقار ، وسأله أحد القرشيين : « يا أبا لهب ، ما تفعل إن كان ما يقوله محمد ﷺ حقاً ؟ فقال أبو لهب في سخرية صفراء : إن كان ما يقوله محمد حقاً افتديت منه بهالي وولدي » .

رجع أبو لهب إلى داره ، وراح يروي لامرأته الحاقدة أم جميل بنت حرب ما

كان من أمر محمد ابن أخيه ، الذي أخبرهم أنه رسول الله ﷺ إليهم ليخرجهم من الظلمات والأوهام إلى صراط العزيز الحميد ، وراحت أم جميل تشارك أبا لهب في سخريته وهزئه .

وغلف الحقد قلب أم جميل ، واستولى الحسد على نفسها ، وران الغضب على شخصيتها ، فأضحت كتلة من الحقد والغدر والسوء ، وأضحت الأنانية تحتل أعماقها فلا تطيق الخير لغيرها ، فهي تشعر بنار الحقد ترعى في أحشائها ، وخاصة كلما وصف قومها خديجة بالطاهرة ، وكلما أثنوا عليها ، وخلعوا عليها فضائل الصفات وجميل المكارم ، ولولا الخشية أن تنكشف عن خبيثة نفسها الحاسدة الحاقدة الخبيثة لأعلنت على الملائة القرشي سبَّ خديجة ، وشتت كل من سارع إلى دوحة الإيمان .

ولعب الشيطان في نفسها ، وأحست برغبة عنيفة في داخلها للانتقام سيؤذي ولديها عتبه وعتيبة ، ولكنها ما دامت ستفرغ كل حقد ممكن لديها ، وتقيء كل عصارة كيد في جوانب نفسها ، فلا مانع من ذلك ما دام فيه إيذاء الدعوة المحمدية .

وانسلت كالأفعى الرقطاء تسعى في بيوت قريش ، تسب الحبيب الأعظم محمداً ، وتنال من خديجة لتشفى حقدتها ، وتحرض الفجار على من جعل الآلهة إلهًا واحدًا ، بل زعم أنه يُكَلِّمُ من السماء .

وظفقت أم جميل تزين للناس مقاومة الدعوة ، واجتثاث أصولها لأنها - بزعمها - تفرق بين المرء وأخيه ، وأمه وأبيه وصاحبه وبنيه ، وفصيلته التي تؤويه .

كانت أم جميل خراجة ولاجة ، تزرع بذور الفتنة في بيوت قريش ، ولما

انتهت من ذلك أخذت تجمع الحطب لتضعه في طريق رسول الله ﷺ لتؤذيه ، وفي هذا دليل على بُخلها الذي جُبلت عليه .

ولكن القرآن الكريم تنزل على الحبيب المصطفى ﷺ ندياً رطباً ، نزل عليه يشيرُ إلى المصير المشؤوم لأم جميل بنت حرب وزوجها المشؤوم أبي هلب ، قال الله تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَأَمْرَاتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥ ﴾ [سورة المسد] .

وهنا تبدأ النفحات الإلهية تسري في جنبات البيت النبوي ، وتحفظ نساء أهل البيت من كل سوء ، ومن كل ما يمس نقاء الإيمان وشفاء القلوب الموصولة بالله ﷻ ، وأكرم الله رقية وأم كلثوم بأن جعلهما في كنف ذي النورين عثمان بن عفان بعد فراق ابني أبي هلب لهما .

كانت رقية وأم كلثوم ابنتا رسول الله ﷺ في كنف ابني عمهما ، ولما نزلت سورة المسد ، وذاعت في مكة ، بل في الدنيا بأسرها ، ومشى بعضُ الناس بها إلى أبي هلب ، وأم جميل اربد وجه كل واحد منهما ، واستبد بها الغضب والحنق ، ثم أرسلتا إلى ولديهما عتبة وعُتبية ، وقالتا لهما : « إن محمداً قد سبها » ، ثم التفت أبو هلب إلى ولده عتبة وقال في غضب : رأسي من رأسك حرام إن لم تطلق ابنة محمد ، فطلقها قبل أن يدخل بها .

أما عتبية فقد استسلم لثورة الغضب ، وقال في ثورة واضطراب : لآتين محمداً فلاؤذينه في ربه .

أسرع عتبية بن أبي هلب إلى رسول الله ﷺ فشتمه ، ورد عليه ابنته وطلقها ،

فقال : «اللهم سلِّط عليه كلبًا من كلابك» ، واستجيب دعوة الرسول ﷺ ، فأكل الأسد عُتبية في أحد أسفاره إلى الشام ^(١) .

رقية وعُثمان :

ظنت أم جميل بنت حرب وزوجها أنها بتسريح رقية وأم كلثوم ﷺ سيلحقان الضرر بهما ، ولكن الله خَازَ لرقية وأم كلثوم الخير ، ورد الشقيين أم جميل وأبا لهب بغيظهما لم ينالا خيرًا وكفى الله البيت النبوي شرهما ، وكان أمر الله قدرًا مقدورًا .

وها هو ذا عثمان بن عفان أحد فتيان قريش مألًا وجمالًا وشبابًا وعزًّا ومنعة ، تصافح سمعه همسات دافئة تدعو إلى عبادة العليم الخبير الله رب العالمين ، ويسمع أيضًا من خالته سعدى بنت كرز كلّمات تدعو إلى التوحيد ، وفيها البرهان على صحة الدين الجديد ، وها هو ذا يسمع من الملائة القرشي بأن محمدًا قد أنكح عُتبة بن أبي لهب رقية ابنته - وكانت رقية ذات جمال رائع - ويبدو أن عثمان قد داخلته الحسرة لم لا يكون قد سبق عتبة إلى ذلك الشرف العظيم ؟ ولكن لكل أجل كتاب .

كان عثمان قد شرح الله صدره للإسلام عن طريق أبي بكر الصديق ﷺ .

فقد كان لعثمان عند أبي بكر مجلس فجاءه فوجده في المجلس ليس عنده أحد ، وجلس عثمان فرآه أبو بكر متفكرًا ، فسأله أبو بكر عما به فأخبره عثمان بما سمع من خالته سعدى بنت كرز عن محمد ﷺ ، وأنه يدعو إلى توحيد الله ﷻ ، ونبذ عبادة الأصنام ، ومعه الحق والبرهان والقرآن ، فقال له أبو بكر : «ويحك يا عثمان ، إنك لرجل حازم ما يخفى عليك الحق من الباطل ، ما هذه

الأوثان التي يعبدها قومنا؟ أليست من حجارة صم لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع؟» .

قال عثمان : «بلى والله إنها لكذلك يا أبا بكر» .

فقال أبو بكر : «إذن قد صدقتك خالتك بنت كريز ، هذا رسول الله محمد ابن عبد الله ﷺ ، قد بعثه الله برسالته إلى خلقه ، فهل لك أن تأتيه فتسمع منه ؟ فقال عثمان : نعم .

ويصف لنا عثمان ﷺ مشهد إيمانه فيقول : فوالله ما كان أسرع من أن مرّ علينا رسول الله ﷺ ومعه علي بن أبي طالب يحمل ثوبًا ، فلما رآه أبو بكر قام إليه فساره في أذنه بشيء ، فجاء رسول الله ﷺ فقعد ، ثم أقبل عليّ فقال : «يا عثمان ، أجب الله إلى جنته ، فإني رسول الله إليك وإلى خلقه» ، قال عثمان : فوالله ما تماكنت حين سمعتُ قوله أن أسلمت ، وشهدتُ أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، ثم لم ألبث أن تزوجت رقية بنت رسول الله ﷺ فكان يقال :

أحسن زوجين رأهما إنسان رقية وبعلمها عثمان^(١)

وفي زواج عثمان وإسلامه تقول خالته سعدى بنت كريز :

هدى الله عثمانًا بقولي إلى الهدى وأرشدهُ والله يهدي إلى الحق
فتابع بالرأي السديد محمدًا وكان برأي لا يصدُّ عن الصدق
وأنكحه المبعوث بالحق بنته فكان كبدر مازج الشمس في الأفق
فداؤك يا بن الهاشميين مهجتي وأنت أمينُ الله أرسلت للخلق

(١) عن الاستيعاب (٤/ ٣٢٠، ٣٢١)، ومختصر تاريخ دمشق (١٦/ ١١٤-١١٦)، مع الجمع

وسعدت رقية رضي الله عنها بهذا الزواج من التقيّ النقيّ عثمان بن عفان رضي الله عنه -
 وولدت له غلاماً سماه عبد الله ، واكتنى به ، فبلغ الغلام ست سنين فنقر ديك
 عينه فتورم وجهه ومرض ومات ، فلم تلد له بعد ذلك ^(١) .

رقية والهجرة إلى الحبشة :

كان المسلمون وفي مقدمتهم رقية وعثمان رضي الله عنهما في كرب عظيم ، فكفار
 قريش لا ينفكون يُنزلون بهم صنوف العذاب وألوان البلاء والنقمة : ﴿ وَمَا
 نَعْمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ [البروج: ٨] .

لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم بقادر آنذاك على إنقاذ المسلمين مما يلاقونه من البلاء
 المبين ، وجاء عثمان وابنته رقية يشكوان مما يقاسيان من فجرة الكافرين
 ويقرران أنهما قد ضاقتا باضطهاد قريش وأذاهم .

وجاء نفر آخرون ممن آمن من المسلمين ، وشكوا إلى الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ،
 ما يجدون من أذى قريش ، ومن أذى أبي جهل زعيم الفجار .

أطرق النبي صلى الله عليه وسلم هنيهة ، ثم أشار عليهم أن يخرجوا إلى جهة أرض الحبشة ؛
 إذ يحكمها ملك رفيق لا يظلم عنده أحد ، ومن ثم يجعل الله للمسلمين فرجاً
 مما هم عليه الآن ^(٢) .

أخذت رقية وعثمان رضي الله عنهما يعدان ما يلزم للهجرة ، وترك مهوى الأفئدة مكة
 أم القرى المحببة إليهما ؛ لأنهما قضيا نساتهما على أرضها المباركة .

وتبدو أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها وهي تودع ابنتها رقية وتجوّد بدمع غزير ،

(١) الاستيعاب (٤/ ٢٩٢، ٢٩٣) ، والإصابة (٤/ ٢٩٧) ، وسير أعلام النبلاء (٢/ ٢٥١) .

(٢) المغازي النبوية للزهري (ص ٩٦) .

على هذا الفراق إلى تلك البلاد البعيدة ، ولكن خديجة – كما عودتنا – على استعداد لأن تجود بكل شيء لتكون كلمة الله هي العليا ، ويشرق نوره على الوجود وإن فراق الأحبة ليهون في سبيل وجهه الكريم .

وراحت خديجة تنقلُ بصرها بين فلذة كبدها رقية ، وبين صهرها عثمان لتزود منها بنظراتِ هامسة ، همس الحنان ، وذلك قبل الرحيل وخفق قلبها ، ودار في خلدِها سؤال عن كيفية حياة ابنتها في تلك الديار البعيدة ، ولكن هذا الخاطر سرعان ما انقشع وتلاشى ليحل محله الاستسلامُ التام لأمر الله ﷻ .

لقد تعلمت خديجة وبناتها رضوان الله عليهن في مدرسة رسول الله ﷺ لذة التضحية في سبيل مرضاة الله ﷻ ورجاء رحمته .

سار المهاجرون نحو الحبشة تتقدمهم رقية وزوجها عثمان حتى وصلوا ودخلوا على النجاشي فأكرم وفادتهم ، وأحسن مثواهم فكانوا في خير جوار لا يؤذون ، يقيمون شعائر دينهم في أمن وأمان وسلام .

ومع وجود الأمن والاستقرار فإن رقية ﷺ كانت في شوق إلى أبيها رسول الله ﷺ ، وإلى أمها الطاهرة خديجة سيدة نساء العالمين ﷺ ، ولكن المسافة بعيدة ، وإن كانت الأرواح لتلتقي عبر المسافات يبرحها الشوق والحنان ، وإن كان في الحبشة ذوو قربي لرقية وعثمان ، كانوا رفقاء في درب الهجرة .

ويبدو لي أن السيدة رقية ﷺ كانت أكثر أهل الهجرة شوقاً وحنيناً إلى مكة ، ففيها أبوها الحبيب المصطفى ﷺ ، وفيها أمها أطهر الطاهرات خديجة ﷺ ، وفيها الأخوات المؤمنات الحبيبات الطاهرات : زينب وأم كلثوم وفاطمة ، وهؤلاء أساس البيت النبوي الطاهر وعماده وروحه وحياته ، ولذلك ظلت

رقية ترقب الأخبار القادمة من مكة إلى الحبشة في لهفة وترقب لسماع أخبار مسيرة الدعوة إلى الله ، وكذلك سماع أخبار الأهل والأحباب .

وجاء من أقصى مكة رجل من أصحاب رسول الله ﷺ فاجتمع به المسلمون في الحبشة ، وألقوا إليه أسماعهم حيث راح يقصُّ عليهم خبراً أثلج صدورهم خبر إسلام حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب ، وكيف أن الله ﷻ قد أعزَّ بهما الإسلام والمسلمين .

استبشر المهاجرون بإسلام حمزة وعمر وعاودهم الحنين إلى الوطن ، إلى أم القرى ، إلى البيت العتيق ، وألح عليهم الشوق إلى الأحبة بالعودة إلى مكة ، فرجعوا وقلوبهم تخفق بالأمل والرجاء وخصوصاً سيدة نساء المهاجرين رقية بنت رسول الله ﷺ ، التي تعلق فؤادها وأفئدة المؤمنين معها بنبي الله محمد ﷺ .

ولما وصل المهاجرون العائدون مشارف مكة لقوا ركباً فسألوهم عن قريش وعن رسول الله ﷺ وعن المسلمين ، فقالوا : ازدادت العداوة بين قريش والمسلمين ضراوة .

وإذ ذاك توقف المهاجرون واثمروا بينهم : أيرجعون إلى الحبشة أم يدخلون مكة ؟ حقاً فهذان أمران أحلاهما مرٌّ .

ولكن أنى للقلوب التي أضناها الحنين إلى البيت العتيق ، أن تعود وبينها وبين الأحباب ساعة من نهار ، فاستقر رأيهم أن يدخلوا مكة ، ويطفئوا الأشواق بلقاء الأحبة وقالوا : قد بلغنا مكة فندخل ، فننظر ما حال قريش ويحدث عهداً من أراد بأهله ثم نرجع .

ودخلوا مستخفين خائفين يترقبون ، خشية أن يراهم سفهاء قريش ، وانطلق كلُّ منهم إلى الأحباب ، ومشت رقية وعثمان إلى دار الطاهرة خديجة ﷺ ، وهبَّ

من في الدار يستبقون الباب فرحًا لاستقبال العائدين ، وكان من أشدهم رقية التي سعدت بأبيها المصطفى ﷺ ، وبأُمها سيدة النساء خديجة عليها سحائب الرضوان .

وفي تلك الليلة اللطيفة كان الحبيب المصطفى ﷺ ، وخديجةُ ﷺ ، وفاطمة الزهراء وأم كلثوم ومن في البيت النبوي ، يُصغون في اهتمام إلى ما كان بين المسلمين والنجاشي ملك الحبشة من كريم الحفاوة ، وحُسن الاستقبال لمن هاجر من مكة ، وتروي آلام الغربة في أرض الحبشة إلى أن أتوا مكة .

رقية والعودةُ إلى الحبشة :

علمت قريش برجوع المؤمنين المهاجرين فسارعوا إلى إيذائهم أكثر من ذي قبل ، واشتدت عداوتهم على جميع المؤمنين مما جعل أصحاب رسول الله ﷺ في قلق ، وإن كانوا على نور وهدى من ربهم ، وإن كان القرآن ينزل فيزيدهم إيمانًا مع إيمانهم ، فظلم قريش لهم كان عظيمًا ، وقتل منهم من قُتل تحت وطأة العذاب ، ومزقت الشياطين جلود كثيرٍ منهم ، ولكن الصبر الذي اعتصموا به زاد من إيغالهم في الخصومة والتعذيب .

وأخذ الفجرة الكفرة يشددون على المسلمين في العذاب وفي السخرية ، حتى ضاقت عليهم مكة ، وقاسى عثمان بن عفان ﷺ من ظلم أقربائه وذويه شيئًا كثيرًا ، وما أجمل قول الشاعر في هذا المقام :

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند

ولكن عثمان صبر وصبرت معه زوجته رقية ، مما جعل قريشًا تضاعف من ضراوة الأذى ، وتصب على ظهور المؤمنين سياط التعذيب ، فذهبوا إلى رسول الله

ﷺ يستأذنونه في الهجرة إلى الحبشة فأذن لهم ، فقال عثمان بن عفان ﷺ : يا رسول الله ﷺ ، فهجرتنا الأولى ، وهذه هي الآخرة إلى النجاشي ولست معنا . فقال رسول الله ﷺ : «أنتم مهاجرون إلى الله ، لكم هاتان الهجرتان جميعاً» . فقال عثمان ﷺ : «فحسبنا يا رسول الله» .

وهاجرت رقية مرة ثانية إلى الحبشة بصحبة زوجها عثمان وثلة من المؤمنين الذين بلغوا ثلاثة وثمانين رجلاً .

وبهذه الرحلة إلى الله ﷻ تتفرد رقية بنت رسول الله ﷺ بأنها الوحيدة من بناته الطاهرات التي تكتب لها الهجرة إلى بلاد الحبشة ، ومن ثم عُدت من أصحاب الهجرتين ^(١) ، وناهيك بفضل هؤلاء الغر الميامين الذين سارعوا إلى مغفرة من ربهم ورضوان ونعيم مقيم .

قال الإمام الذهبي رحمته الله عن هجرة رقية وعثمان رضي الله عنهما : «هاجرت معه إلى الحبشة الهجرتين جميعاً» ^(٢) ، وفيها قال رسول الله ﷺ : «إنهما لأول من هاجرا إلى الله بعد لوط» ^(٣) ، وفي رواية : «بعد إبراهيم ولوط عليهما السلام» ^(٤) .

ظل المسلمون في الحبشة في رعاية ملكها النجاشي حتى إن قريشاً بعثت من لديها وفدًا إلى النجاشي ، وأغروه بشتى وسائلهم الدنيوية ليصرف المسلمين عن أرضه ويطردهم ، أو يردهم إلى قريش ، ولكن وسائلهم الرخيصة باءت

(١) تفسير القرطبي (٤/٢٤٢) ، والمواهب اللدنية (٢/٦١) .

(٢) سير أعلام النبلاء (٢/٢٥١) .

(٣) الإصابة (٤/٢٩٨) .

(٤) أنساب الأشراف (١/١٩٩) .

بالخسران المبين ، وأحبط الله مسعاهم وعادوا إلى مكة يجرون أذيال الخيبة والفشل والخسران ، بينما أكرم النجاشي المسلمين وزاد في الإحسان إليهم حتى إن أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها كانت تقول : «فكنا عنده في خير منزل حتى قدمنا على رسول الله ﷺ وهو في مكة» .

رقية وفراق الأحبة :

مكثت رقية بصحبة زوجها عثمان في الحبشة وهما يعبدان الله عز وجل في أمن ، وكذلك بقية المهاجرين ، بينما كانت قلوبهم جميعاً متعلقة بالبيت العتيق وبأهلهم في أم القرى .

وكانت رقية رضي الله عنها في لهفة شديدة لرؤية أمها خديجة ، بينما كانت خديجة في مكة ينتابها الشعور نفسه إلا أن خديجة لم تكن تتوقع أنه سيأتي يوم تكون فيه ابتتها في أرضٍ بعيدة .

ومرضت خديجة رضي الله عنها وهي تتلهف على أن ترى ابتتها رقية قبل أن تموت ، إنها في شوق عظيم لأن تشم ريحها فهي تشعر بقرب اللقاء مع الله عز وجل ، ولكن هيهات ربما تذهب دون أن تودع فلذة كبدها ، ويبدو أن وداعها الأخير كان في اليوم الذي خرجت فيه رقية مرة أخرى عائدة إلى الحبشة .

وتوفيت خديجة رضي الله عنها بينما كانت رقية وبعض نسوة المهاجرين ورجالهن في الحبشة يتجهزون للعودة إلى مكة ، حيث وردت إليهم الأنباء بكثرة الداخلين في الإسلام من أهل مكة ، فهفت قلوبهم إلى العودة إلى مكة ، وفي مقدمتهم رقية وعثمان رضي الله عنهما .

وفي مكة سألت رقية عن أبيها وأمها فاستقبلتها أختها أم كلثوم وفاطمة ،

وأخبرتاها بأن رسول الله ﷺ قد خرج لرؤية العائدين من أصحابه ، بينما حاولت كل واحدة منهما كتمان خبر وفاة خديجة رضي الله عنها ، لكن البكاء غلبهما والحزن رسم علاماته على وجهيهما ، فكانت هذه الدموع والأحزان أبلغ في الدلالة على فقد عزيز ، وفي هذا الموقف أخذ رقية حزن عميق على فراق أمها خديجة ، وشكت بثها وحزنها إلى الله العليم الخبير .

ظلت رقية رضي الله عنها في مكة تأنس بأبيها رسول الله ﷺ ، وبزوجها عثمان رضي الله عنه ، وبأختيها أم كلثوم وفاطمة بينما كانت أختها زينب لا تزال في بيت زوجها أبي العاص ابن الربيع ، ولم يطل مقام رقية بمكة ، فقد أذن رسول الله ﷺ لأصحابه بالهجرة إلى عرين الأنصار في المدينة المنورة ، فكانت رقية وزوجها في مقدمة المهاجرين ، وهناك في المدينة سعدت بقرب الأنصار الذين وصفهم الله تعالى بالكرم ، وأثنى على جودهم وإيثارهم فهم : ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩] .

ولو لم يكن لرقية رضي الله عنها إلا كونها ابنة النبي الكريم ﷺ ، وكونها هاجرت المهجرتين لكان في ذلك البلاغ ، وفي هذا دليل واضح لكل ذي بصيرة ودراية على أن بنات النبي ﷺ لم يكن بعيدات عن المشاركات الفعالة في نصره هذا الدين القويم .

«فنعنم عقبى الدار» :

بعد أن هاجرت رقية إلى المدينة المنورة مع المؤمنين أخذت مكانها بين نساء أهل البيت ، ورحبت بمقدمها نساء الأنصار اللواتي سمعن كثيراً عن مكارم صفاتها وعن صبرها ، وهجرتها إلى أرض الحبشة .

أما المؤمنون فقد كانوا ينعمون بأنعم العبادة ، ويصلون ما أمر الله به أن

يوصل ، ويحفون بالحبيب المصطفى ﷺ ، ويعملون على طاعته والائتمار بأمره ، وكان من أسرع الناس امتثالاً لأمره عثمان بن عفان ، عليه سحائب الرضوان . وكانت رقية ؓ تنعم بقرب أبيها وزوجها في المدينة المنورة ، إلا أن المرض لم يتركها فقد أصيبت بمرض الحصبة ^(١) .

ولزمت الفراش في الوقت الذي دعا فيه رسول الله ﷺ للخروج إلى بدرٍ لقتال المشركين .

وسارع عثمان ؓ لامتنال الأوامر المحمدية ، إلا أنه تلقى أمراً بالبقاء إلى جانب رقية لتمريرها ، وامتل هذا الأمر أيضاً بنفس راضية ، وبقي إلى جوار زوجته الصابرة الطاهرة رقية ^(٢) بنت رسول الله ﷺ ، إذ اشتد بها المرض وطاف بها شبح الموت .

ها هو ذا عثمان يرنو بعينين حزيتين إلى وجه رقية الذابل فيتألم لحالها ، وتشرق الدموع في عينيه ، وتنثال على رأسه الذكريات البعيدة ، ورأى رقية وهي في الحبشة تحدث المهاجرات حديثاً ، يدخل البهجة إلى النفوس ، ويبعث الآمال الكريمة في الصدور ، وتقص عليهن ما كانت تراه من مكارم أبيها رسول الله ﷺ ، وحركت هذه الذكريات أشجان عثمان وزادت في مخاوفه ، وكان أخشى ما يخشاه أن تموت رقية فينقطع نسبه من رسول الله ﷺ .

رنا عثمان ثانية إلى وجهه زوجته الذابل ففرت سكينته ، ولفه الحزن الشديد الممزوج بخوف واضطراب .

(١) الإصابة (٤/٢٩٨) ، وأسد الغابة (٦/١١٤) .

(٢) مجمع الزوائد (٩/٢١٧) .

كانت سيدتنا رقية رضي الله عنها تغالب المرض ، ولكنها لم تستطع أن تقاومه طويلاً ، فأخذت تجود بأنفاسها وهي تتلهف لرؤية أبيها الذي خرج إلى بدر ، وتتلهف لرؤية أختها زينب في مكة ، وجعل عثمان رضي الله عنه يرنو إليها من خلال دموعه والحزن يعتصر قلبه ، مما كان أوجع لفؤاده أن يخطر على ذهنه أن صلته الوثيقة برسول الله صلى الله عليه وسلم توشك أن تنقطع .

إن فجيعة في رقية مزدوجة : فقد الزوجة الوفية الطاهرة ، وانقطاع نسبه من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأخذت الأفكار تجول في رأسه أتموت رقية قبل أن يرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوته ؟

أتموت دون أن يكون آخر من تراه وجه أبيها ؟

إن عثمان يكاد أن ينهار لولا أنه تجلد وتصبر حتى لا يزيد من آلام رقية التي تعاني من سكرات الموت ما تعاني .

رفرفت على شفاه رقية الذابلة ما يرفرف على شفاه الأبرار كلمة التوحيد «أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله» .

لحقت رقية بربها ، وكانت أول من لحق بأمة المؤمنين خديجة من بناتها ، لكن رقية توفيت بالمدينة ، وخديجة توفيت بمكة قبل بضع سنين ، ولم ترها رقية ، وتوفيت رقية ولم تر أباه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حيث كان يبدر مع أصحابه الكرام يُعلون كلمة الله فلم يشهد دفنها ^(١) .

(١) تفسير القرطبي (٤/٢٤٢) .

جُهزت رقية ، ثم حُمل جثمانها الطاهر على الأعناق ، وسار زوجها عثمان وهو وَالِيَةٌ حزين حتى إذا بلغت الجنازة البقيع دُفنت هنالك ، وانهمرت لوداعها دموع المشيعين .

وسُوِّيَ التراب على قبر رقية بنت رسول الله ﷺ ، وفيما هم عائدون إذا بزید ابن حارثة قد أقبل على ناقه رسول الله ﷺ ، يبشر بسلامة رسول الله ﷺ ، وقتل المشركين وأسر أبطاهم (١) .

فتلقى المسلمون في المدينة المنورة هذه الأنباء بوجوه مستبشرة بنصر الله لعباده المؤمنين ، وكان من بين الوجوه المستبشرة وجه عثمان الذي لم يستطع أن يخفي آلامه لفقد رقية ﷺ .

وفي المدينة المنورة خرج رسول الله ﷺ إلى البقيع ووقف على قبر ابنته يدعو لها بالغفران .

لقد ماتت رقية ذات الهجرتين قبل أن تسعد بالبشرى العظيمة بنصر الله ، ولكنها سعدت بلقاء الله في داره : ﴿ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ [الرعد: ٢٤] .

وضرب رسول الله ﷺ لعثمان بسهمه من بدر ، فقال عثمان : وأجرى يا رسول الله ﷺ ؟ قال : « وأجرك » .

وبعد عزيزي القارئ - فهذه إشراقات وقبسات موقنة من سيرة سيدتنا رقية بنت رسول الله ﷺ عشنا معها في وجداننا ، فهل تقتبس نساؤنا من سيرتها قبسات هاديات هادفات يضئ من خلالها دربهن في هذه الحياة ؛ ليكون من السعيدات ؟

(١) الاستيعاب لابن عبد البر (٤/ ٢٩٥) .

نأمل ذلك ، ونأمل ممن قرأ سيرة رقية بنت رسول الله ﷺ ، واستفاد منها أن يخلصنا بدعوة منه في ظهر الغيب ، ونرجو من الله ﷻ أن يحشرنا مع أهل البيت ، ويغفر لنا ويعفو عنا ، إنه على كل شيء قدير .

فرضي الله عن كريمة الوالدين وصاحبة الهجرتين وزوجة ذي النورين رقية بنت رسول الله ﷺ ، وجعل جنة الفردوس الأعلى مثواها .



أم كلثوم بنت النبي ﷺ

ولدت أم كلثوم في مكة قبل البعثة ، وأسلمت مع أمها خديجة ﷺ .

هاجرت إلى المدينة المنورة وهي صابرة مستسلمة لله ﷻ .

قال النبي ﷺ : « يتزوج عثمان مَنْ هي خير مِنْ حفصة » ، فتزوج

عثمان أم كلثوم ﷺ سنة (٣هـ) .

قال النبي ﷺ لأم كلثوم : « زوجتك من يحبُّه الله ورسوله ، ويحبُّ

الله ورسوله » .

توفيت سنة (٩هـ) ، في حياة أبيها ودفنت بالبقيع رضي الله عنها

وأرضاهما .

أم كلثوم بنت النبي ﷺ

البضعة النبوية :

أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ محمد بن عبد الله بن عبد المطلب الهاشمية^(١) ، إحدى بنات النبي ﷺ ، وإحدى نساء أهل البيت النبوي الطاهر ، تلك التي نستروح عبير الريحان باللقاء معها في هذه الصفحات ، ليطيب الحديث عن سيرتها الميمونة المونقة .

ففي كنف البيت النبوي الطاهر نشأت أم كلثوم على أتقى التقى ، إذ لقيت كل عناية ، وصنعت على عين أمها الطاهرة خديجة ﷺ ، فغدت واحدة ممن حفظ الدهر مقامهن ، وعرف نسوة القوم مكانتهن .

وهب الله ﷻ لمحمد ﷺ أولى بناته زينب ، وقد تزوجها ابن خالتها أبو العاص بن الربيع ، ثم رقية وتزوجها عثمان بن عفان ، ثم أم كلثوم ، ثم فاطمة الزهراء .

وكانت رقية وأم كلثوم قد خُطبتا إلى عتبة وعُتبية ابني أبي لهب ، وقد مرت معنا تلك القصة في سيرة رقية ﷺ ، وانتقالها بفضل الله إلى بيت عثمان بن عفان ، وها نحن أولاء مرسلو القول في أختها أم كلثوم ﷺ ، وكيف أراد الله بها - هي الأخرى - خيراً ، ففارقها عُتبية بن أبي لهب ، وذلك قبل أن يدخل بها^(٢) .

(١) طبقات ابن سعد (٨/٣٧، ٣٨) ، والمعارف (ص ١٢٦، ١٤١، ١٥٨، ١٩٢) ، والمعرفة والتاريخ (٣/١٥٩) ، والمستدرک (٤/٤٨، ٤٩) ، والاستيعاب (٤/٤٦٣ - ٤٦٥) ، والإصابة (٤/٤٦٦) ، وأسد الغابة (٦/٣٨٤) ، ترجمة رقم (٧٥٧٣) .

(٢) المعارف (ص ١٤٢، ٢١٦) .

وأكرمها الله بأن نجاها من البيت اللهبي ومرارة الحياة مع والده ووالدته
حمالة الخطب .

خديجة وأم كلثوم :

عاشت أم كلثوم حياة كريمة طيبة في رعاية أبوين كريمين سيدنا رسول الله ﷺ ، وأمها الطاهرة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها ، ولما بلغت أشدها ، واكتملت أنوثتها ، كانت من أكمل فتيات قريش أدبًا وسلوكًا وتربية وأخلاقًا ، وكانت أختها رقية أكبر منها قليلًا ، وإذ ذاك تقدم لخطبة رقية وأم كلثوم عتبة وعتيبة ابنا أبي لهب ، فكانت رقية قد خُطبت لعتبة وأم كلثوم لعتيبة ^(١) .

كانت خديجة رضي الله عنها سعيدة إلى حد ما بهذه الخطبة ، ولكن إحساسًا غامضًا كان يرفرف على نفسها فتشعر بشيء من الانقباض ، وكثيرًا ما كانت تفكر في أم جميل بنت حرب التي استولت على زوجها أبي لهب ، فأصبح مسلوب الإرادة ، لا يقوى على التصرف بأميرٍ دون أن يحصل بالإذن على موافقتها .

ها هي ذي خديجة - رضوان الله عليها - تتهلل بالفرح أخذت تناجي الله ﷻ ، وتشكره بلسانها وبكل جوارحها على أن اصطفى زوجها محمد بن عبد الله ﷺ لرسالته ، وها هو ذا رسول الله ﷺ يلبي أمر ربّه وينذر عشيرته الأقربين ، بعد أن أوحى إليه ربّه ما أوحى .

ولما كانت خديجة أول خلق الله إسلامًا ، كانت بناتها الطاهرات قد نُظمن معها في عقد السبق إلى ساحة الإيمان ، وكتب لهن الخلود في دنيا الخلود ، ولنلن قصب السبق في عداد الأولين وما أدراك ما مكانة الأولين ؟

(١) تفسير القرطبي (١٤/٢٤٢) .

أسلمت أم كلثوم وجهها لله ﷻ وعرفت لذة مناجاته ، وراحت تتلقى أمور الإسلام عن أبيها ﷺ ، حتى غدت متعلقة القلب بالله ﷻ ، تنظر بنور الله وتعمل بنور الله .

أما خديجة ﷺ فقد تهلت بالفرح لما شهدت ابنتها أم كلثوم بوحدانية الله ﷻ ورسالة أبيها محمد ﷺ ، إلا أنها شعرت بوجيب قلبها قد أخذ يشتد ، وقد استولى عليها خوف غامض لما فكرت في مآل ابنتها : رقية وأم كلثوم ، في الدار اللهبية حيث عُنْبة وعتيبة العوبتان في يد أمهما أم جميل ، وأم جميل بنت حرب امرأة قاسية القلب ، عنيفة في عداوتها كأنها فؤادها قُدَّ من صخر ، وأما زوجها أبو لهب فقد أطلق لشهواته العنان ، وراح يمضي أوقاته في المقامرة والشراب والتفاخر بالأموال والأولاد ، ولم يكن يهيمه في دنياه إلا الحصول على شهواته في حماة المعاصي وأوحالها .

أخذت خديجة ﷺ تفكر في مصير ابنتها رقية وأم كلثوم فقد أصبح مستقبل كل واحدة منهما متأرجحًا ، ولا سيما أن أمر رسول الله ﷺ قد استعلن في مكة ومن حولها ، ولم يدخل عُنْبة أو عتيبة أو أحد من دار أبي لهب في الإسلام ، وربما سُتُغلق في وجه رقية وأم كلثوم أبواب الزواج ، وستبقيان في بيت أبيهما وهما كسيرتا الفؤاد .

كانت خديجة تفكر في هذا كله ، وهي ترنو بعين البصيرة إلى سناء الحق الذي ينبعث من بيتها ، ولكن ماذا تستطيع أن تفعل ؟ إنها لا تملك إلا الاستسلام لله ﷻ الذي بيده مقاليد السموات والأرض .

دعوة الأقربين :

مضى رسول الله ﷺ يدعو الناس إلى الإسلام ، فاستجاب من استجاب ،

ودخل دار الأرقم بن أبي الأرقم ومعه أصحابه يوحدون الله ، ويعبدونه ويصلون ويتفقهون في أمر الدين ، ثم أوحى الله ﷻ إلى رسول الله ﷺ أن يجهر بالدعوة ، ويُعرض عن المشركين فهو وليه وناصره .

وفي دعوة جمعت العشيرة الأقربين عرض الحبيب المصطفى ﷺ دعوته على أقاربه فلم يستجب أحد منهم إلى الدعوة ، ثم مرت أيام فجمعهم رسول الله ﷺ مرة ثانية وأخذ يعظهم وخطبهم ثم قال لهم : «إن الرائد لا يكذب أهله والله لو كذبت الناس جميعًا ما كذبتكم ، ولو غررتُ الناس جميعًا ما غررتكم ، والله الذي لا إله إلا هو إني لرسول الله إليكم خاصة ، وإلى الناس كافة ، والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون ، ولتعجزون بالإحسان إحسانًا وبالسوء سوءًا ، وإنها لجنة أبدًا ، أو لنار أبدًا ، والله يا بني عبد المطلب ، ما أعلم شابًا جاء قومَه بأفضل مما جئتكم به ، إني قد جئتكم بأمر الدنيا والآخرة» .

فتكلم القوم كلامًا لينا غير أبي لهب ، فإنه قال : يا بني عبد المطلب ، هذه والله السوأة خذوا على يديه قبل أن يأخذ على يديه غيركم ، فإن أسلمتموه حيثئذٍ ذلتم ، وإن منعتموه قتلتم .

وكان في تلك الدعوة صفة عمه رسول الله ﷺ ، وكانت عاقلة قد استنارت بنور الإيمان ، فقالت لأخيها أبي لهب : «أي أخي ، أيحسُنُ بك خذلان ابن أخيك ، فوالله ما زال العلماء يخبرون أنه يخرج من ضئضيء - أصل - عبد المطلب نبي فهو هو» .

فقال أبو لهب في ضيق ، وقد أخذه هياج الغضب : «هذا والله الباطل والأمانى وكلام النساء في الحجال إذا قامت بطون قريش وقامت معها العرب

فما قوتنا بهم ، فوالله ما نحن عندهم إلا أكلة رأس» .

انصرف أبو لهب من ذلك المجلس غاضبًا لا يرى أمامه من شدة ما نزل به ، وبعد أيام كان رسول الله ﷺ يهتف على جبل الصفا ، ويدعو قومه إلى صراط العزيز الحميد ، وإلى شهادة أن لا إله إلا الله ، وإذ ذاك قال أبو لهب : «تَبَّ لك سائر اليوم» ، وعاد إلى داره ، وأخذ يقص على امرأته أم جميل ما سمعه من محمد ابن أخيه فأحست بنار الحقد تسري في جوفها ، وتغلي العداوة في أحشائها ، وقررت تحطيم الدعوة الجديدة بكل ما تملك من وسيلة وحيلة .

وأخذت وزوجها يكيدان لرسول الله ﷺ والمؤمنين ، ولكن الله ﷻ أوحى إلى رسوله محمد ﷺ قوله : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَّا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ ۚ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَأَمْرَاتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ [سورة المسد] .

ذاعت السورة في مكة وقرئت أمام أبي لهب ، فعرف وزوجه أم جميل ما أنزل الله فيهما من أليم العذاب وشديد العقاب ، فاستبد بهما الحمق ، والحنق والغضب ، وأرادا - بزعمهما - أن ينتقما من رسول الله ﷺ ، فأمرتا ولديهما عتبة وعتيبة أن يفارقا ابنتيه .

فأما عتبة ففارق رقية دون أن يؤذيها أو يؤذي رسول الله ﷺ ، وقد سأله رسول الله ﷺ طلاق رقية ، وسألته رقية ذلك فقالت أم جميل لابنها عتبة : طلقها يا بني فإنها قد صبأت فطلقها .

وأما عُتبية فقد لعب به الغضب وركبه الغرور ، وأقسم بأنه سيؤذي محمدًا ﷺ في ربه وفي شخصه ، وطلق عُتبية أم كلثوم ﷺ ، وجاء إلى النبي ﷺ حين

فارق أم كلثوم وقال : كفرت بدينك وفارقت ابنتك لا تحبني ولا أحبك ، ثم سطا عليه فشق قميص النبي ﷺ ، فقال ﷺ : « اللهم ابعث عليه كلبًا من كلابك » .

واستجاب الله ﷻ دعوة سيدنا رسول الله ﷺ ، وافترس الأسد عتبية وهو في تجارة له إلى الشام ، أما كيف استجيب دعوة رسول الله ﷺ فنحن ذاكرو هذا إن شاء الله لنشهد مشهدًا جليلاً من دلائل نبوة سيدنا وحبينا رسول الله ﷺ ، ونذكر مكانة سيدتنا أم كلثوم ﷺ .

الدعوة المستجابة :

أوردت المصادر الوثيقة بين ثناياها خبر موت عتبية بن أبي لهب إثر دعوة عليه من رسول الله ﷺ فقالت : كان أبو لهب واسمه عبد العزى بن عبد المطلب ، وابنه عتبية قد تجهزا إلى الشام في تجارة لهما مع قافلة لقريش ، وكانت الدعوة المحمدية قد أشرقت بنورها على مكة ، فأمن من آمن وكفر من كفر ، وكان من بين الذين كفروا واشتدت أذيتهم للإسلام وأهله : عتبية بن أبي لهب فقال لأبيه : والله لأنطلقن إلى محمد ولأوذينه في ربه .

وانطلق عتبية تاركًا القافلة وراءه وأتى النبي ﷺ فقال : يا محمد هو يكفر بالذي ﴿ دَنَا فَنَدَلْكَ ﴾ ﴿ ٨ ﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴿ [النجم: ٨، ٩] ، ثم تكلم كلامًا شنيعًا تنبو عنه الأخلاق الحميدة .

فقال النبي ﷺ : « اللهم سلط عليه كلبًا من كلابك » ، ثم انصرف عنه .

رجع عتبية إلى أبيه فقال له : يا بني ما قلت له؟ فذكر ما قاله من فحش القول وفاحشه وسوء الكلام ، وأحس أبو لهب بخطرٍ غريبٍ يقتحم قلبه ،

فقال لابنه عتيبة : ما قال لك ؟ وبماذا رد عليك ؟ قال عتيبة : قال : «اللهم سلط عليه كلبًا من كلابك» ، فشر أبو لهب بالأسى والخوف وقال : يا بني والله ما آمنُ عليك دعاء محمد .

انفصلت القافلة ، وانطلقت لتغيب في الأفق البعيد ، وأبو لهب لا تفارق مخيلته دعوة ابن أخيه على ابنه عُتَيْبَة ، وهو يحذر كل الحذر أن يصاب بسوء . أخذت القافلة تغذ السير حتى نزلت في مكان يُسمى الشِراة - وهي مأسدة - فنزلوا قريبًا من صومعة راهب ، فأشرف عليهم الراهب من الدير ، وقال متعجبًا : يا معشر العرب ، ما أنزلكم هذه البلاد ؟ فإنما تسرح الأسدُ فيها كما تسرح الغنم .

فقال أبو لهب لمن معه من رجال القافلة : إنكم قد عرفتم كبر سني وحقني عليكم .

فقالوا : أجل يا أبا لهب .

قال : إن هذا الرجل ابن أخي وقد دعا على ابني دعوة ، والله ما آمنها عليه ، فاجمعوا متاعكم إلى هذه الصومعة ، وافرشوا لابني عليها ثم افرشوا حوله . سقط الليل وأرعى سدوله على المكان ، وبات القوم حول عُتَيْبَة وأبو لهب معهم أسفل ، وبات عُتَيْبَة فوق ذلك المتاع وهو يظنُّ أنه في مأمن وأمان ونسى أنه لا عاصم اليوم من أمر الله .

في دجى الليل العميق وسكونه جاء أسد من تلك الناحية ، وبدأ يشم وجوه القوم ، ويبدو أن الأسد لم يجد ما يريد وما يبغيه بين هؤلاء ، فاستجمع قوته ووثب وثبة شديدة ، فإذا هو فوق المتاع ، وأخذ يشم وجه عتيبة فعرف أن هذا

المجرم هو طُلبته ، وإذ ذاك وثب عليه وضربه ضربةً شديدةً هشم بها رأسه .
 شق سكون الليل صرخة عُتبية المروعة ، وهب رجال القافلة من نومهم
 مضطربين ، ودب الذعر بينهم ، فاستشعر الأسد بالخطر فانسَلَّ بعيدًا بعد أن
 أدى مهمته بنجاح فهو واحد من جنود الله يرسلُهُ على من يشاء .

والثفّ رجال القافلة حول عُتبية وهو يجود بأنفاسه بين يدي أبيه وهو
 يقول : يا ويل أُمي ، هو والله كما دعا محمد عليّ وهو بمكة وأنا بالشام .
 ولاح في وجه أبي هب الرُّعب الممزوج بالأسى ، وأرسل زفرة كادت روحه
 تخرج معها ، وقال : قد عرفت أنه لا ينفلت من دعوة محمد ^(١) .

من الجدير بالذكر أن عُتبة بن أبي هب قد أسلم ، وأسلم معه أخوه مُعتب ،
 وقد نظم بعض الفضلاء أسماء أولاد أبي هب وذكر إسلام عتبه ، ومعتب
 وكفر عُتبية فقال :

كرهتُ عُتبية إذ أجرما وأحببتُ عُتبة إذ أسلما
 كذا مُعتب مُسلم فاحترز وخف أن تسب فتى مسلمًا ^(٢)

المهاجرة الصابرة :

عادت الأختان رقية وأم كلثوم رضي الله عنهما إلى البيت النبوي ، فأما رقية فقد
 تزوجها عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وهاجرت معه إلى الحبشة المهجرتين جميعًا .

وأما أم كلثوم فقد بقيت مع أختها الصغرى فاطمة الزهراء في بيت أبيها
 رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بمكة .

(١) مختصر تاريخ دمشق (١٦/٧٣، ٧٤) .

(٢) حاشية الصاوي على تفسير الجلالين (٤/٣١٢) .

ها هي الأيام والشهور والأعوام تمضي وقريش تزداد ضراوة وعداوة للذين آمنوا على الرغم من إسلام عمر بن الخطاب وحمزة بن عبد المطلب قبله ، وكذلك إسلام عدد من شجعان قريش وشبابها ، ولكن هذا كله لم يرجع قريشاً عن غيرها وعن ائتمار مشركيها فيما بينهم على مقاطعة رسول الله ﷺ ، وبني هاشم ، وسجلوا مقاطعتهم الغاشمة الظالمة في وثيقة علقوها في جوف الكعبة .

دخلت نساء البيت النبوي الطاهر إلى شِعْبِ أَبِي طَالِبٍ لِيُضْرَبَ عَلَيْهِنَّ الحِصَارَ ، وكانت أم كلثوم وأختها فاطمة وأمها خديجة في جملة المحاصرين ، أما زينب ابنة خديجة فكانت عند زوجها أبي العاص بن الربيع ، وأما رقية فكانت مهاجرة في الحبشة مع زوجها ﷺ .

وعاشت أم كلثوم ﷺ أيام الحصار في ضيق وشدة تقاسم أباهما وأمها ضنك الحصار حتى بلغ الجوع منهم مبلغاً عظيماً جعلهم يأكلون خشن الطعام وورق الشجر وما شابه ذلك لسد غضب الجوع الرهيب .

صبرت أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ صبراً جميلاً ، وتحملت المشقة والعناء ، ما تنوء بحمله راسيات الجبال ، وكان شعارها وشعار نساء أهل البيت : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ ﴾ [يوسف: ١٨] .

كان الحصار الأليم الذي دام ثلاث سنين عدداً قد أوهن بعض الناس ومن أثر فيه ذلك الحصار أمنا خديجة ﷺ ؛ إذ كانت متقدمة في السن فأضناها الحصارُ الزنيم ، ووقدت في فراش المرض ، وسهرت أم كلثوم على رعايتها حتى أذن الله ﷻ بالفرج ، ونُقِضَتِ الصَّحِيفَةُ الغاشمة وانتهت المقاطعة الظالمة .

خرج المؤمنون الصابرون من الشعب ، وفيهم أم كلثوم وأمها خديجة وأختها الزهراء إلا أن المرض أقعد السيدة خديجة وألزمها الفراش ، ولم تمكث إلا فترة حتى انتقلت إلى دار السلام عند مليكٍ مقتدر مبشرة من الرسول الكريم ﷺ بما أعد الله لها من نعيمٍ مقيم في بيتٍ من قصبٍ لا صخب فيه ولا نصب .

وبكتها أم كلثوم بكاءً شديداً ، فهي الأم والصديقة والأخت ، وهي فيض الحنان وينبوع العطف وكل فضيلة .

كانت وفاة السيدة خديجة في اليوم العاشر من رمضان سنة عشر من البعثة النبوية ، وحملت إلى الحجون ، ثم نزل رسول الله ﷺ في حفرتها ، وأودعها التراب بيديه الشريفتين ، ثم عاد إلى بيته ، وضم إليه ابنتيه أم كلثوم وفاطمة يواسيهما وتواسيانه على المصاب الفادح ، ولكن شعارهم قول الله : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ ﴾ [يوسف: ١٨] .

وتمضي الأيام والمسلمون يلقون ما يلقون من أذى قريش وبيغيتها شيئاً عظيماً ، حتى أذن الله ﷻ بالهجرة إلى المدينة المنورة ، فهاجر رسول الله ﷺ تاركاً أم كلثوم وفاطمة وحيدتين ، يكاد يقضي عليهما الأسى ، لولا رحمة الله التي فاضت ببركاتها على البيت الكريم وعلى البنات الطاهرات .

ولما تمت هجرة النبي ﷺ إلى المدينة أرسل زيد بن حارثة وأبا رافع وهما موليا رسول الله ﷺ ليأتيا بأهليهما ، فذهبا وجاءا بأم كلثوم وفاطمة ابنتي الرسول ﷺ وزوجته أم المؤمنين سودة بنت زمعة وأم أيمن زوج زيد وابنها أسامة بن زيد رضي الله عنهم أجمعين .

وقد كُتبت أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ في سجل المهاجرات إلى الله ورسوله ، وحظيت بالتكريم الإلهي - وهو ما أعده لهؤلاء من الأجر والثواب .

وفي المدينة المنورة استقبلت نساء الأنصار أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ بالحفاوة والتكريم ، وراحت تتابع حياة الصبر والجهاد في المدينة المنورة .

ويأتي شهر رمضان من العام الثاني للهجرة فإذا برقية أختها تمرض وتقعدها حمى الحصبة في الفراش ، وإذ ذاك دعا داعي الجهاد إلى الخروج لبدر ، وأذن رسول الله ﷺ لعثمان بالبقاء إلى جانب رقية ليقوم على تمريضها ، بينما خرج الرسول ﷺ والذين معه إلى بدر حيث أنزل الله ﷻ نصره عليهم وأيدهم بالملائكة ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هي العليا ، وعاد رسول الله ﷺ والمؤمنون من بدر وهم يلهجون بالثناء على الله الكبير المتعال الذي أيدهم بنصره .

ولما جاء البشير إلى المدينة ليلقي بشارة النصر على الناس بما فتح الله على رسوله من ظفر - وكانت رقية ابنة رسول الله ﷺ قد ماتت ورجع الناس من جنازتها وحزن المؤمنون لوفاتها ، وكان من أشدهم حزنًا أختها أم كلثوم التي شهدت وفاتها وأيامها الأخيرة ، وهي تغالب المرض والأسقام .

وسجلت أم كلثوم في ديوان الصابرين المؤمنين أسمى آيات التسليم لقضاء الله وقدره ، واقتدت في ذلك بأبيها ﷺ حتى نالت درجة رفيعة لم تبلغها واحدة من نساء آل البيت مما جعل رسول الله ﷺ يطلق عليها اسم «الخيرة» فما أجمل الحياة مع الخيرات .

الخيرة والخيرات :

عندما يصف رسول الله ﷺ ابنته أم كلثوم بأنها خيرة ، فلأنه أعرف الناس

بالناس ، ورسول الله ﷺ هو الذي قال عنه ربنا ﷻ : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۗ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴾ [النجم: ٣- ٥] .

وقد عرف ﷺ المكانة الكريمة التي نالتها ابنته أم كلثوم فأطلق عليها لقب «الخيرة» ، والحق فإن هذا اللقب هو مجمع الفضائل كلها .

فقد ذكرت كتب الصحيح والسنن وغيرها من المصادر الوثيقة خبر زواج عثمان بن عفان من أم كلثوم الخيرة الفاضلة ، وأوردت ثناء رسول الله ﷺ عليها بما فيها من صفات الفضل التي تفوقت بها على حفصة بنت عمر التي غدت أم المؤمنين : «ذكروا أن خنيس بن حذافة زوج حفصة بنت عمر قد مات عنها عقب غزوة بدر ، وكانت رقية بنت رسول الله ﷺ قد ماتت ، ولما يقدم رسول الله ﷺ من بدر ، وحزن عثمان لوفاة زوجته حزناً شديداً ، وأما عمر بن الخطاب فقد أحب أن يخفف حزن عثمان ، فذهب إليه وحياه بتحية الإسلام ، ومن ثم عرض عليه حفصة وقال : إن شئت أنكحتك حفصة .

ولكن عثمان ما زال الحزن يملأ وجدانه ورقية لم تغب عن باله ، رغم أن ثرى البقيع قد احتوى جثمانها الطاهر ، لم يشأ أن يتكلم برأي أو يصد رغبة عمر ، وإنما قال له بلهجة ممسوحة بالحزن : سأنظر في أمري يا عمر .

مكث عمر بضعة أيام ، فإذا بعثمان لا يبدي رغبة في الزواج من حفصة ، بل لقي عمر ، وأخبره أنه مُعرض عن الزواج في هذه الأيام .

تركه عمر وشأنه ، بيد أنه وجد في نفسه بعض الحزن لإعراض عثمان عنه ، وذهب عمر إلى أبي بكر الصديق رضوان الله عليه ، وبث إليه نجواه ، وما ينبغي في خفايا نفسه من زواج حفصة وقال له : يا أبا بكر ، إن شئت زوجتك حفصة ،

غير أن أبا بكر الصديق لم ينطق بحرف واحد ولزم الصمت ، أما عمر الذي مضى والتأثر بادٍ على محياه من موقف أبي بكر وعثمان ، ولم يدر لماذا وقف كل واحد منهما هذا الموقف غير الواضح .

وانطلق عمر إلى الحبيب الأعظم محمد ﷺ يعرض عليه ما حدث ، ويشكو إليه حاله ، وكانت أم كلثوم ﷺ تسمع شكوى عمر وشكايته ، وإذ ذاك قال رسول الله ﷺ لعمر : «يتزوج حفصة من هو خير من عثمان ، ويتزوج عثمان من هي خير من حفصة» .

وكان قلب أم كلثوم ﷺ قد شعر بما يقصده رسول الله ﷺ ، فليس خير من حفصة سوى ابنة رسول الله ﷺ ، وهذا ما كان فعلاً ، فقد تزوج عثمان بأم كلثوم في سنة ثلاث من الهجرة ، وتزوج رسول الله ﷺ حفصة بنت عمر .

أما كيف تزوج عثمان أم كلثوم فسيدنا أبو هريرة ﷺ يذكر لنا ذلك فيخبرنا : أن عثمان لما ماتت رقية امرأته بنت رسول الله ﷺ بكى ، فقال رسول الله ﷺ : «ما يبكيك؟» .

فقال : أبكي على انقطاع صهري منك .

فقال : «فهذا جبريل ﷺ يأمرني بأمر الله ﷻ أن أزوجك أختها» ، وفي حديث آخر بمعناه : «أن أزوجك أختها أم كلثوم على مثل صداقها ، وعلى مثل عشرتها» (١) .

وتسرد أم المؤمنين الصديقة بنت الصديق ﷺ خبر زواج أم كلثوم من

(١) مختصر تاريخ دمشق (١٦/١٢٠) ، وأسد الغابة (٦/٣٨٤) ، وذكر ابن قتيبة أن عثمان تزوج

أم كلثوم ، وابتنى بها بعد ابتناء علي بفاطمة بخمسة أشهر ونصف .

عثمان رضي الله عنه فتقول : لما زوج النبي صلى الله عليه وسلم بنته أم كلثوم قال لأم أيمن : «هيئي ابنتي أم كلثوم ، وزفيها إلى عثمان ، وخفّقي بين يديها بالدف» ، ففعلت ذلك فجاءها النبي صلى الله عليه وسلم بعد الثالثة فدخل عليها فقال : «يا بنية ، كيف وجدت بعلك؟» ، قالت : خير بعل .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : «أما إنه أشبه الناس بجذك إبراهيم وأبيك محمد صلى الله عليهما» ^(١) .

وعن أم عياش - وكانت أمة لرقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم - قالت : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : «ما زوجت عثمان أم كلثوم إلا بوحي من السماء» ^(٢) .

وهذا يشير إلى مكانة عثمان رضي الله عنه ، وإلى مقامه بين الصحابة الكرام في عهد النبوة ، ولعل عثمان قد احتل مساحة كبيرة من محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن عطفه واحترامه لجليل صفاته ، وكريم عطائه ، ولعل أم كلثوم رضي الله عنها قد لاحظت هذا الاهتمام النبوي بعثمان فازداد سرورها بذلك .

ويروى عن أم كلثوم رضي الله عنها أنها جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت : «يا رسول الله ، زوج فاطمة خير من زوجي؟» .

قال : فأسكت النبي صلى الله عليه وسلم ملياً ثم قال : «زوجتك من يحبه الله ورسوله ، ويجب الله ورسوله» ، فولت ، فقال : «هلمي ماذا قلت؟» .

قالت : زوجتني من يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله .

قال : «نعم وأزيدك ، لو قد دخلت الجنة فرأيت منزله لم تري أحداً من

(١) مختصر تاريخ دمشق (١٦/١١٧، ١١٨) .

(٢) المصدر السابق (١٦/١٢١) .

أصحابي يعلوه في منزله» (١) .

إذن فمنزلة عثمان ؓ عالية ، ولهذا سمي بذي النورين .

قال الحسن ؓ : «إنما سمي عثمان ذا النورين لأنه لا نعلم أحدًا أغلق بابه على ابنتي نبي غيره» (٢) .

وكان عثمان رضوان الله عليه من القانتين بآيات الله أناء الله ساجدًا حذرًا لآخرته ، ورجاء لرحمة ربه ، يحيي القرآن جُلّ ليلاليه في ركعة في حياة رسول الله ﷺ وخليفته ، فلما وُلّي كان خير الخيرة ، وإمام المتقين البررة .

قال ابن قتيبة ؓ : وكان عثمان ؓ محببًا في قريش وفيه يقول قائلهم :

أحبك الرحمن حب قريش لعثمان (٣)

نعم فعثمان هو «القانت ذو النورين ، والخائف ذو الهجرتين ، والمصلي إلى القبلتين عثمان بن عفان ؓ» (٤) .

ولله در من قال عن عثمان ذي النورين مبيّنًا بعض فضائله :

وعثمان ذو النورين قد مات صائمًا وقد قام بالقرآن دهرًا تهجدًا
وجهز جيش العسر يومًا بهاله ووسع للمختار والصحب مسجدًا
وباع عنه المصطفى بشماله مبايعة الرضوان حقًا وأشهدا
وفي بيت عثمان ؓ عاشت أم كلثوم ؓ قرابة ست سنين ، ورأت فيها

(١) انظر : مختصر تاريخ دمشق (١٦ / ١٢١ ، ١٢٢) .

(٢) المصدر السابق (١٦ / ١٢٢) .

(٣) المعارف (ص ١٩٢) .

(٤) حلية الأولياء (١ / ٥٥) .

الإسلام قد بسط جناحيه على الجزيرة العربية بقيادة أبيها رسول الله ﷺ ، وكان زوجها عثمان واحداً من فرسان مدرسة النبوة وسفيراً ميمون النقيبة للنبي ﷺ عند صلح الحديبية ، وأدركت كذلك الفتح الأعظم فتح مكة ، كما أدركت المسير إلى غزوة تبوك سنة تسع ، وشهدت يوم ذاك كرم زوجها عثمان وسخاءه ، وتجهيزه لجيش العسرة ، وبعد ذلك اقترب لقاؤها مع الله ﷻ لتكون مع أمها خديجة بنت خويلد أم المؤمنين ، ولتكون مع أختها زينب ورقية رضي الله عنهن أجمعين ، وفي الصفحات الآتية نشهد رحلة الخلود لأم كلثوم ﷺ .

سلام عليكم ادخلوا الجنة :

في شهر شعبان سنة تسع^(١) من الهجرة النبوية المباركة شعرت أم كلثوم بقرب اللقاء مع الله ﷻ ، وهبط عليها المرض ، فأضحت طريحة الفراش ، وفي صبح أحد تلك الأيام كان صوت بلال ينسكب في آذان المسلمين ، وتبها عثمان للخروج إلى المسجد النبوي الشريف ، وألقى نظرة إشفاق على زوجته الصابرة الطاهرة أم كلثوم ، ثم ذهب ليصلي الفجر خلف رسول الله ﷺ .

وكانت أم كلثوم ﷺ ذابلة الجسد قد نال منها الوهن ، فرقدت في فراشها تغالب المرض ، ولكن لسانها ظل يتحرك بذكر الله ﷻ ، ودخلت عليها «أم عياش» فألفتها في النزاع الأخير ، فأرسلت إلى الرجال في المسجد النبوي الشريف ، فأسرع عثمان زوجها إلى داره فإذا بأم كلثوم تعالج سكرات الموت ، فراح ذو النورين يناديها في وجدٍ وهو مشفق عليها وعلى نفسه ، كان يفزعه أن ينقطع بموتها نسبه برسول الله ﷺ ، كان يناديها : يا أم كلثوم ، يا أم كلثوم .

(١) تاريخ الطبري (٢/١٩٢) .

وجاء الحبيب المصطفى ﷺ وأبو بكر الصديق وعمر الفاروق وعلي ﷺ ،
وبعض الأنصار ، ودخل النبي الكريم ﷺ على ابنته وهي تجود بأخر أنفاسها ،
فدمعت عيناه الشريفتان ، وإن قلبه الشريف ليقطر أسى ولسانه يتحرك بما
يرضي الرب جل وعلا .

وصعدت روح أم كلثوم إلى ربها راضية مرضية تشهد شهادة الحق ،
وغسلتها أسماء بنت عميس وصفية بنت عبد المطلب وأم عطية الأنصارية ،
ووضعت أم كلثوم في قبرها ^(١) .

روى سيدنا أنس بن مالك ﷺ نبأ دفن أم كلثوم فقال : رأيت النبي ﷺ
جالسًا على قبرها وعيناه تدمعان فقال : «هل منكم رجل لم يقارف الليلة؟» .
فقال أبو طلحة : أنا .

قال : «فانزل» .

قال : فنزل في قبرها ^(٢) .

ونزل معه علي بن أبي طالب والفضل بن العباس وأسامة بن زيد .

وعن أبي أمامة قال : لما وضعت أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ في القبر قال
رسول الله ﷺ : «منها خلقناكم ، وفيها نعيدكم ، ومنها نخرجكم تارة أخرى» ،
ثم قال : «بسم الله ، وفي سبيل الله ، وعلى ملة رسول الله» ، فطفق يطرح إليهم
الجبوب - التراب - ويقول : «سدوا خلال القبر» ، ثم قال : «ألا إن هذا ليس
بشيء ، ولكن يطيب بنفس الحي» .

(١) الكامل في التاريخ (٢/١٩٢) .

(٢) للحديث أصل في البخاري ، وأخرجه ابن سعد في الطبقات (٨/٣٨) .

ودفنت أم كلثوم رضي الله عنها في البقيع ، وكان عثمان غارقاً في صمت حزين تنحدر الدموع من عينيه أسى على إحدى فرائد البيت النبوي وإحدى حبات عقده الفريد ، ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم عثمان وهو يسير مطرقاً وفي وجهه حزن لما أصابه فدنا منه ، وقال : «لو كانت عندنا ثالثة لزوجناكها يا عثمان» .

أورد ابن سعد رضي الله عنه في «الطبقات» أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «لو كُنَّ عَشْرًا لزوجتهن عثمان» .

والآن عزيزي القارئ الحبيب ونحن نودع السيرة الكلثومية ، سيرة السيدة أم كلثوم رضي الله عنها دعنا نعطر الأفواه والأسماع بقول الحق صلى الله عليه وسلم : ﴿يَقُولُونَ سَلِّمْ عَلَيْنَا أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢] .

فاللهم أدخلنا الجنة برحمتك ، وأكرمنا بعفوك ولطفك ، فأنت العفو الغفور ، وأنت اللطيف الخبير .

ورضى الله عن أم كلثوم بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنزلها منازل الأبرار الأطهار الصالحين من عباده في جنات النعيم .



سكينة بنت الحسين رضي الله عنها

من أهل البيت النبوي الطاهر .

كانت من أجمل النساء ، وأحسنهن أخلاقاً ، وأفصحهن وأبلغهن .

صابرة ، ولها نوادر ، وظرف ، وفكاهة ، وفطنة .

شاعرة ، أدبية ، نبيلة ، ناقدة لشعراء عصرها .

سكينة بنت الحسين رضي الله عنها

من الذرية الطاهرة :

فتاةٌ عرفها المجد منذ أن رأت عيناها نور الشمس ، وعرفت هي المجد منذ أن وعت مكانتها من الذرية الطاهرة ، والنسب الزكي ، الزاكي ، الذي ثبت أصله وزكا فرعُه ، وحسنت غصونُه ، وازدانت أوراقه ، وطابت ثماره .

هذه الابنةُ الكريمةُ من تلك الشجرة النبوية الطاهرة التي لا تشبهها شجرة في هذا الوجود ، وابنة هذه الصفحات غصن رطيب من تلكم الشجرة المباركة ، المنداة بنفح الطيب ، وبرحيق النبوة ، وأريج النسب العريق المَعْرَق .

ولدت سكينة بنت الحسين وولد معها نصيب كبير من محبة أبيها لها ولأمها ، فقد كان أبوها يُحبها محبة عظيمة فائقةً بل كانت تستأثر بقلبه هي وأمها .

ترى من هذا الأب الذي أولع بابنته هذه وزوجه ؟ لا شك أنكم تعرفونه إنه الحسين بن علي رضي الله عنهما ، سيد شباب أهل الجنة ، وسبط رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفيه يقول الشاعر :

مسح النبي جبينه فله يياض في الخدود
وبوجهه ديباجة كرم النبوة والجُدود^(١)

وكريم الآباء والجد هذا يقول في محبته لابنته وزوجه اللتين أخذتا نصيباً في قلبه ومن نفسه :

لعمرك إنني لأحبُّ داراً تحل بها سكينةُ والرباب

(١) نسب قريش (ص ٥٩) ، وزهرة الآداب (١/ ٦٣) ، والبداية والنهاية (٨/ ٢١١) ، والمعارف (ص ٢١٣) ، والمحبر (ص ٣٩٧) .

أحبها وأبذل جُل مالي وليس للائمي فيها عتابٌ
ولست لهم وإن عُتِبوا مطيعًا حياتي أو يغيبني التراب^(١)

وفي هاتين المرأتين يقول الحسين أيضًا :

كأن الليل موصول بليل إذا زارت سُكينة والرباب^(٢)

نعم ، إذا ما غادرت هاتان المرأتان المنزل للزيارة فإن الأيام البيض تستحيل جميعها إلى ليالٍ سُود موصولة ببعضها ، أما إذا عادتا إلى منزله فإن الليل والنهار يتعاقبان بنظره ، ويتسّمُ الفجر في عيونه ويغرد الطير في لسانه .

إذا سُكينة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب الهاشمية القرشية^(٣) ، هي التي ملكت على أبيها كل هذه المكانة ومع هذه الابنة الشهيرة ستكون رحلتنا لطيفة ناعمةً في أفياء الحديث عن مسيرة حياتها .

ومن خلال رحلتنا الميمونة مع هذه الابنة الكريمة الآباء والأجداد ، نتعرف على بعض الجوانب المهمة في حياتها ، ونكشف عن بعض خبايا الزوايا ، لتوضح صورتها بشكل وضيء كما نعرف مكانتها في البيت النبوي الطاهر .

وإذا عرفنا أن أباه هو الحسين بن علي عليه السلام ، فإن أمها هي الرباب بنت امرئ القيس بن عدي الكلبي أحد أسياد بني كلب بالشام ، أسلم في زمن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه ، وزوج ابنته الرباب من الحسين بن علي فولدت له عبد الله بن الحسين الذي يُكنى به ، ثم أنجبت له ابنته سُكينة إلا أن سُكينة لم تكن معروفة

(١) المحاسن والمساوي للبيهقي (ص ٩١) .

(٢) انظر : تاج العروس (٩/ ٢٣٩) .

(٣) وفيات الأعيان (٢/ ٣٦٧ - ٣٩٤) ، والنجوم الزاهرة (١/ ٢٧٦) ، وشذرات الذهب

(٢/ ٨٢) ، وتاريخ مدينة دمشق «تراجم النساء» (ص ١٥٥ - ١٧١) .

بهذا الاسم عند ولادتها ، وإنما كان اسمها آمنة أو أمينة وقيل : «أميمة»^(١) .

أما سكينة فلقب لقبها به أمها الرباب ، ولم تعرف إلا بهذا الاسم ، ونسي معظم الناس اسمها الحقيقي ، لكنهم لم ينسوا مكانتها في البيت النبوي الطاهر الذي أذهب الله عنه الرجس وطهره تطهيراً .

محبة سكينة وأهل البيت النبوي :

ومن الجدير بالذكر - ونحن في هذه السيرة المعطاءة - أن نشير إلى أن أهل البيت النبوي رجالاً ونساءً قد ظلوا محط أنظار الناس على مدار الزمن ، وقد تبارى الأدباء والشعراء ومحبو البيت النبوي وأقاربه في إبراز حُبهم ، وما يجري على ألسنتهم من لطيف القول ، وما تصدره قلوبهم من همسات الود ، فهذا حربُ بن المنذر بن الجارود يقنع من الدنيا بيسير الطعام ، ويقنع من الآخرة بثوب من الكتان ، ويكفيه من الدنيا ومن الآخرة أنه يحبُّ أقارب النبي ﷺ ، وأهل بيته مستجيباً بذلك لقول الله ﷻ : ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ﴾ [الشورى: ٢٣] ، يقول حرب بن المنذر بن الجارود^(٢) :

فحسبي من الدنيا كفاف يُقيميني وأثواب كتان أزور بها قبري
وحبي ذوي قُربى النبي محمد فما سألنا إلا المودَّة في القربى

وهذا دِعْبَل الخزاعي المولود سنة (١٤٨ هـ) ، يؤكد حبه لأهل البيت في قصيدته التائية الشهيرة الملتهبة ، والتي أخذ عليها عشرة آلاف درهم من أبي علي بن موسى الرضا بخراسان ، وخلع عليه بردة من ثيابه ، قُومت بثلاثين

(١) وفيات الأعيان (٢/ ٣٩٧) ، وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ١٦٦) نقلاً عن تاريخ مدينة دمشق .

(٢) البيان والتبيين للجاحظ (٣/ ٣٦٥) .

ألف درهم يقول في قصيدته :

ملا مكم في أهل النبي فإنهم أحباي ما عاشوا وأهل ثقاتي
فيارب زدني من يقيني بصيرة وزد حبهم يارب في حسناتي
أحب قصيَّ الرحم من أجل حبكم وأهجر فيكم أسرتي وبناتي

وفي هذا البيت الطاهر الزكي البيت النبوي الكريم يُعلن كثيرُ بن كثير أيضاً حبه لهم والسلام عليهم ما دام هناك من يقول السلام عليكم^(١) :

طبت بيتاً وطاب أهلك أهلاً أهل بيت النبي والإسلام
رحمة الله والسلام عليكم كلما قام قائم بسلام

في هذا البيت النبوي الطاهر المطهر المحفوف بالمحبة من عامة الناس ، نشأت سُكينة بنتُ الحسين وهي تعي مكانتها بأنها ابنة صحابي هو سبط النبي ﷺ ، وريحانته ، وتعني أن جدتها فاطمة الزهراء بنت سيدنا رسول الله ﷺ سيدة نساء العالمين وأطهر الطاهرات .

نشأت سُكينة في الجو العبق بأنداء النبوة ، وأريج التقوى ، فكانت ذات مكانة عُليا بين البيوتات العُليا ، ومع هذا كله نجد كثيراً من الأخبار العبة تصاحب سيرتها كما سيرى القارئ الحبيب الكريم .

سُكينة والزواج :

عندما شبت سُكينة بنت الحسين ، وصارت من عداد النساء كانت من أجمل نساء عصرها فقد أنعم الله عليها بالملاحة والجمال والحسن ، ونشأت في بيت أبيها الحسين ﷺ في نعمة ورغد من العيش .

(١) نسب قريش (ص ٦٠، ٦١) .

وكان لسكينة أخت تُسمى فاطمة ، لا تقل عنها جمالاً وأدباً وخلقاً وعلماً ، وهي إحدى اللواتي روين الحديث النبوي الشريف أيضاً ، وكانت فاطمة هذه أكبر من سكينة ^(١) ، ولكنها قريرتان في الفضل والأدب وحسن الأحدثة وكرم الخصال .

وتروي كُتُب الأدب وغيرها من كتب الطبقات أن ابن عمها الحسن بن الحسن بن علي الملقب بالمشني ، قد خطب إلى أبيها الحسين ، فقال له الحسين عليه السلام : انطلق معي يا بن أخي فقد انتظرتُ هذا منك .

وخرج الحسين بابن أخيه حتى أدخله منزله ثم إنه خيرته في ابنتيه : فاطمة ، وسكينة ، وقال : يا بني ، اختر أحبهما إليك ، فاختار الحسن المشني فاطمة فزوجه إياها .

وكان يُقال بعد هذا الزواج : إن امرأة تختار على سكينة لمنقطة القرين في الحسن والجمال ^(٢) .

ويُقال : إن الحسن بن الحسن «المشني» قد غلفه الحياء ، وعندها اختار له عمه الحسين فاطمة ؛ إذ إنها أكثرهما شبهاً بجدها فاطمة الزهراء ، سيدة نساء العالمين ، وأفضل بنات النبيين والمرسلين عليهم السلام .

وهناك تهافت الخطاب على سكينة ، ييغون ربط سببهم ونسبهم بالبيت الطاهر ، فكان أن تزوجها ابن عمها عبد الله بن الحسين بن علي ، وهو أول من تزوجها ، ثم إنه مات عنها بعد مدة ^(٣) .

(١) البداية والنهاية (٨/ ١٩٠) ، والكامل في التاريخ .

(٢) الأغاني (١٤/ ١٦٥) ، بتصرف يسير ، وانظر : نسب قريش .

(٣) انظر : المحبر (ص ٤٣٨) ، ونوادير المخطوطات (١/ ٦٤) .

ثم إن مصعب بن الزبير بن العوام أمير العراقيين وابن حوارى رسول الله ﷺ ، كانت له أمنية بأن يجمع بين عقيلتي قريش : سكينه بنت الحسين ، وعائشة بنت طلحة ، حيث تذكر الأخبار أنه اجتمع في المسجد الحرام : عبد الملك بن مروان ، وعبد الله بن الزبير وأخواه مصعب وعروة أيام تألفهم بعهد معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه ، فقال بعضهم : هلّم فلتتمنه ، فقال عبد الله بن الزبير : منيتي أن أملك الحرمين وأنال الخلافة ، وقال مُصعب : منيتي أن أملك العراقيين وأجمع بين عقيلتي قريش : سكينه بنت الحسين ، وعائشة بنت طلحة .

وقال عبد الملك بن مروان : مُنيّتي أن أملك الأرض كلها ، وأخلف معاوية ، فقال عروة : لست في شيء مما أنتم فيه مُنيّتي الزهد في الدنيا ، والفوز بالجنة في الآخرة ، وأن أكون ممن يُروى عنه هذا العلم .

فصرف الدهر منهم من صرفه إلى أن بلغ كل واحدٍ منهم أمله ، وكان عبد الملك بن مروان يقول : من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فليُنظر إلى عروة بن الزبير ^(١) .

وجاء اليوم الذي تحققت فيه أمنية مُصعب بن الزبير إذ أصبح أمير العراقيين ، وكان شجاعاً جميلاً جليل القدر ممدحاً ، فتزوج سكينه بنت الحسين وعائشة بنت طلحة وجمعها في داره ، وكانتا من أعظم النساء قدراً ومالاً وجمالاً ^(٢) .

(١) انظر : وفيات الأعيان (٣/٢٥٨) .

(٢) انظر : حلية الأولياء (٢/١٧٦) ، وعيون الأخبار (١/٢٥٨) ، وسير أعلام النبلاء

وتروي الأخبار أن مصعبًا قد أمهر سكينة بنت الحسين مليون درهم ، كما أمهر عائشة بنت طلحة مثلها أيضًا .

وفي «أغانيه» يذكر أبو الفرج الأصبهاني أنه لما قدمت سُكينة عليه أعطى أخاها علي بن الحسين ؛ لأنه حملها أربعين ألف دينار ^(١) .

ولعل خبر هذا المهر الخيالي الضخم في ذلك العصر قد انتشر صيته بين الناس انتشار النار في الهشيم وأعظموه ، وذكره الشعراء وأصحاب اللسان والفصاحة ، وفي هذا المهر يقول أحد الشعراء ، ويُدعى أنس بن زنيم الديلمي لعبد الله بن الزبير أخي مُصعب :

أبلغ أمير المؤمنين رسالة من ناصح لك لا يريدُ خداعًا
مهر الفتاة بألف ألف كامل وتبيتُ سادات الجيوش جياعًا
لو لأبي حفص أقول مقالتي وأقص شأن حديثهم لارتاعا ^(٢)

ولما سمع عبد الله بن الزبير شعر أنس بن زنيم قال : والله صدق أنس ، لو قيلت هذه المقالة لأبي حفص - كنية عمر بن الخطاب رضي الله عنه - لارتاع من تزويج امرأة على ألف ألف ، ثم استدعى عبد الله أخاه مُصعبًا ، وعاتبه على فعلته التي فعل .

وتقول بعض المصادر : إن هذا الزواج قد أثمر ، حيث أنجبت سكينة لمصعب ابنة اسمها فاطمة - أو الرباب - ولكنها ماتت وهي صغيرة ^(٣) .

وفي كنف مصعب بن الزبير طارت شهرة سكينة ، وأضحت كالعلم في عالم

(١) الأغاني (١٦/١٥٩) .

(٢) المعارف (ص ٢٢٣) ، والأغاني (١٤/١٦٨) .

(٣) المحبر (ص ٣٩٧) ، والأغاني (١٦/١٥٩) .

النساء القرشيات الأديبات العلمات .

ويبدو أن مصعب بن الزبير قد طارت شهرته هو أيضًا ، حينما كان شاعره
عبيد الله بن قيس الرقيات ينسج أشعاره فيه ، ويضعه في مصاف الخلفاء، إذ يقول :
على بيعة الإسلام بايعن مصعبًا كراديس من خيل وجمعًا مباركا
تداركُ أخرانا وتحض أماننا وتتبع ميمون النقيبة ناسكا
إذا فرغت أطفاره من كتيبة أمال على أخرى السيوف البواتكا
فراق الحبيب :

عاشت سُكينة حياة متموجة الأحداث مع مصعب بن الزبير ، فقد شهدت
حربه الضروس مع عبد الملك بن مروان ، وكانت منزلته عظيمة عندها ، فقد
دخل عليها يوم قُتل فتزع عنه ثيابه ولبس غلالة ، وتوشح بثوبٍ وأخذ سيفه ،
فعلمت سُكينة أنه لا يريد الرجوع ، فصاحت من خلفه : وا حزنه يا مصعبُ ،
فالتفت إليها - وكانت تخفي ما في قلبها منه - فقال : أوكل هذا لي في قلبك ؟
فقال : إي والله ، وما كنت أخفي أكثر .

فقال : لو كنت أعلمُ أن هذا كله لي عندك لكانت لي ولك حال ، ثم خرج
ولم يرجع ^(١) .

أورد ابن عساكر رحمته الله أن مصعبًا قد اشتاق إلى سُكينة بعد رحيله إلى القتال
فقال : لما خرج مصعب بن الزبير فسار على عشرة أيام من الكوفة كتب إلى
سُكينة بنت الحسين :

وكان عزيزًا أن أبيت وبيننا شعار فقد أصبحت منك على عشر

وأبكاهما والله للعين فاعلمي إذ ازددت مثلها فصرت على شهر
وأبكي لعيني منها اليوم أنني أخاف بالأنا نلتقي آخر الدهر^(١)

ومن الجدير بالذكر أن عبد الملك بن مروان عندما خرج إلى مصعب أعد
العدة ، وحسب حساب مُصعب وعلم شجاعة مصعب أيضًا ؛ لذلك قال
لرؤساء أهل الشام عندما عرضوا عليه أن يُرسل له أحد القواد : إنه لا يقوم
بهذا الأمر إلا قرشي ، له رأي ، ولعلي أبعث إليه من له شجاعة ولا رأي له ،
وإني أجد في نفسي أني بصير بالحرب ، شجاع بالسيف ، إن أُلجئت إلى ذلك
ومصعب من بيت شجاعة ، أبوه أشجع قرشي ، وهو شجاع ولا علم له بالحرب ،
يجب الخفض ومعه من يخالفه ، ومعني من ينصح لي .

ثم نهض وسار حتى نزل مسكن وتداني العسكران ، والتقى القوم ،
وبدأت الدائرة تدور على مصعب حيث هم أهل العراق بالغدر به ، واشتد
القتال بين الفريقين حتى قُتل مصعب رضي الله عنه ، ويبدو أن سكينة قد لحقت به
وشهدت مصرعه .

هذا ولم يترك شاعره عبيد الله بن قيس الرقيات مقتل مصعب يمر دون أن
يسجله في أشعاره ، فقد رثاه في هذه المقطوعة التي تسيل فيها النفس ، ويسيل
فيها الحزن سيلانًا فقال :

إن الرزية يوم مسـ كن والمصيبة والفجيعة
بابن الحواري النذي لم يعده أهل الوقيعه

(١) تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص ١٥٨) ، وتاريخ الإسلام للذهبي (ص ٢٧٢) ،
والحدائق الغناء (ص ١٤٤) .

غدرت به مُضر العرا ق وأمكننت منه ربيعه
فأصبت وترك ياربيـ مع وكننت سامعةً مطيعه
يا لهف لو كانت له بالدير يوم الدير شيعه
سكينة ومقتل مصعب وأثارة من فصاحتها :

في «بدايته ونهايته» أورد ابن كثير أن سكينة بنت الحسين كانت مع مصعب ابن الزبير يوم مسكن في تلك الواقعة التي قتل فيها ، ولما وضعت الحرب أوزارها دخلت سُكينة بين القتلى تطلب مصعباً حتى عرفتة بشامة كانت في خده ، وعندها تأوهت وقالت تحمده : نعم بعل المرأة المسلمة كنت يا بن الأخيار أدركك الله ما قال عنتره بن شداد :

وحليل غانية تركت مُجدلاً تمكُّو فريصته كشدق الأعلم
فشككت بالرمح الأصم ثيابه ليس الكريم على القنا بمحرم^(١)

ويروي ابن الفقيه أنه لما قتل مصعب أرادت سكينة رحمها الله الرحيل إلى المدينة المنورة ، وكانت بالكوفة في أرض العراق ، فقال لها أهل الكوفة : يا بنت رسول الله ، أحسن الله صحابتك وفعل بك وفعل .

فقالت : يا أهل الكوفة ، لا أحسن الله صحابتكم فلقد قتلتم جدي عليّاً ، وعمي الحسن ، وأبي الحسين ، وبعلي مصعباً ، فيتمتموني صغيرة ، وآيمتموني كبيرة ، فلا أحسن الله عليكم الخلافة ولا رفع عنكم السوء^(٢) .

وتروي كثير من المصادر أن سكينة بنت الحسين لم تترك حادثة مقتل زوجها تمر دون أن تترك أثارةً من ذوب نفسها ، فقد نُقل عنها أنها قد رثت مصعباً

(١) البداية والنهاية (٨ / ٣٢٥) ، ومختصر تاريخ مدينة دمشق (٢٤ / ٣٢٨ ، ٣٢٩) .

(٢) كتاب البلدان لابن الفقيه (ص ٢٢٤ ، ٢٢٥) ، وعيون الأخبار (١ / ٢١٢) .

أجود رثاءٍ وأشارت إلى شجاعته وإقدامه فقالت :

فإن تقتلوه تقتلوا الماجد يرى الموت إلا بالسيوف حراما
وقبلك ما خاض الحسين منية إلى القوم حتى أوردوه حماما^(١)
حياتها بعد مصعب :

تقول الروايات الأدبية وغيرها : بعد أن قُتل مصعب بن الزبير ، وبعد انقضاء عدة سكينة ، تهافت الخاطبون على سكينة واحداً بعد الآخر ، ومن خطبها عبد الملك بن مروان فأبته ، وقالت : والله لا يتزوجني بعد مقتوله أبداً^(٢) .
ثم إنها ردت رسوله مدحوراً .

وعلمت رملة بنت الزبير بن العوام - أخت مصعب - بأن عبد الملك بن مروان قد خطب سكينة ، فسارعت رملة وخطبتها لابنها عبد الله بن عثمان بن عبد الله بن حكيم بن حزام ، فولدت سكينة لعبد الله ولدين هما : حكيم ، وعثمان ، كما ولدت ابنة تسمى : رييحة .

ولما مات عبد الله بن عثمان بن حكيم تزوجها زيد بن عمرو بن عثمان بن عفان ، فشرطت عليه شروطاً منها : ألا يغيرها ، وألا يمنعها شيئاً تريده ، وألا يخالفها في أمر تريده وتحبه ، وأن يقيمها حيث جلتها أم منظور «امرأة كانت تزين النساء» فوافقها على ذلك وعلى الذي تريد ، فكانت تقول له : اخرج بنا إلى المدينة ، فإذا رجع يومه ذلك قالت : اخرج بنا إلى مكة^(٣) .

ولما مات زيد بن عمرو خطبها الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان ، فقال فيه

(١) زهر الآداب (١/ ٦٤) ، وشاعرات العرب (ص ١٦٤) ، وأعلام النساء (٢/ ١١٧) .

(٢) نوادير المخطوطات (١/ ٦٥) .

(٣) أعلام النساء (٢/ ٢١٨-٢٢١) ، ونوادير المخطوطات (١/ ٦٦، ٦٧) .

بعضُ المدنيين - وقيل : أيمن بن حريم :

نكحت سَكِينَةَ في الحِساب ثلاثة فإن دخلت بها فأنت الرابع
إن البقيع إذا تابع زرعَه خاب البقيع وخاب فيه الزارع

وكان الأصْبَغُ يتولى مصر فكتبت إليه : إن أرض مصر وخمة ، فبنى لها مدينة تسمى الأصْبَغُ ، وبلغ عبد الملك بن مروان تزوجه إياها فَنَفَسَ بها عليه فكتب إليه اختر مصر أو سَكِينَةَ ، فبعث إليها بطلاقها ، ولم يدخل بها ومتعها بعشرين ألف دينار^(١) ، ثم إن سَكِينَةَ لم تتزوج بعد زيد بن عمرو ، وأقامت في المدينة المنورة حيث أهلها وأقاربها وذووها وأولادها .

ظرفها وحُبها للفكاهة :

لا شك في أن الفكاهات والمُلمح هي نزهة النفوس ، وربيع القلوب ، ومرتع الأسماك ، ومجلب الراحة ، ومعد السرور وجمام القلوب والأبدان .

ولما تعرض الرواة لأخبار سَكِينَةَ قالوا :

سيدة نساء عصرها من أجمل النساء وأظرفهن وأحسنهن أخلاقاً^(٢) .
وقال اليافعي : ولها نوادر وحكايات ظريفة^(٣) .

ظُرْفُهَا مع أشعب :

ورد عن سَكِينَةَ أنها كانت تأنس بمزاح ونوادر أشعب ، الطماع الذي عرف بالدعابة والفكاهة والمزاح وخفة الظل ، وسرعة البديهة أحياناً .

(١) أعلام النساء (٢/ ٢٢١) ، باختصار نقلاً عن الأغاني (١٦/ ١٦٠) .

(٢) الخطط التوفيقية لعلي مبارك (ص ١٨٥ ، ١٨٦) .

(٣) مرآة الجنان (١/ ٢٥٢) .

ومن لطائف نوادرها أنها حبست أشعب هذا لما كذب عليها ، وأقسم يميناً مغلظة ، وعندما عرفت كذبه أخذته وحبسته في غرفة من الخشب ، وجعلت فيها تبناً وزبلاً ، ووضعت عليه بيض الدجاج ، وأرغمته أن يحتضن هذا البيض كيما يفقس ، وقد فعل وكانت سكينة تسمى الفراريج : بنات أشعب ^(١) .

ولتستمع إلى جزء من حديث التفقيس هذا بأسلوب أشعب نفسه إذ يقول : ثم أدخلتني سكينة البيت ، وفيه البيض والتبن والروث ، وحلفت بحق جدها ألا أخرج من ذلك البيت حتى أحضن ذلك البيض كله إلى أن يفقس ، ففعلت ذلك ، ولم أزل أحضنه حتى فقس كله فخرج منه الألوف من الفراريج وربيت في دار سكينة ، فكانت تنسبهن إليّ وتقول : بنات أشعب ، ونسل أشعب .

ويتابع أشعب حديثه فيقول : وبقي ذلك النسب في أيدي الناس إلى الآن ، فكلهم إخواني وأقاربي وأهلي ^(٢) .

ويظهر أن أشعب قد مكث فوق البيض بدار سكينة قرابة أربعين يوماً ^(٣) كما ادعى هو ، وأصبح فترة حضائه للبيض يقوقى مثل جماعة الدجاج ، ولأشعب مع سكينة نوادر أخرى لا يتسع المقام لذكرها .

سكينة سيدة الناقلين :

تكاد كتب المصادر - وخصوصاً كتب الأدب منها - تغص بالأخبار الكثيرة

(١) الأغاني (١٤/١٦٧، ١٦٨) .

(٢) الأغاني (١٤/١٦٨) ، ط مصر ، الأغاني (١٦/١٥٧، ١٥٨) و(٩/١٧٥ - ١٧٧) ، ط

بيروت .

(٣) انظر على سبيل المثال : عيون الأخبار (٤/٩٠) ، ومصارع العشاق (٢/٨٠ - ٨٤) ، والعقد

الفريد (٥/٣٧٣، ٦/٣٠ - ٤٨) .

التي تشير إلى مكانة سكينه في النقد الأدبي ، وقد أفاضت هذه الكتب في ذلك وشرقت وغربت ، وأتت بالغرائب أحياناً ، وزعموا بأنها كانت سيده الناقلين عصر ذاك - بلا منازع - فهي حكم الشعراء الذي لا يرد حكمه ، ولا ينقض قوله ، فكانوا يفدون على دارها من كل حذب و صوب ، وبعضهم يأتيها من مكان بعيد ، وكلهم عقد يده على خير ما قال ، وليس بينهم إلا من كان حديثه طول طريقه عما عسى سكينه أن تقول وتحكم به ؛ لأنه سيكون بين أقرانه الفائز بالسبق في حلبة الشعر .

وروت كتب الأدب والمصادر أيضاً بأنه اجتمع إليها ذات مرة : جرير ، والفرزدق ، وكثير وجميل ونصيب فنقدت لكل شعره وأخذت عليه مأخذه^(١) ، ثم أثابت كل واحد منهم ألف دينار ، فخرجوا بخمسة آلاف دينار ، وما كان الخليفة يومذاك - ليعطيهم بما دون ذلك حتى يجمعوا فيه من الفضائل والكرامات ما تفرق في الأبرار وما تفرّد في المقربين والكرام الكاتبين وما كان عند القادة الفاتحين والعلماء الزاهدين .

خرج الفرزدق حاجاً - فلما قضى حجه عدل إلى المدينة فدخل على سكينه فسلم فقالت له : يا فرزدق ، من أشعر الناس ؟

قال : أنا ، فقالت سكينه : كذبت أشعر منك «جرير» إذ يقول :

بنفسي من تجنّبه عليّ عزيز علي ومن زيارته لمام
ومن أمسي وأصبح لا أراه ويطرقني إذا هجع النيام

فقال : والله لو أذنت لأسمعتك أحسن منه ، فقالت : أخرجوه ، فأخرج ، ثم عاد إليها في الغد ، فدخل عليها ، فقالت : يا فرزدق ، من أشعر الناس ؟ قال :

(١) انظر مثلاً هذا الخبر في تاريخ دمشق (ص ١٦٤-١٦٩).

أنا ، قالت : كذبت صاحبك «جرير» أشعر منك إذ يقول :

لولا الحياء لعادني استعمار ولزرتُ قبرك والحبيب يزار
كانت إذا هجر الضجيع فراشها كتم الحديث وعفت الأسرار
لا يلبث القرناء أن يتفرقوا ليل يكر عليهم ونهار

فقال : والله لئن تركتني لأسمعتك أحسن منه ، فأمرت بإخراجه ، فالتفت

إليها وقال :

يا بنت رسول الله ﷺ ، إن لي عليك حقاً عظيماً ، ضربت إليك من مكة
إرادة التسليم عليك ، فكان جزائي منك تكذيبي وطردي ، وتفضيل «جرير»
عليّ ، ومنعك إياي أن أنشدك شيئاً من شعري ، وبي ما قد عيّل الصبر ، وهذه
المنايا تغدو وتروح ، ولعلي لا أفارق المدينة حتى أموت فإذا أنا مت فمري أن
أدرج في كفني ، وأدفن مع هذه الجارية يعني التي أعجبته ، فضحكت سكينة
وأمرت له بالجارية ، والشاهد أن الفرزدق كان محباً لآل البيت شديد التعلق
بهم ، وقصيدته الميمية التي امتدح فيها زين العابدين ارتجالاً في الرد على هشام
ابن عبد الملك ، حيث وسّع الناس «لزين العابدين» كي يطوف حول البيت ،
ولم يفسحوا «لهشام» ، فقال هشام متعجباً : من هذا ؟

فرد الفرزدق على البديهة في حماس :

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحل والحرم
هذا ابن خير الناس كلهم هذا التقى النقي الطاهر العلم
هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله بجده أنبياء الله قد ختموا
فليس قولك من هذا بضائره العربُ تعرف من أنكرت والعجم

إلى آخر القصيدة وهي تزيد على العشرين بيتاً .

وعلى الرغم من هذا الحب والتواصل بين «الفرزدق» وآل البيت ، إلا أن سكينه فضلت عليه «جريرا» ، وهذا الحكم في مجال الشعر لا محابة فيه ، ولكن سكينه أثابت كل واحد منهم ألف دينار .

ولكن من الإنصاف أن نقول :

إن سكينه - رحمها الله - كانت بصيرة بأعطاف الشعر وقطاف الأدب ، ولباب الفصاحة ، وكانت تمتلك ذوقًا في نقد الشعر وميزانًا عادلاً في وضع الكلام في مواضعه ، ولولا أنها كانت من نواذر عصرها بصراً بالشعر ، وفقهًا للعربية ، وبيانها ، لما اعترف لها التاريخ الأدبي بمثل تلك المكانة ، ولما ألقيت إليها مقاليد النقد الأدبي والتحكيم والموازنة بين الشعراء ، ولكن بحدود دون أن تتخلى عن اعتزازها بشرفها العالي ، أو يزايلها وعيها لموضعها من بيت النبوة ، أضف إلى ذلك أنها ابنة الحسين عليه السلام ، والويل كل الويل لمن يخرج عن جادة الصواب ، هذه السيدة الكريمة خير ما يؤيد قولنا ما ورد أن الفرزدق الشاعر المعروف ذكر سكينه وشبب بها ، وعمر بن عبد العزيز وإل على المدينة ، فأخرجه منها ، ونفاه ، فقال جرير في ذلك :

نفاك الأغرُّ ابن عبد العزيز بحقك تنفى من المسجد
أخلاقها وفخرها :

إن الجوانب الجدية في حياة سكينه تدلُّ على شرف أخلاقها ، وعلى مكارمها وخصالها الحميدة ، ويبدو أنها كانت تعزز كثيرًا بنسبها العالي ، وشرفها الرفيع ، وتستطيع بما أوتيت من فصاحة وبلاغة وبيان أن تؤكد ذلك ، ومن الأخبار التي تشير إلى هذا أن سكينه كانت في ماتم ، فقالت ابنة لسيدنا عثمان بن عفان عليه السلام : أنا ابنة الشهيد .

فسكتت سكينة ، ولم تعلق على قولها ، وبعد قليل نادى المنادي للصلاة من المسجد النبوي الشريف ، ولما بلغ المؤذن إلى قوله : أشهد أن محمداً رسول الله عندئذٍ التفتت سكينة إلى ابنة عثمان وقالت : هذا أبي أو أبوك ؟
فقال : لا فخر عليكم أبداً .

ويبدو من الأخبار التي وصلتنا عن سكينة أن الفخر كان من أخلاقها لا تستطيع أن تتخلى عنه في لحظةٍ من اللحظات ؛ إذ كانت تقابل من تفاخره بذكر رسول الله ﷺ ، وتقيم عليه الحجة دون أن تقلل من مكانته .

روي أنها حجت مرة مع ضررتها عائشة بنت طلحة ، وكان مع عائشة ستون بغلاً عليها الهوادج والرحائل ، فقال حادي عائشة مفتخرًا :

عائش يا ذات البغال الستين لا زلت ما عشت كذا تحجين

فما كان من سكينة - رحمها الله - إلا أن أمرت حاديا أن يردَّ على هذا فقال :

عائش هذه ضرة تشكوك لولا أبوها ما اهتدى أبوك

عندئذٍ أمرت عائشة بنت طلحة حاديا أن يكف عما يقول ، فكف وكفت

عائشة أدبًا وإذعانًا لسيدنا رسول الله ﷺ وإحفاقًا للحق والصدق .

الأيام الأخيرة :

ظلت سكينة - رحمها الله - أميرة البيان والجود طيلة حياتها ، كما ظلت عابدة تصلُّ الطاعات بالصدقات والعمل الصالح بالقربات إلى آخر أيامها .

وتروي الكتب وبعض المصادر أنها قدمت دمشق مع أهلها وذويها ، ثم عادت إلى المدينة ، حيث أمضت عمرها في رحاب البلدين المقدسين مكة والمدينة ، إلى أن وافاها الأجل بالمدينة المنورة يوم الخميس في الخامس من ربيع

الأول (١١٧هـ) ^(١)، الموافق ١١ نيسان سنة (٧٣٥م) ﷺ .

توفيت سكينه وعلى المدينة خالد بن عبد الملك بن الحكم فقال : انتظروني حتى أصلي عليها ، وخرج إلى البقيع فلم يدخل حتى الظهر ، وخشوا أن تتغير فاشتروا لها كافورًا بثلاثين دينارًا ، فلما دخل أمر شيبه بن نصاح فصلى عليها ، قدم لفضله ^(٢) .

رحم الله سكينه ، وأسكنها الفردوس ، وما أجمل قول الإمام النووي عنها : كانت سكينه من سيدات النساء ، وأهل الجود والفضل ، رضي الله عنها وعن آبائها ^(٣) .



(١) وفيات الأعيان (٢/٣٩٦، ٣٩٧)، والكامل لابن الأثير (٥/١٩٥)، وتاريخ الطبري

(٨/٢٢٨)، وشاعرات العرب (ص ١٦٥) .

(٢) الطبقات (٨/٤٧٥)، والسمط الثمين (ص ١٩٧) .

(٣) تهذيب الأسماء واللغات (١/١٦٣) .

أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية رضي الله عنها

خطيبة النساء ورسول نساء الأنصار إلى النبي ﷺ .
كانت من أوائل المبايعات لرسول الله ﷺ .
كانت ذات صلة وثيقة بعائشة أم المؤمنين ، فكانت تعمل مُقينة لها .
روت واحدًا وثمانين حديثًا نبويًا .

أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية رضي الله عنها

البداية المشرقة :

هذه السيرة العطرة لواحدة من النسوة الطاهرات اللواتي ضربن أروع الأمثلة في الإيمان والعلم والصبر ، فكتب لها الخلود في تاريخ مشرق بالأنوار والبركات .

أسلمت أسماء في السابقين من الأنصار على يد مصعب الخير الذي انطلق من خير دور الأنصار - دار بني عبد الأشهل - قوم سيدنا سعد بن معاذ رضي الله عنه ، هذا الصحابي الكريم الذي كان إسلامه بركة على قومه ، فقد روي أنه يوم أسلم ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجلٌ ولا امرأةٌ إلا مسلماً أو مسلمة .

يعرفنا الإمام ابن حجر بهذه الصحابية الكريمة فيقول : هي أسماء بنتُ يزيد ابن السكن بن رافع بن امرئ القيس الأنصارية الأوسية الأشهلية ^(١) ، كانت تكنى أم سلمة ، ويقال : أم عامر ^(٢) ، وهي من المبايعات المجاهدات ، ومن النساء اللاتي عشنَ فجر الإسلام في المدينة المنورة ، وفُزن بشرف الصُّحبة النبوية المباركة ، كما فُزن بمرضاة الله سبحانه ، ومرضاة رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم .

ومن الجدير بالذكر أن نسب أسماء بنت يزيد رضي الله عنها يلتقي مع نسب سيدنا سعد بن معاذ رضي الله عنه ، في جدتهما امرئ القيس بن زيد بن عبد الأشهل ، فأكرم بهذا النسب .

(١) انظر : تهذيب التهذيب (١٢ / ٣٩٩) ، والإصابة (٤ / ٢٢٩) .

(٢) معظم الروايات تقول : إن أم عامر وأم سلمة هما أسماء بنت يزيد .

رسول النساء :

اشتهرت أسماء بنت يزيد بن السكن الأشهلية الأنصارية^(١) بالفصاحة وفصل الخطاب ، وعرفت بحسن المنطق وقوة البيان ، وسحر الكلام ، وقد زادت سماتها تلك بأن نهلت من القرآن الكريم والحديث الشريف ، ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً حتى لقبوها خطيبة النساء ، مما جعل لها بهذا اللقب مكانة متميزة بين نساء الأنصار ، وفدت على رسول الله ﷺ فبايعته وسمعت حديثه ، وألقت خطبةً تدل على ذكائها وحسن أدبها وبلاغتها ، وتمكنها من ناصية الكلام .

إن من البيان لسحراً :

روى أصحاب التراجم والسير خطبة أسماء البليغة الأسرة المؤثرة ، روى عنها مسلم بن عبيد : أنها أتت النبي ﷺ وهو بين أصحابه فقالت : بأبي وأمي أنت يا رسول الله ، إني رسول جماعة النساء من ورائي كلهن يقلن قولي وعلى مثل رأيي .

إن الله تعالى بعثك إلى الرجال والنساء ، فأمننا بك واتبعناك ، ونحن معاشر النساء مقصورات مخدرات قواعد بيوت ، ومواضع شهوات الرجال ، وحاملات أولادهم ، وإن الرجال فضلوا بالجمعة والجماعات ، وشهود الجنائز ، والجهاد في سبيل الله ، وإذا خرجوا إلى الجهاد حفظنا لهم أموالهم ، وربينا أولادهم ، أفنشاركهم في الأجر يا رسول الله ؟

فالتفت رسول الله ﷺ بوجهه إلى أصحابه فقال : «هل سمعتم مقالة امرأة أحسن سؤالاً عن دينها من هذه؟» .

(١) الاستيعاب (٤/٢٣٣) ، وسير أعلام النبلاء (٢/٢٩٦) ، والإصابة (٤/٢٢٩) .

فالتفت النبي ﷺ إليها فقال : «انصر في يا أسماء ، وأعلمي من وراءك من النساء أن حُسنَ تبعل إحداكن لزوجها ، وطلبها لمرضاته ، واتباعها لموافقته ، يعدلُ كل ما ذكرت للرجال» .

فانصرفت أسماء وهي تهلل وتكبر ، استبشارًا بما قال لها رسول الله ﷺ^(١) .
ومن الجدير بالذكر : أن زوج أسماء بنت يزيد ، هو أبو سعيد الأنصاري ، واسمه سعيد بن عمارة^(٢) ، وأمها أم سعد بن حزيم بن مسعود الأشهلية .

درس في طاعة الزوج :

للزوج حق عظيم على زوجته ، كما ذكر المصطفى ﷺ ، حيث قال : «لو أمرت أحدًا أن يسجد لأحدٍ ، لأمرتُ المرأة أن تسجد لزوجها»^(٣) .

ولذلك أحب النبي الكريم ﷺ أن يوجه أسماء والنساء توجيهاً لطيفاً إلى هذا الموضوع ، فقد روت أسماء بنت يزيد رضي الله عنها قالت : مرَّ بي النبي ﷺ وأنا في جوارٍ أترابٍ لي ، فسلم علينا وقال : «إياكن وكفر المنعمين» .

وكنْتُ من أجرأهن على مسأله فقلتُ :

يا رسول الله ، وما كفر المنعمين ؟

قال : «لعل إحداكن تطول أيمتها بين أبويها ، ثم يرزقها الله زوجًا ، ويرزقها منه ولدًا ، فتغضب الغضبة فتكفر فتقول : ما رأيت منك خيرًا قط»^(٤) .

(١) الاستيعاب (٤/ ٢٣٣) ، وأسد الغابة رقم (٦٧١١) ، والدر المنثور (٢/ ٥١٨) .

(٢) الإصابة (٤/ ٧٨٩) .

(٣) أخرجه الترمذي في الرضاع (٣/ ١١٥٩) ، وابن ماجه في النكاح ، باب حق الزوج على المرأة (١/ ١٨٥٣) ، والحاكم في المستدرک (٤/ ١٧١ ، ١٧٢) .

(٤) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١٠٤٨) ، وأحمد في المسند (٤/ ٣٥٧) .

فعلى الزوجة أن تطيع زوجها طاعة كاملة في غير معصية الله ورسوله ، قال المصطفى ﷺ المعلم والمربي في الحديث الذي رواه عنه أبو هريرة : «إذا صلت المرأة خمسها ، وصامت شهرها ، وحصنت فرجها ، وأطاعت زوجها ، قيل لها : ادخلي الجنة من أي أبواب الجنة شئت»^(١) .

أولية ميمونة لأساء :

في مضمار السبق في حلبات الفضائل كانت أساءُ بنتُ يزيد ﷺ من السابقات لاجتناء ثمار الخير ، وقطف ريحان المكارم ، وكيف لا تكون كذلك ؟ وقد وجد الإسلام قلبها سليماً فارغاً ، فتمكن من شعابه ، واقتعد في حناياه ، وعمر جوانبه .

وقد أحرزت أساءُ ﷺ قصب السبق في مبايعة النبي ﷺ ، وكانت مع أختها حواء بنت يزيد أول من بايع النبي ﷺ من نساء الأنصار .

وذكر عمر بن قتادة قال : أول من بايع النبي ﷺ : أم سعد بن معاذ ، كبشة بنت رافع ، وأم عامر بنت يزيد بن السكن ، وحواء بنت يزيد بن السكن^(٢) .

وكانت أساءُ رضوان الله عليها تحدث الناس بأنها وأختها وكبشة بنت رافع ، أول المبايعات من نسوة الأنصار ، وكانت تفخر بذلك ، وحق لها هذا الفخر ، وكانت تقول : أنا أول من بايع رسول الله ﷺ^(٣) .

وكانت تعلم علم اليقين أن السعادة تكمن في الفوز بمرضاة الله تعالى ، ولذلك استهل أبو نعيم الأصبهاني رحمه الله ﷺ ترجمتها بقوله : أساءُ بنتُ يزيد بن السكن والنابذة لما

(١) أحمد في المسند (١/ ١٩١) ، والطبراني في الكبير (٤/ ٣٠٥) ، وصححه الألباني (١١/ ٦٦١) .

(٢) الأوائل للعسكري (ص ٢٧١) ، والدر المنثور (٨/ ١٤٣) .

(٣) طبقات ابن سعد (٨/ ١٢) .

يورث الغرور والفتن .

ومنذ اللحظة الأولى لبيعة أسماء تخلت عن أعز شيء لدى النساء ، ألا وهو الذهب والحلي ، وتروي أسماء قصة تخلّيها عن حليها طلباً لمرضاة الله ، وطاعة لرسوله ﷺ ، فتقول : أتيت النبي ﷺ لأبايعه ، فدنوت منه وعليّ سواران من ذهب ، فبصر بصيصهما فقال : «ألقي السوارين يا أسماء ، أما تخافين أن يسورك الله بأساور من نار ؟» .

قالت : فألقيتهما فما أدري من أخذهما .

أسماء والتربية النبوية :

منذ اللحظات الأولى التي لامست نسمة الإيمان قلب أسماء بنت يزيد ، راحت تستنشق من رذاذ الإيمان ، وتستروح من ريحانه ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً ، وأخذت تستفيد من التربية النبوية والتوجيهات المحمدية في شؤون الحياة ، كيما تحظى برضوان الله ، وتكون من السعداء في الدارين .

وقد استفادت أسماء من التوجيهات النبوية التي تُشيد صروح الحياة بين الأزواج ، ونقلت لنا صورة وضيئة عن تلكم التوجيهات الممزوجة بالتربية البناءة ، والمتوجة بالدعوة إلى الطاعة ، وحفظ حقوق الزوج .

وكان الحبيب المصطفى ﷺ يؤكد دائماً على حق الزوج ، وينصح النساء أن يقمن بشؤون هذا الحق ، وذلك لما للزوج من مكانة سامية في عالم الحياة الزوجية ، وقد ذكر القاضي عياض رحمته الله في كتابه «الشفاء» ، أن النبي ﷺ قال : «لو أمرت أحداً أن يسجد لأحدٍ ، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها» ^(١) .

وكانت أسماء بنت يزيد زوجاً لأحد الصحابة من الأنصار ويدعى : أبا سعيد

الأنصاري ، وكانت شديدة الحرص أن تستفيد من التربية النبوية في جميع المجالات ، وخاصة في طاعة الزوج بعد أن سمعت ووعت ما ذكره رسول الله ﷺ عن عقاب من يكفرن العشير من النساء ، وعن هذا المجال الطيب الكريم تُحدثنا أسماء رضي الله عنها فيما أخبرنا به ابن عساكر بسنده ، عن شهر بن حوشب ، عنها : أن رسول الله ﷺ خرج في جانب المسجد وأنا فيهن ، فسمع ضوضاء هن فقال : «يا معشر النساء ، أنتن أكثرُ حطب جهنم» .

قالت : فنأديتُ رسول الله ﷺ ، وكنت جريئةً على كلامه ، فقلت : يا رسول الله ، بماذا ؟

قال : «إنكن إذا أعطيتن لم تشكرن ، وإذا ابتليتن لم تصبرن ، وإذا أمسك عنكن شكوتن ، وإياكن وكفر المنعمين» .

فقلتُ : يا رسول الله ، وما كفر المنعمين ؟

قال : «المرأة تكونُ تحت الرجل قد ولدت الولدين والثلاثة ، فتقول : ما رأيتُ منك خيراً قط» ^(١) .

وبهذا اللون النبوي التربوي للنساء ، حرصت أسماء على الاستفادة منه ، ونقله إلى بنات جنسها ، كيما يستفدن من الهدى النبوي ، ولا يَكُنَّ على شفا حُفرة من الخطأ ، فيكنَّ من أصحاب النار ، ومن اللواتي يكفرن العشير ، وينسين الصحبة الزوجية الطويلة .

تعلمها وتفقهها في الدين :

لما تحدث ابن عبد البر عن أسماء وصفها بقوله : أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية ، مدنية كانت من ذوات العقل والدين .

(١) أسماء بنت يزيد بن السكن ، الإصابة (١١/١٦٦) ، ترجمة رقم (٥٣٠) .

لقد كانت أسماء ونساء الأنصار يتحرين الدقة في أمور الدين ، فلا يجبهن الحياء عن السؤال في أمور دينهن ، بل كنَّ يسألن عن دقائق الأمور ، ليصلن إلى شاطئ الأمان ، ويكنن من أمرهن على بصيرة ، ولهذا الميزة الميمونة في نساء الأنصار خلعت عليهن عائشة أم المؤمنين من فواضل الثناء ما خلدهن في عالم النساء ، وفي عالم التاريخ ، وفي آفاق نساء العالم إلى ما شاء الله ، تقول أمنا عائشة - عليها سحائب الرضوان - تشني وتمتدح نساء الأنصار : نعم النساء نساء الأنصار ، لم يكن يمنعهن الحياء أن يسألن عن الدين ويتفقهن فيه .

ولهذا فقد كانت أسماء بنت يزيد من النساء اللاتي يجبن التفقه في الدين ، ويسألن النبي ﷺ عن أمورهن الخاصة ، فقد ورد في الصحيح وغيره أن أسماء سألت رسول الله ﷺ عن غسل المحيض .

ذكر أبو القاسم بن بشكوال خبراً في سندٍ رفعه إلى إبراهيم بن المهاجر قال : سمعتُ صفية بنت شيبة تحدث عن عائشة ، أن أسماء سألت رسول الله ﷺ عن غسل المحيض فقال : « تأخذ إحداكن ماءً وسدرتها ، فتطهر بها فتحسن الوضوء ، ثم تصبُّ على رأسها فتدلكه دلگًا شديدًا ، حتى يبلغ شؤون رأسها ، ثم تصب عليها الماء ، ثم تأخذ فرصة ممسكة فتطهرُ بها » .

فقلت أسماء : فكيف أتطهرُ بها ؟

فقال : « سبحان الله !! تطهري بها » .

قالت عائشة كأنها تخفي ذلك : تتبعين بها آثار الدم .

أسماء والبيت النبوي :

أسماء ابنة يزيد رضوان الله عليها إحدى نسوة وبنات الأنصار اللاتي كنَّ

يدخلن بيوت النبي ﷺ ، كما كان الحبيب المصطفى ﷺ يدخل بيوتهن ، وربما كان يقبل أو يأكل ، أو يعلم .

وأسماء هذه ذات صلة وثيقة بأمناء عائشة ، وتعرف عند أهل السير بأسماء عائشة ^(١) ، أو أسماء مقينة ^(٢) عائشة ؛ لأن أسماء كانت من العارفات بزينة النساء ، وما يحتجن إليه في أيام الزفاف ، ولذا فإنها قد زينت أم المؤمنين عائشة رضوان الله عليها ، يوم زفافها على الحبيب المصطفى ﷺ ، وهي التي جلّتها عليه ، فاكتسبت بذلك شرفاً وأصبحت تدعى : أسماء عائشة ، أو أسماء مقينة عائشة .

هذا وقد حظيت أسماء عائشة بهذا اللقب في شوال من السنة الثانية من الهجرة النبوية إلى المدينة المنورة ، وبعد أن نصر الله عباده المؤمنين أصحاب النبي ﷺ ، وبقيادة النبي ﷺ في غزاة بدر ^(٣) ، ووقتها سرى البشر في المدينة المنورة بنصر الله على المشركين ، ففي شهر شوال زُفت عائشة إلى رسول الله ﷺ ، وقامت أسماء بتزيينها ، وتروي لنا أسماء تفاصيل هذا الحديث ، والحدث الميمون فتقول :

إني قينتُ عائشة ﷺ لرسول الله ﷺ ، ثم جئته فدعوته لجلوتها ، فجاء فجلس إلى جانبها ، فأتي بقدر لبن فشرب ، ثمناولها النبي ﷺ ، فخفضت رأسها واستحييت .

قالت أسماء : فانتهرتها ، وقلت لها : خذي من يد النبي ﷺ .

(١) انظر : أسد الغابة (٦/١٣) ، ترجمة رقم (٦٧٠٤) .

(٢) مقينة : وهي الماشطة التي تزين النساء .

(٣) كانت غزوة بدر في (١٧) رمضان من السنة الثانية للهجرة ، وكان زفاف عائشة في شوال .

قالت : فأخذت فشربت شيئًا ، ثم قال لها النبي ﷺ : «أعطي تربك» .

قالت أسماء : فقلت : يا رسول الله ، بل خذه فاشرب منه ، ثم ناولنيه من يدك ، فأخذه فشرب منه ، ثم ناولنيه .

قالت : فجلست ثم وضعت على ركبتي ، ثم طففت أديره وأتبعه بشفتي لأصيب منه مشرب النبي ﷺ ، ثم قال لنسوة عندي : «ناوليهن» .
فقلن : لا نشتهيه .

فقال النبي ﷺ : «لا تجمعن جوعًا وكذبًا» .

مكانتها عند النبي ﷺ :

كان لأسماء رضوان الله عليها مكانة عظيمة عند النبي ﷺ ، فقد كان الحبيب الأعظم سيدنا وحبينا يكرم الأنصار رجالهم ونساءهم ، وكان يزور أسماء ابنة يزيد في بيتها ، ففي حديث أخرجه الإمام أحمد ، عن أسماء أنها قالت : كان رسول الله ﷺ في بيتي فذكر الدجال الحديث .

ومن خلال هذا الحديث يتبين لنا أن النبي ﷺ كان يزورها ، وكانت تشرف بزيارته ، وتحفظ أحاديثه .

وكان الحبيب المصطفى ﷺ يكرم الأنصار ، ويكرم بني عبد الأشهل رهط أسماء ، فكان في بعض الأحيان يصلي في مسجدهم ، وكانوا يتسابقون إلى إكرامه بشتى الوسائل التي تُرضي الله ﷻ ، وكانت أسماء ﷺ من النساء الكريهات السخيات ، وكانت تهتل الفرص كيما تسبق غيرها من نساء قومها إلى ميدان الكرم والفضيلة ، وقد حازت مرة قصب السبق في ضيافة رسول الله ﷺ حيث أطعمته اللحم والخبز ، وقد طرح الله ﷻ البركة في طعامها ، حيث

أكل منه النبي ﷺ، وأصحابه، ولنترك لأسماء نفسها تروي لنا خبر تلکم المكرمة الميمونة فتقول :

رأيت رسول الله ﷺ في مسجدنا المغرب، فجئت بعرق «أي: اللحم بعظمه»، وأرغفة فقلت: بأبي وأمي تعش، فقال لأصحابه: «كلوا باسم الله»، فأكل هو وأصحابه والذين جاؤوا معه، ومن كان حاضرًا من أهل الدار، فوالذي نفسي بيده لرأيت بعض العرق لم يتعرقه، وعامة الخبز، وإن القوم أربعون رجلاً، ثم شرب من ماءٍ عندي في قربة، ثم انصرف، فأخذت ذلك الماء في القربة، فدهنته وطويته، فكنا نسقي منه المريض، ونشرب منه في الحين رجاء البركة.

وهكذا كانت أسماء تحتفظ بآثار النبي ﷺ، رجاء البركة، وكذلك كان عدد من الصحابة والصحابيات يحرصون على الاحتفاظ بآثار من آثار رسول الله ﷺ للتبرك به أو للاستشفاء.

مع الغازيات المجاهدات :

عندما تحدث الإمام الذهبي عن أسماء ابنة يزيد قال: بنت عمّة معاذ بن جبل، من المبايعات المجاهدات، حضرت بيعة الرضوان، بايعت يومئذ^(١). وقال ابن عساكر: وأسماء من اللاتي بايعن رسول الله ﷺ، وشهدت اليرموك^(٢).

وقال أبو زرعة: وأسماء بنت يزيد بن السكن شهدت الفتح. إذاً فأسماء رضي الله عنها من الصحابيات الغازيات ومن بنات الصحابة الشهداء،

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٢/٢٩٦، ٢٩٧)، باختصار وتصرف يسير.

(٢) تاريخ مدينة دمشق، تراجم النساء (ص ٣٣).

ومن أخوات الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، ومن أسرة أحببت الجهاد ،
ووهبت نفسها لله ورسوله .

وكم تسكن النفس إلى الأسرة السكنية الأنصارية ، التي باعت نفسها لله ،
فربح بيعها ، واشترى الله منها هذا بأن لها الجنة ، فنال معظمها وسام الشهادة ،
واتخذهم شهداء ، وأكرم بمن يتخذه الله شهيداً .

فأبوها يزيد بن السكن بن رافع الأشهلي الأنصاري ، أحد فرسان مدرسة
النبوة ، وأحد الفرسان الصناديد الذين ثبتوا حول الحبيب الأعظم ﷺ يوم
أحد ، وكان معه ابنه عامر بن يزيد أخو أسماء ، وقد حظيا بالشهادة يوم إذ
فقتلا ، وكانا شهيدين ^(١) ، وسُجلا في ديوان الشهداء يوم أحد .

وكان عمها زياد بن السكن الأشهلي الأنصاري ممن ذابت نفسه حباً في
الاستشهاد في سبيل الله تعالى ، فلما اشتد القتال يوم أحد ، وحمي الوطيس ،
واحمرت الحدق ، وكان زياد بن السكن من أقرب الفرسان إلى أمير الأنبياء
سيدنا وحبينا محمد ﷺ ، فباع نفسه ، وتلاشت الدنيا أمام عينيه لما رأى الخطر
يدنو من الحبيب الأعظم ﷺ ، فارتقى على الموت لا يبالي بأحدٍ خصوصاً عندما
سمع صوت الحبيب المصطفى يقول : «من رجل يبيع لنا نفسه؟» ، وكان
رسول الله ﷺ قد أصيب وجهه الشريف ، وكسرت رباعيته ، وجُرحت شفته ،
وأصيبت وجتته ، هنالك وثب إليه فتية من الأنصار خمسة منهم زياد بن
السكن ، فقاتل قتال الأبطال حتى أُثبت ثم تاب إلى الحبيب المصطفى ﷺ ناس
من المسلمين ، فقاتلوا عنه حتى أزالوا عنه العدو ، فقال رسول الله ﷺ لزياد
ابن السكن : «ادن مني» ، وقد أثبتته الجراحة ، فوسده رسول الله ﷺ قدمه

(١) الاستيعاب (٧٢/١١) ، ترجمة رقم (٢٧٧٤) ، الإصابة (٣٤٩/١٠) ، ترجمة رقم (٩٢٦٨) .

حتى مات عليها^(١) .

وما أجمل أن نقرأ هذه الأبيات التي تصور استشهاد هذا الصحابي الفارس :
 أكان زياد بأُسك إذ تُصابُ تكاثرت الجراح وأنت صُلب
 يهابُك في الوغى من لا يهابُ هوى البطل المغامر واطمحل
 قواهُ وحاتر الهمم الصلابُ فتى صدقت مشاهدته فظلت
 تعاوره القواضب والحرابُ أيادي الله يجعلها ثواباً
 لكل مجاهدٍ نعم الثوابُ أهاب محمد أدنوه مني
 فذلك صحابي المحض اللبابُ على قدمي ضعوا لليث رأساً
 أحاذر أن يعفرهُ الترابُ ففاضت نفسه نوراً عليها
 وماج الجو وامتدت العبابُ تلقته الملائك بالتحايا
 منضرةً تحب وتستطابُ وزُخرفت الجنان وقيل
 مآبك إنه نعم المآبُ^(٢)

وما زلنا نتابع سير المعركة في أحد ، وما زلنا نشهد جهاد الأسرة السكنية ،
 وها نحن أولاء نشهد عمارة بن زياد بن السكن ، ابن عم أسماء وهو يقاتلُ
 ويجاهدُ ، ويجالد المشركين قرب رسول الله ﷺ ، حتى اتخذه الله شهيداً ، وكتبَ
 من الأحياء الذين يُرزقون عند ربهم ، ووجد في جسمه أربعة عشر جرحاً
 تشهد له بالبسالة والإقدام .

وهكذا راح هؤلاء الأنصار إلى ربهم ، وقد حظوا بالشهادة بعد أن تركوا
 وراءهم نساءً وبناتٍ ملاء حب الله ورسوله قلوبهن ، لاسيما أن رسول الله ﷺ

(١) الاستيعاب (٤/٣٦) ، ترجمة رقم (٨٢٨) ، والإصابة (٤/٢٩) رقم (٢٨٤٨) .

(٢) انظر : ديوان المجد للإسلام (ص ٤١ ، ٤٢) بتصرف .

سالم صحيح لم يُصب بسوءٍ في معركة أُحُدٍ ، وقد أبانت أسماء بنت يزيد عن طيب عنصرها ، وعن يقين إيمانها بالله ، وعن إيمان يقينها فقد بلغها نبأ استشهاد أفراد أسرتها ، وفي مقدمتهم : أبوها ، وأخوها عامر ثم عمها زياد وابنه عمارة وغيرهم من بني عبد الأشهل ، فخرجت تنظر إلى سلامة رسول الله ﷺ وهو قادم من أُحُدٍ ، ولما رآته سالماً هتفت قائلةً : كل مصيبةٍ بعدك جليل يا رسول الله (١) .

ولم تتوقف أسماء ﷺ عند هاتيك الأمور ، وإنما كانت تطعمُ المجاهدين بقيادة نبهم ﷺ ، ففي غزاة الخندق ، بعثت إلى النبي ﷺ بقعبٍ «أي : قدح ضخم» ، وهو عند أم سلمة أم المؤمنين - رضوان الله عليها - فأكلت أم سلمة حاجتها ، ثم خرج بالقعب ، فنادى منادي رسول الله ﷺ إلى عشائه ، فأكل أهل الخندق حتى نهلوا وهي كما هي (٢) .

ولله در الشاعر ؛ إذ صاغ هذه الضيافة شعراً فقال عن أسماء :

والأشهلية إذ يجيءُ رسولها	يمشي بجفنتها أغر وسيا
الله علمها مناقب دينه	فشفى الخبال وأحسن التعليما
لولا مرأشه تقوم خلقه	لم يعرفوا الإصلاح والتقويما

ولما خرج رسول الله ﷺ إلى الحديبية ، كان معه عدد من بنات الصحابة ، وكانت هناك أعداد من الصحابيات من نساء المهاجرين والأنصار ، وكانت أسماء بنت يزيد ممن خرج إلى الحديبية ، ولما كانت البيعة المباركة تحت الشجرة ، بايعت بيعة الرضوان يومئذٍ ، وكتبت في سجل الذين رضي الله عنهم ؛ إذ

(١) انظر : المغازي للواقدي (١/٣١٥) بتصرف ، و«جلل» هينة صغيرة .

(٢) المغازي (٢/٤٧٧) .

يباعون تحت الشجرة بنفوس راضية بالاستشهاد في سبيل الله ﷺ ، فحظيت مع من بايع تحت الشجرة ببشارة الحبيب المصطفى ﷺ بالجنة ، حيث قال ﷺ : « لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة »^(١) .

ولما خرج الحبيب المصطفى ﷺ إلى خيبر ليجاهد اليهود الذين يبتغون الغدر والكره للإسلام ، خرج معه ﷺ من المدينة عشرون امرأة في مقدمتهن أمنا أم سلمة رضي الله عنها ، وكانت أسماء من عداد هذا العقد النفيس ممن خرجن يعتنين بالجرحى ، ويؤدين واجبات الجهاد ، ولما فتح الله على المسلمين حصون خيبر أخذت أسماء ومن معها من النساء تلکم المغانم ، فلحقها نصيب من الفياء والمال والملابس^(٢) .

وتوفي رسول الله ﷺ وهو راضٍ عن أسماء ابنة يزيد بن السكن ، وأحبت أسماء أن تتابع رحلة الجهاد في صفوف الفاتحين الذين خرجوا يجاهدون في مشارق الأرض ومغاربها ، ولما كانت معركة اليرموك الشهيرة في الشام ، كانت أسماء بنت يزيد ونساء المسلمين يشاركن في هذه المعركة الضارية ، وقد قاتل المسلمون يومئذٍ قتالاً تعجز عنه أسود الفلا ، ولما احتدم القتال ، واشتجرت الرماح ، ولمعت بوارق السيوف اشتركت النساء من وراء فرسان المسلمين ، وكنَّ يشجعنهم ، ولكن شدة المعركة وضراوتها جعلت بعض رجال المسلمين يتراجعون قليلاً إلى الخلف ، فكانت النساء المجاهدات لهؤلاء بالمرصاد فيضربنهم بالحجارة وبالخشب ، كي يعودوا إلى جلال الروم الكافرين .

وها نحن أولاء نحضر المعركة يومئذٍ ، وها هو ابن كثير رضي الله عنه ينقل لنا

(١) أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي ، وانظر سير أعلام النبلاء (٢/٢٩٦، ٢٩٧) .

(٢) المغازي (٢/٦٨٨) ، بتصرف ، وانظر : تاريخ مدينة دمشق ، تراجم النساء (ص ٣٩) .

صورة حية عن جهاد المؤمنات ، ودورهن يوم اليرموك ، فيقول : وقد قاتل نساءً المسلمين في هذا اليوم وقتلوا خلقاً كثيراً من الروم ، وكن يضربن من انهزم من المسلمين ويقلن : أين تذهبون عنا ، وتدعوننا للعلاج ؟ فإذا زجرتهم لا يملك أحد نفسه حتى يرجع إلى القتال^(١) .

وما زالت المعركة مستعرةً ، فما كان من أسماء إلا أن اقتلعت عمود خيمتها ، وراحت تضرب به رؤوس الروم حتى قتلت يومئذ تسعة من الروم^(٢) ، ونقلتهم إلى النار وبئس القرار .

وداعاً أسماء بنت يزيد :

في الشام طاب المقام لأسماء بنت يزيد ، وراحت تؤدي رسالة العلم حيث أخذت تُحدث بالشام ، وتعلم النساء ، وتروي الحديث لمن جاء ينشد العلم . ولعل استقرار أسماء في الشام يعود إلى ما بعد مشاركتها في معركة اليرموك ، وقد اختارت دمشق سكناً لها ، وهناك راحت تكمل مشوار حياتها الحافل بالفضائل ، وقد امتد بها العمر إلى بُعيد منتصف القرن الهجري الأول ، فهي تُعد بذلك من بنات الصحابة المعمرات .

وعن سكنها بدمشق يتحدث الإمام الذهبي رحمته الله يقول : سكنت دمشق وقبر أم سلمة الذي بمقبرة باب الصغير هو قبرها إن شاء الله^(٣) .

(١) انظر : البداية والنهاية لابن كثير (٧/١١٣) .

(٢) انظر : مجمع الزوائد (٩/٢٦٠) ، وسير أعلام النبلاء (٢/٢٩٧) ، وتاريخ دمشق ، تراجم النساء (ص ٣٤) .

(٣) انظر : سير أعلام النبلاء (٢/٢٢٠) و(٢/٢٩٧) .

وعن عمرها ووفاتها يقول الذهبي : عاشت إلى دولة يزيد بن معاوية ^(١) .
وقال ابن حجر رحمته الله : شهدت اليرموك ، وعاشت بعد ذلك دهرًا ^(٢) .
وفي «البداية والنهاية» يذكر ابن كثير أسماء بنت يزيد ، وذلك في وفيات سنة ٦٩ هـ ، وقال : إنه ممن توفي في هذه السنة أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية ، بايعت النبي ﷺ ، وقتلت بعمود خيمتها يوم اليرموك تسعة من الروم ليلة عرسها ، وسكنت دمشق ، ودفنت بباب الصغير .
وبهذا تكون وفاة أسماء بنت يزيد في خلافة عبد الملك بن مروان ، وقبرها مشهور بباب الصغير بدمشق .
ومع وداع أشهر بنات الصحابة ، وأشهر بنات الأنصار في العلم والفقہ ، ومكارم الأخلاق أرجو الله أن أكون قد وفقت إلى رسم بعض ملامح صورها ؛ لتكون قدوة لنسائنا وبناتنا ، ونساء الأمة .
رضي الله عن أسماء بنت يزيد العاقلة المحدثه ، والمجاهدة المؤمنة ، والخيرة الكريمة ، ونصّر الله قبرها ، وجزاها خيرًا عما قدمت وعما فعلت .
ومع وداع سيرة أسماء بنت يزيد رضي الله عنها نقرأ قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْنَدٍ ﴿٥٥﴾ [القمر : ٥٤ ، ٥٥] .



(١) مات يزيد بن معاوية في ١٤ ربيع الأول سنة ٦٤ هـ .

(٢) الإصابة (١٢٥ / ١٢) .

هند بنت عتبة رضي الله عنها

كانت هند مخرجة للمبدأ الذي تراه صواباً .

قال رسول الله ﷺ : «بارك الله لكم في غنمكم ، وأكثر والدتها» .

هند بنت عتبة رضي الله عنها

وجاء الحق وزهق الباطل :

عشرون عامًا لم يخشع قلبها لذكر الله وما نزل من الحق .

عشرون عامًا قضتها هذه المرأة في عداوة مفرطة لرسول الله ﷺ والمسلمين ، لم تتوقف مرة خلالها عن إظهار العداوة ، كانت تجودُ بحليها وذهبها في سبيل الصد عن الإسلام ، فهل رأيت امرأة تجود بأثمن ما تملكه من متاع وزينة - وهي ضنينة بهذا - لتصدَّ عن سبيل الله ﷻ بكل ما أوتيت من حيلة ؟ حتى إن رسول الله ﷺ أهدر دمها .

هذه المرأة نفسها فازت مع الفائزين لما جاء الحقُّ وزهق الباطل ، وكان شركها نسيًا منسيا ، وكانت من أصنامها في غرور .

وهذه المرأة هي هند بنتُ عتبة بن ربيعة بن عبد شمس العبشمية القرشية ^(١) ، إحدى نساء العرب اللاتي كان لهن شهرة عالية قبل الإسلام وبعده ، وهي أم الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه .

قال الإمام الذهبي رحمته الله :

كانت هند زوجة للفاكه بن المغيرة المخزومي ، أحد فتیان قريش ، فعانت من سوء رأيه ما حملها على فراقه ، غير باكية عليه ، بعد أن أولدها إبان بن الفاكه .

(١) الاستيعاب (٤/٤٠٩) ، وتاريخ دمشق (ص ٤٣٧) ، والإصابة (٤/٤٠٩) .

ولما فارقتة هند قالت لأبيها :

إني امرأة قد ملكت أمري فلا تزوجني رجلاً حتى تعرضه عليّ ، فقال أبوها :
ذلك لك .

ثم قال لها يوماً :

إنه قد خطبك رجلان من قومك ، ولست مسمياً لك واحداً منهما حتى
أصفه لك :

أما الأول : ففي الشرف الصميم ، والحسب الكريم ، حسن الصحابة ،
حسن الإجابة ، إن تابعته تابعك ، وإن ملت كان معك ، تقضين عليه في ماله ،
وتكتفين برأيك في ضعفه .

وأما الآخر : ففي الحسب الحسيب ، والرأي الأريب ، عز عشيرته ، يؤدب
أهله ولا يؤدبونه ، إن اتبعوه أسهل بهم ، وإن جانبوه توعر بهم ، شديد الغيرة ،
إن جاع فغير منزور ، وإن نوزع فغير مقهور ، أي : أنه سيد قوي ، وقائد حكيم ،
وإن لم يكن كثير المال كالأول ، قد بينت لك حالهما ، قالت :

أما الأول : فسيد مضياح لكرامته ، اطوٍ ذكر هذا عني ، فلا تسمه لي .

وأما الآخر : فبعل الحرة الكريمة ، إني لأخلاق هذا لوامقة ، وإني له لموافقة ،
وإني لأخذة بآداب البعل مع لزومي بيتي وقلة تلفتي ، فمن هو ؟ قال : ذاك
أبو سفيان بن حرب .

قالت : فزوجه»^(١) .

(١) انظر الخبر بطوله : تاريخ الإسلام للذهبي (٣/ ٢٩٨) ، تاريخ دمشق (ص ٤٤٠ ، ٤٤١) ،
والعقد الفريد (٦/ ٨٦-٨٨) ، وطبقات ابن سعد (٨/ ٢٣٥ ، ٢٣٦) ، بتصرف يسير ،
السيرة الحلبية (٣/ ٤٤ ، ٤٥) .

ملاح من شخصيتها ومروءتها :

كانت هند إحدى فرائد قريش رأياً وحزماً ، وبُعْدَ همة ، وحسن بيان ، وكانت فصيحة جريئة ، صاحبة رأي وأنفة ومروءة ، أضف إلى ذلك أنها كانت تقول الشعر الجيد ، وأكثر ما عرف من شعرها مراثيها لقتلى بدر ، وفيهم أبوها عتبة بن ربيعة ، سيد من سادات قريش ، وذوي آرائهم ، وأخوها الوليد بن عتبة وعمها شيبه بن ربيعة وغيرهم .

ومما يعرف من صفات هند - ما أثر من حديث مروءتها في جاهليتها ، رغم ما كان بينها وبين الرسول ﷺ ، إذ إنها لما علمت بعزم زينب بنت رسول الله ﷺ على الهجرة إلى المدينة المنورة ذهبت إليها في هدأة من الليل ، وعرضت عليها مساعدتها كابنة عم تحفظ عهد القرابة ، وأظهرت لها كل مروءة ، قالت : يا ابنة محمد ، بلغني عزمك على الرحيل ، فحاولت زينب ﷺ أن تخفي هجرتها عن هند .

فقالت لها هند : لا تكذبيني ، فإن ما بين الرجال لا يتعداهم إلى النساء ، فإن أحوجك معونة من مال أو عمل ، فإن أولى بإسعادك ابنة عمك - تريد نفسها . ولما علمت هند أن قريشاً عرضوا لزينب في هجرتها ، خرجت إليهم تؤنبهم على عملهم الشائن ، وتهجوهم ، وقالت لهم :

أفي السلم أعيار جفاءً وغلظةً وفي الحرب أشباه النساء العوارك^(١)
هند ومقتل الأحبة :

خرج المشركون من مكة وعلى رأسهم أشرافها ، وصفوة رجالها للدفاع عن تجارتهم ، وللقضاء على المسلمين بعد أن يقيموا ببدر ثلاثاً ، ينحرون الإبل ،

(١) النساء العوارك : النساء الحائضات .

ويشربون الخمر ، وتسمع بهم العرب ، فتهاجمهم أبد الدهر ، هذا بزعمهم .
 وكان في جيش المشركين من أقرباء هند : أبوها ، وأخوها ، وعمها ،
 وزوجها ، أما في جيش المسلمين فكان : أخوها أبو حذيفة بن عتبة رضي الله عنه ،
 بصحبة مولاه سالم ، وكان لأبي حذيفة موقف عطر يوم بدر دعا أباه إلى المبارزة ،
 فقالت أخته هند :

الأحول الأثعل المذموم طائره أبو حذيفة شرُّ الناس في الدين
 أما شكرت أبا ربّاك من صغر حتى شببت شبابًا غير محجون
 وفي الحقيقة ، فهنا موضع ندي عجيب لوقفه إعجاب بوفاء المسلمين
 وعظيم محبتهم لرسول الله صلى الله عليه وآله ، وإيمانهم برسالته ، فها هو أبو حذيفة يتصدى
 لأبيه ، بل وعمه وأخيه في سبيل الله صلى الله عليه وآله .

وفي بدء المعركة قُضي على عتبة وأخيه وابنه ، ثم أسفرت المعركة عن مقتل
 سبعين ، وأسر سبعين ، وولّى أهل الشرك الأدبار كاسفًا بالهمّ والغمّ خاطرهم ،
 خاشعة من الذلّ أبصارهم ، لا يكاد أحد يلتقي نظره بنظر صاحبه ، حتى
 يوارى وجهه خجلًا وحسرةً وأسفًا من سوء ما حل بهم جميعًا ، وكان في
 مقدمة الهاريين زوج هند - أبو سفيان .

وفرح المسلمون بنصر الله صلى الله عليه وآله ، وما أفاء عليهم من المغانم ، بينما أخبر أهل
 مكة بهزيمة قريش ومصابها في كبرائها وأشرافها وسادتها .

وقد ذُهل المشركون هنالك أول الأمر ، فلم يصدقوا الخبر إلى أن جاءت
 فلول المنهزمين تؤكد صدق الخبر ، فخرروا مغشياً عليهم من هول الصاعقة
 حتى لقد حُمّ أبو لهب - ومات كمدًا بعد سبعة أيام ، بينما ناحت نساء قريش -
 بعد فترة شهرًا كاملًا على قتلاها ، فجززن شعر رؤوسهن ، وفعلن ما فعلن ،

فكان يؤتى براحلة الرجل أو بفرسه فينخنها ويجلسن حولها ويندبن صاحبها ، ولم يخالف النساء في هذا إلا هند بنت عتبة ، فقد مشى نساء منهن يوماً إليها فقلن لها : ألا تبكين على أبيك وأخيك وعمك وأهل بيتك ؟

فقالت : أنا أبكيهم فيبلغ محمداً وأصحابه فيشمتوا بنا ، ويشمت نساء بني الخزرج ، لا والله حتى أثار من محمد وأصحابه ، والدَّهْنُ عليّ حرام حتى نغزو محمداً ، والله لو أعلم أن الحزن يذهب ما بقلبي لبكيت ، ولكن لا يذهب إلا أن أرى ثأري بعيني من قتلة الأحبة .

ومكثت هند لا تقرب الدَّهْن ولا تقرب فراش أبي سفيان ، وتحرض الناس حتى كانت وقعة أُحُدٍ ، وكانت خلال ذلك ترثي قتلاها في بدر فمما قالته في ذلك :

أبكي عميد الأبطحين كليهما	وحاميهما من كل باغ يريدتها
أبي عتبة الخيرات ويحك فأعلى	وشيبة والحامي الذمار وليدها
أولئك آل المجد من آل غالب	في العز منها ينمي عديدها ^(١)

التهيؤ لأُحُدٍ :

لم يهدأ منذ بدر - لقريش بال - فما تزال نساؤهم تذكر كل منهن في القتلى لها ابناً ، أو أباً ، أو زوجاً جميعاً فهي تتوجع له ، فقرر المشركون أخذ الثأر ، وأصررت النسوة من قريش على أن يسرن مع الرجال .

وخرجت قريش ومعها نساؤها وعلى رأسهن هند ، وكن خمس عشرة امرأة فمن النساء اللواتي خرجن إلى أحد : برزة بنت مسعود الثقفي امرأة صفوان

(١) شاعرات العرب (ص ٤٦٨) .

ابن أمية ، وسلافة بنت سعد امرأة طلحة بن أبي طلحة ، وفاطمة بنت الوليد ابن المغيرة امرأة الحارث بن هشام ، وهند بنت منبه امرأة عمرو بن العاص وغيرهن ، وكانت هند أشدهن على الثأر حرقة ، وسار المشركون باتجاه المدينة ، وكانت هند قد وعدت وأغرّت «وحشياً» ، العبد الحبشي ، وكان عبداً لجبير بن مطعم ، وكان «حمزة» قد قتل عمه في بدر ، وكان جبير يرى في عبده وحشي مهارة فائقة في رمي الحربة ، فأغراه بالعتق والحرية إذا هو خرج مع الناس ورمى حمزة فقتله .

وبالغت هند في إغراء وحشي بالمال ، ليتقلب فيه في أعطاف الحرية ، وكانت هند قد فقدت في معركة «بدر» أباهما ، وعمها ، وأخاها ، وابنها ، وقيل لها : إن «حمزة» هو الذي قتل بعض هؤلاء وأجهز على البعض الآخر .

ولقد وعدت «وحشياً» إن هو نجح في قتل «حمزة» بأثمن ما تملكه المرأة من متاع وزينة ، فلقد أمسكت بأناملها قرطها اللؤلؤي الثمين ، وقلائدها الذهبية التي تزدهم حول عنقها ، ثم قالت وعيناها تحديقان في «وحشي» : كل هذا لك إن قتلت حمزة .

وسال لعاب «وحشي» ، وطارت خواطره تواقفة مشتاقة إلى المعركة التي سيربح فيها حريته ، فلا يصير بعدُ عبداً أو رقيقاً ، والتي سيخرج منها بكل هذا الحلي الذي يزين عنق زعيمة نساء قريش ، وزوجة زعيمها ، وابنة سيدها ، كانت المؤامرة إذن ، وكانت الحرب كلها تريد «حمزة» ﷺ ، بشكل واضح وحاسم^(١) .

يقول وحشي : وخرجت مع الناس للقتال ، وكنت رجلاً حبشياً أقذف

(١) رجال حول الرسول ﷺ ، خالد محمد خالد (ص ٢١٥، ٢١٦) .

بالحرية كذف الحبشة ، فلما أخطى بها شيئاً ، فلما التقى الناس ، خرجت أنظر حمزة» ، وأتبصره حتى رأته في عرض الناس مثل الجمل الأورق ، يهد الناس بسيفه هدًا ، ما يقوم له شيء ، فوالله إني لأتمنياً له أريده وأستتر منه بشجرة أو حجر ، ليدنو مني ، إذ تقدمني إليه سباع بن عبد العزى ، فلما رآه حمزة ضربه ضربة ما أخطأ رأسه .

قال : وهزرت حربتي حتى إذا رضيت منها ، دفعتها إليه ، ف وقعت في ثنيتي حتى خرجت من بين رجله ، وذهب لينوء نحوي ، فغلب وتركته وإياها حتى مات ، ثم أتته فأخذت حربتي ، ثم رجعت إلى العسكر فقعدت فيه ، ولم يكن لي غيره حاجة ، فلما قدمت مكة عتقت ، وإنما قتلته لأعتق .

ودقت طول الحرب ، وحمي وطيسها ، وصاحت هند في وحشي : أبا دسمة ، اشف واستشف ، ثم انطلقت تقود نساء قريش ، وتدعوهن إلى المشاركة الفعالة :

فكن يتجولن في الصفوف ، ويضربن بالدفوف ، يستنهضن الرجال ، ويحرضن على القتال ، ويثرن حفاظ الأبطال ، ويحركن مشاعر أهل الطعان والنضال ، فتارة يخاطبن أهل اللواء فيقلن :

وَيَهَا بِنِي عِبْدِ الدَّارِ وَيَهَا حِمَاةُ الأَدْبَارِ

ضرباً بكل بتار

وتارة يَأْزِزْنَ قومهن على القتال ، وينشدن :

إِنْ تَقْبَلُوا نَعْمَانِقَ وَنَفْسَ رَشِ السَّنَارِقِ

أَوْ تَدْبُرُوا نَفْسَ أَرِقِ فَفِرَاقِ غَيْرِ وَامِقِ

وتقارب الجمعان ، وتدانن الفئتان ، وأنت مرحلة القتال ^(١) .

وتركت هند الدف ، وخاضت غمار المعركة وشدائدها ، ولم تنس أن تصيح في وحشي قبل أن تنخرط في القتال :
أبا دسمة ، اشف واستشف .

ودار قتال شرس ضروس ، تنخلع له القلوب ، وتطيش منه العقول .
وانكسرت قريش ، وبدأت في الانسحاب ، وكان من خبر الرماة ما كان ،
وأجاد خالد بن الوليد اغتنام الفرصة ، وكان من خبر وحشي ما كان من قتل
«حمزة» رضي الله عنه غدراً ، ووضعت أحد أوزارها عن هزيمة «أحد» .
ولما علمت نساء المشركين بمصارع أبطال المسلمين ، وعلى رأسهم أسد الله
حمزة بن عبد المطلب .

هرعت طائفة منهن تتقدمهن هند بنت عتبة التي قُتل أبوها وأخوها وعمها
في «بدر» على يدي حمزة بن عبد المطلب ، وعلي بن أبي طالب ، وعبيدة بن
الحرث ، فجعلت تجوس بين القتلى فتبقر البطون ، وتسمل العيون ، وتصلم
الأذان ، وتجدع الأنوف ، ثم صنعت من الأنوف والأذان قلائد وخلاخيل
تزينت بها ، ومنحت حليها إلى وحشي مكافأة له على قتل حمزة ، ولما بلغت هند
حمزة رضوان الله عليه ، شقت صدره واجتثت «كبده» ومضغته فلم تسغه «لم
تستطع ابتلاعه» فلفظته ، ومن هنا دعيت «بأكلة الأكباد» .

وكانت المثلة بشعة ، وكانت الفعلة شنيعة ، مما حمل أبو سفيان بن حرب
على التبرؤ من هذه التبعة ، فارتقى مرتقى وصاح يخاطب المسلمين :

(١) الرحيق المختوم ، للمباركفوري (ص ٢٧٢، ٢٧٣) .

ستجدون في قتلاكم مُثَلَّةً والله ما رضيت ، وما سخطت ، وما نهيت ، وما أمرت .

وارتقت هند صخرة ، وأنشدت صارخة :

نحن جزيناكم بيوم بدر والحرب بعد الحرب ذات سعر
 ما كان عن عتبة لي من صبر ولا أخى وعمه وبكري
 شفيت نفسي وقضيت نذري شفيت وحشي غليل صدري^(١)
 وانصرف المشركون عن أحدٍ وهم مسرورون بما زال عنهم من عار بدر ،
 وقالت هند حين انصرفها عن أحد :
 رجعت وفي قلبي وفي نفسي بلا بل جمة وقد فاتني بعض الذي كان مطلبي
 ولكني قد نلتُ شيئاً ولم يكن كما كنتُ أرجو في مسيري ومطلبي
 إسلامها وبيعتها :

أجمعت الروايات أن إسلام هند كان يوم الفتح بعد إسلام زوجها أبي سفيان بليلة ، وحسن إسلامها .

وألقي الله نور الإسلام والإيمان في قلب أبي سفيان بن حرب ، فجاء إلى النبي ﷺ وقال : يا رسول الله ، أبيدت خضراء قريش ، لا قريش بعد اليوم .
 قال رسول الله ﷺ :

«من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن ألقى السلاح فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن»^(٢) .

(١) تاريخ الإسلام للذهبي (٢/ ٢٠٥) .

(٢) حديث صحيح : أخرجه الإمام مسلم (١٧٨٠) .

فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد بعد قتال دار سريعًا وخفيًا ، دخل الفاتح العظيم ﷺ متواضعًا لربه ﷻ محنيًا هامته حتى كادت أن تلامس ظهر ناقته .

وحطم ﷺ الأصنام ، وبات الصحب الكرام صافين أقدامهم بين يدي الله ﷻ حول الكعبة المشرفة .

وهناك كانت هند بنت عتبة ترقب تحركاتهم ، وترصد ما يدور ، رأتهم طوال الليل في صلاتهم وعبادتهم ، عاشت مع مشهدهم الأخاذ ، طافت روحانية على دور مكة ودروبها .

فجاءت هند وقالت لأبي سفيان : إنما أريد أن أتابع محمدًا .

قال : قد رأيتك تكرهين هذا الحديث أمس .

قالت : إني والله ما رأيت أن عبد الله حق عبادته في هذا المسجد قبل الليلة ، والله إن يأتوا مُصلين قيامًا وركوعًا وسجودًا .

قال : فإنك قد فعلت ما فعلت ، فاذهبي برجل من قومك معك ، فذهبت إلى عثمان - وفي رواية عمر - ومعها نسوة ممن أسلمن ، فذهب فاستأذن لها فدخلت متنقبة متنكرة لحدثها ، وما كان من صنعها بحمزة ، فهي تخاف أن يأخذها رسول الله ﷺ بحدثها ذلك .

فقالت : يا رسول الله ، والذي أظهر الدين الذي اختاره لنفسه ، لتنفعني رحمك يا محمد ، إني امرأة مؤمنة بالله ، مصدقة برسوله ، ثم كشفت عن نقابها ، وقالت : أنا هند بنت عتبة .

فقال رسول الله ﷺ : «مرحبًا بك يا هند» .

فقالت : والله ما كان على ظهر الأرض أهل خباء أحب إليّ من أن يذلوا من خبائك ، ولقد أصبحتُ وما على الأرض أهل خباء أحب إليّ أن يعزوا من خبائك .

فقال رسول الله ﷺ : «زيادة» .

وقرأ عليهن القرآن وبايعهن ، وقال : «تبايعنني على ألا تشركن بالله شيئاً» .

فقالت هند : والله إنك لتأخذ علينا أمرًا ما تأخذه على الرجال وسنؤتيكه .

قال : «ولا تسرقن» .

قالت : والله إن كنت لأصيب من مال أبي سفيان الهنة والهنة ، وما أدري

ذلك حلالًا لي أم لا ؟

فقال أبو سفيان ، وكان شاهدًا لما تقول : أما ما أصبت فيما مضى فأنتِ منه

في حلّ .

فقال رسول الله ﷺ : «وإنك لهند بنت عتبة؟» .

فقالت : أنا هند بنت عتبة فاعف عما سلف ، عفا الله عنك .

فقال : «ولا تزنين» .

قالت : يا رسول الله ، وهل تزني الحرة ؟

قال : «ولا تقتلن أولادكن» .

قالت : قد ربيناهم صغارًا ، وقتلتهم يوم بدر كبارًا ، فأنت وهم أعلم ،

فضحك عمر بن الخطاب حتى استغرب .

قال : «ولا تأتين بيهتان تفترينه بين أيديكن وأرجلكن» .

قالت : والله إن إتيان البهتان لقبيح ، ولبعض التجاوز أمثل .

قال : «ولا تعصيني في معروف» .

قالت : ما جلسنا هذا المجلس ونحن نريد أن نعصيك في معروف .

فقال رسول الله ﷺ لعمر : «بايعهن واستغفر لهن الله» .

فبايعهن عمر ، وكان رسول الله ﷺ لا يصفح النساء ، ولا يمس امرأة ، ولا تمسه امرأة إلا امرأة أحلها الله أو ذات محرم منه ^(١) .

ثم إن رسول الله ﷺ أقر أبا سفيان وهنداً على نكاحهما .

نعمة الإسلام :

هند بنت عتبة رضي الله عنها شخصية متميزة في عالم النساء ، فعندما أنعم الله عليها بالإسلام انمحت عنها معالم الأدران من قلبها ، وأظهرت أنها امرأة من طراز فريد في عالم الصحابيات ، فلما جعلت تضرب صنماً لها في بيتها بالقدوم ، فلذة فلذة وهي تقول : كنا منك ومعك في غرور ^(٢) .

ويبدو أن هنداً فطرت على الكرم ، فبعد أن أسلمت وصدقت أرسلت بهدية إلى النبي ﷺ فدعا لها ، فقد أورد هذا الخبر ابن عساكر رحمته الله في تاريخه فقال :

«لما أسلمت هند بنت عتبة أرسلت إلى رسول الله بهدية وهو بالأبطح ، مع

(١) انظر : الطبقات (٢٣٦/٨، ٢٣٧)، وتاريخ الطبري (١٦١/٢، ١٦٢)، والاستيعاب (٤/٤١١)، وتاريخ دمشق (ص ٤٤٩، ٤٥٠)، وأسد الغابة (٥/٥٦٢)، والإصابة (٤/٤٠٩)، والسيرة الحلبية (٣/٤٦، ٤٧)، وللحديث أصل في الصحاح فقد أخرجه مسلم في الأفضية ، وأبو داود (٣٥٣٢)، والنسائي (٨/٢٤٦)، وأحمد (٦/٣٩، ٥٠، ٢٠٦) .

(٢) تهذيب الأسماء واللغات (٢/٣٥٧) .

مولاة لها بجديين مشويين وسقاء من جلد ، فانتهت الجاريةُ إلى رسول الله ﷺ فسلمت وهو بين نسائه أم سلمة وزوجته ميمونة ، ونساء من نساء عبد المطلب ، فقالت : إن مولاتي أرسلت إليك بهذه الهدية ، وهي معذرة إليك وتقول : إن غنمنا اليوم قليلة الوالدة .

فقال رسول الله ﷺ : «بارك الله لكم في غنمكم ، وأكثر والدتها» .

فرجعت المولاة إلى هند فأخبرتها بدعاء رسول الله ﷺ فسُرت بذلك ، وكانت المولاة تقول : لقد رأينا من كثرة غنمنا ووالدتها ما لم نكن نرى قبل ولا قريب .

فتقول هند : هذا دعاء رسول الله ﷺ وبركته ، فالحمد لله الذي هدانا للإسلام ، ثم تقول هند : لقد كنت أرى في النوم أني في الشمس أبداً قائمة ، والظل مني ولا أقدر عليه ، فلما دنا رسول الله ﷺ منا رأيت كأنني دخلت الظل^(١) .

هند ومعاوية رضي الله عنه :

فطمت هند معاوية ابنها على حب الفضائل وعلى الشهامة ، والحزم ، والأنفة ، وقد وصفته وهي ترقصه وهو صغير فقالت :

إن ابني معرق كريم مُحَبُّ في أهله حلِيم
ليس بفحاش ولا لئيم ولا بطحروورٍ ولا شوؤوم
صخرُ بني فهر به زعيم لا يخلف الظن ولا يخيم

ومعاوية هذا نظر إليه رجل وهو صغير فقال : إني أظن هذا الغلام سيسود

قومه .

(١) تاريخ دمشق (ص ٤٥٦، ٤٥٧) بتصرف يسير .

فقال: ثكلته إن كان لا يسود إلا قومه^(١).

ولله در القائل:

وإذا كانت النفوس كبارًا تعبت في مرادها الأجسام
ووصف معاوية أمه رضي الله عنه فقال: أما هند، فكانت امرأة من قريش في
الجاهلية عظيمة الخطر، وفي الإسلام كريمة الخبر.

ومعاوية رضي الله عنه أريبُ العرب، وخالهم، وألمعتهم، ورث عن أمه هند ما لم
يرث عن أبيه، وكان معاوية إذا نوزع الفخر بالمقدرة وجوذب بالمباهاة الرأي،
انتسب إلى أمه، فصدع بذلك أسماع خصمه، وكثيرًا ما كان يقول في سجال
الفخر: أنا من ربثني هند، أنا ابن هند.

فأولئك هن الأمهات اللواتي انبلج عنهن فجر الإسلام، وسمت بهن
عظمتهم وعنهن ذاعت مكارمه، ورسخت قوائمه، فإن كان مما يذل الرجل في
عصرنا أن يقال له: تربية امرأة، أو تربية أمه، أما في عصور الإسلام الزاهية،
وأيامه الخالية، فكان مهبط الشرف الحر، والعز والمجد المؤثل، والمجد المكين،
فقد رأينا فضليات النساء خرجن رجالًا ملؤوا الدنيا وشغلوا الناس بأعمالهم
ومآثرهم العظيمة، فالزبير بن العوام فارس رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي بلغ من
بسالته وبطولته أن عدل به الفاروق عمر رضي الله عنه ألفًا من الرجال حين أمد به جيش
المسلمين ربته صفية بنت عبد المطلب، وعبد الله بن الزبير وأمهم أسماء،
وفاطمة بنت أسد وابنها الإمام علي، والنوار بنت مالك وابنها زيد بن ثابت
جامع القرآن في عهد الصديق، وأسماء بنت عميس وابنها جعفر، وبركة

(١) عيون الأخبار (١/ ٢٢٤)، والعقد الفريد (٢/ ٢٨٧).

الحبشية «أم أيمن» وابنها أيمن وأسامة بن زيد ، وأم سليم وابنها أنس بن مالك ، وكذلك سفيان الثوري ، والأوزاعي فقيه عصره ، وفروخ أبو ربيعة ، كذلك كانت النساء في ذلك العهد الكريم مبعث كل شيء في نفوس أبنائهن ، وصدق القائل :

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعباً طيب الأعراق
الأم روض إن تعهده الحيا بالري أورك أيما إياراق
الأم أستاذة الأساتذة الألى شغلت مآثرهم مدى الآفاق
جهادها ﷺ :

تابعت هند ﷺ حياتها محافظة على ما بايعت عليه رسول الله ﷺ ، وشهدت هند «اليرموك» ، وحرضت على قتال الروم يومئذ ، وجعلت تقول :
عضوا الغلفان بسيوفكم يا معشر المسلمين ^(١) .

وفي ميدان الفضائل كان لها أثر محمود ، فقد روت عن النبي ﷺ وروى عنها ابنها معاوية وعائشة ^(٢) أم المؤمنين ﷺ ، ومما روته : قلتُ للنبي ﷺ : إن أبا سفيان رجل شحيح ، وإنه لا يعطيني وولدي إلا ما أخذت منه ، وهو لا يعلم ، فهل عليّ من حرج ؟

قال : «خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف» ^(٣) .




(١) أعلام النساء لعمر كحالة (٥/ ٢٤٩) ، وتاريخ الإسلام للذهبي (٣/ ٢٩٨) ، وأسد الغابة (٥/ ٤١٧) ، وتاريخ دمشق (ص ٤٣٧) .

(٢) تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٣٥٧) .

(٣) الحديث رواه الخمسة إلا الترمذي ، وانظر المسند (٦/ ٣٩) ، والطبقات (٨/ ٢٣٧) ، وتاريخ دمشق (ص ٤٣٨) .

وفاتها  :

سبحان مقلب القلوب ومصرفها على طاعته ، وإنما الأعمال بالخواتيم ،
فهذه هند بنت عتبة أراد الله لها أن تسلم فأسلمت ، وأحسن الله خاتمتها ،
وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

وأما عن وفاتها  ، فتذكر الروايات أنها توفيت سنة ١٤ هـ ، الموافق عام
٦٣٥ م ، وذلك في خلافة الفاروق عمر بن الخطاب  في اليوم الذي مات فيه
أبو قحافة والد الصديق  ^(١) .

فرضي الله عن الفصيحة الجريئة ، صاحبة الرأي والعقل والبلاغة ، والشعر
والحسن والجمال ، أكرم الله مثاها وجعل جنة الفردوس مأواها ، وأدخلها في
رحمته إنه غفور رحيم .



(١) أسد الغابة (٥/٥٦٣) .

أمنة بنت وهب

أم الرسول ﷺ

أمنة بنت وهب .

«وكانت يومئذ أفضل امرأة في قريش نسباً وموضعاً» .

«وسمعت هاتفاً يهتف بها في رؤياها : قد حملت بسيد هذه الأمة

ونبيها فإذا وضعته فقولي : أعيذه بالواحد من شر كل حاسد ، ثم

سميه محمداً . «ابن إسحاق» .

أمّنة بنت وهب

أم الرسول ﷺ

في رحاب المكارم :

في رحاب الطهر والبركة ، وفي ثنايا الصفاء والنقاء ، نعيش سعادة في ظلال سيرة الطاهرة السيدة أمّنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة ابن كعب بن لؤي بن غالب القرشية الزهرية ، زوج عبد الله بن عبد المطلب ، ومن منّا يستطيع أن يوفي أمّنة بنت وهب حقها ، أو جزءاً ، ولكننا نحاول أن نلتمس البركة والخير باقتطاف عناقيد مباركة من حياتها الفياضة بالعطاء والحب والحنان .

كانت زهرة قريش اليانعة ، وبنت سيد بني زهرة نسباً وشرفاً ، وقد أعطها الله من الجمال والكمال والحكمة ما كانت تدعى به حكيمة قومها ، وكانت فصيحَةً بليغةً حكيمةً على جانب عظيم لم يسبقها إليه أحد من نساء العرب .

إن رحم «أمّنة بنت وهب» أشرف الأرحام وأسمها وأعلاها ، إذ استقرت فيه نطفة كريمة عظيمة ما زالت تتقلب في الأصلاب - أصلاب الرجال - بتدبير وتقدير من البارئ ﷻ حتى استفرغها «عبد الله بن عبد المطلب» ، فتى قريش الذي فاق أقرانه دلالاً وجلالاً وجمالاً ، والذي كان نور النبوة يتلألأ بين عينيه ، ويشع من ناظره ، ويسري في كيانه ، والذي كانت فديته من الذبح - برّاً بقسم والده - أغلى ما عرفه وعهده العرب ، وذلك من أجل أن يبقى «الاصطفاء» الإلهي حقيقة قائمة ، راسخة في قلب التاريخ البشري شاهداً على الإرادة الربانية المطلقة ، لا تبديل لكلماته ، ولا راد لقضائه .

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [آل عمران: ٣٣، ٣٤].

الزواج السعيد :

قد تزوج عبد الله بن عبد المطلب بالسيدة آمنة بنت وهب ، وهو في ريعان شبابه ، وقد كانت له قصة عجيبة حيث إن أباه عبد المطلب قد نذر نذرًا ، أنه لو أنجب عشرة من الأبناء ليدبحن أحدهم ، ذلك أن عبد المطلب لما تولى إمارة مكة ، وتولى السقاية لزوار البيت الحرام ، فقد أخذ يفكر فيما يلقاه الحجيج من مشقة الحصول على الماء ، وتذكر بئر «زمزم» التي أنقذت جده إسماعيل من الهلاك ، وجذبت إلى مكة القوافل من كل ناحية ، فتمنى لو وفقه الله إلى العثور على موضع تلك البئر المباركة التي دُفنت تحت التراب .

وأصبحت هذه المسألة تشغل كل تفكيره إلى أن رأى رؤيا في منامه تبشره بتحقيق أمنيته ، وتلهمه أن يحفر عنها في موضع معين بجوار الحرم .

فقد روى «ابن إسحاق» عمن سمع «علي بن أبي طالب عليه السلام» ، يحدث حديث جده ، وما كان من حفره زمزم .

قال عبد المطلب : إني لنائم في الحجر ، فأتاني آتٍ فقال : احفر زمزم ، قال : قلت : وما زمزم ؟ قال : إنك إن حفرتها لم تندم ، وهي تراث من أيك الأعظم ، لا تنزف أبدًا ولا تُذم ، تسقي الحجيج الأعظم ، وهي بين الفرث والدم ، عند نقرة الغراب الأعصم ، عند قرية النمل ^(١) .

فأصبح عبد المطلب حاملاً معولاً ومعه ابنه الحارث ، وهو ابنه الوحيد في

(١) انظر : السيرة لابن إسحاق (١/١٥٤) .

ذلك الوقت ، فلما بدأ الحفر ، وذلك في موضع يقع بين صنمين لقريش هما «إساف ونائلة» ، فقامت إليه قريش تمنعه قائلة : والله لا نتركك تحفر بين وثنينا هذين اللذين ننحُرُ عندهما ، فنظر عبد المطلب إلى ابنه الحارث وقال : ذُدْ عني حتى أتم الحفر ، فوالله لأمضين ما أمرت به ، فلما ظهرت له الأحجار التي دفنت تحتها البئر صاح مكبراً ، فعلمت قريش أنه قد أدرك حاجته ، ووجد مطلبه ، ثم جعل عبد المطلب بئر زمزم لسقاية الحجاج لا ينازعه فيها أحد من قريش (١) .

يومئذٍ كان النذر :

ولما كان عبد المطلب ليس له سوى ولد واحد ، وهو ابنه الحارث ، وقد عانى من قريش ما عانى من قلة الولد ، وذلك أثناء قيامه بالحفر في موضع بئر زمزم ، فقد نذر يومئذٍ لئن ولد له عشرة من الأولاد ، ثم بلغوا معه بحيث يقفون بجانبه ويساعدونه ، ويمنعون الناس عنه ليذبحن أحدهم عند الكعبة .
ولما ولد له عشرة أولاد وبلغوا مبلغ الرجال ، أقبل عبد المطلب يتوسط أبناء العشرة : الحارث ، وعبد العزى ، والمقوم ، وضرار ، والعباس ، والزبير ، أبو طالب وحمة والزبير ، وعبد الله أحدُهم ، ذهب أبوهم إلى الكعبة ، وكان «عبد الله أصغرهم» ، وطلب من خادم الكعبة أن يضرب القداح ، ويعمل القرعة ، لكي يحدد من منهم سوف يُذبح وفاءً لنذره القديم ، وقد خرجت الأقداح على «عبد الله» ، وحجلا ، وكاد أبوه أن يذبحه ووجمت «آمنة» للنبا ، كما وجمت له كل قرشية يعز عليها أن يُنحر زين شباب مكة ، وأعز أبناء «عبد

(١) السيرة الهاشمية (١/١٥٠ - ١٥٥) / وشرحها في الروض الأنف (١/١٦٦ - ١٧٤) ،

وطبقات ابن سعد (١/٨٣ - ٨٨) .

المطلب» على أبيه ، وعلى قريش جميعاً ، وبكت بنات عبد المطلب ، وكنّ قياماً هناك ينتظرن أمر الله ^(١) ، فأسرع إليه أقاربه من أخوال وأعمام ونساء من قريش وعلى رأسهم خاله «المغيرة بن عبد الله المخزومي» ومنعوه من ذبحه ، وأشاروا عليه أن يفتديه بفداء ، وبلغ فداءه مائةً من الإبل ، وذلك بعد أن ضربوا الأقداح بالدية - وانصرف «عبد الله» مع أبيه «عبد المطلب» بعد الافتداء من الذبح ، وقد ازداد إشراقاً وجمالاً ونوراً ، فلقيته عند الكعبة امرأة من بني أسد بن عبد العزى فقالت له حين نظرت إلى وجهه الذي يتلألأ بنور النبوة : لك مثل الإبل التي نحرت عنك وَقَعَّ عليَّ الآن ؟ فقال :

أما الحرام فالماتُ دونه والحل لا حل فأسْتبينه
فكيف بالأمر الذي تبغينه يحمي الكريم عرضه ودينه

وقيل : إن «فاطمة بنت مر» - وكانت من أجمل النساء وأعفهن تقرأ الكتب كما جاء في «طبقات ابن سعد» ، وكما ذكر الطبري وابن الأثير كاهنة من خثعم - دعته إلى نكاحها ، فنظر إليها وأبى ، لقد رأت في وجهه نور النبوة فعرضت نفسها عليه فأبى ، فقالت :

إني رأيت نخيلة نشأت فتلألأت بحناتم القطر
فلمائها نور يضيء به ما حوله كإضاءة الفجر
ورأيت سُقياها حيى بلد وقعت به وعمارة القفر
ورأيته شرفاً ينوء به ما كل قاذح زنده يُوري
لله ما زهرية سلبت منك الذي استلبت وما تدري

العرس : ثم انصرف عبد المطلب آخذاً بيد «عبد الله» إثر افتدائه من الذبح ،

(١) انظر الطبقات لابن سعد (١/٥٣) .

وقرر عبد المطلب أن يزوجه من أجمل بنات قريش وأطهرهن ، وذلك من شدة فرحه بنجاته من الذبح .

فخرج حتى أتى به وهب بن عبد مناف بن زهرة وهو يومئذ سيد بني زهرة نسباً وشرفاً ، فزوجه ابنته آمنة بنت وهب ، هنيئاً لك يا آمنة ، لقد ظفرت بمن تقطعت قلوب سيدات مكة من أجله ، فكان عبد الله قد اشتهر بالوسامة ، فكان أجمل الشباب وأكثرهم سحرًا وذيوع صيت في مكة ، ويقال : إنه لما خطب «آمنة بنت وهب» تحطمت قلوب كثيرات من سيدات مكة ، وتم الزواج المبارك ، واقرن «عبد الله» بـ«آمنة» واستقرت النطفة الشريفة في رحم «آمنة» .

وأدى رسالته التي خصه الله بها وكفى ، والقدر في يد من يصرف القدر سبحانه وتعالى .

العروس الأرملة :

ودّع «عبد الله» زوجه الحبيب حين أذن المؤذن برحيل القافلة إلى بلاد الشام ، ومرت أيام وليالٍ و«آمنة» في بيتها لا تبرحه ، تسامر أشجانها ، وترسل قلبها في أثر الحبيب الراحل ، وقد حاول أهلها كما حاول «عبد المطلب» أن يصرفوها عن وحدتها حرصاً على صحتها ، لكنها آثرت العزلة على الأُنس بالأهل والصواحب ، بل لعلها كرهت أن يفسد أحد عليها هذه العزلة لما كانت تجده في مسامرة طيف الغائب من شجن ولذة .

ومضى شهر لا جديد فيه سوى أن «آمنة» شعرت بالبادرة الأولى للحمل ، وكان شعورها به رقيقاً لطيفاً ، روى ابن سعد من طريق الواقدي بسنده ، عن عبد الله بن وهب بن زمعة الأسدي ، عن أبيه ، عن عمته قالت : كنا نسمع أن

رسول الله ﷺ لما حملت به أمه كانت تقول :

«ما شعرت بأني حامل به ، ولا وجدت له ثقلَةً كما تجد النساء ، إلا أني أنكرت رفع حيضتي على أنها كانت ربما ترفعني وتعود ، فأتاني آت وأنا بين النوم واليقظة فقال : هل شعرت أنك حملت ؟ فكأني أقول : ما أدري ، فقال : إنك حملت بسيد هذه الأمة ونييها ، وذلك يوم الاثنين ، فكان ذلك مما يقن عندي الحمل» (١) .

وعن الزهري قال : قالت «أمّنة» : لقد علقتُ به فما وجدت شقة حتى وضعتَه (٢) .

وأتاها آتٍ في المنام مرة أخرى قبل الولادة فقال لها :
قولي إذا ولدته :

أعيذه بالواحد من شر كل حاسد

ثم سميه «محمدًا» ، وهكذا توالى الرؤى على «أمّنة» ولأكثر من مرة تبشرها وتثبتها وتصبرها وتعزيها وتواسيها ، وترفع من شأنها وشأن ما تحمل في بطنها .

غائب لا يؤوب :

وبعد حين ، عاد «الحارث بن عبد المطلب» وحده من المدينة ، عاد لينعي أخاه الشاب إلى أبيه الشيخ ، وزوجه العروس ، وبني هاشم والقرشيين جميعًا .

(١) طبقات ابن سعد (١/٩٨) ، وعيون الأثر (١/٢٥) ، وانظر : شرح المواهب للزرقاني (١٠٦/١) .

(٢) طبقات ابن سعد (١/٩٨) ، وعيون الأثر (١/٢٥) ، وانظر : شرح المواهب للزرقاني (١٠٦/١) .

لقد غاله الموت وهو بين أخواله من بني النجار إثر رحيل القافلة التي تخلف عنها .

ودفن هناك ، قبل وصول أخيه على أرجح الأقوال ، ولم يقبل فيه هذه المرة أي فداء .

ووجمت «أمّنة» للخبر ، وقست عيناها فما تسعفانها ببكاء ، وأعفاها ذهولها من الأنين والتصدع ، فلبثت أيامًا لا تكاد تصدق النعي ، حتى إذا تيقنت من الكارثة ، فاضت عبراتها ، ويروى لها في رثائه ^(١) :

عفا جانبُ البطحاء من زين هاشم	وجاور لحداً خارجاً في الغمام
دعته المنايا دعوة فأجابها	وما تركت في الناس مثل ابن هاشم
عشية راحوا يحملون سريره	تعاوره أصحابه في التزاحم
فإن تك غالت المنون وربها	فقد كان معطاءً كثير التراحم
ثم أمسكت «أمّنة» لا تزيد .	

مع الوليد رضي الله عنه :

ولد الهدى فالكائنات ضياء	وفم الزمان تبسّم وثناء
الروح والملائك حوله	للدين والدنيا به بشراء
والعرش يزهو والحظيرة تزدهي	والمنتهى والسدرَةُ العصماء

«شوقي»

وكان يوم الوضع مشهودًا ، كان ليلة الثاني عشر من ربيع الأول سنة ٥٧١

(١) ابن سعد عن الواقدي (١/١٠٠) ، والسهيلي (١/١٠٧) ، والزرقاني (١/٢١٠) ، والنويري (١٦/٦٦) .

ميلادية ، والمعروف بعام الفيل ، ومع الفجر ، وهذا الأوان والوقت له دلالة ومغزاه ، ومعناه وأبعاده في آفاق الزمان ، إنه فجر الإنسانية يزيل ظلمة الجهل وظلام التراكمات الانحرافية عن الصراط المستقيم وظلم البشر لأنفسهم ولبعضهم ، إنه الربيع ، بعد زمهرير الشتاء ، وزوابعه وقصفه ورعده وقمامة سحابه وغيومه ، وبعد جفوة الصيف بقيظه وحره ولفحه ، وبعد جفاف الخريف ، وتعري الطبيعة وتقلبها ، تقول آمنة :

لما وضعته خرج معه نور أضواء ما بين المشرق والمغرب ، فأضأت له قصور الشام وأسواقها ، حتى رأيت أعناق الإبل «ببصرى»^(١) .

ورأيت علمًا بالمشرق ، وعلمًا بالمغرب ، وعلمًا على ظهر الكعبة ، وأسند الحافظ ابن سيد الناس ، من طريق أبي بكر الخرائطي بسنده ، عن مخزوم بن هانئ المخزومي ، عن أبيه ، وأتت له خمسون ومائة سنة قال : «لما كانت الليلة التي ولد فيها رسول الله ﷺ ارتجس إيوان كسرى ، وسقطت منه أربع عشرة شرافة ، وخمدت نار فارس ، ولم تحمد من قبل ذلك بألف عام ، وغاضت بحيرة ساوة ، ورأى الموبدان إبلًا صعبًا تقود خيلاً عربًا قد قطعت دجلة ، وانتشرت في بلاده»^(٢) .

انبلج الصبح ، فكان أول ما فعلته «آمنة» أن بعثت إلى الجد عبد المطلب ببشرى المولد ، فأقبل مسرعًا ، وملاً عينيه من طلعة حفيده ، وألقى سمعه إلى «آمنة» وهي تحدّثه عن كل أمارات ما رأت وما سمعت حين الوضع ، ثم حمل

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد عن الواقدي (١٠٣/١) ، والروض الأنف للسهيلى (١٨٤/١) .

(٢) عيون الأثر (٢٨/١) ، والإصابة ترجمة هانئ المخزومي .

الوليد العزيز بين ذراعيه في رفق ورقة ، وانطلق خارجًا حتى أتى الكعبة ، فقام يدعو الله ويشكر له أن وهبه ولدًا من ابنه الفقيد الغالي .

وأحاط به بنوه في خشوع ، وغبطة ، وهو يطوف بالكعبة ، ويُعوّذ حفيده منشدًا ^(١) :

الحمد لله الذي أعطاني
هذا الغلام الطيب الأردان
قد ساد في المهدي على الغلمان
أعيّنه بالبيت ذي الأركان
حتى أراه ببالغ البنيان
أعيّنه ممن شر ذي شأن
ممن حاسد مضطرب العنان

ثم رده إلى أمه ، وعاد لينحر الذبائح ، ويطعم أهل الحرم ، وسباع الطير ووحش الفلاة .

ويبلغ من غبطة البيت الهاشمي بالمولود العزيز أن ثدي «ثوية» مولاة عمه «عبد العزى بن عبد المطلب» «أبي لهب» ، فلم تكذ توافي سيدها ببشرى المولد حتى أعتقها ، ولو كشفت له الحجب عن الغد المغيب لروعه رؤية دوره في الحرب الدامية التي قُدّر لقريش أن تصلها بعد أربعين عامًا عندما جاءها الهاشمي اليتيم برسالة الإسلام وسعادة البشرية جمعاء .

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد عن الواقدي (١/١٠٣) ، والروض الأنف للسهيلى

وفيه وفي امرأته «أم جميل» نزل قوله تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١
 مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ ، وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَامْرَأَتُهُ
 حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥ ﴾ [سورة المسد] .

فيقال : إن «العباس بن عبد المطلب» رأى أخاه «أبا لهب» بعد موته بسنة ،
 فسأله عن حاله فأجاب أبو لهب : في النار إلا أن العذاب خفف عني كل ليلة
 اثنين بهاء أمصه من بين إصبعي هاتين ، وذلك أني أعتقت «ثوية» حين بشرتني
 بولادة النبي ﷺ .

ولن يمضي وقت طويل ، بعد المولد - وهي أربعون سنة - حتى يقف
 التاريخ ليستعيد ذكرى تلك الليلة الخالدة على الدهر ، ويبدأ بها كتابة عصر
 جديد للعرب وللإنسانية كلها ، وحتى تمتلئ الجزيرة بأخبار ومرويات عن
 اللحظة المباركة التي وضعت فيها السيدة آمنة ولدها المبارك ، وتظل تلك
 المرويات تتناقل عبر الأجيال حتى تصل إلينا ^(١) ، وقد أضافت إليها الليالي
 والأيام جديداً من رؤى المحبين ، ومواجد العاشقين ، وملهات الشعراء .

وكلما دار عام القمر دورته وأهل شهر ربيع الأول أصغى الزمان في ذكرى
 تلك الليلة الميمونة إلى هتاف الملايين من المسلمين في مختلف بقاع الأرض ،
 يرتلون قصة «المولد» ، ويترنمون بما تمثله الوجدان المؤمن لما حفَّ به من
 خوارق وغرائب .

وينشد المنشدون بقصائد الشعراء من وحي الذكرى الغراء لمولد ذلك اليتيم

الخالد ﷺ :

(١) انظر: الشمائل للترمذي ، والشفاء للقاضي عياض .

وتضوعت مسكًا بك الغبراء
ومساؤه بمحمد وضاء
وعلت على تيجانهم أصداء
خمدت ذوائبها وغاض الماء
جبريل رَوَّاح بها غداء (١)

بك بشر الله السماء فزُيِّنت
يوم يتيه على الزمان صباحه
ذُمرت عروش الظالمين فازينت
والنار خاوية الجوانب حولهم
والآيُ تترى والخوارق جمّة

السفر إلى يثرب :

كانت السيدة «أمّنة» تخرجُ إلى المدينة لتزور قبر زوجها عبد الله والد الرسول ﷺ ، ولما بلغ رسول الله ﷺ ست سنوات ، خرجت السيدة «أمّنة» كعادتها لتزور قبر عبد الله ، وكان معها عبد المطلب ، وأم أيمن حاضنة رسول الله ﷺ ، ونزلت عند أحوال زوجها من بني النجار ، وزارت قبر زوجها وبقيت هناك شهرًا ، وقررت بعد ذلك العودة من الشام مع القافلة ، وفي طريقها من الشام إلى مكة ، أصابها مرض مفاجئ شديد ، تُوفيت على أثره ، ودفنت «أمّنة بنت وهب» في «الأبواء» مكان بين مكة والمدينة ، ورجع رسولنا ﷺ مع جده عبد المطلب ، وحاضنته «أم أيمن» السيدة بركة الحبشية .

ومما قيل في رثائها كما ورد في كتاب «الدر المنثور في طبقات ربات الخدور» :

نبكي الفتاة البرة الأمينه
زوجة عبد الله والقرينه
وصاحب المنبر بالمدينه
لو فوديت لفوديت ثمينه
ذات الجمال العفة الرزينه
أم نبي الله ذي السكينه
صارت لدى حفرتها رهينه
وللمنايا شفرة سنينه

(١) من الهمزة النبوية لأمير الشعراء أحمد شوقي .

لا تبقين ظاعناً ولا ظعينة إلا أتت وقطعت وتينه
 الأم المسلمة وراء هؤلاء العظماء :

فأولئك هن اللواتي انبلج عنهن فجر الإسلام ، وسمت بهن عظمته ،
 وصدعت بقوتهن قوته ، وعنهن ذاعت مكارمه ، ورسخت قوائمه ، وإذا
 قلبت صفحات تاريخنا الإسلامي ، فلا تكاد تقف على عظيم ممن ذلت لهم
 نواصي الأمم ، ودانت لهم الممالك ، وطبق ذكرهم في الخافقين إلا وهو ينزع
 بعرقه وخلقه إلى أم عظيمة ، وكيف لا يكون ذلك والأم المسلمة قد اجتمع لها
 من وسائل التربية ما لم يجتمع لأخرى ممن سواها ؟

مما جعلها أعرف خلق الله بتكوين الرجال ، والتأثير فيهم ، والنفاذ إلى
 قلوبهم ، وتثبيت دعائم الخلق العظيم بين جوانحهم ، وفي مسارب دمائهم .
 فالزبير بن العوام رضي الله عنه فارس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحواريه الذي بلغ من بسالته
 وبطولته أن عدل به الفاروق رضي الله عنه ألفاً من الرجال حين أمد به جيش المسلمين في
 مصر .

هذا البطل المغوار العظيم ، إنها قامت بأمره صفة أمه بنت عبد المطلب عمة
 النبي صلى الله عليه وسلم ، وأخت حمزة أسد الله ، فقد شبَّ في كنفها ونشأ على طبعها ، وتخلق
 بسجاياها .

هؤلاء العظماء «عبد الله ، والمنذر ، وعروة» أبناء الزبير كانوا ثمرات أمهم
 أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها ، وما منهم إلا له الأثر الخالد والمقام المحمود .

وأmir المؤمنين معاوية بن أبي سفيان أريب العرب والمعيها ورث عن هند
 بنت عتبة ما لم يرث عن أبي سفيان ، وكان معاوية رضي الله عنه إذا نوزع الفخر بالمقدرة ،

وجوذب بالمباهاة بالرأي ، انتسب إلى أمه ، فصدع أسماع خصمه بقوله : أنا ابن هند^(١) .

وعبد الله بن زيد المازني الذي حكى وضوء رسول الله ﷺ ، والذي قتل مسيلمة الكذاب بسيفه ، وقتل هو يوم الحرة وأخوه حبيب بن زيد بن عاصم المازني ، الذي أخذه مسيلمة فقطعه قطعة قطعة ، كلاهما كان ثمرة أم فاضلة مجاهدة هي أم عمارة نُسبية بنت كعب الأنصارية^(٢) .

وهذا سفيان الثوري إنه فقيه العرب ، ومحدثهم ، وأحد أصحاب المذاهب الستة المتبوعة ، إنه أمير المؤمنين في الحديث الذي قال فيه زائدة : «الثوري سيد المسلمين» ، وقال الأوزاعي : «لم يبق من تجتمع عليه الأمة بالرضا إلا سفيان» ، وما كان ذلك إلا ثمرة أم صاحلة حفظ التاريخ لنا مآثرها وفضائلها ، ومكانتها ، قالت أم سفيان لسفيان : يا بني ، اطلب العلم وأنا أكفيك بمغزلي^(٣) .

فهل من غرابة أن نرى سفيان يتبوأ منصب الإمامة في الدين ، كيف لا وهو قد ترعرع في كنف مثل هذه الأم الرحيمة ، وتغذى بلبان تلك الأم الناصحة التقية ؟

وقال رجل من العُباد لأمه : يا أمه ، ذريني لله أتعبد له وأتعلم العلم ، فقالت : نعم ، فسار حتى تبصر ثم عاد إليها فدق الباب فقالت : من ؟ فقال لها : ابنك فلان ، قالت : قد تركناك لله ولا نعود فيك .

(١) المرأة العربية (٢/١٣٣ ، ١٣٤) بتصرف .

(٢) سير أعلام النبلاء (٢/٢٧٨-٢٨٢) .

(٣) صفة الصفوة لابن الجوزي (٣/١٨٩) .

كذلك كانت النساء في ذلك العهد الكريم ، مبعث كل شيء في نفوس
 أبنائهن ، وأنا أريدك كذلك يا ابنة الإسلام ، أما فاضلة عالمة ، لكي تخرج لنا
 الأبطال والعلماء ، والسادة ، والقادة ، لقد كانت الأم مهبط الشرف الحر ،
 والعز المؤثل ، والمجد المكين ، وصدق الشاعر :

أعددت شعباً طيب الأعراق	الأم مدرسة إذا أعددتها
بالري أورق أيما إIraq	الأم روض إن تعهده الحيا
شغلت مآثرهم مدى الآفاق	الأم أستاذة الأساتذة الألى

رضي الله عن أم رسولنا ﷺ ، وأعطائها سؤلها ، وجعلها في جنات النعيم .



رملة بنت الزبير بن العوام رضي الله عنها

أبوها الصحابي الجليل «الزبير بن العوام» .
قال زوجها خالد بن يزيد أشعارًا رائقة فيها .

رملة بنت الزبير بن العوام رضي الله عنه

ابنة حواري رسول الله ﷺ :

رملة بنتُ الزبير بن العوام الأُسدية القرشية ^(١) هي ضيفة هذه الصفحات المباركات .

ورملةُ هذه واحدة من بنات الصحابة الأخيار الذين حلّقوا في سماءات الفضل في العهد النبوي وبعده .

فهي حفيدة صفية بنت عبد المطلب عمّة النبي ﷺ ، وابنة ابنها الزبير بن العوام الفارس المغوار ، والبطل الكرار ، وقامع الفجار ، والزبير بن العوام رضوان الله عليه أحد جواهر العقد النفيس ، من العشرة الكرام المشهود لهم بالجنة دار السلام من الحبيب ﷺ ، وهو حواري الحبيب الأعظم ﷺ ، وناهيك بهذه الصفة التي جعلت أبا بكر محمدًا صوفي رضي الله عنه ينظم أسماء العشرة المبشرين بالجنة في بضعة أبياتٍ ، ويشير خلالها إلى لقب الحواري يقول :

وعثمان ومولانا علي	عتيق والفتى عُمر التقي
وسعد من بهم فخرت لؤي	وطلحةُ وابن عوفٍ وابن زيد
وليثهم الحواري الكمي	كذاك أبو عبيدة فهو منهم
فدع قول العواذل فهو غي	أولاك السابقون إلى المعالي

(١) أعلام النساء (١/ ٤٦١ - ٤٦٣) ، وقطوف الريحان (ص ٢٢٧) ، ومختصر تاريخ دمشق (٦/ ٢٠٥) ، وثمار القلوب (ص ٢٩٠) ، والمحبر (ص ٦٧) ، الكامل في اللغة والأدب (ص ٤٤٨ ، ٤٥٠ ، ١١٩٣) ، زهر الآداب (١/ ٣٩٣) ، والبداية والنهاية (٩/ ٨٠) .

من هذا الأصل الزاكي ، ومن هذه التربة المباركة انحدرت رملة بنت الزبير ابن العوام ، لتكون واحدة من بنات الصحابة الطاهرات اللواتي حفظ التاريخ لهن مآثرهن ، وخصوصًا في كنف زوجها خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان أحد أفراد الدهر في المعرفة والأدب والطب .

ورملة قد احتفظ لنا التاريخ ببعض مناقبها الحسان ، إذ حباها الله ﷻ بالعقل والفضل والفصاحة والملاحة ، بالإضافة إلى حسن المكارم والخصال اللطيفة .

ذكر البلاذري بعض صفاتها نقلًا عن غيره فقال : وكانت - رملة - معروفة بالجزالة والعقل والفضل^(١) .

من أخبار رملة وزواجها :

ذكرت كتب الأنساب والطبقات والأخبار : أن رملة بنت الزبير هي أخت مُصعب وحمزة لأبيهما وأمهما^(٢) ، وهؤلاء الثلاثة أمهم الرباب بنت أنيف بن عبيد بن مصاد الكلبيّة .

نشأت رملة ونشأ معها نصيب وافر من الجمال والملاحة ، ولما بلغت مبلغ النساء تزوجها عثمان بن عبد الله بن حكيم بن حزام بن خويلد الأسدي القرشي^(٣) ، وهو من أقاربها إذ إنها من بني أسد من قريش أيضًا .

وكان عثمان بن عبد الله بن حكيم قد قتل يوم الجمل مع أم المؤمنين عائشة رضوان الله عليها .

(١) أنساب الأشراف (ص ٣٦٢) .

(٢) نسب قريش (ص ٢٣٣) ، ومختصر تاريخ دمشق (٢٤/٣٢٠) .

(٣) انظر : المحبر (ص ٦٧) ، والدر المنثور (ص ٢٠٧) ، ونسب قريش (ص ٢٣٣) .

وأما عثمان فقد كان مع عبد الله بن الزبير رضي الله عنه بمكة ، فقتل في الحصار الأول ، وله يقول أبو دهب الجمحي :

ونعم ابن أخت القوم عثمان في الوغى إذ الحرب أبدت نابها وهي تكلح
هو التاركُ المال النفس حمية وللموت من بعد المعيشة أروح
وجاد بنفسٍ لا يُجادُ بمثلها هالو أقرت غزيةً متزحزحُ

وقد ولدت رملةً لعثمان بن عبد الله ابنه سعيد بن عثمان فانقرض ، كما ولدت له ابنه عبد الله بن عثمان الذي تزوج سكينه بنت الحسين بن علي .

ولعبد الله بن عثمان يقول أبو دهب الجمحي - وقد نوّه بذكر أمه وذكر طيب عنصرها وأصلها فقال ^(١) :

تمطت به بيضاء فرع نجبية حصانٌ وبعضُ الوالدين عُرامُ

وبعد موت عثمان بن عبد الله تزوجها خالد بن يزيد بن معاوية ^(٢) .

ومن هنا اشتهرت رملة في عالم الأدب .

ولخالد بن يزيد في رملة أشعار رائقة جميلة ، أما كيف تزوج بها خالد فلذلك قصة شائقة ، ونعرفها فيما يلي إن شاء الله .

رملةٌ وخالد بنُ يزيد :

قبل أن نبحر مع هذين العلمين الكريمين خالد ورملة ، دعونا نقف ووقفات وضيئة مع خالد بن يزيد بن معاوية ، هذا الرجل الذي ملأ أسماع التاريخ علمًا ،

(١) نسب قريش (ص ٢٣٣) ، ونوادير المخطوطات (١/ ٦٩) .

(٢) المحبر (ص ٦٧) ، والدر المنثور (ص ٢٠٧) .

وأدبًا ، وفنًّا ، وفهْمًا ، وقَلَّ أن يوجد تاريخ الرجال بمثله إذ يمثلُ دائرة معارف متحركة في عصره .

ولقد أثنى عليه معاصروه وعارفوه ومن بعدهم ، وأسبغوا عليه جلايب المدح والثناء ، اعترافًا بفضله وفهمه وعلمه .

فعندما ترجم له الذهبي رحمته الله قال عنه في مفتتح ترجمته :

خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان ، الإمام البارِعُ ، أبو هشام القرشي الأموي الدمشقي ، روى عن أبيه وعن دحية الكلبي ، ولم يلقه ، وعنه روى : رجاء بن حيوة ، وعلي بن رباح الزهري ، وعبيد الله بن عباس ، كان موصوفًا بالعلم وقول الشعر ، قال أبو زُرعة الدمشقي : هو وأخوه من صالحِي القوم ^(١) .

وقال ابن كثير رحمته الله : كان عالمًا شاعرًا ، وينسب إليه شيءٌ من علم الكيمياء ، وكان يعرف شيئًا من علوم الطبيعة ^(٢) .

وقبل الذهبي وابن كثير وصفه الجاحظ بأنه من أعلم قريش بفنون العلم فقال : كان خالد بن يزيد بن معاوية خطيبًا ، شاعرًا ، فصيحًا ، جامعًا ، وجيد الرأي ، كثير الأدب ، وكان أول من ترجم كُتُب النجوم والطب والكيمياء ^(٣) .

وتوسع ياقوت الحموي في تعريفه لخالد بن يزيد فقال : خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان الأمير أبو هاشم الأموي ، كان من رجالات قريش

(١) سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٨٢، ٣٨٣) .

(٢) البداية والنهاية (٩/ ٨٠) .

(٣) البيان والتبيين (١/ ٣٢٨) .

المتميزين بالفصاحة والسماحة وقوة العارضة ، علامة خبيرًا بالطب والكيمياء ، شاعرًا ، قال الزبير بن مصعب : كان خالد بن يزيد بن معاوية موصوفًا بالعلم ، حكيمًا ، شاعرًا .

هذا خالد بن يزيد بن معاوية ، وتلكم شذرات من أقوال العلماء والمؤرخين عنه .

أما رملت بنت الزبير فهي شهيرةٌ في عالم الشهيرات ، كريمة طاهرة ، اشتهرت في قصيدة لخالد بن يزيد ، وطار صيتها في ذروة العصر الأموي .

أما قصة زواج رملة من خالد بن يزيد بن معاوية ، فذلك ما ذكرته المصادر بصور مختلفة ، ولكن مضمونها واحد ، فقد ذكروا أن عبد الملك بن مروان خطبها له ، وذلك أن عبد الملك قد حجَّ ومعه خالد بن يزيد بن معاوية ، وكان خالد هذا من رجالات قريش المعدودين ، وكان عظيم القدر عند الخليفة عبد الملك بن مروان ، وبينما كان خالد يطوف بالبيت العتيق مع الطائفين ، إذ بصر رملة بنت الزبير بن العوام عن جُنب ، وهي لا تشعر به ولا بغيره ، وعندها وقعت في نفسه وقوعًا متمكنًا ، وأجمته بجمالها ، بعد أن سأل عنها ، فأخبر أنها رملة بنتُ الزبير الأسدية القرشية .

ولما قضى الناس مناسكهم ، ومسح بالأركان من هو ماسح ، وأراد عبد الملك الرجوع إلى دمشق بالشام ، همَّ خالد بن يزيد بالتخلف عنه ، فعجب عبد الملك وبعث إليه ، وسأله عما اعتراه من أمر فقال : يا أمير المؤمنين ، ما بي شيءٌ إلا أنني رأيتُ رملة بنت الزبير تطوف بالبيت ، فأذهلت عقلي ، والله ما أبديتُ لك ما بي حتى عيَل الصبر ، ولقد عرضت النوم على عيني فلم تقبله ، والسلو عن قلبي فامتنع منه ، وكان قول الشاعر ينطبق عليه حيث

يقول :

ألا فليقل من شاء ما شاء إنما يلام الفتى فيما استطاع من الأمر
قضى الله حبًا للملاحة فاصطبر عليه فقد تجري الأمور على القدر

فأطال عبد الملك التعجب من خالد ، ومما عراه واعتراه ونزل به - وكان خالد عالي الهمة ، عظيم القدر عند عبد الملك - فقال له : والله يا خالد ما كنت أقول : إن الهوى يستأثر مثلك ويأسره .

فقال خالد : وإني يا أمير المؤمنين لأشد تعجبًا من تعجبك مني ، لقد كنت أقول : إن الهوى لا يتمكن من صنفين من الناس : من الشعراء ، أو من الأعراب .

أما الشعراء : فإنهم ألزموا قلوبهم الفكر في النساء ، ووصفهن والتغزل فيهن ، فمال طبعهم إلى النساء ، فضعفت قلوبهم عن دفع الهوى ، فاستسلموا إليه منقادين .

وأما الأعراب : فإن أحدهم يخلو بامرأته فلا يكون الغالب عليه غير حبه لها ، ولا يشغله عنها شيء ، فضعفوا عن دفع الهوى فتمكن منهم .

وجملة أمري ما رأيت نظرة حارت وحالت بيني وبين الحزم ، وحسنت عندي ركوب الإثم مثل نظرتي هذه ، فتبسم عبد الملك ضاحكًا من قوله وقال : أو كل هذا قد بلغ بك يا خالد ؟

قال : نعم يا أمير المؤمنين ، وأكثر والله ، ما عرنتني هذه البلية قبل وقتي هذا وأنشد :

قد لسعت حية الهوى كبدي فلا طب لها ولا راقبي

إلا الحبيب الذي شغفتُ به فعنده رقيتي وترياقِي
 فتعجب عبد الملك ثانية منه ، ووجه يخطب رملة بنت الزبير على خالد ،
 فذكروا لها ذلك فقالت : لا والله أو يطلق نساءه ، فطلق امرأتين كانتا عنده
 وظعن بها إلى الشام^(١) .

وعند ابن كثير رحمه الله قصة أخرى عن زواج خالد من رملة ، فيقول : وكان
 قد تجدد على خالد اصفرار وضعف ، وما أجمل قول الشاعر في هذا المجال :
 وعندي شهود للصبابة والأسى يزكون دعواي إذا جئت أدعي
 سُقامي وتسهيدي وشوقي وأيني ووجدي وأشجاني وحزني وأدمعي
 فسأله عبد الملك عن هذا فلم يخبره ، فما زال حتى أخبره أنه من حب رملة
 أخت مصعب بن الزبير ، فأرسل عبد الملك يخطبها لخالد ، فقالت : حتى
 يطلق نساءه ، فطلقهن ، وأنشد فيها الشعر^(٢) .

ويبدو أن الأصبهاني قد أدلى دلوه في دلاء زواج خالد من رملة ، وذلك في
 فصل من فصول «أغانيه» بعنوان : «ذكر خالد ورملة وأخبارهما» إلا أنه أدخل
 شخصية الحجاج بن يوسف في هذا الزواج ، ومن خلال هذا التدخل نجد
 إساءة واضحة لسيدنا معاوية رضي الله عنه لا تتناسب مع جلاله قدره وحُسن صحبته
 لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويبدو لنا أنها مرتجلة مصنوعة ، يقول الأصبهاني في ذلك : لما
 قُتل ابن الزبير حج خالد بن يزيد بن معاوية ، فخطب رملة بنت الزبير بن
 العوام ، فأرسل إليه الحجاج حاجبه عبيد الله بن موهب ، وقال له : ما كنت

(١) روضة المحبين (ص ٢٠٤، ٢٠٥)، وأعلام النساء (١/ ٤٦١).

(٢) البداية والنهاية (٩/ ٨٠).

أراك تخطب إلى آل الزبير حتى تشاورني ، وكيف خطبت إلى قوم ليسوا لك بأكفاء ، وكذلك قال جدك معاوية ، وهم الذين قارعوا أباك على الخلافة ، ورموه بكل قبيحةٍ ، وشهدوا عليه وعلى جدك بالضلالة .

فنظر إليه خالد طويلاً ثم قال له : لولا أنك رسول ، والرسول لا يُعاقب لقطعتك إزباً إزباً ، ثم طرحتك على باب صاحبك ، قُلْ له : ما كنت أرى أن الأمور بلغت بك إلى أن أشاورك في خطبة النساء .

وأما قولك لي : قارعوا أباك وشهدوا عليه بكل قبيح ، فإنها قريش يقارع بعضها بعضاً ، فإذا أقر الله ﷺ الحق قراره كان تقاطعهم وتراحمهم على قدر فضلهم .

وأما قولك : إنهم ليسوا بأكفاء فقاتلك الله يا حجاج ما أقل علمك بأنساب قريش يكون العوام كُفؤاً لعبد المطلب بن هاشم بتزوجه صفية ، ويتزوج رسول الله ﷺ خديجة بنت خويلد ولا تراهم أهلاً لأبي سفيان ، فرجع الحاجب إليه فأعلمه ^(١) .

وتتعدد روايات زواج خالد بن يزيد من رملة ابنة الزبير وتتعدد الأخبار والقصص في ذلك ، فيذكر «المبرد» في «كامله» أن خالد بن يزيد تزوج نساء منهن : أم كلثوم بنت عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، وآمنة بنت سعيد بن العاص بن أمية ، ورملة بنت الزبير بن العوام ، وفي ذلك يقول بعض الشعراء ^(٢) يحض عبد الملك عليه :

(١) الأغاني (١٧/٣٤٤، ٤٣٥) .

(٢) هو شديد بن شداد بن عامر كما في الأغاني (١٧/٣٤٩) .

عليك أمير المؤمنين بخالدٍ ففي خالدٍ عما يريدُ صدودُ
إذا ما نظرنا في مناكح خالدٍ عرفنا الذي ينوي وأين يُريدُ

فطلق آمنة بنت سعيد فتزوجها الوليد بن عبد الملك ففي ذلك يقولُ خالد :
فتاة أبوها ذو العصابة وابنه وعثمان ما أكفأؤها بكثير
فإن تفتلها والخلافة تنقلب بأكرم علقي منبر وسرير^(١)

وهكذا تعددت الروايات والأقوال في زواج رملة وخالد ، ولكن الذي ترتاح إليه النفس أن هذا الزواج كان عادياً مثل زواج ذلك العصر ، وإن ما قرأناه من زيادات هو من صنَّع الرواة ، وينفيه قول خالدٍ نفسه في رملة عندما أنشد من قصيدة :

أقلوا عليَّ اللوم فيها فإني تخيرتها منهم زُبيرة قلباً
رملة في شعر خالد :

كان خالد بن يزيد من رجالات قريش المعدودين الذين حباهم الله فصاحة اللسان ، وحكمة القول ، وجمال الشعر ، وعذوبته ، وسماحة الوجه واليد ، أثرت عنه أقوال وأشعار وأفعال تزيد من رصيده في ديوان المكارم والفضائل ، وحسن الخصال ، والسمات الشريفة التي جعلته من المتميزين بين رجالات التاريخ .

فمن أخبار جوده ونداه : أنه كان أميراً على حمص ، وهو الذي بنى جامع حمص ، وكان له فيه أربعمائة عبد يعملون ، فلما فرغ منه أعتقهم^(٢) .

(١) الكامل (١/ ٤٥٠) ، وانظر : قطوف الريحان (ص ٢٢٧) .

(٢) البداية والنهاية (٩/ ٨٠) ، وأنساب الأشراف (ص ٣٦٤) .

وكانت رملة بنت الزبير تعيش في كنفه ، وقد عرفت خلاله وخصاله
الكريمة هذه ، فقد كانت رملة كريمة وعاشت مع كريم ، وكان شقيقها
مصعبُ بن الزبير من الأجواد المعدودين أيضًا ، وكذلك زوجها خالد بن يزيد .

فقد كان خالد رضي الله عنه جوادًا ممدحًا ، جاءه رجل فقال له : إني قد قلت فيك
بيتين ولست أنشدتهما إلا بحكمي .

فقال له : قُل ، فقال :

سألت الندى والجود حُران أنتما فقالا بل عبدان بين عبيد
فقلت ومن مولاكما فتطاولا عليّ وقال خالد بن يزيد
فقال له : تحكم .

فقال : مائة ألف درهم ، فأمر له بها ^(١) .

وكان لخالد كلمات سائرات وحِكَمٌ رائعات تشير إلى ما آتاه الله من حكمة
وفصل خطابٍ ، من ذلك أنه قيل له : ما أقرب شيء ؟
قال : الأجلُ .

قيل : فما أرجى شيء ؟

قال : العملُ .

قيل : فما أوحش شيء ؟

قال : الموت .

قيل : فما أنس شيء ؟

(١) معجم الأدباء (٣٧/١١) ، والبداية والنهاية (٨٠/٩) ، وسير أعلام النبلاء (٣٨٣/٤) .

قال : الصاحب المواتي ^(١) .

ومن بدائع حكمته أيضًا أنه قيل له : ما الدنيا ؟

قال : ميراث .

قيل : فما الأيام ؟

قال : دُول .

قيل : فالدهر .

قال : أطباق والموت يكمل سبيله ، فليحذر العزيزُ الذل ، والغني الفقر ، فكم عزيزٌ قد ذل ، وكم من غنيٍ قد افتقر ^(٢) .

وقال في الخسارة الحقيقية للرجال : إذا كان الرجل مماريًا لجوجًا معجبًا برأيه ، فقد تمت خسارته ^(٣) .

ولما لزم بيته قيل له : كيف تركت الناس ولزمت بيتك ؟ قال : هل بقي إلا حاسدٌ لنعمةٍ ، أو شامتٌ بنكبةٍ ^(٤) .

أما أشعار خالد فكثيرة ، ومن أشهرها ما قال في زوجته رملة بنت الزبير ، ولكن تاريخه الوضيء احتفظ لنا بأشعار جميلة له فقد قال شعراً في حق عالية أخت عمر بن عبد العزيز ، وكانت تحته ، وهي التي يُنسب إليها سُوقٌ عالية

(١) البيان والتبيين (٣/١٥٦) ، وسير أعلام النبلاء (٤/٣٨٣) ، ومعجم الأدباء (١١/٣٩) .

(٢) معجم الأدباء (١١/٤٠) .

(٣) سير أعلام النبلاء (٤/٣٨٣) ، ومعجم الأدباء (١١/٤٠) .

(٤) معجم الأدباء (١١/٤٠) .

المشهور في دمشق ، في ذلك الوقت ، ولم يعلم مكانه اليوم ^(١) .

ومن محاسن شعره ، بل من محاسن الشعر :

فأقسم ما زينت كفي لريبةٍ ولا حملتني نحو فاحشةٍ رجلي
ولا قادي سمعي ولا بصري لها ولا دلني رأبي عليها ولا عقلي
وأعلم أني لم تصبني مصيبة من الدهر إلا قد أصابت فتى مثلي

ومن جميل شعره وبديعه في الموت :

أتعجب إن كنت ذا نعمةٍ وأنك فيها شريف مهيب
فكم ورد الموت من ناعمٍ وحب الحياة إليه عجيب
أجاب المنيّة لمادعت كرهًا يجيبُ لها من يُجيب
سقته ذنوبًا من أنفاسها ويذخر للحي منها ذنوب ^(٢)

وأما شعره في رملة فمشهور سائر في المصادر ، وهو من الشعر الجيد الجميل ،

ومما قاله في رملة ، وحفظ في بطون الكتب ، وفي ثنايا الأذهان قوله :

أليس يزيد السير في كل ليلةٍ وفي كل يوم من أحبتنا قربا
أحن إلى بنت الزبير وقد عدت بنا العيس خرقًا من تهامة أو نقبا
إذا نزلت أرضًا تحب أهلها إلينا وإن كانت منازلها حربا
وإن نزلت ماءً وإن كان قبلها مليحًا وجدنا ماءه باردًا عذبا
تجول خلاخيل النساء ولا أرى لرملة خلخالًا يجول ولا قلبًا
أقلوا عليّ اللوم فيها فإنني تخيرتها منهم زبيرة قلبا

(١) انظر : منتخبات التواريخ لدمشق (ص ٤٤٢، ٤٤٣) .

(٢) معجم الأدباء (١١/٤٠) .

أحب بني العوام طرّاً حبها ومن أجلها أحببت أخوالها كلباً^(١)
ويبدو أن صيّت هذه الأبيات قد طار في الآفاق ، وسمعتها عبد الملك بن مروان ، وأعجب بها ، إلا أن بعض المغرضين زاد فيها بيتاً في آخرها فقال :
فإن تُسلمي نُسلم وإن تنصري تخط رجال بين أعينهم صلباً
فقال له عبد الملك : تنصرت يا خالد ؟

قال : وما ذاك يا أمير المؤمنين ؟

فأنشده عبد الملك :

فإن تُسلمي نُسلم وإن تنصري تخط رجال بين أعينهم صلباً
فقال خالد : على من قاله ومن نحلنيه لعنة الله^(٢) .

وبهذا الحب المتميز خلّد خالد بن يزيد رضي الله عنه رملة بنت الزبير بعد أن كان خالد نفسه لا يود القرب من آل الزبير .

حكى عنه أنه قال عن سبب حبه لآل الزبير : كان أبغض خلق الله صلى الله عليه وسلم إليّ وفيها أقول :

أحبُّ بني العوام طرّاً حبها ومن أجلها أحببت أخوالها كلباً
وهكذا عاشت رملة معززة مكرمة عند خالد بن يزيد الذي وافته المنية سنة (٩٠هـ) ، أما رملة فقد بخلت علينا المصادر بكثير من أخبارها ، فلا نعلم عن

(١) انظر هذه الأبيات في الأغاني (١٧/٣٤٥، ٣٤٦) ، ومحاضرات الأدباء (٢/٥٣) ، ومعجم الأدباء (١١/٤١) ، وزهر الآداب (١/٣٩٣) ، وأعلام النساء (١/٤٦٢) .

(٢) الأغاني (١٧/٣٤٦) ، بتصرف شديد ، وانظر : قطوف الريحان (ص ٢٢٧، ٢٢٨) .

حياتها إلا شذرات كما رأينا، ولا نعرف عن أحوالها شيئاً بعد وفاة زوجها خالد بن يزيد، ولكن حاولنا قدر الإمكان إعطاء صورة طيبة عن سيرتها حسب ما تيسر لنا من مصادر؛ لذلك لا نعلم بالتحديد متى كانت وفاتها، إلا أن أغلب الظن أنها كانت بنهاية القرن الهجري الأول.

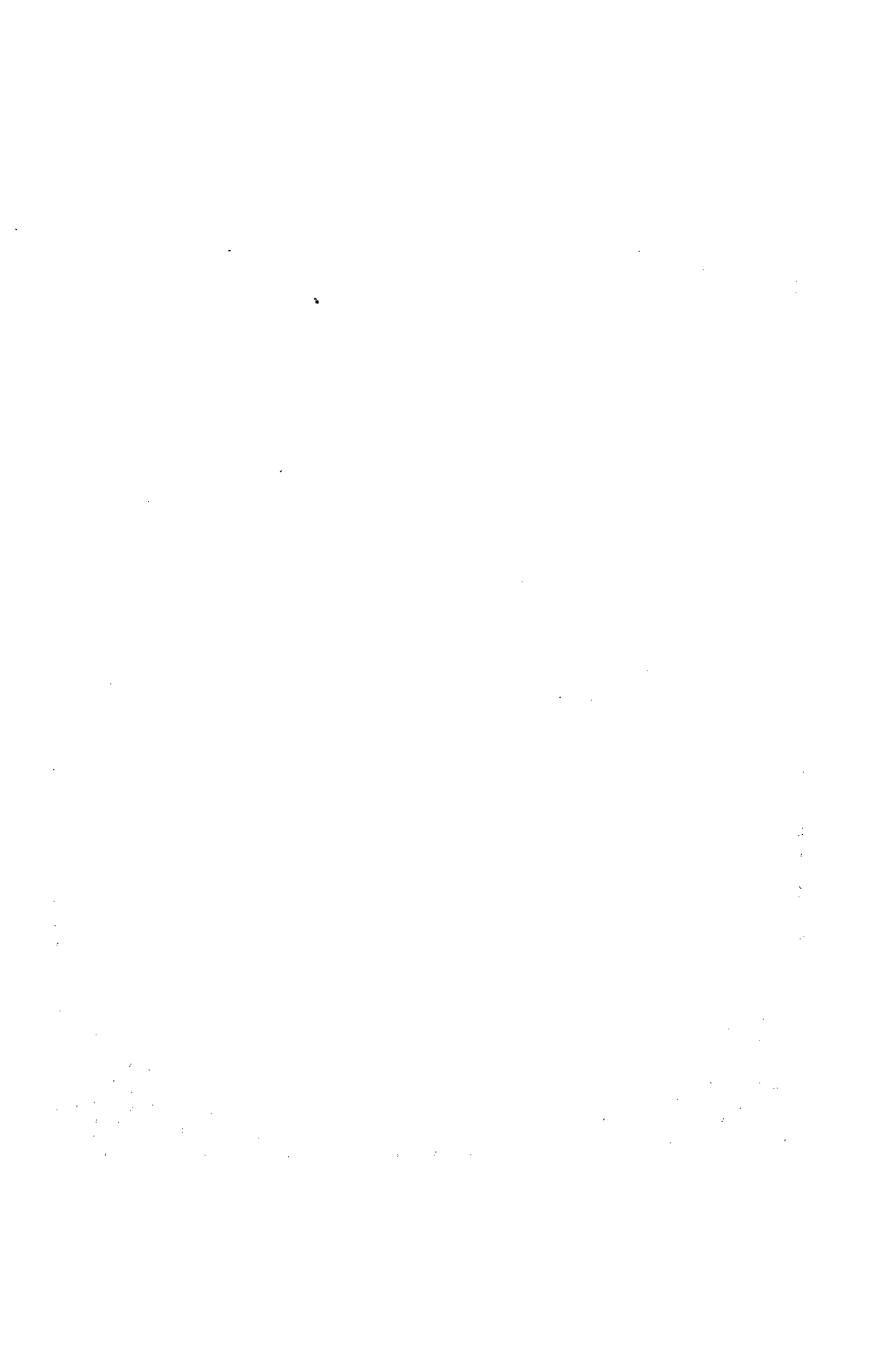
رحم الله رملة بنت الزبير بن العوام، وأدخلها الجنة دار السلام مع المتقين الأبرار.



رملة بنت معاوية رضي الله عنها

فصيحة ، بليغة ، من ذوات الرأي الجزل ، والذكاء الأملعي ،
والنباهة ، والفتنة .

أبوها الصحابي الجليل : معاوية بن أبي سفيان بن حرب ،
كاتب الوحي لرسول الله ﷺ .



رملة بنت معاوية رضي الله عنها

ذروة الحسب والنسب :

هي ابنة صحابي كريم ، وزوج ابن صحابي كريم ، بل هي ابنة صحابي ، وحفيدة صحابي ، وجدتها لأبيها صحابية جلييلة ، وأبو زوجها حسيب شريف كريم ، حيي جواد سمح ، بشره رسول الله ﷺ بالجنة ، بل إن عمتها إحدى أمهات المؤمنين ، وإحدى نساء أهل البيت الطاهرات اللواتي كن زوجات رسول الله ﷺ ، وأمهات المؤمنين .

وقد بلغت هذه الابنة في مرحلة حياتها ذروة المجد ، إذ كان أبوها له مكانة عظمى بين أوائل الرجال في تاريخ رجالات قريش ، بل ورجالات الصحابة الأخيار الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه .

هذا الصحابي الكريم هو معاوية بن أبي سفيان ، الصحابي ابن الصحابي ، ابن الصحابية ، القرشي الأموي ، فأمه من شهيرات النساء من الصحابة ، بل ونساء الدنيا ، وهي هند بنت عتبة بن ربيعة ، أسلم هو وأبوه أبو سفيان ، وأخوه يزيد بن أبي سفيان ، وأمهم هند في فتح مكة رضي الله عنهم جميعاً .

كان معاوية أحد الكتّاب للحبيب المصطفى ﷺ ، وقال له رسول الله ﷺ :
«اللهم اجعله هاديًا مهديًا» (١) .

وذكروا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما دخل الشام رأى معاوية فقال : هذا

(١) أخرجه الترمذي ، وقال : حديث حسن .

كسرى العرب .

ولما حضرت معاوية الوفاة ، أوصى أن يكفن في قميص كان رسول الله ﷺ كساه إياه ، وأن يُجعل مما يلي جسده ، وكان عنده قلامه من أظفار رسول الله ﷺ ، فأوصى أن تسحق وتُجعل في عينيه وفمه ، وقال : افعلوا ذلك بي ، واخلوا بيني وبين أرحم الراحمين ^(١) .

وقد بلغت هذه الابنة في مرحلة حياتها ذروة المجد والشرف ، إذ كان أبوها أمير المؤمنين وخليفة المسلمين ، وكذلك أخوها كان أيضًا أميرًا للمؤمنين ، وكان العز والشرف يحفُّ بها من كل جانب ، عاشت عزيزة ترفلُّ في أردية المجد ، ولكنه لم يغب عن وعيها أنها سليلة آباء كرام ، شهدوا صحبة رسول الله ﷺ ، وحظوا بمعيته ، فكانوا ممن قال الله ﷻ فيهم : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح: ٢٩] .

ومع هذا وذاك لم تخل سيرتها من عبث الرواة ، وأهواء بعض الأخباريين ، وجعلوها ممن يُتغزل بها في وقت كان أبوها حاكم الدنيا ، وأمير المؤمنين ، وله مكانته في عالم الصحابة الأبرار الكرام .

أما ابنته فهي رملة بنت معاوية بن أبي سفيان الأموية القرشية ^(٢) ، إحدى بنات الصحابة اللواتي كان هن في تاريخ الإسلام نصيب ، وكان هن مساحة

(١) انظر : تهذيب الأسماء واللغات (٢/٤٠٦، ٤٠٧) ، ترجمة رقم (٥٨٨) .

(٢) المعارف (ص ٣٥٠) ، وأعلام النساء (١/٤٦٦-٤٦٩) ، والبداية والنهاية (٨/١٥٧) ،

تاريخ دمشق ، تراجم النساء (ص ٩٥-٩٩) ، والكامل (٨/٤) .

واسعة بين بنات الصحابة في خير القرون .

وأُم رملة اسمها كنود بنتُ قرظة ^(١) أخت فاختة بنت قرظة بن عبد عمرو ابن نوفل بن عبد مناف القرشية ، ولما غزا معاوية رضي الله عنه قبرص ، كانت زوجته كنود معه ، وماتت هناك ^(٢) ، فكتبت مع الغازيات اللواتي حظين بهذا الشرف الوافي العظيم ، وكان ممن حظي بالشهادة أيضًا في غزوة «قبرص» الصحابية الجليلة «أم حرام بنت ملحان» ، حيث خرجت مع زوجها عبادة بن الصامت الأنصاري غازية في البحر في إمارة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه ، في خلافة عثمان ابن عفان رضوان الله عليه ، فلما وصلوا جزيرة قبرص ، خرجت من البحر فقربت إليها دابة لتركبها ، فصرعتها فماتت ، ودفنت في قبرص سنة (٢٧هـ) ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد بشرها من قبل بالشهادة .

هذا وقد كانت رملة بنت معاوية واحدة من فصيحات قريش ونسائهن ، وواحدة من بليغات بنات الصحابة اللواتي حلقتن في سماء الفضيلة ، وكن من ذوات الرأي الجزل والذكاء ، والنظر في عواقب الأمور ، كما كانت ذات نباهة وفتنة ، تعرف كيف تتصرف في الأوقات المناسبة ، وفي الأسطر التالية نعرف شيئًا عن ذكاء رملة بنت معاوية ، وكيف كانت تحسن التصرف في الوقت المناسب .

ذكاؤها وفتنتها :

كانت رملة بنت معاوية متزوجة من عمرو بن عثمان بن عفان ، ويظهر أن

(١) نسب قريش (ص ١٢٨) .

(٢) نهاية الأرب (٢٠ / ٢٧٥) .

هذا الزواج كان بُعيد سنة (٤١ هـ) ، حيث زوجها أبوها معاوية رضي الله عنه ، من عمرو بن عثمان بعد أن أصبح أميرًا للمؤمنين ، وخليفةً للمسلمين ، وقد كان هذا الزواج ميمونًا ، حيث ولدت رملة لعمرو ولدين هما : عثمان وخالد ابنا عمرو ، وكانا من خيار الناس وفضلائهم .

كانت رملة امرأة نبيهة ، ذكية ، وكان زوجها عمرو بن عثمان أكبر ولد عثمان الذين أعقبوا ^(١) ، وكان لرملة موقف مشهور من مروان بن الحكم الذي كان يزور زوجها عمرًا ، ويذكر مكانة رجال آبائه ، وكثرتهم على رجال آباء معاوية رضي الله عنه .

وقصة ذلك الموقف الذكي قد حكاها المصعب الزبيري قال : اشتكى عمرو ابن عثمان من مرض ألم به ، فألزمه ذلك المرض الفراش ، وكان العواد يدخلون عليه يعودونه ، ويسألونه عن حاله ، ثم يخرجون ، وكان يدخل فيمن يدخل من العواد مروان بن الحكم ، فيمكث عنده ويطلب الجلوس ، ولا يخرج مع غيره من الناس ، فَنمي خبر تخلفه لرملة بنت معاوية ، فأوجست خيفة في نفسها منه ومن جلوسه ، وأخذت الأفكار تجول برأسها ، والتساؤلات الكثيرة تتراقص أمام مخيلتها ، وراحت تفكر في السر الذي يجعل مروان يطيل الجلوس ، فجلوسه الطويل ليس من أجل مرض زوجها عمرو ، ولعل ذلك لأمر يبيته في نفسه .

وهذا تفكيرها إلى طريقة لطيفة لمعرفة خبايا ما يخفيه مروان ، ومن ثم تهتدي إلى سر جلوسه الطويل المريب عند زوجها ، هنالك خرقت كوة من

(١) نسب قريش (ص ١١٠) .

غرفتها التي تجاور غرفة زوجها ، كيما تسمع ما يتكلم به مروان من دون أن يشعر بها أحد .

ولما دخل مروان بن الحكم مع العواد ، وكالعادة خرج جميعهم عدا مروان ، وإذ ذاك اقتربت رملة بهدوءٍ وحذر من الكوة ، فاستمعت لما يقول مروان ، وإذا هو يقول لزوجها عمرو بن عثمان : يا عمرو ، ما أخذ هؤلاء - يعني بني حرب ابن أمية - الخلافة إلا باسم أبيك ، فما يمنعك أن تنهض بحقك ؟ فلنحن - والله أكثر منهم رجالاً - ثم قال : ومنا فلان ، وهو فضل ، وفلان فضل ، فعدد فضول رجال بني أبي العاص على رجال بني حرب .

سمعت رملة هذا الكلام الخطير من مروان ، فأسرت ذلك في نفسها ولم تبده لزوجها ولا لولديها ، ولا لأحد ممن حولها ، وعلمت أن في نفس مروان شيئاً ، ولكنها صبرت ، وسكتت حتى تستطيع إخبار أبيها بهذا الحديث الخطير من مروان ، وأخذت تفكر كيف توصل لأبيها هذا الحديث ، إلى أن جاءت الفرصة المناسبة ، فتوجهت إلى الشام ونقلت الخبر لأبيها ، فكيف كان ذلك ؟

أطلقك زوجك يا رملة ؟

لما برأ عمرو بن عثمان زوج رملة من مرضه وتمائل للشفاء ، كان موعد الحج قد اقترب ، فتجهز للحج وأعد له العدة ، وتجهزت رملة في جهازه كأنها تريد الحج معه ، فلما خرج عمرو بن عثمان إلى أداء فريضة الحج ، خرجت رملة إلى أبيها معاوية ، فقدمت على الشام .

وعجب معاوية رضي الله عنه من قدومها عليه في موسم الحج ، وظن أن هناك أمراً

قد حزبها فقال لها : مالك يا بنية ؟ هل من شيء ؟

قالت رملة : لا شيء يا أبي ، ثم إنها ركنت إلى الصمت ، فقال معاوية ، وقد ظن أن زوجها قد طلقها أو أهانها : يا بنية أطلقك زوجك ؟^(١) .

قالت رملة : لا يا أبت ، هو ضنين بي .

فقال معاوية : إذا ما دهاك يا بنية ؟

وعندها راحت رملة تقص القصص على أبيها وأخبرته بما تكلم به مروان ابن الحكم لزوجها عمرو بن عثمان حرفاً حرفاً ، وكلمة كلمة ، ثم قالت : يا أبت ، ما زال يعد فضولاً من رجال أبي العاص على بني حرب حتى عد ابني عثمان وخالدًا ابني عمرو فتمنيت أنهما ماتا .

فقال معاوية رضي الله عنه : يا بنية ، آل أبي سفيان أقل حظاً في الرجال من أن تكوني رجلاً ، فلا تخافي ولا تحزني .

ثم إن معاوية رضي الله عنه كتب إلى مروان هذين البيتين وذيلهما بكلام فقال :

وأوضاعُ رجلاً فوق أخرى بعدنا عديد الحصى ما إن تزال تكاثُرُ
وأمكم تُزجي تَوَامًا لبعلها وأم أخيكم نزرَةُ الولد عاقر

أشهد يا مروان أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا بلغ ولد الحكم ثلاثين رجلاً ، اتخذوا مال الله دُولاً ، ودين الله دخلًا ، وعباد الله خولاً » والسلام .

ثم إن معاوية بعث الرسالة إلى مروان بن الحكم ، فلما وصلت الرسالة مروان ، كتب إلى معاوية : أما بعد ، يا معاوية ، فإنني أبو عشرة وأخو عشرة

(١) أنساب الأشراف (ص ١٠٨) .

وعم عشرة والسلام^(١) .

هل تغزل الشعراء برملة ؟

جعل بعض المغرضين من أهل الأخبار نهمهم في أن ينالوا من أعراض نساء
عليّة القوم ، وأن يخوضوا في الحديث عنهن مشرقين ومغربين ، وأن يكثروا من
الإساءة إليهن بشتى ألوان الصور والأشكال .

ومن اللواتي نالتهن يد المغرضين وألستهم السيدة المصونة الكريمة رملة
بنت معاوية ، التي جعلوها من اللاتي يُتغزل بهن ، وممن يراها الغادي والرائح ،
فيصف جمالها وملاحظتها وزينتها ودلها ودلالها .

ومن القصص المزعومة التي طاب لواضعيها إلصاقها برملة بنت معاوية
هذه القصة التي أوردتها الأصبهاني في أكثر من موضع من «أغانيه» بسند رفعه
إلى ابن أبي زريق قال : شبب عبد الرحمن بن حسان برملة بنت معاوية :

رملُ هل تذكرين يوم غزال إذ قطعنا مسيرنا بالتمني
إذ تقولين عمرك الله هل شيء وإن حل سوق يُسليك عني
أم هل أطمعت منكم بابن حسان كما قد أراك أطمعت مني

قال : فبلغ ذلك يزيد بن معاوية ، فغضب ، فدخل على معاوية فقال : يا
أمير المؤمنين ، ألا ترى إلى هذا العُلج من أهل يثرب ، يتهكم بأعراضنا ويشبب
بنسائنا ؟ قال : ومن هو ؟

(١) نسب قريش (ص ١٠٩، ١١٠) ، وتاريخ دمشق ، تراجم النساء (ص ٩٦، ٩٧) ، وأنساب
قريش (ص ٤٦، ٥٨) ، وأعلام النساء (١/٤٦٦، ٤٦٧) .

قال : عبد الرحمن بن حسان ، وأنشده ما قال .

فقال : يا يزيد ، العقوبة من أحد أقبح منها من ذوي القدرة ، ولكن أمهل حتى يقدم وفد الأنصار ثم ذكرني .

قال : فلما قدموا ذكره به ، فلما دخلوا عليه قال : يا عبد الرحمن ، ألم يبلغني أنك تشبب برملة بنت أمير المؤمنين ؟ قال : بلى ، ولو علمت أن أحدًا أشرفُ به من شعري أشرف منها لذكرته .

قال : وأين أنت من أختها هند ؟

قال : وإن لها أختًا ؟ قال : نعم .

قال : وإنما أراد معاوية أن يشبب بهما جميعًا فكيف نفسه .

قال : فلم يرض يزيد ما كان من معاوية في ذلك أن يشبب بهما جميعًا ، فأرسل إلى كعب بن جُعيل فقال : اهج الأنصار ، فقال : أفرق «أخاف» من أمير المؤمنين ، ولكن أدلك على الشاعر الماهر .

قال : من هو ؟ قال : الأخطل .

قال : فدعا به ، فقال : اهج الأنصار .

قال : أفرق من أمير المؤمنين .

قال : لا تخف شيئًا ، أنا لك بذلك .

قال : فهجاهم فقال :

وإذا نسبت ابن الفريعة خلته كالجحش بين حمارة وحمار

بالجزع بين جُلَيْجِل وصرار
 حمراً عيونهم من المسطار
 وخذوا مساحيكم بني النجار
 أولاد كل مقبِح أكار
 واللؤم تحت عمائم الأنصار
 لعن الإله من اليهود عصابة
 قوم إذا هدر العصير رأيتهم
 خلوا المكارم لستم من أهلها
 إن الفوارس يعلمون ظهوركم
 ذهبت قريش بالمكارم والعللا

فبلغ ذلك النعمان بن بشير الأنصاري رضي الله عنه ، فدخل على معاوية فحسر رأسه
 عن عمامته ، وقال : يا أمير المؤمنين ، أترى لؤمًا ؟

قال : لا بل أرى كرمًا وخيرًا ، ما ذاك ؟

قال : زعم الأخطل أن اللؤم تحت عمائمنا .

قال : أو فعل ؟ قال : نعم .

قال : لك لسانه ، وكتب أن يُؤتى به ، فلما أتى به سأل الرسول ليدخل إلى
 يزيد أولاً ، فأدخله عليه فقال : هذا الذي كُنت أخاف .

قال : لا تخف شيئًا ، ودخل على معاوية فقال : علام أرسل إلى هذا الرجل ،
 وهو يرمي من وراء جمرتنا .

قال : هجا الأنصار .

قال : ومن زعم ذلك ؟

قال : النعمان بن بشير .

قال : لا تقبل قوله عليه ، وهو يدعي لنفسه ، ولكن تدعوه بالبينة ، فإن
 أثبت شيئًا أخذته به له .

فدعا بالبينة ، فلم يأت بها فخلى سبيله فقال الأخطل :

وإني غداة استعبرت أم مالك لراضٍ من السلطان أن يتهددا
ولولا يزيد ابن الملوك وسيه تجللت حدِّ بارًا من الشر أنكدنا
فكم أنقذتني من جرور حبالكم وخرساء لو يُرمى بها الفيل بلدا
وأطفأت عني نار نعمان بعدما أعد لأمر فاجر وتجردا
ولما رأى النعمان دوني ابن حرة طوى الكشح إذ لم يستطعني وعردا^(١)

ويروي الأصبهاني أن يزيد بن معاوية لما أمر كعب بن جعيل بهجاء الأنصار
قال له : أرادي أنت إلى الكفر بعد الإسلام ؟؟ أهجو قومًا أووا رسول الله ﷺ
ونصروه ؟

قال : أما إذا كنت غير فاعل ، فأرشدني إلى من يفعل ذلك ، قال : غلام منا
خبيثٌ فدلّه على الأخطل^(٢) .

والقصة كما قرأناها واضحة الصنعة في معظم جوانبها ، وفيها تعريض
بالأنصار ، وبسيدنا معاوية ، وإساءة أيضًا لحسان بن ثابت وابنه لرملة بنت
معاوية ، ولكن تاريخ رملة بنت معاوية وحياتها مع زوجها عمرو بن عثمان
يخالف ما جاءنا من مثل هذه الأخبار وأشباهاها عن بنات الصحابيات الطاهرات .

لقد كانت لرملة ومثيلاتها من النساء في ذلك العصر منزلة سامية في
القلوب ، تعن لها الوجوه ، وتطمئن دونها النفوس ، ولم يكن مرجع ذلك لما لها

(١) الأغاني (١٥/١٠٣-١٠٥) ، ومختصر تاريخ دمشق (١٤/٢٣١-٢٣٣) ، وأعلام النساء
(١/٤٦٧-٤٦٩) .

(٢) الأغاني (١٦/٤٥) .

من جلال ودلالٍ وغضارة وخلابة ، ودعابة ، فما كانت من ذلك في قليل ولا كثير ، ولكنها كانت فيما تفردت به بين نساء العصور الأولى من سمو الروح إلى أبعد مرتقى ، وصفاء النفس إلى أتم غاية ، وكان من أثر ذلك ما ذاع عنها من نبل وسناء ، وعزة وكبرياء ، وجلال في الطبع والخلق ، وترفع في القول والفعل ، وإسعاد للزوج والولد ، حتى كان من ثمرتها تلك الأمة التي جمعت أطراف الأرض ، وملكت نواحي الأمم في أقل من خمسين عامًا^(١) .

رملة ووفاة أبيها :

لم تنقطع أخبار رملة عن ساحة الأحداث في عصرها ، وقد وجدنا لها ذكرًا في بعض المواقع ، وكذلك في بعض الأحداث كوفاة أبيها معاوية رضي الله عنه ، حيث ذكر ابن عساکر هذا فقال : لما حضرت معاوية الوفاة ، جعلوا يديرونه في القصر فقال : هل بلغنا الخضراء ؟ فصرخت ابنته رملة فقال : ما أصرخك ؟ قالت : نحن ندور بك في الخضراء ، وتقول : هل بلغت الخضراء بعد ؟ فقال : إن عزب عقل أبيك فظالما وقر^(٢) .

وفي رواية أخرى : أن معاوية رضي الله عنه لما حضرته الوفاة قال لابنته هند ورملة : اقلبنني ، فقلبته هند ورملة فقال : إنكما لتُعلِّبان حولا قلبًا ، إن وُقي كبه في النار غدًا ثم قال :

لا يُبعدن ربيعة بين مكدم وسقى الغوادي قبره بذنوب

(١) انظر : المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها (٣/ ١١٠) بتصرف يسير .

(٢) تاريخ مدينة دمشق ، تراجم النساء (٩٨ ، ٩٩) .

ثم توفي عليه رحمة الله ورضوانه .

وذكر المدائني أيضًا أنه أغمي على معاوية في مرضه الذي مات فيه ، فقالت رملة ابنته متمثلة بشعر الأشهب بن رُميلة النهشلي :

إذا مات مات الجود وانقطع الندى من الناس إلا من قليل مصدر
ورُدت أكف السائلين وأمسكوا من الدين والدنيا بخلف مُجدِّد
ثم أفاق وأغمي عليه فأنشدت :

لو دام شيء لها لدام أبو حيان لا عاجز ولا وكل
الحوّل القلب الأريب وهل يدفع ذو المنية الحيل^(١)

وقد جاء ذكر رملة في شعر أخيها يزيد عندما أتاه نعي أبيه وهو بالصائغة ،
فأنشأ يقول بضعة أبيات أولها :

جاء البريدُ بقرطاسٍ يخبُّ به فأوجس القلبُ من قرطاسه فزعًا
وآخرها وقد ذكر أخته رملة المفجوعة بأبيها معاوية :

لما وردت وباب القصر منطبق لصوت رملة هُد القلب فانصدعا^(٢)

ويظهر اسم رملة أيضًا في مرثية جميلة لمعاوية رضي الله عنه حيث يقول أيمن بن خُزيم
ابن فاتك الأسدي :

رمى المقدار نسوة آل حرب بحادثة سمدن لها سمودا
فرد شعورهن السود بيضًا ورد خدودهن البيض سُودا
فإنك لو سمعت بكاء هند ورملة إذ يلطمن الخدودا

(١) أنساب الأشراف (ص ١٥١، ١٥٢)، وتاريخ دمشق ، تراجم النساء (ص ٩٨) .

(٢) الأغاني (١٧/٢١٣)، وأنساب الأشراف (ص ١٥٥) .

بكى بكاء موجعةً بحزن أصاب الدهر واحدها الفريدا
 ومن آثار رملة ما ذكره ابن عساكر رحمته الله بأن دارها كانت بدمشق في عقبه
 السمك في طرق زقاق الرمان ، وطاحونتها معروفة إلى اليوم .
 وبعد - أحبائي - فتلكم لمحاتٌ عن حياة ابنة صحابي جليل ، وامرأة من
 نساء الإسلام اللواتي تركن أثرًا وضيئًا في تاريخ بنات الصحابة الطاهرات .
 فرحم الله رملة ، ورضي عن أبيها ، وحشرنا في معيبتهم إنه سميع مجيب ،
 والحمد لله رب العالمين .



سلمى مولاة رسول الله ﷺ

هي أم رافع سلمى خادم النبي الكريم ﷺ .
وكانت سبباً في إسلام حمزة بن عبد المطلب عم النبي ﷺ .
قال ﷺ لزوجها : «ما لك ولها؟ يا أبا رافع لم تأمرك إلا بخير» .

سلمى مولاة رسول الله ﷺ

وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين :

كان رسول الله ﷺ الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، وهو كما وصفه الله ﷻ في كتابه الحكيم : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨] .

قال ابن عباس : بعث رسول الله ﷺ رحمة للبار والفاجر ، فمن آمن بالنبي ﷺ تمت له الرحمة في الدنيا والآخرة ، ومن كفر بالنبي ﷺ أمن من العذاب في الدنيا ، وأجلَّ عذابه إلى الآخرة مصداقاً لقول الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾ [الأنفال: ٣٣] ، فرسول الله رحمة لكل العالمين : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] .

وروى مسلم في صحيحه ، من حديث أبي هريرة أنه قيل للنبي ﷺ : ادع الله على المشركين ، قال المصطفى ﷺ : «إني لم أبعث لعاناً ، وإنما بعثت رحمة» .
روى الطبراني في «معجمه» عن عبد الله بن سلام بسند رجاله ثقات ، أن زيد ابن سحنة وهو الخبر الكبير من أحبار يهود ، قال : ما من شيء من علامات النبوة إلا وقد عرفته في وجه محمد حين نظرت إليه إلا اثنتين :

الأولى : يسبق حلمه جهله .

والثانية : لا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلماً .

يقول زيد بن سعنة : فخرج رسول الله ﷺ يوماً من الحجرات مع علي بن أبي طالب ، وإذا برجل من الأعراب يقبل على النبي ﷺ ، ويقول : يا رسول الله ، إن قومي في قرية بني فلان ، قد دخلوا في الإسلام ، ولكنهم دخلوا طمعاً ، فلقد أخبرتهم : أنهم إن دخلوا في الإسلام أتاهم رزقهم رغداً ، وقد نزلت بهم اليوم شدة وقحط ، فأخشى أن يخرجوا من الإسلام طمعاً ، كما دخلوا في الإسلام طمعاً ، فإن رأيت أن ترسل إليهم شيئاً تغنيهم به فعلت يا رسول الله ؟

فالتفت النبي إلى علي بن أبي طالب ، وسأله : «هل عندنا من شيء من المال؟» ، فقال علي : لا والله يا رسول الله ، لقد نفذ المال كله ، يقول زيد بن سُعنة : فدنوت من رسول الله وقلت له : يا محمد ، هل تبيعني تمرًا معلومًا في حائط بني فلان إلى أجل معلوم ؟ فقال النبي ﷺ : «نعم أبيعك تمرًا معلومًا إلى أجل معلوم ، لكن لا تُسمِّ حائط بني فلان» ، فوافقت على ذلك ، وأعطيت النبي ﷺ ثمانين مثقالاً من الذهب ، يقول زيد بن سعنة : فأخذها النبي ﷺ كلها ، وأعطاهم هذا الأعرابي ، وقال : «اذهب إلى قومك ، فأغثهم بهذا المال» ، فانطلق الأعرابي بالمال كله ، ولم يمض غير قليل من الوقت ، ورسول الله ﷺ مع أبي بكر ، وعمر ، وعثمان ، ونفر من أصحابه بعد أن صلى الجنازة على صاحب له ، وأتى إلى جدار ليجلس في ظله ، فاقترب منه زيد بن سعنة ، ونظر إلى النبي ﷺ بوجه غليظ ، وأخذ بقميص النبي ﷺ وردائه وهزَّ الخبر اليهودي رسول الله ﷺ هزًّا عنيفًا ، وهو يقول : أذما عليك من حقوق ومن دين يا محمد ، فوالله ما علمتكم يا بني عبد المطلب إلا مُطَّلًا في أداء الحقوق وسداد الديون .

فالتفت عمر وعينه تدوران وقال : يا عدو الله ، أتقول لرسول الله ﷺ ما أسمع ، وتفعل برسول الله ﷺ ما أرى ؟ والذي نفسي بيده ، لولا أخشى فوته وغضبه لضربت رأسك بسيفي هذا .

يقول زيد بن سعنة : وأنا أنظر إلى الرسول ﷺ ، فنظر إليّ في سكون وهدوء ، ثم التفت المصطفى ﷺ إلى عمر وقال : «يا عمر ، لقد كنت أنا وهو في حاجة إلى غير ذلك ، يا عمر لقد كان من الواجب عليك أن تأمرني بحسن الأداء ، وأن تأمره بحسن الطلب» ، فبهت الخبر أمام هذه الأخلاق السامية ، وأمام هذه الروح الوضيئة العالية ، والرحمة المهداة من الحبيب المصطفى ﷺ ، بأبي هو وأمي ﷺ .

أتدرون ماذا قال صاحب الأخلاق العظيمة والرحمة المهداة ، التفت الحبيب إلى عمر ﷺ ، وقال : «يا عمر ، خُذهُ وأعطه حقه ، وزده عشرين صاعًا من تمر جزاء ما روعته» .

يقول زيد بن سعنة : فأخذني عمر ، وأعطاني حقي ، وزادني عشرين صاعًا من التمر ، فقلت : ما هذه الزيادة يا عمر ؟

قال : أمرني رسول الله ﷺ أن أزيدكها جزاء ما روعتك .

فالتفت الخبر اليهودي إلى عمر وقال : ألا تعرفني ؟

قال عمر : لا ، قال : أنا زيد بن سعنة .

قال عمر : خبر اليهود ؟ قال : نعم .

قال عمر : ما حملك على أن تقول لرسول الله ﷺ ما قلت ؟ قال : ما من

شيء من علامات النبوة إلا وقد عرفته في وجه رسول الله ﷺ حين نظرت إليه ، ولكنني لم أختبر فيه خصلتين من خصال النبوة ، فقال عمر : وما هما ؟ قال : يسبق حلمه جهله ، ولا تزيدهُ شدة الجهل عليه إلا حلمًا ، أما وقد عرفتهما اليوم في رسول الله ﷺ ، فأشهدك يا عمر أني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ﷺ .

وروى ابن إسحاق والطبراني ، عن أنس بن مالك ورجاله رجال الصحيح ، عن عروة بن الزبير ، أن عمير بن وهب وصل مكة المكرمة كاسف البال ، مهمومًا ، قد لفه الحزن على ابنه الذي وقع أسيرًا - وكان صفوان بن أمية جالسًا في الحجرِ يسمعُ ما يدور من أحاديث وأعاجيب ، فلا يكاد يصدق ويأخذه الدهش مما يقولون - وإذا بعمير بن وهب يأتي مجلسه فيقعدُ إليه ، وهو غارق في همومه وأسفه وحزنه على من قُتل في بدر ، فسمعه عمير يقول : « قبح الله العيش بعد قتلي بدر » .

فقال له عمير : « أجل ، والله لولا دينُ عليٍّ لا أجد قضاءه ، وعيال لا أدعُ لهم شيئًا ، أخشى عليهم الضيعة بعدي لخرجتُ إلى محمد فقتلته ، إن ملأت عيني به ، إن لي عنده علة أعتلُّ بها ألا وهي علة ابني هذا الأسير » .

التقط صفوانُ بن أمية الكلمات العُميرية الحماسية التي كانت تسيل مع لعابه تشوقًا للانتقام ، فاهتبلها فرصة سانحة لا تُعوض ، وفرح بهذا العرض السهل ، فقال لابن عمه عمير يغريه ويجرضه : « عليٌّ دينك يا عميرُ أقضيه عنك وافيًا ، لا يتبعك بشيء منه أحد قط ، وعيالك مع عيالي أواسيهم ما بقوا ، وأنفق عليهم كما أنفق على عيالي » .

قال عمير ، وقد اتسع صدره : «فاكتم شأنى وشأنك يا بن عم» .

قال صفوان : «أفعل ذلك فامض لشأنك» .

تكفل صفوان بتجهيز عمير بن وهب ، وأمر له بسيفٍ بالغ في صقله ، وشحذه ، وأشبعه سماً زعافاً ، نهض عمير من مكانه وغادر المسجد ونيران الحقد تتأجج في فؤاده تكاد تكظم أنفاسه ، وأخذ يودع ابن عمه صفوان وهو يعده ويمنيه ، وما يعده إلا الغرور ، وما يمنيه إلا خواء الكلام وهراءه .

تعاهد عمير و صفوان على الكتمان ، لكن الوحي الأمين أخبر الرسول الأمين ﷺ بذلك الاتفاق ، وتلك المؤامرة الوبيئة النذلة .

سار عمير يقطع الفيافي والقفار ، حتى وصل المدينة المنورة ، ونزل بباب المسجد النبوي ، واعتقل بعيره ، وتوشح سيفه ، وهمم بالدخول على رسول الله ﷺ متظاهراً بأنه جاء لدفع الفداء عن ابنه وهب ، وإطلاق سراحه .

في هذه الأثناء رآه العبقرى فاروق الأمة ، وقويها الأمين عمر بن الخطاب ﷺ ، فصاح : هذا عدو الله عمير بن وهب ، ما الذي جاء به إلى مدينة رسول الله ﷺ .

نهض سيدنا عمر ﷺ ، ثم أسرع فدخل على رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، هذا عمير بن وهب قد دخل المسجد متقلداً سيفه وهو الغادر الفاجر يا رسول الله ، لا تأمنه على شيء .

فقال الصادق المصدوق ﷺ لعمر : «أدخله عليّ» ، فخرج عمر ﷺ فأمر أصحابه : أن أدخلوه على رسول الله ﷺ واحترسوا من عمير .

أقبل سيدنا عمر رضي الله عنه على عمير بن وهب ، وأخذ بحمالة سيفه ولبيه ، ودخل به على رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيفه في رقبته ، فقال عمير : «انعموا صباحًا» .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لقد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك ، بالسلام تحية أهل الجنة ، فما أقدمك يا عمير؟» .

قال : قدمت في أسيري ففادونا في أسيركم ، فأنتم العشيرة والأهل .

وتوهم عمير أنه استطاع أن يملك الحيلة ، ويمتلك الحجة ، وأنه أقنع ووصل وانظمت أكذوبته البلهاء على محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى الذين آمنوا معه ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم صدع فؤاده ، فقال له : «فما بال سيف في رقبتك؟» .

فقال عمير ، وقد انخل قلبه ، واستطار لبه : «قبحها الله من سيوف ، وهل أغنت عناً من شيء ، إنما نسيتها حين نزلت» .

تفرس الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم في وجه عمير وقال : «اصدقني ما أقدمك؟» .

قال عمير مردداً أكذوبة أسر ابنه : قدمت في أسيري وما جئت إلا لذلك .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمير كاشفاً أسرار مؤامراته الخبيثة مع ابن عمه صفوان : «بل قعدت أنت وصفوان بن أمية في الحجر ، فذكرتما أصحاب القليب من قريش ، ثم قلت : لولا دين عليّ وعيال عندي ، لخرجت حتى أقتل محمداً ، فتحمل لك صفوان بن أمية بدينك وعيالك ، على أن تقتلني له ، والله حائل بينك وبين ذلك» .

لم يمتلك عمير بن وهب أمام كشف هذه الحقائق إلا أن يستسلم للحق ،

فانقلب من شيطان مرید إلى مؤمن رشید ، وانسكبت قطرات غيث الإيمان على قلبه ، وقال بلسان اليقين والصدق : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ، يا رسول الله ، كنا نكذبك بالوحي يأتيك وبها يأتيك من السماء ، وإن هذا الحديث بيني وبين صفوان في الحجر ، لم يطلع عليه أحد إلا الله تعالى ، والحمد لله الذي ساقني هذا المساق ، وقد آمنت بالله ورسوله ^(١) .

وبعد أن غدا عمير بن وهب أحد رجال الإسلام ، وانتظم في سلك : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات: ١٠] ، التفت رسول الله ﷺ إلى أصحابه وقال لهم بلطفٍ ومودةٍ وإيناس : «فقهوا أخاكم في دينه وعلموه القرآن ، وأطلقوا له أسيره ، ابنه دون فداء» ^(٢) .

فكانت رحمة رسول الله ﷺ وعفوه يشملان الناس جميعاً ، أما عبيده ومواليه فكان يفيض عليهم بالعطف والكرم والخير ومعاني الإحسان ، يلاطفهم ، ويجبر كسرهم ، ويقبل منهم الهدية ، ويكافئ عليها ، ويلبى دعواتهم إذا دعوه إلى طعام ، ويناديهم بلفظ : «إخوانكم» ، ليجعل مكانتهم في نفس السامع قريبة من مكانة الأحرار ، وكان يُوصي بهم قائلاً :

«إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم ، فأطعموهم مما تأكلون ، وألبسوهم مما تلبسون ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فإن كلفتموهم فأعينوهم» ^(٣) .

(١) صحيح السيرة النبوية (ص ٢٥٩) ، بتصرف يسير ، وانظر المغازي (١/١٢٧) .

(٢) أسد الغابة (٣/٧٩٨) ، ومعرفة الصحابة (٣/٤٦٩) وغيرها .

(٣) الحديث رواه ابن ماجه (٣٦٩٠) .

وفي الصفحات التالية نعيش مع إحدى النساء من السابقات إلى الإسلام بمكة منذ انبلاج نوره ، وكانت قد عاشت في البيت النبوي الشريف ولازمته وحظيت بشرف خدمته ، فأضحت من كرائم نساء الصحابة ، وغطت على مكانتها عند النبي ﷺ .

إنها أم رافع سلمى مولاة رسول الله ﷺ^(١) ، خادمة النبي الكريم ﷺ ، وهي امرأة أبي رافع مولى رسول الله ﷺ ، وكان من قبط مصر اسمه إبراهيم ، وقيل : أسلم ، وكان عبداً للعباس بن عبد المطلب ، فوهبه للنبي ﷺ ، فلما أن بشر النبي ﷺ بإسلام العباس أعتقه ، وشهد غزوة أحد والخندق ، وكان ذا علم وفضل ، روى عدة أحاديث ، توفي في خلافة علي عليه السلام^(٢) .

هذه الصحابية سلمى كانت ممن أعتقهن رسول الله ﷺ ، وقد روت هذا فقالت : كنتُ أخدم النبي ﷺ أنا وخضرة ورضوى وميمونة بنت سعد ، فأعتقنا رسول الله ﷺ كلنا .

سلمى سبب إسلام حمزة أسد الله :

تشير الروايات الموثوقة إلى أن سلمى ﷺ كانت مولاة لصفية بنت عبد المطلب عمه رسول الله ﷺ ، ثم صارت للنبي الكريم ﷺ ، وأسلمت سلمى والتحقت بركب السابقات ، وفي أم القرى عاشت سلمى الأحداث الجسام التي مرت بالمسلمين ، وذات مرة رأت أبا جهل وقد آذى النبي وشتمه ، ونال

(١) الطبقات (٨/ ٢٢٧) ، وأسد الغابة (٥/ ٤٧٨) ، وتهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٣٤٧) ، والإصابة (٤/ ٣٢٦) .

(٢) سير أعلام النبلاء (٢/ ١٦) .

منه ما يكره ، وبعد قليل يُقبل حمزة بن عبد المطلب راجعًا من رحلة صيد وقنص ، فبصّرت به سلمى ، وهمست في أذنه بما رأت وسمعت قبل سويحات ، فقال لها حمزة وقد أخذه الغضب : أنتِ رأيت هذا الذي تقولين ؟ قالت : نعم . وانطلق حمزة يبحث عن أبي جهل ، فوجده جالسًا مع أمثاله ، فأقبل نحوه ورفع قوسه ، وضربه في رأسه فشجّه شجّةً منكّرة ، ثم قال له : أتشتّمه ؟ فأنا على دينه ، أقول ما يقول ، فرُدَّ علي ذلك إن استطعت .

ولم يملك أبو جهل جوابًا إلا الاعتذار والأسف ، ويذهب حمزة إلى رسول الله ﷺ فيعلن إسلامه في دار الأرقم ، فتقوى شوكة الإسلام ويعزبه المسلمون ، وكانت سلمى ﷺ السبب في إسلام حمزة وانضمامه لكتيبة الإيمان ، وجيش المسلمين الحق ، لإعلاء كلمة الله ، وسمي من أجل ذلك أسد الله وأسد رسوله ﷺ ، فرضي الله عنه وأرضاه .

سلمى قابلة آل النبي ﷺ :

أم رافع سلمى هذه إحدى النساء الصحابيات ممن برعن في معرفة بعض أمور الطب ، وما يتصل به من ذلك أنها كانت تستخدم الحناء في عملها الطبي إذا لزم الأمر ، مستوحية ذلك من الطب النبوي ، روت سلمى هذا فقالت : كان لا يصيب النبي ﷺ قرحة ولا شوكة إلا وضع عليها الحناء ^(١) .

التمريض مهنة سامية من أشرف المهن على وجه الأرض ، وتتفاخر الدول الغربية وبعض الدول الإسلامية بأول ممرضة على مدى التاريخ وهي

(١) الحديث أخرجه الترمذي (٢٠٥٥) ، وأبو داود (٣٨٥٨) ، وأسد الغابة (٥/٤٧٨) .

«فلورانس نايتنجال» ، ولكن الحقيقة الأكيدة أن أمهاتنا الصحابيات هنَّ أول من قام بهذه المهنة ، وذلك في عهد رسول الله والخلفاء الراشدين من بعده ، فها هي ربيعة بنت كعب الأسلمية رضي الله عنها أول طبيبة ، وأول ممرضة في التاريخ في عهد الإسلام ، وروي أن ربيعة حينما جرح سعد بن معاذ نتيجة انغراس سهم في صدره ، وقررت ألا تسحب السهم المستقر في صدره حتى لا يستمر النزيف بل تركته ليكون سدًّا يمنع المزيد من النزيف ، وكانت تستعمل بعض المواد الكيماوية في إيقاف النزيف .

وفي الحقيقة كان هناك عدد كبير من الصحابيات برزت أسماءهن في كتب السير والتراجم كأول جيل قام بتأسيس هذه المهنة الجليلة أيضًا نذكر منهن : أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق ، كما برز اسم الربيع بنت معوذ رضي الله عنها التي تطوعت بسقاية الجيش ومداواة الجرحى ، ورد القتلى إلى المدينة المنورة ، وحمئة بنت جحش ، فكانت تداوي الجرحى في أحد ، وأم سنان الأسلمية في غزوة خيبر ، وأم سليم والدة أنس بن مالك ، وأم أيمن حاضنة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، وأميمة بنت قيس الغفارية ، وغيرهن كثير رضي الله عنهن .

فكانت سلمى رضي الله عنها ذات خبرة بشؤون النساء ، فقد كانت قابلة خديجة بنت خويلد أم المؤمنين رضي الله عنها في ولادتها ، فكانت تجهز قبل ذلك ما يلزمها ، وما تحتاجه من أمور الولادة ، ثم تقوم بعملها على أكمل وجه .

ومن الجدير بالذكر أن سلمى كانت قابلة مارية القبطية أم إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولما ولدت مارية خرجت سلمى إلى زوجها أبي رافع وأعلمته

بولادتها ، فجاء أبو رافع فبشّر النبي ﷺ بولادة مارية غلامًا سويًا ، فوهبه عبدًا على هذه البشارة ، ثم إن رسول الله ﷺ سماه يوم سابعه إبراهيم .

وظلت سلمى ﷺ تقوم بهذا العمل للبيت النبوي الطاهر ، فكانت فيما بعد قابلة فاطمة بنت رسول الله ﷺ^(١) ، وكان رسول الله ﷺ يكرم سلمى إكرامًا عظيمًا لإخلاصها ووفائها .

وقد مرضت فاطمة الزهراء في مرضها الذي توفيت فيه ، وكانت سلمى فيمن غسل فاطمة رضي الله عنها وأرضاها .

بشارةٌ وهدية :

كانت سلمى حاملة البشارة السماوية النبوية بزواج رسول الله ﷺ من زينب بنت جحش أم المؤمنين ﷺ ، وقد سأل عليه الصلاة والسلام فقال : «من يذهب إلى زينب يبشرها أن الله قد زوجنيها من السماء؟» .

فخرجت سلمى مسرعة حتى أتت زينب فحدثتها بذلك فأعطتها أوضاحًا - حليًا - عليها .

وفي مجال الجهاد كان لسلمى بعض الآثار التي تدلُّ على مشاركتها ، فقد أكدت المصادر أنها شهدت غزوة خيبر مع النبي ﷺ^(٢) ، ونقل ابن كثير رحمه الله تعالى عن مصعب بن الزبير قال : شهدت سلمى وقعة حنين .

(١) الطبقات (٨/ ٢٢٧) ، والمغازي (٢/ ٦٨٥) ، وتهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٣٤٧) .

(٢) الطبقات (٨/ ٢٢٧) ، والمغازي (٢/ ٦٨٥) ، وتهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٣٤٧) .

سلمى وطعام النبي ﷺ :

اشتهرت سلمى رضي الله عنها بجودة إعداد الطعام ، وقد ورد أنها كانت تطبخ للنبي ﷺ الخزيرة فتعجبه هذه الوجبة ، وكان رضي الله عنه يعتمد في هذا المجال عليها ، فعندما استشهد جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه في مؤتة ، صنعت سلمى لآل جعفر طعامًا ، وهذا شاهد من آل جعفر يتحدث عن ذلك ، قال عبد الله بن جعفر رضي الله عنه : عمدت سلمى خادم النبي ﷺ إلى شعير فطحته ، ثم نسفته ، ثم أنضجته ، وأدمته بزيتٍ ، وجعلت عليه فلفلًا فتغديت أنا وأخي مع رسول الله ﷺ غداءً طيبًا مباركًا .

وهذه شهادة رائعة لسلمى في إخلاصها وحسن رعايتها لضيوف رسول الله ﷺ ، وأقربائه ، ويتبادر إلى الذهن سؤال : هل كان هذا الطعام هو المفضل عند النبي ﷺ ؟

الصحابة سلمى نفسها تجيب لنا عن هذا السؤال .

فقد أخرج الطبراني رحمته الله عنها قالت : دخل علي الحسن بن علي ، وعبد الله ابن جعفر ، وعبد الله بن عباس رضي الله عنهم ، فقالوا : اصنعي لنا طعامًا مما كان يعجب النبي ﷺ أكله ، قالت : يا بني ، إذا لا تشتهونه اليوم ، فقمتم فأخذت شعيرًا فطحته ، ونسفته ، وجعلت منه خبزة ، وكان أدمه الزيت ، ونشرت عليه الفلفل فقربته إليهم ، وقلت : كان النبي ﷺ يحب هذا ^(١) .

« ما لك وما لها ؟ يا أبا رافع لم تأمرك إلا بخير » :

لهذه الصحابة مكانة أثيرة لدى النبي ﷺ ، حيث كان يتفقد أحوالها ،

(١) حياة الصحابة (٢/ ٥٠٢) ، وانظر الشفا للقاضي عياض (٢/ ٦١ ، ٦٢) .

ويسمع لها ، ويُطالب برفع الأذية عنها ، روت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت :
جاءت سلمى امرأة أبي رافع مولى النبي ﷺ تستعديه على أبي رافع وقالت : إنه
يضرُّبني .

فقال : « ما لك ولها؟ » .

قال : إنها تؤذيني يا رسول الله .

قال : « بم آذيته يا سلمى؟ » .

قالت : ما آذيته بشيء ، ولكنه أحدث وهو يصلي ، فقلتُ : يا أبا رافع ، إن
رسول الله ﷺ قد أمر المسلمين إذا خرج من أحدهم ريح أن يتوضأ ، فقام
يضرُّبني ، فجعل يضحك ويقول : « يا أبا رافع ، لم تأمرك إلا بخير » ^(١) .

وداعاً أم رافع :

قبل أن نودع سيرة سلمى العطرة نتذكر أنها روت عن النبي ﷺ وعن
فاطمة الزهراء ، وروى عنها حفيدها عبيد الله بن علي بن أبي رافع ^(٢) ، وقد
ذكرها ابن حبان رضي الله عنه في « الثقات » ، فمن مروياتها : أن رسول الله ﷺ أوصى
بالهرة وقال : « إن امرأة عُدبت في هرة ربطتها ، فلم تطعمها ، ولم تركها تأكل
من خشاش الأرض » ^(٣) .

هذا وقد شهدت سلمى وفاة الزهراء ، ويبدو أنها توفيت بعدها في عهد

(١) أسد الغابة (٥/٤٧٨) ، والإصابة (٤/٣٢٦) .

(٢) الاستيعاب (٤/٣٢٢) ، وتهذيب التهذيب (١٢/٤٢٥) .

(٣) الاستيعاب (٤/٣٢٢) .

الخلفاء الراشدين والله أعلم ، رضي الله عن أم رافع ، ورفعها مكاناً علياً مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء ، وحسن أولئك رفيقاً .

ومع وداع سيرة سلمى نقرأ قول الله ﷻ : ﴿ وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي

خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ﴾ صدق الله العظيم .



أمة بنت خالد بن سعيد رضي الله عنه

أمها وأبوها صحابيان .

أتى رسول الله ﷺ بثياب خميصة سوداء صغيرة فقال :

«من ترون نكسو هذه الخميصة؟» .

فسكت القوم ، فقال : «ائتوني بأم خالد» فأتي بها ،

فألبسها بيده وقال : «أبلي وأخلقني» .

أمة بنت خالد بن سعيد رضي الله عنها

الشجرة الطيبة :

صحابية اليوم ، قرشية أموية مكية ، من صميم قريش وعليها ذروتها ، فأبواها من عليّة قريش ، معروفان بأسمائهما وأنسابهما ، وبيوتهما ، وهما من السابقين إلى الانضمام إلى العقد النفيس الذي ينظم الثلة الأولى من الصحابة الكرام من الذين سارعوا إلى استنشاق عبير الإسلام وهو يتفتح ندياً من أم القرى مكة ، قبل أن ينشر شذاه في الدنيا بأسرها .

وكان هذان الأبوان من أوائل من استجاب لدعوة رسول الله ﷺ ، فاهتديا بهديه ، وكانا من اللبنة الأولى في بناء صرح هذا الدين القيم ، دين الإسلام الحنيف الذي ارتضاه الله لعباده .

وأما السابقون الأولون إلى دوحة الإيمان ، فكانوا في الذروة من المكانة والحسب والنسب ، وأولهم : صديقة المؤمنات وسيدة الطاهرات ، أمنا خديجة بنت خويلد سيدة نساء العالمين ، وأسبق الخلق إسلاماً وإيماناً برسالة النبي ﷺ ، ثم الصديقُّ والصديق الأكبر أبو بكر الحبيب الأصيل ، أعلم قريش بقريش ، صاحب المجد المؤثل في الثراء والنجدة ، وكرم الخصال ومعقد الفضائل ، يلي ذلكم عثمان ، والزبير ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، وطلحة بن عبيد الله ، وهؤلاء هم عليّة القوم في الأحساب والأنساب والأموال والمكارم ، وكل خصال الخير وخصال العقل .

ثم تدفق شُبانُ قريش وشاباتُها إلى منبع الهداية ، وليشهدوا شهادة الحق ، وكان بين هؤلاء الأبرار : خالد بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي ومعه امرأته أمية - أو أميمة - بنت خلف بن أسعد بن عامر الخزاعية ^(١) ، وهذان الزوجان الكريمان الحسيبان الأصيلان ، هما والدا ضيفة هذه الصفحات الوضيئات بأخبار بنات الصحابة الطاهرات ، العالمات ، وقدوة القدوات ، وستكون جولتنا ممتعة شائقة ، مباركة مع حياة هذه الابنة الكريمة المؤمنة الصحابية ، أمة بنت خالد ^(٢) إن شاء الله .

كان هذان الزوجان في ذروة الشباب ، وكذلك غيرهم ممن اجتذبتهم عظمة الإسلام ، وهذا مما أغاظ قريشاً وجعلها تشعر بالخطر على حياتها الجاهلية ؛ إذ هجر هؤلاء الشباب آلهة آبائهم وأسلافهم ، تلك الآلهة المزعومة .

تلك أربابهم أتملك أن تنفع مثقال ذرة أو تضريرا
مالدى اللات أو مناة أو العزى غناء لمن يقيس الأمورا

ولم يكتف هؤلاء المؤمنون بنبذ عبادة الآلهة المزعومة ، بل سفهوا أحلام من يعبدها ، هنالك طارت عقول قريش شعاعاً من رؤوسها ، ودارت أفئدتهم في حنايا أضلعهم مضطربة لما دهاها ، وركبهم الهم والكمد والغم من إيمان هؤلاء ومعظمهم فلذات الأكباد ، فما الأمر إذا ؟

عند ذلك بدأت فدائح البلاء وألوان الأذيات تنصبُّ على المؤمنين ، وأخذت أشكال الأذى تتوالى عليهم ، هنالك رأى المؤمنون إشارة بل تصريحاً

(١) عيون الأثر (١/١٨٥، ١٨٦) .

(٢) أسد الغابة (٥/٤٠١) ، وسير أعلام النبلاء (٣/٤٧٠) .

من رسول الله ﷺ بالهجرة إلى المدينة ، وهناك يجدون الأمن والأمان والسلام ، ومن ثم ربما تكون هذه الهجرة لونا من ألوان تبليغ الرسالة النبوية في هاتيك الأرض الكريمة التي أرشدهم إليها رسول الله ﷺ بقوله : «لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكا لا يُظلم عنده أحد ، وهي أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه» .

وخرج خالد وزوجه أمينة إلى الحبشة ، وهما متمسكان بعرى الصبر ، وكان في مقدمة المهاجرين عثمان بن عفان ، ومعه امرأته رقية بنت رسول الله ﷺ .

وذكر ابن إسحاق رضي الله عنه سجلاً مسهباً فصل فيه أسماء ، وأنساب المهاجرين إلى الحبشة ، فكانوا ثلاثة وثمانين رجلاً وثمانية عشر امرأة ، إحدى عشرة قرشيات ، وسبعاً غرباء ^(١) ، وأكثر هؤلاء قرشيون من أشرف بطونها ، وطلائع بيوتها ، هذا عدا أبنائهم الذين خرجوا بهم معهم صغاراً أو ولدوا هنالك في الحبشة .

وفي الحبشة وعلى أرضها وُلدت أمة بنت خالد بن سعيد بن العاص القرشية الأموية المكية الحبشية المولدة ^(٢) ، وهي معدودة من صغار الصحابة .

وهكذا شاء الله ﷻ أن تكون ولادة أمة بنت خالد هنالك مع ثلثة من بنات الصحابة الكرام رضي الله عنهم جميعاً ، كما أن أخاها سعيد بن خالد ، ولد في الحبشة أيضاً .

(١) انظر : نهاية الأرب (١٦ / ٢٤١) ، وعيون الأثر (١ / ٢٠٩) .

(٢) سير أعلام النبلاء (٣ / ٤٧٠ ، ٤٧١) ، وأسد الغابة (٦ / ٢٤) و(٦ / ٣٢٥) ، والإصابة

(١٢ / ١٣١ ، ١٣٢) ، ترجمة رقم (٨٢) ، والدر المثور في طبقات ربات الخدور (ص ٦٧) .

ولدت أمة بنت سعيد على الفطرة ، وراح أبواها يغذيانها بلبن الإيمان ، ويغذوانها بما حفلت سفرتها من أطيب قصص المسلمين ، وهجرتهم إلى الحبشة ، كما حدّثها عن الحبيب الأعظم والنبى المفخم محمد ﷺ .

وهناك في أرض الحبشة درجت أمة بنت خالد لتجد مَنْ حولها مِنْ أترابها قد عرفن مكانة النبى ﷺ ، وقدره ، وعرفن مكانة هذا الدين القويم الذى أرسله الله ﷻ به ليخرج الناس من الظلمات إلى النور .

أمة وحلم الطفولة :

في ظلال النجاشي وعدله وحلمه عاش المسلمون المهاجرون إلى الحبشة عيشة طيبة ، فقد حمدوا جوار النجاشي ، وعبدوا الله لا يخافون على ذلك أحدًا .

وكانت أمة تنظر بعينيها الصغيرتين إلى أبيها اللذين هاجرا إلى هذه الأرض فرارًا من الجاهلية ، وقد تركا وراءهما كل وشائج القربى ، وعملا على مرضاة الله ورسوله ليفوزوا بنعيمٍ مقيمٍ عند مليكٍ مقتدر .

وكان خالد وزوجته أمينة يرويان لابنتها أمة نبأ إسلامهما ، وكانت أمة تُصغي إلى حديث والديها العذب ، الذى يداعب أوتار قلبها الصغير ، الذى بات يخفق بمحبة الله ورسوله ، ومحبة الإسلام .

وذات عشية دخل خالد بن سعيد منزله فألقى صغيرته أمة تنتظره كيما يروي لها قصة إسلامه .

وفي دفء الحنان وهمس الحب الأبوي راح خالد بن سعيد ﷺ يحكي لطفلة أمة قصة حلم رآه ، وعندها سارع إلى الإيمان بالله ورسوله عُقب ذلك .

قال خالد : يا بُنيةُ ، لما كُنْتُ في مكة بين أهلي وإخوتي وعشيرتي ، كانت أنسام الإسلام تهب على أسماعنا ، وتملاً الأجواء بعطر أريجها وطيبها ، وترطب القلوب بلينها ، وكنت أسمع وأرى ذلك ، وكنت لا أعطي بالألما يحدث .

وفي ليلة من الليالي ذهبت إلى النوم ، ولما استغرقتُ في نومي رأيت - يا بُنيةُ - كأنه وقف بي على حافة نار عظيمة ، وكان أبي سعيد بن العاص يدفعني نحوها ، وهو يريد أن يرميني في تلك النار المشتعلة ، وخفت يا بُنتي خوفاً عظيماً ، ورحت أصرخ وأصرخ بصوتٍ عالٍ ، وأصيح من شدة الخوف ، وإذا بمحمد رسول الله ﷺ يأتي فيمسكني من ثوبي ، ثم يبعدي عن النار ، وعن تلك الحفرة الرهيبة .

كانت أمة ابنة خالد بن سعيد تسمع هذا الحديث العذب بشوق عظيم ، ثم طلبت من والدها أن يكمل لها بقية الحكاية الحلوة ، فأجابها والدها : بكل الحب يا أمة اسمعي بقية القصة :

لما استيقظت في الصباح ظل الحلم ماثلاً أمامي ، ولم أعرف تفسيره ، فقلت : أذهب إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه ، فهو أعبُرُ الناس للرؤيا ، ويعرف تفسير الأحلام ، ثم إنني لبستُ ثيابي ، وتوجهت نحو بيته ، وطرقتُ بابه ، فخرج فسلمت عليه ، وحدثته بما رأيته في نومي ، فقال لي ﷺ باسمًا مستبشراً : يا خالد ، لقد أراد الله بك خيرًا ، والنجاة من النار ، وهذا رسول الله ﷺ قريب ، فاذهب واتبعه ، وإنك ستبعه على الإسلام الذي يبعثك عن النار ، وعن الوقوع فيها ، وإن أباك سعيدًا واقع فيها ، فانجُ يا خالد باتباع الإسلام .

قالت أمة : وهل ذهبت إلى النبي ﷺ؟ قال خالد : نعم يا بُنتي ، عند ذلك أسرعت إلى رسول الله ﷺ وشهدتُ عنده أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، وصرت من المؤمنين ، وأسلمت كذلك أمك ، وفتح الله ﷻ علينا بالإسلام فصرنا نرى النور والهدى من خلال هذا الدين ، وبذلك تحقق حلمي ، ونجاني الله برسول الله محمد ﷺ (١) .

وبأسلوب بريء لطيف قالت أمة لأبيها : لماذا لم يسلم أبوك ولم يؤمن برسول الله ﷺ؟ فقال خالد ، وقد اغرورقت عيناه بدموع الخشية من الله ﷻ : يا بنية ، إن جدك سعيد بن العاص كان من أكابر رجال قريش (٢) ، وكان مسموع الكلمة فيهم ، له قدر ومنزلة عندهم ، وكان يُعرف باسم «أبو أحيحة» ، وكان ذا عقل وفكر ، لكن الشيطان ملك عليه طريقه ، فغضب لإسلامي غضبًا شديدًا ، وضربني وشتمني ، وطلب مني أن أترك محمدًا ﷺ ، وأترك دينه الجديد الذي يخالف دين الآباء والأجداد ، ويسخر من الأصنام كبيرها وصغيرها من اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ، وهبل وغيرها ، ولكنني رفضت ذلك يا بنتي رفضًا شديدًا ، وثبت على دين الله ﷻ ، وعلى اتباع رسول الله ﷺ .

فقالت أمة : وهل تركك أبوك تبعًا لله؟

قال خالد : يا بنية ، لقد حذر أبي - إخوتي - أعمامك الثلاثة وهم : أبان ، وعمرو ، والحكم ، أن يكلموني أو يجالسوني ، وقال لهم : والله إن رأيتُ أحدًا

(١) طبقات ابن سعد (٤/٩٤) .

(٢) انظر هذا القول في : الإصابة (١٥/١) ترجمة (٢) .

منكم يكلم خالدًا ، لصنعت فيه كذا وكذا ، وحرمة الطعام .

ثم إن أبي منع عني الطعام ، وحرمني من الجلوس في البيت ، وقال لي : اذهب يا لئيم حيث شئت ، فوالله لا أطعمك الطعام ، ولكنني قلت له : يا أبي إن منعني القوت فإن الله ﷻ يرزقني ما أعيش به مع زوجتي المؤمنة^(١) .

كانت أمة بنت خالد تسمع ذلك وعيناها الصغيرتان تجوسان المكان ، واقتربت من أبيها وهمست في أذنه قائلة : متى كان إسلامك يا أبي ؟

وضم خالد ابنته إلى صدره وقال : كنت مع الأوائل الذين نعموا بالإيمان ، وأسلم معي عمك عمرو بن سعيد ، وها هو معنا في الحبشة ينعم بجوار النجاشي ، ولكن عمك أبان بن سعيد قد تأخر إسلامه إلى الآن ، وقال لي ولأخي عمرو يعاتبنا على إسلامنا عتابًا شديدًا :

ألا ليت ميتًا بالظرية شاهد لما يفترى في الدين عمرو وخالد
أطاعا بنا أمرالناء فأصبحا يعينان من أعدائنا من نُكايُدُ

وعندها أجابه عمك عمرو بأدب الإسلام ، وبالأخلاق النبوية التي تعلمها من رسول الله ﷺ ثم نصحه فقال له :

أخي ما أخى لا شاتم أنا عرضه ولا هو عن سوء المقالة مُقصرُ
يقول إذا شكت عليه أموره ألا ليت ميتًا بالظرية ينشرُ
فدع عنك ميتًا قد مضى لسبيله وأقبل على الحي الذي هو أقفرُ

ثم إن أمة سألت أباها عن مصير جدها أبي أحيجة فقالت : يا أبي ، ما أخبار

(١) عن السيرة الحلبية (١/ ٤٥٤) ، بشيء من التصرف .

جدي ، وهل هداه الله إلى الإسلام أم ظل على كفره ؟

فقال خالد وعلامات الحب الأبوي تنبعث من وجهه : يا بنية ، إن جدك

ظل على كفره وكبره ، وقد قال لعمك عمرو لما أسلم :

ألا ليت شعري عنك يا عمرو سائلاً إذا شب واشتدت يداه وسُلحها

أترك أمر القوم فيه بلا بل تكشف غيظاً كان في الصدور موجعا

وعلى الرغم من أن جدك كان في الذروة العليا من قريش ومن المعدودين

فيهم ؛ إلا أنه لم يُسلم ، وظلت أطياف الجاهلية تلعب به ذات اليمين وذات

الشمال ، وكان إذا لبس عمامته لم يعتم قرشي احتراماً له ، وفي هذا قال أحد

الشعراء :

أبو أحيحة من يعتم عمته يُضرب وإن كان ذا مالٍ وذا عدد

وكان جدك أبو أحيحة يظن أن الناس ستحترم مكانته ، ويستطيع أن يصد

عن سبيل الله ، ولكن الذين لامست أنوار اليقين قلوبهم أعرضوا عنه ، وعن

عمامته التي قال فيها أحد الشعراء أيضاً :

وكان أبو أحيحة قد علمتم بمكة غير مُهتضم ذميم

إذا شد العصابة ذات يوم وقام إلى المجالس والخصوم

لقد حُرمت على من كان يمشي بمكة غير محتقرٍ لئيم

ومات جدك كافرًا ، وكان الحلم الذي رأيته في المنام حقًا ، فقد نجوت أنا

بالإسلام وباتباع النبي الأمي محمد ﷺ .

قالت أمة : الحمد لله يا أبي على نعمة الإيمان .

أمة في المدينة ودعوة نبوية مباركة :

أقام المهاجرون المكيون في أرض الحبشة بضع عشرة سنة ، عاشت أمة منها هناك بضع سنين ، وحانت عودة المهاجرين إلى المدينة حينما بعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي ، فحملهم في سفينتين وعند وداعهم حمل النجاشي المهاجرين السلام إلى رسول الله ﷺ ، وسمعت أمة وهو يوصيهم بنقل السلام ، ووعى عقلها الصغير وذاكرتها اللطيفة كلمات النجاشي الندية .

وصادف المهاجرون رسول الله ﷺ في خير ، وقد فرغ من فتحها سنة سبع من الهجرة ، فأسهم لهم من الغنائم ، وعادوا أجمعين إلى المدينة المنورة تحت لواء القائد الرؤوف الرحيم محمد ﷺ .

وفي المدينة المنورة راحت بنات الصحابة اللاتي ولدن في الحبشة يحظين برعاية وعناية رسول الله ﷺ ، وكانت أمة بنت خالد ممن تألقن بين بنات الصحابة وحُذِنَ شرفاً عظيماً عند رسول الله ﷺ ، وفزن بصحبته الشريفة ، فكانت أمة من بنات الصحابة والصحابيات فأكرم بها من منزلة .

ومن الجدير بالذكر أن أمة عُرِفَت مكانتها بكنية لها وهي «أم خالد» حيث اشتهرت بهذه الكنية حينما ألبسها رسول الله ﷺ ثوباً جديداً ، فقد كان النبي الكريم يولي بنات الصحابة وأولادهم الصغار كل عناية وكل عطف ، وذلك تقديراً لأحد أبويهما أو لكليهما ، فقد كانت أمة ممن قدرها رسول الله ﷺ ، وقدر أبويها وعرف لهما سابقتهما ، وهجرتهما إلى الله ورسوله ، فكانت ابنتها أمة ممن حظيت بهدية نبوية ودعوة محمدية مباركة صاحبتهما إلى آخر نفس من حياتها .

فقد أخرج البخاري بسنده عن أم خالد بنت خالد قالت : أتى رسول الله ﷺ بثياب فيها خميصة سوداء فقال : «من ترون نكسو هذه الخميصة ؟» ، فأسكت القوم فقال : «أتتوني بأم خالد» .

فأتي بي إلى النبي ﷺ فألبسنيها بيده ، وقال : «أبلي وأخلقي» ^(١) ، مرتين ، ولهذا طال عمرها ، كما سنعرف فيما بعد إن شاء الله .

والعرب تطلّق ذلك وتريد الدعاء بطول البقاء للمخاطب بذلك ، أي أنها تطول حياتها حتى يبلى الثوب ويخلق .

وفي رواية أحمد في «مسنده» ، قالت أم خالد : فألبسنيها بيده وقال : «أبلي وأخلقي» ، يقولها مرتين أو ثلاثاً ، وجعل ينظر إلى علم في الخميصة أصفر ، أو أحمر فقال : «هذا سناه سناءه يا أم خالد» ^(٢) .

ويبدو أن أمة بنت خالد ﷺ قد فهمت معنى كلمة : «هذا سناه» ؛ لأنها تربت في الحبشة ، وتعلمت لسانهم ولأنها ولدت بأرضهم ونشأت تعرف لغتهم هي وأترابها .

ولعل أمة قد تذكرت في هاتيك اللحظات ، ما أودعه النجاشي في أعماق المهاجرين من تبليغهم السلام إلى رسول الله ﷺ فسلمت هي الأخرى عليه .

وذكر ابن حجر وغيره أن أمة بنت خالد قالت : سمعت النجاشي يقول لأصحاب السفيتين : أقرئوا رسول الله ﷺ مني السلام ، قالت أمة : فكنت

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٣٥٦/١٠) ، وفي اللباس (٢٥٦/١٠) ، باب الخميصة السوداء ، وابن سعد في الطبقات (٢٣٤/٨) .

(٢) المسند (٢٩٩/١٠) ، برقم (٢٧١٢٥) .

فيمن أقرأه السلام من النجاشي^(١) .

من مكارمها وذكرياتها :

لما شبت أمة بنت خالد رضي الله عنه عن الطوق وأصبحت في عداد النساء تزوجها فارس الإسلام ، ورأس الأسرة الزُّبيرية ، وذروتها الزُّبير بن العوام ، حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وابن عمته صفية ، فولدت للزبير : عمراً وخالدًا ، وبخالد ابنها هذا كانت تكنى ، وكان ابنها من خيار أبناء الصحابة ومن خيار التابعين ، وكانت هي من خيار بنات الصحابة وأزواج الصحابة .

ولعل أبرز مكارم أمة ابنة خالد رضي الله عنه أنها قد أتحفت السيرة النبوية بأخبار حسان ، كما غدت كتب الطبقات بعدد من الفصول المهمة عن آلهَا وذويها وأقربائها ، ولعل ذاكرتها ظلت تحتفظ بكثير من الأخبار التي حدثها بها أبوها في أرض الحبشة ، فروته لنا ليكون من الأنوار الساطعات في سيرتها وسيرة أبيها خالد بن سعيد رضي الله عنه ، بل وفي السيرة النبوية .

ومن الأخبار التي تحدثت فيها أمة بنت خالد عن أبيها أنها قالت : كان خالد بن سعيد ذات ليلة نائمًا قبل مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : رأيت كأنه غشيت مكة ظلمة حتى لا يبصر امرؤ كفه ، فبينما هو كذلك ، إذ خرج نور من زمزم ، ثم علا في السماء ، فأضاء في البيت ، ثم أصاب مكة كلها ، ثم تحول إلى يثرب ، فأصابها حتى إني لأنظر إلى البُسر في النخل ، فاستيقظت فقصصتها على أخي عمرو بن سعيد ، وكان جزل الرأي ، فقال : يا أخي إن هذا الأمر يكون في بني عبد المطلب ، ألا ترى أنه خرج من حفر أبيهم ؟ ثم إنه ذكر ذلك

(١) الإصابة (١٢/ ١٣١) ، ترجمة رقم (٨٢) ، طبقات ابن سعد (٨/ ٢٣٤) .

لرسول الله ﷺ بعد مبعثه فقال : «يا خالد ، أنا والله ذلك النور ، وأنا رسول الله» ، وقصّ عليه ما بعثه الله به فأسلم خالد ﷺ^(١) .

وتذكر أمة فضيلة رائعة وأولية جميلة مباركة لأبيها خالد بن سعيد فتقول :
أبي أول من كتب : بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا وذكرات أمة بنت خالد
ذكرات هامة لطيفة ، تعطي إضاءات واضحة للسيرة النبوية وللصحب
الكرام ، فمن ذكرات هجرتها إلى الحبشة تروي لنا هذه الخاطرة اللطيفة عن
أبيها فتقول :

كان أبي خامسًا في الإسلام ، وهاجر إلى أرض الحبشة ، وأقام بها بضع
عشرة سنة ، وولدت أنا بها^(٢) .

ومن ذكرات قاموس الهجرة الحبشية عند أمة بنت خالد هذه الفريدة
الحلوة التي تحكيها عن عمها عمرو بن سعيد ، وعن صحبته ، ومشاهده
ومغازيه واستشهاده فتقول : قدم علينا عمي عمرو بن سعيد أرض الحبشة بعد
مقدم أبي بستين ، فلم يزل هناك حتى مُهل في السفينتين مع أصحاب رسول الله
ﷺ فشهد عمرو مع النبي ﷺ الفتح ، وحنينًا ، والطائف ، وتبوك ، فلما خرج
المسلمون إلى الشام كان فيمن خرج فقتل يوم أجنادين شهيدًا^(٣) .

مع سلك المعمرات من بنات الصحابة :

لعل أمة بنت خالد إحدى بنات الصحابة اللواتي عمرن دهرًا طويلًا ،

(١) السيرة الحلبية (١/٤٥٤) .

(٢) تاريخ الإسلام للذهبي (ص ٩١) .

(٣) طبقات ابن سعد (٤/١٠١) .

عاشت دهرًا ، وكانت من المعمرات ، وذلك ببركة دعاء رسول الله ﷺ لها يوم ألبسها الخميصة ، بُعيد مقدمها من الحبشة ، ويومها قال لها ﷺ : «أبلي وأخلقني» ، والمقصود أن يطول عمرها حتى يبلى الثوب ويخلق .

ولقد استجاب الله ﷻ دعوة نبيه محمد ﷺ لابنة هذا الصحابي أم خالد ، فكانت من المعمرات السعيدات ؛ ولذلك قال البخاري رحمه الله تعالى تعليقًا على ما ورد في الحديث الشريف : لم تعش امرأة مثلها عاشت هذه (١) .

وقال ابن حجر ﷺ : عاشت أم خالد هذه دهرًا طويلًا حتى أدركها موسى بن عقبة .

وقال الذهبي ﷺ : عُمرت إلى قرب عام تسعين (٢) .

وقال الذهبي أيضًا عنها : وأظنها آخر الصحابيات وفاة ، بقيت إلى أيام سهل بن سعد ﷺ (٣) .

وإذا علمنا أن سهل بن سعد الساعدي الأنصاري هو آخر من مات من أصحاب النبي ﷺ ، وعاش مائة سنة ، ومات في سنة (٩١هـ) ، فإن أمة ابنة خالد قد عاشت إلى أيامه ، أي إلى سنة (٩١هـ) .

والظاهر أن وفاتها كانت في العقد الأخير من القرن الهجري الأول خير القرون .

(١) تهذيب التهذيب (١٢ / ٤٥٤) .

(٢) سير أعلام النبلاء (١ / ٢٦٠) .

(٣) سير أعلام النبلاء (٤ / ٤٧١) .

وأما عن مكان وفاتها فلم تشر المصادر إلى ذلك ، وأغلب الظن أن وفاتها كانت في المدينة المنورة ، والله أعلم .

رضي الله عن أمة بنت خالد ، وجعلها في جنات النعيم ، تنعم في ثياب خضر من سندس وإستبرق مع الذين أنعم عليهم ورضي عنهم ورضي الله عن أبيها وعن الصحابة أجمعين ، وحشرنا في معيهم ، إنه سميع عليم مجيب كريم .



الخنساء بنت عمرو رضي الله عنها

هي الخنساء بنت عمرو بن الشريد السلمية الشاعرة المشهورة .
أم الشهداء الأربعة .
تحتسب أولادها الأربعة في معركة القادسية .

الخنساء بنت عمرو

الشاعرة اللبية :

جمعت الخنساء بنت عمرو بن الشريد بن سليم السلمية الشاعرة المشهورة^(١) جمال الشعر وبيانه إلى جانب الفصاحة والخطابة والبلاغة ، واشتهرت في عصر النبوة بثبات الجنان ، والشجاعة في ميدان القتال ، ومنازلة الفرسان .

«هيه يا خناس» :

بهذه العبارة كان رسول الله ﷺ يستنشد «الخنساء» ، ويستزيدها من الشعر ، والعبارة فيها حض على الاستزادة من خلال كلمة : «هيه» ، وفيها تشجيع ورغبة من خلال كلمة «خناس» التي هي الترخيم لاسمها : «خنساء» تمامًا كما كان ﷺ يتودد إلى أم أيمن ، وأم المؤمنين عائشة ؓ ويتلطف ، فيناديها : «يا عائش» .

ورسول الله ﷺ لم يكن ليقول الشعر ، ولكنه كان يعجبه بحكم السليقة العربية التي درجت على التأثير بالراقي منه ، والصادق من غير إسفاف في الكلمة والمعنى .

حتى إنه ﷺ كان له من أصحابه ؓ شعراء فحول لم يمنعهم من قول الشعر ، خاصة وأنهم بعد الإسلام قد أخذوا أنفسهم بأسلوب جديد متميز ليس فيه

(١) أسد الغابة (ت ٦٨٨٣) ، والاستيعاب (ت ٣٣٦٣) ، والإصابة (ت ١١١١٣) ، وانظر الخنساء ، ليوسف الحمادي .

هوس الجاهلية ، ولا شطحاتها منهم «حسان بن ثابت رضي الله عنه» ، الذي وقف شعره بعد الإسلام على المنافحة عنه ، خاصة وأنهم بعد الإسلام قد أخذوا على أنفسهم تأييد الرسول ، وتأييد الحق ، والدفاع عنه ، وبلغ في ذلك شأواً بعيداً حتى حمل أرفع لقب وأسماء وهو «شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم» .

ويذكر أنه صلى الله عليه وسلم أراد أن يهجو «قريشاً» ، ويرد على افتراءات شعرائها على المسلمين بعد وقعة «بدر» فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : «كيف تهجوهم وأنا منهم؟» ، فقال : أسلك منهم كما تُسل الشعرة من العجينة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «قل وروح القدس يؤيدك» .

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف ويدرك ما للشعر من أثر في النفوس ، يهزها ويثيرها سلباً أو إيجاباً ، ويؤثر فيها ، فترك «لحسان» و«كعب بن مالك» ، و«عبد الله بن رواحة» ، يعطون ما عندهم ويقدمون في المعركة بين الحق سلاحاً فيه مضاء يصيب فلا يخطئ .

ومما يذكر أيضاً أن «عبد الله بن رواحة» رضي الله عنه ، أنشد الشعر بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم «عمرة القضاء» عند دخول «مكة» ، وكان مما قال «عبد الله ابن رواحة» :

اليوم نضربكم على تنزيله	خلوا بني الكفار عن سبيله
ويذهل الخليل عن خليله	ضرباً يزيل الهام عن مقيله
كما قتلناكم على تنزيله	نحن قتلناكم على تأويله
بأن خير القتل في سبيله	قد أنزل الرحمن في تنزيله

يا رب إني مؤمن بقبيله إني رأيت الحق في قبوله
فانتفض «عمر بن الخطاب رضي الله عنه»، وأراد أن يكف «ابن رواحة» عن الشعر
وقال له :

يا بن رواحة ، أئين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفي حرم الله تقول الشعر ؟ فأجابه
رسول الله صلى الله عليه وسلم :

«خلّ عنه يا عمر ، فإنها - أي أشعار ابن رواحة - أسرع في نكايتهم من
نضح النبل» .

أجمع أهل العلم بالشعر أنه لم يكن امرأة قبلها ولا بعدها أشعر منها .
وقيل لجرير : من أشعر الناس ؟ قال : أنا لولا الخنساء ، قيل : لم فضلتك ؟
قال : لقولها :

إن الزمان وما يغني له عجب أبقى لنا ذنبًا واستؤصل الراس
إن الجديدين في طول اختلافهما لا يفسدان ولكن يفسد الناس
من هي الخنساء ؟ هي : تماضر بنت عمرو بن الشريد بن عَصِيبة السلمية ،
صحابية جليلة ، وشاعرة مشهورة ، كانت لبيبة عاقلة ، وكان الناس يعلمون
قدرها ومكانتها ، ومهارتها في الشعر حتى أجمع أهل العلم بالشعر ، أنه لم تكن
هناك امرأة قبلها ولا بعدها أشعر منها .

ابنة سيد القوم :

ولدت الخنساء في قلب الصحراء ، ونشأت بين خيام قومها «بني سليم» ،
وكان أبوها من سادة بني سليم ، له مكانته بينهم وكلمته المسموعة فيهم ، وله

نسبه الذي يتصل بقبيلة قيس بن عيلان بن مضر ، واستقبلت دنياها في ظل هذا النسب الرفيع ، ولم تكن لفظة «الخنساء» اسمًا لها ، وإنما كان اسمها «تماضر» ، ولقبت بلقب «الخنساء» تشبيهاً لها بالظبية يتأخر أنفها قليلاً إلى الوراء فيزيد من جمالها ، وحسن منظرها .

وزاد من عزة الخنساء أنها نشأت بين أخوين من زينة الشباب في قبيلتها : شقيقها معاوية ، وأخيها لأبيها صخر ، فقد كان كل منهما فارساً مقداماً ، سخي اليد ، يُعتمد عليه في الحرب ، ويباهى به في السلم .

وقد أحببت الخنساء البادية ، وعشقت جوها ، وعيشتها وما فيها من جمال ، وقد تركت هذه النشأة أثرها الكبير في نفسها وحياتها ، نشأتها الصحراء على سلامة الجسم ، وصحة النفس ، وساعدتها وراثتها ومكانة أسرتها الصرامة وقوة الشخصية ، ورهافة الحس ، وشدة الإحساس بالعزة والكرامة ، وهيأت لها البيئة والدنيا المحيطة بها أن تتأمل وتتدبر ، وترسل الشعر جميلاً صادقاً فيما يستهوينا ويشدها إليه .

دريد بن الصمة يتقدم لخطبة «الخنساء» :

كبرت الخنساء وأصبحت شابة رائعة الجمال ، رفيعة الأخلاق فصيحة اللسان ، يتسابق الفتيان على خطبتها ، وتقدم إليها بعض السادة فكانت تردهم .

ومر يوماً دريد بن الصمة الجشمي البكري ، فارس قبيلة «هوازن» وسيد «بني جُشم» بخيام بني سليم فرأى الخنساء وهي تنأ بعيراً لها ، وقد تبذلت حتى فرغت منه ، ثم قامت تغسل ما أصابها من وسخ ، ودريد بن الصمة

يراها وهي لا تشعر به فأعجبته ، فانصرف إلى رحلها وأنشأ يقول :

حيوا تماضر واربعوا صحبي وقفوا فإن وقوفكم حسبي
ما إن رأيت ولا سمعت به كالיום طالي أينق جرب
متبذلاً تبدو محاسنه يضع الهناء مواضع النقب
أحناس قد هام الفؤاد بكم واعتاده داء من الحب

فلما أصبح دريد غدا على أبيها فخطبها إليه ، فقال له أبوها : مرحباً بك أبا قرة ، إنك الكريم لا يطعن في حسبه ، والسيد لا يرد عن حاجته ، والفحل لا يقرع أنفه ، ولكن لهذه المرأة في نفسها ما ليس لغيرها ، وأنا ذاكرك لها ، وهي فاعلة ثم دخل عليها ، وقال لها : يا خنساء ، أتاك فارس هوازن ، وسيد بني جشم دريد بن الصمة يخطبك ، وهو من تعلمين ودريد يسمع قولهما ، فقالت : يا أبت أتراني تاركة بني عمي مثل عوالي الرماح ، وناكحة شيخ بني جشم هامة اليوم أو غدا ، فخرج إليه أبوها وقال : يا أبا قرة ، قد امتنعت ، ولعلها أن تجيب فيما بعد .

قال : قد سمعت قولكما وانصرف .

وقال في ذلك أبياتاً منها :

وقاك الله يا ابنة آل عمرو من الفتيان أمثالي ونفسي
وقالت إنه شيخ كبير وهل خبرتها أي ابن أمسي
وأني لا أبيت بغير نحر وأبدأ بالأرامل حين أمسي
وأني لا يهر الكلب ضيفي ولا جاري بيت خبيث نفسي

فأجابته الخنساء بأبيات فقالت :

أُتْكَرْهَنِي هُبَيْلَتٌ عَلَى دَرِيدٍ وَقَدْ أَحْرَمْتَ سَيْدَ آلِ بَدْرِ
مَعَاذَ اللَّهِ يَنْكَحْنِي حَبْرَ كَسَى قَصِيرَ الشُّبْرِ مِنْ جِشْمِ بْنِ بَكْرِ
وَلَوْ أَصْبَحَتْ فِي جِشْمِ هَدِيَا إِذَا أَصْبَحَتْ فِي دَنْسٍ وَفَقْرٍ^(١)

ثم تزوجت «الخنساء» من أحد أبناء أعمامها وهو «رواحة بن عبد العزيز السلمي» ، فأنجبت منه ابنها «أبا شجر» .

ثم انفصلت عنه وتزوجت بعد ذلك من ابن عم آخر وهو «مرداس بن أبي عامر» فأحبته ، ونعمت بالحياة معه ، وولدت له أبناء منهم : العباس ، ويزيد ، وعمر ، وسراقة ، وعمرو ، وبتناً هي عمرة ، ثم توفي عنها زوجها فأثرت أن تعيش لأولادها في ظل أخويها معاوية وصخر .

حزنها على موت أخيها :

كانت الخنساء تقول البيتين أو الثلاثة حتى قتل أخوها شقيقها معاوية بن عمرو ، وقتل أخوها لأبيها صخر ، وكان أحبها إليها ؛ لأنه كان حليماً جواداً محبوباً في العشيرة ، كان غزا بني أسد فطعنه أبو ثور الأسدي طعنة مرض منها حولاً ، ثم مات ، فلما قُتل أخوها صخر قالت ترثيه :

أَعَيْنِي جُودًا وَلَا تَجْمُدَا أَلَا تَبْكِيَانِ لِصَخْرِ النَّدَى
أَلَا تَبْكِيَانِ الْجَرِيءِ الْجَمِيلِ أَلَا تَبْكِيَانِ الْفَتَى السَّيِّدَا
طَوِيلِ النَّجَادِ عَظِيمِ الرَّمَادِ سَادِ عَشِيرَتِهِ أَمْرَدَا

(١) انظر : الإصابة (٨/ ١٠٩ ، ١١٠) ، وأعلام النساء (١/ ٣٦٣) .

ومن قولها فيه أيضًا :

وإن صخرًا مولانا وسيدنا
أشم أبلج تَأْتُم الهداة به
وإن صخرًا إذا نشتو لمنحار
كأنه علم في رأسه نارٌ
وقالت أيضًا :

ألا يا صخر لا أنساك حتى
يذكرني طلوع الشمس صخرًا
ولولا كثرة الباكين حولي
شمس الإسلام تشرق في قلبها :
أفارق مهجتي ويشق رمسي
وأبكيه لكل غروب شمس
على إخوانهم لقتلت نفسي^(١)

وطوت الخنساء سنين ، وهي عاكفة على ذكريات الماضي ، وفي خلال هذه الفترة كانت بعثة الرسول ﷺ ، وصراع الإسلام والكفر في مكة ، ثم الهجرة إلى المدينة ، وما تبع ذلك من الغزوات أسفرت عن فتح مكة في العام الثامن من الهجرة .

وبعد هذا الفتح أخذ نور الإسلام ينتشر سريعًا في الجزيرة العربية ، ينبعث من المدينة المنورة ، ويمضي شرقًا وغربًا وشمالًا وجنوبًا ، فيوقظ العيون من نومها ، ويفتحها على أكبر حدث شهده العرب على مدى تاريخهم وهو : ظهور الإسلام في جزيرتهم ، واختيار الله لنبي هذا الدين الجديد منهم .

ولما انهزمت قريش أمام هذا الدين الجديد ، وارتفعت راية الإسلام في مكة بعد المدينة ، وأخذ نوره يطارد ظلام الكفر فأسرعت وفود القبائل تباع النبي

(١) الإصابة للحافظ ابن حجر (٨/١١٢) .

ﷺ بالدين الجديد .

وأتى وفد بني «سليم» ومن بينهم شاعرة الوجد وخطيبته «الخنساء» ﷺ ، فأسلمت بين يدي النبي ﷺ ، وكان النبي ﷺ يستنشدنا ويعجبه شعرها ، وكانت تنشده وهو يقول : «هيه يا خناس» ، ويومئ بيده .

وآمنت الخنساء ودخلت في الإسلام فكانت صادقة مع نفسها لم يخالجهما شك في أن عبادة الأصنام باطلة ، وأن الإله الحق هو الله سبحانه وتعالى ، وأن رسوله هو محمد ﷺ ، ولكن ظل الحزن يخيم عليها لما لاقته من فقد أهلها وأعز الناس عليها .

لقاء بين عائشة والخنساء ﷺ :

دخلت على عائشة وعليها صدر من شعر فقالت لها : يا خنساء ، هذا نهى رسول الله ﷺ عنه ، فقالت : ما علمت ولكن هذا له قصة ، زوجني أبي رجلاً مبذراً ، فأذهب ماله ، فأتيت إلى صخر فقسم ماله شطرين ، فأعطاني شطراً خياراً ، ثم فعل زوجي ذلك مرة أخرى ، فقسم أخي ماله شطرين ، فأعطاني خيرهما ، فقالت له امرأته : أما ترضى أن تعطيهما النصف حتى تعطيهما الخيار ، فقال :

والله لا أمنحها شرارها وهي حصانٌ وقد كفتني عارها
ولو هلكتُ خرقتُ خمارها واتخذت من شعر صدارها^(١)

(١) راجع الإصابة (٨/ ١١٢) ، وأعلام النساء (١/ ٣٦٦) .

ورآها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب تطوف بالكعبة ، وهي في هذا المنظر الحزين ، فعز عليه أن تجمع بين حج بيت الله الحرام ، والتشبث بعبادات الجاهلية ، فبين لها أن ذلك بعيد عن الإسلام ، وأن الذين تبكيهم من أهل النار .

فقال : ذلك أدعى لحزني عليهم ، كنت أبكي لهم من الثأر ، واليوم أبكي لهم من النار .

صبر واحتساب في يوم القادسية :

كانت طبيعة الخنساء رضي الله عنها أشبه بطبائع الفرسان ، كانت جريئة صريحة شجاعة ، وكانت ولوعًا بالمغالبة ، والصراع حريصة كل الحرص على الغلبة ، والانتصار ، وقد اقتبس أبنائها منها روح الفارسة الشجاعة .

وتقدم السن بالخنساء ، وهي ترى الدنيا من حولها تكبر وتهلل فرحًا بأخبار انتصارات الجيوش الإسلامية خارج الجزيرة العربية ، وقد زحفت الجيوش على أعظم دولتين في ذلك الزمان هما : الفرس ، والروم ، وسجلت في زحفها انتصارات ساحقة ، أشبه بالمعجزات التي يتحدث عنها الناس في الأساطير .

وصممت الخنساء الشيخة العجوز أن تشارك هي وأولادها في هذه الحرب . وخرجت الخنساء العجوز ومعها أربعة من أولادها إلى الجهاد في أرض فارس ، وكانت يومئذٍ معركة «القادسية» .

ولما تعثرت المفاوضات ، واستعرت نار الحرب جمعت المرأة العجوز أبنائها الأربعة ، توصيهم الوصية الأخيرة ، فقالت لهم من أول الليل : «يا بني ، إنكم أسلمتم طائعين ، وهاجرتم مختارين ، والله الذي لا إله إلا هو ، إنكم لبنو

رجل واحد ، كما أنكم بنو امرأة واحدة ، ما خنت أباكم ، ولا فضحت خالكم ، ولا هجنت حسبكم ، ولا غيرت نسبكم ، وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب الجزيل في حرب الكافرين ، واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية ، يقول الله تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠] ، فإن أصبحتم غداً إن شاء الله سالمين ، فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين ، وبالله على أعدائكم مستنصرين ، فإذا رأيتم الحرب قد شممت عن ساقها ، واضطربت لظى على سياقها ، وحللت نارها على أرواقها فيمموها وطيسها وجالدوا رئيسها عند احتدام خميسها ، تظفروا بالغنم والكرامة في دار الخلد والمقامة ، وليس لي ولا لأحد من خلق الله تعالى - بعد مقولة «الخنساء» كلمة ، فكلما أبلغ من أن نعقب عليها ، وأشمل من أن نستزيد ، أو نتزيد .

وأصبح الصباح والتقى الأبناء الأربعة ، قبل أن يأخذ كل واحد منهم مكانه في المعركة ، يتذكرون وصية أمهم .

فأنشد أولهم يقول :

يا إخوتي إن العجوز الناصحه قد نصحتنا إذ دعتنا البارحه
بمقالة ذات بيان واضحه فباكروا الحرب الضروس الكالحه
وإنما تلقون عند الصائحه من آل ساسان الفرس الكلاب النابحه
قد أيقنوا منكم بوقع بجائحه أو ميتة تورث غنمًا رابحه
وتقدم فقاتل حتى قتل بِسْمِ اللَّهِ .

ثم حمل الثاني وهو يقول :

والنظر الأوفق والرأي السدد
نصيحة منها وبراً بالولد
إما بفوز بارد على الكبد
في جنة الفردوس والعيش الرغد

إن العجوز ذات حزم وجَلَدٍ
قد أمرتنا بالسداد والرشد
فباكروا الحرب حُمأةً في العدد
أو ميتة تورثكم عز الأبد
فقاتل حتى استشهد ﷺ .

ثم حمل الثالث وهو يقول :

قد أمرتنا حدبًا وعظفا
فبادروا الحرب الضروس زحفا
أو يكشفوكم عن حماكم كشفا
والقتل فيكم نجدةً وزُلْفَى

والله لا نعصي العجوز حرفا
نصحًا وبرًا صادقًا ولطفًا
حتى تُلْفُوا آل كسرى لفا
إننا نرى التقصير عنكم ضعفا
ثم قاتل حتى استشهد ﷺ .

ثم حمل الرابع وهو يقول :

ولا لعمر وذي السناء الأقدم
ماضٍ على الهول خضم خضم
أو لوفاة في السبيل الأكرم

لست لخنساء ولا للأخرم
إن لم أرد في الجيش الأعجم
إما لفوز عاجل ومغنم
فقاتل حتى استشهد ﷺ .

وبدأت المعركة ، ودارت الدائرة على أهل الكفر ، ودوى الهتاف بالنصر
لأهل الإيمان ، وارتفعت أصوات الحمد والتكبير .

ولكن أين الفرسان الأربعة ؟ إنهم أحياء عند ربهم يرزقون .

وتسأل العجوز عن بنيتها ، فبلغها الخبر بقتلهم في سبيل الله ، فقالت في صبر وثبات واحتساب :

« الحمد لله الذي شرفني بقتلهم ، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته »^(١) .

عطاء عمر بن الخطاب لها :

وعادت الخنساء رضي الله عنها من القادسية إلى المدينة ، فلقيها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، فوجدها صابرة محتسبة ، فأمر للخنساء بإعطائها أرزاق أولادها الأربعة ، حتى قبضت رضي الله عنها .^(٢)

فيا أمهات اليوم ، ويا سيدات الإسلام ، إليكن هذا المثل العظيم ، لعله يردكن إلى حقيقة دوركن في الحياة ومسؤوليتكن في بناء الأسرة المسلمة حقاً ، والأمة كذلك .

هؤلاء النساء هن اللاتي تربيّن الرجال ، وتدفعنهم إلى المجد والعمل الصالح الباقي ، ويقودن المعارك خلف الرجال ، ويكن معهم بالنصح والتوجيه والمساندة ، التي يحتاجها الجنود في المعارك الفاصلة ، غير هيابة ولا وجله .

وهكذا كانت الخنساء التي صاغها الإسلام أعظم صياغة لتكون مثالا للأُم

(١) الإصابة (١١١/٨) ، وأسد الغابة (٢٦٨/٥) ، والاستيعاب (٤/١٨٢٧-١٨٢٩) ،
وأعلام النساء (٣٦٨/١) ، والأعلام (٨٦/٢) .

(٢) الاستيعاب (٤/١٨٢٩-١٨٢٧) ، والإصابة (٧/٦١٤-٦١٦) .

الصابرة المجاهدة المحتسبة .

وفاتها :

توفيت الخنساء بالبادية في أول خلافة عثمان سنة (٢٤هـ)^(١) .

فرضي الله عن الصحابية الجليلة ، الشاعرة الشهيرة ، المجاهدة الصابرة ،
الراضية بقضاء الله ، وجعل مثواها الفردوس الأعلى .



(١) الأعلام (٢/٨٦) ، وأعلام النساء (١/٣٧١) .

أم الدحداح الأنصارية

قال رسول الله ﷺ :

«كم من عذق رداح في الجنة لأبي الدحداح» .

أم الدحداح الأنصارية

حلاوة الإيمان :

سرى الفرح إلى قلوب الأنصار بقرب حلول رسول الله ﷺ في المدينة ، فها هو النبي الكريم ﷺ على مقربة من المدينة قاب قوسين أو أدنى ، ونادى منادٍ : أن قد وصل رسول الله ﷺ المدينة ، فخرج الرجال والنساء لاستقباله جميعًا ، وهم مستبشرون بقدومه .

وقد وصفت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قدوم رسول الله ﷺ المدينة المنورة

فقالته : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة جعل النساء والصبيان والولائد يقلن :

طلعت البدر علينا	من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا	مادعاه الله داع
أيها المبعوث فينا	جئت بالأمر المطاع
جئت شرفت المدينة	مرحبًا يا خير داع ^(١)

وما أجمل ما قاله الإمام السبكي رحمته الله :

نزلت على قوم بأيمن طائر	لأنك ميمون السنن والنقيب
فيا لبني النجار من شرف به	يجرون أذيال المعالي الشريفة

من هذا الحي المضياف تأتي هذه الصباحية الجليلة ، من نساء الأنصار سجلت موقفًا رائعًا في الإيثار والكرم ، يتألق روعة ويجعلها في مقدمة النسوة

(١) عن السيرة الحلبية (٢٣٤، ٢٣٥) .

اللاتي تذوقن حلاوة الإيمان من أول يوم سطع فيه نور الإسلام في المدينة المنورة .

إنها الصحابية الكريمة أم الدحداح الأنصارية (١) .

أينا يعرف هذه الصحابية ؟

وأينا سمع بها من قبل ؟

أعتقد أن سيرتها تخفى على كثير من الناس ، إن لم نقل : جميعهم .

إنها واحدة من صحابيات رسول الله ﷺ اللاتي لهن دور جليل في تاريخ الإسلام ، ولكنها لم تحظ بالشهرة الكبيرة ، ولم تنل ما تستحقه من اهتمام الكُتَّاب والباحثين ، فهي واحدة ممن آثرن نعيم الآخرة المقيم على متاع الدنيا ، ورغبن في مرضاة الله ﷻ ومرضاة رسول الله ﷺ .

فتعال - أخي الحبيب - نتعرف على أخبار هذه الصحابية التي صاغها الإسلام ، ونشأت في مدرسة النبوة الشريفة .

أم الدحداح وركب السعداء :

منذ أن قدم مصعب بن عمير ؓ المدينة سفيراً لرسول الله ﷺ ، أخذ يفقه أهلها ويعرفهم بالإسلام ، فبدؤوا يدخلون في دين الله أفواجا ، وأخذ مصعب ؓ يعد المدينة المنورة ليوم الهجرة العظيم ، وهبت رياحُ الإيمان تغمر المدينة بأريجها المعطار .

وكان ممن نال شرف الدخول في الإسلام - يُسجل في قائمة الخالدين - أسرة تسكن في إحدى نواحي المدينة المنورة ، ولم تكن هذه الأسرة سوى أسرة

(١) أسد الغابة (٥/٥٨٠) ، والإصابة (٤/٤٢٩) .

أم الدحداح الأنصارية ، التي أسلم جميع أفرادها ومشوا في ركب السعداء .
 وقبل أن نعرض سيرة الصحابية أم الدحداح ، لابد أن نتعرف على بطاقة
 زوجها ، فهو الصحابي الكريم أبو الدحداح ثابت بن الدحداح - أو
 الدحداحة - بن نعيم بن إياس حليف بني عمرو بن عوف من الأنصار^(١) ،
 وأحد فرسان مدرسة النبوة ، وأحد التلامذة النجباء ، والأتباع الأبرار الذين
 اقتدوا بالنبي ﷺ ، وساروا على نهجه ، وبذلوا في سبيل الله نفوسهم
 وأرواحهم وأموالهم ، حتى نالوا رضوان الله ﷻ .

ربح بيعك :

منذ أن بايع الأنصار رسول الله ﷺ عكفوا على قراءة القرآن الكريم ،
 يعمرون بها قلوبهم فهماً ، ويستجيبون لما تدعو إليه عملاً ، وهم في غبطة بما
 تفيئه آياته الكريمة من سعادة في الدارين .

وكان أبو الدحداح وزوجه أم الدحداح ممن أشرفت نفوسهما بنور القرآن
 الكريم ، وكان لأبي الدحداح أرض وفيرة في مائها ، غنية في ثمرها ، وكانت أم
 الدحداح ﷺ معواناً لزوجها في أعمال الخير ، فعندما نزل قول الله ﷻ :
 ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يقرضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ [البقرة: ٢٤٥] ، بادر أبو الدحداح إلى
 التصدق بهاله ابتغاء ثواب الله ﷻ ، ومن ورائه زوجه تحضه على ذلك طمعاً بما
 وعد الله به عباده المؤمنين .

(١) الاستيعاب (١/١٩٧) ، والإصابة (١/١٩٣) .

ذكر الإمام القُرطبي رحمته الله في تفسيره الجامع، عن زيد بن أسلم رحمته الله (١) قال:

لما نزلت: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ ، قال أبو الدحداح: فذاك أبي

وأمي يا رسول الله ، إن الله يستقرضنا ، وهو غني عن القرض ؟

قال : «نعم ، يريد أن يدخلكم الجنة به» .

قال : فإني إن أقرضت ربي قرضًا يضمن لي به ، ولصبيتي الدحداحة معي

الجنة ؟

قال رحمته الله : «نعم» .

قال : فناولني يدك .

فناوله رسول الله رحمته الله يده فقال : إن لي حديقتين إحداهما بالسافلة ،

والأخرى بالعالية ، والله لا أملك غيرهما قد جعلتها قرضًا لله تعالى .

فقال رسول الله رحمته الله : «اجعل إحداهما لله ، والأخرى دعها معيشة لك

ولعيالك» .

قال : فأشهدك يا رسول الله ، أني جعلت خيرهما لله تعالى وهو حائط فيه

ستائة نخلة .

قال : «إذا مجزيك الله به الجنة» .

فانطلق أبو الدحداح حتى جاء أم الدحداح ، وهي مع صبياتها في الحديقة

تدور تحت النخل ، فأنشأ يقول :

(١) عن العبر (١/١٤١) ، وشذرات الذهب (٢/١٥٩) .

هداك ربي سُبُل الرشاد
بنى من الحائط بالوداد
أقرضته الله على اعتماذي
إلا رجاء الضَّعْف في المعاد
والبر لا شك فخير زاد
إلى سبيل الخير والسداد
فقد مضى قرصًا إلى التناد
بالطوع لا من ولا ارتداد
فارتحلي بالنفس والأولاد
قدمه المرء إلى المعاد

قالت أم الدحداح : ربح بيعك ، بارك الله لك فيما اشتريت .

ثم أجابته أم الدحداح ، وأنشأت تقول :

بشرك الله بخير وفرح
قد متع الله عيالي ومنح
والعبد يسعى وله ما قد كدح
مثلك أدى ما لديه ونصح
بالعجوة السوداء والزهو البلح
طول الليالي وعليه ما اجترح

ثم أقبلت أم الدحداح على صبيانها تُخرج ما في أفواههم ، وتنفض ما في أكمامهم ، حتى أفضت إلى الحائط الآخر .

فقال النبي الكريم ﷺ : «كم من عذق رداح في الجنة لأبي الدحداح»^(١) .

﴿وَيُؤْتِرُونَكَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ :

الصدقة من أفضل المكرمات والقربات ، وهي أفضل من الجهاد ، لاسيما إذا كان زمن مجاعة على المحاويج ، وقد سطر السلف الصالح رضوان الله عليهم صفحات خالدة من الإيثار والحب والخير ، سجلها لهم التاريخ ووعتها ذاكرة الأجيال على مر العصور والأزمان .

(١) تفسير القرطبي (٣/٢٣٨، ٢٣٩)، وتفسير ابن كثير (١/٢٩٩)، وتفسير الخازن

(١/٢٥٢)، والاستيعاب (٤/٦١)، وصفة الصفة (١/٦١٧، ٦١٨) .

وهذه بعض أزاهير الإيثار ، وثمار الجود والسخاء التي أزهرت في ظلال الإسلام ، وأينعت في روضة تعاليمه السمحة ، ومبادئه السامية .

أبو طلحة والبيرحاء :

هذا أبو طلحة رضي الله عنه وكان أكثر الأنصار مالا ، وكان أحب ماله إليه بيرحاء ، وكانت مستقبلة المسجد ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب ، قال أنس : فلما نزلت : ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢] ، قال أبو طلحة : يا رسول الله ، إن الله يقول : ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ ، اللهم إن أحب أموالي إليَّ بيرحاء ، وإنها صدقة لله ، أرجو برها وذخرها عند الله ، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : «بخ مال رابع ، ذلك مال رابع ، وقد سمعت ما قلت ، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين» ، فقال أبو طلحة : أفعل يا رسول الله ، قال : فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه ^(١) .

ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم :

عن عبد الرحمن بن خباب قال : شهدت النبي صلى الله عليه وسلم وهو يحث على جيش العسرة ، فقام عثمان بن عفان فقال : يا رسول الله ، عليّ مائة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله ، ثم حَضَّ على الجيش ، فقام عثمان بن عفان فقال : يا رسول الله ، عليّ مائتا بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله ، فأنا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ينزل على المنبر وهو يقول : «ما على عثمان ما عمل بعد هذه ، ما على عثمان

(١) رواه البخاري (٤٥٥٤) ، ومسلم (٩٩٨) (٤٢) .

ما عمل بعد هذه»^(١) .

الغلام والكلب :

خرج «عبد الله بن جعفر» إلى ضيعة له ، فنزل على نخل قوم وفيها غلام أسود يقوم عليها ، فأُتي بثلاثة أقراص ، فدخل كلب فدنا منه ، فرمى إليه بقرص فأكله ، ثم رمى إليه بالثاني والثالث فأكلهما ، و«عبد الله ينظر إليه» .

فقال : يا غلام ، كم قُوْتُك كل يوم ؟

قال : ما رأيت .

قال : فلم آثرت الكلب ؟

قال : لأن أرضنا ما هي بأرض كلابٍ وإخاله جاء من مسافةٍ بعيدةٍ جائعًا ، فكرهت رده .

قال : فما كنت صانعًا اليوم ؟

قال : أطوي يومي هذا .

فقال عبد الله بن جعفر :

ألأم على السخاء ، والله إن هذا لأسخى مني .

فاشترى النخل وما فيه ، أما العبد فأعتقه ووهب له ذلك^(٢) .

(١) رواه أحمد (١٦٢٥٥) ، والترمذي (٣٧٠٠) .

(٢) ثمرات الأوراق (٣١٦) ، والمستجد (١١) ، والمستطرف (١٧٤) .

حجاب الكريم :

قال الأصمعي :

قصدت في بعض الأيام رجلاً كنت أغشاه لكرمه ، فوجدت على بابه بواباً
فمنعني من الدخول إليه ، ثم قال :

والله يا أصمعي ما أوقفني على بابه لأمنع مثلك إلا لرقه حاله ، وقصور يده .
فكتبت رقعة فيها :

إذا كان الكريم له حجاب فما فضل الكريم على اللئيم
ثم قلت له : أوصل رقعتي إليه .

ف فعل ، وعاد بالرقعة وقد وقع على ظهرها :

إذا كان الكريم قليل مالٍ تحجب بالحجاب عن الغريم
ومع الرقعة صرة فيها خمسمائة دينار .

فقلت : والله لأتحفن «المأمون» بهذا الخبر ، فلما رأني قال :

من أين يا أصمعي ؟

قلت : من عند رجل من أكرم الأحياء حاشا أمير المؤمنين .

قال : ومن هو ؟

فدفعت إليه الورقة والصرة ، وأعدت عليه الخبر ، فلما رأى الصرة قال :

هذا من بيت مالي ، ولا بد لي من الرجل .

فقلت : والله يا أمير المؤمنين ، إني لأستحي أن أروعه برسلك .

فقال لبعض خاصته :

امض مع الأصمعي فإذا أراك الرجل قل له : أجب أمير المؤمنين من غير إزعاج .

قال : فلما حضر الرجل بين يدي المأمون قال له :

أما أنت الذي وقفت لنا بالأمس ، وشكوت رقة الحال ، وأن الزمان قد أناخ عليك بكلكله ، فدفعنا إليك هذه الصرة لتصلح بها حالك ، فقصدك الأصمعي بيت واحد فدفعتها إليه .

قال : نعم يا أمير المؤمنين ، والله ما كذبت فيما شكوت لأمير المؤمنين من رقة الحال ، ولكن استحييت من الله تعالى أن أعيد قاصدي إلا كما أعادني أمير المؤمنين .

قال له المأمون :

لله أنت فما ولدت العرب أكرم منك .

ثم بالغ في إكرامه ، وجعله من جملة ندمائه ^(١) .

الحجّام والفقير :

لما رجع الرشيد من الحج ، كان قد نذر أن يتصدق بألف دينار على أحق من يجده ، فدفع يوماً ألف دينار إلى بعض ثقاته ، وأمره أن يطلب فقيراً مستحقاً فيعطيه .

فأخذ يطوف في الأسواق فإذا رأى فقيراً مستحقاً للإعطاء قال : لعلي أجد

(١) ثمرات الأوراق (٢٦٨، ٢٦٩) ، والمستجد (١٥٣، ١٥٤) .

أفقر من هذا .

فانتهى بالعشي إلى عريان مخلوق الرأس في خربة ، فقال في نفسه : لا أجد أفقر من هذا .

فقال : يا فتى ، خُذ هذا المال واستغن به .

فقال : لا حاجة لي فيه .

قال : أحب أن تأخذه .

قال : إن كان ولا بد ، فثمَّ حجام حلق رأسي ، ولم يكن معي شيء فادفعه إليه .

قال : فقصدت الحجام ، فامتنع عن أخذه ، فقلت : هو ألف دينار .

قال : ما حلقت رأسه إلا للثواب فلا آخذ عليه أجرًا .

قال : فعدتُ ، وما وجدت أكرم منهما وأهون مني ^(١) .

أغرب من الخيال :

وقصة عجيبة وكائنة غريبة ، حدثت في بلدة تسمى «الحمرة» ، وذلك أنه كان فيها رجل من الزرعة ، وكان صاحب دين وصدقة ، وقد بنى هذا الرجل مسجدًا يصلي فيه ، وجعل يأتي ذلك المسجد كل ليلة بالسراج وبعشائه ، فإن وجد في المسجد من يتصدق عليه أعطاه ذلك العشاء ، وإلا أكله وصلى صلاته ، واستمر على ذلك الحال ، ثم إنها اتفقت شدة ونضب ماء الآبار ، وكانت له بئر فلما قل ماؤها أخذ يحتفرها هو وأولاده ، فخربت تلك البئر ،

(١) محاضرات الأدباء (١/٥٣٠) .

والرجل في أسفلها خراباً عظيماً ، حتى إنه سقط وما حولها من الأرض ، فأيس منه أولاده ، ولم يحفروا له وقالوا : قد صار هذا قبره ، وكان ذلك الرجل عند الخراب للبئر في كهف فيها ، فوقعت إلى بابه خشبة منعت الحجارة من أن تصيبه ، فأقام في ظلمة عظيمة ، ثم إنه بعد ذلك جاءه السراج الذي كان يحمله إلى المسجد ، وذلك الطعام الذي كان يحمله كل ليلة ، وكان يفرق ما بين الليل والنهار ، واستمر له ذلك مدة ست سنين ، والرجل مقيم في ذلك المكان على تلك الحال ، ثم إنه بدا لأولاده أن يحفروا البئر لإعادة عمارتها ، فحفروها حتى انتهوا إلى أسفلها ، فوجدوا أباهم حياً فسألوه عن حاله ، فقال لهم : السراج والطعام الذي كنت أحمله إلى المسجد يأتيني على ما كنت أحمله تلك المدة ، فعجبوا من ذلك ، وصارت قصته موعظة يتعظ بها الناس في أسواق تلك البلدة^(١) .

زوج الشهيد :

لما كانت غزوة أحد ، ودّع أبو الدحداح زوجته أم الدحداح ، وانطلق مع المجاهدين إلى لقاء المشركين ، ولما انكشف المسلمون ثبت أبو الدحداح مع ثلثة من الأنصار ، وقاتل حتى نال الشهادة ، وقد ذكر ابن عبد البر رحمته الله هذا فقال :
أقبل ثابت بن الدحداح يوم أحد ، والمسلمون أوزاع «متفرقون» قد سقط في أيديهم ، فجعل يصيح : يا معشر الأنصار ، إليّ إليّ أنا ثابت بن الدحداح ، إن كان محمد صلى الله عليه وسلم قد قُتل فإن الله حي لا يموت ، فقاتلوا عن دينكم ، فإن الله

(١) البدر الطالع للإمام الشوكاني (١/٤٩٢، ٤٩٣) .

مظهركم وناصركم ، فنهض إليه نفر من الأنصار ، فجعل يحملُ بمن معه من المسلمين ، وقد وقفت له كتيبة خشناء - كثيرة السلاح - فيها رؤسائهم ، خالد ابن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وعكرمة بن أبي جهل ، وضرار بن الخطاب ، فجعلوا يناوشونهم ، وحمل عليه خالد بن الوليد بالرمح ، فطعنه فأنفذه فوق شهيداً ، وقتل من كان معه من الأنصار (١) .

ماذا تفعل من أتاها خبر موت زوجها ؟

وصل نبأ استشهاد أبي الدحداح رضي الله عنه أسماع زوجة أم الدحداح رضي الله عنها ، فلم تلطم ، ولم تشق ثوبها ، ولم تعفر رأسها بالتراب ، وإنما كبرت واسترجعت واحتسبته عند الله تعالى ؛ لأنها تعلم بأنه نال شرفاً عظيماً ، وحظي بمرضاة الله تعالى ، وهو حي مع الشهداء في جنان الخلد ، وغمر أم الدحداح السرور عندما علمت أن النبي صلى الله عليه وسلم قد عاد سالمًا من أحد ؛ لأنها تعرف أن كل مصيبة بعد سلامة رسول الله صلى الله عليه وسلم هينة .

هذه هي أم الدحداح الأنصارية التي رضيت بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسولاً ، وهي واحدة من نسوة خرّجن أبطالاً ، فتحوا العالم ، ونشروا الفضائل فيا حبذا اقتداء النساء بفعلها في استرخاص الدنيا الزائلة في سبيل مرضاة الله تعالى ، وتربية أبناء هدفهم التأسّي برسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام .

(١) الاستيعاب (١/١٩٧، ١٩٨)، وأسد الغابة (١/٢٢١)، والسيرة الحلبية (٢/٥٠٣،

٥٠٤)، والمغازي (١/٢٨١) .

ولله در الصحابية الجليلة أم الدحداح التي تركت أجمل صور وأروع آيات الصبر، وظلت البشارة النبوية ماثلة أمام عينيها: «كم من عذق رداح في الجنة لأبي الدحداح».

رضي الله عن أم الدحداح، ونصّر قبرها، وأحسن مثواها، وجعلها في عليين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



أم المؤمنين

زينب بنت خزيمة رضي الله عنها

من نساء أهل البيت النبوي ، اشتهرت بالبرِّ والإحسان والجود والسخاء
كانت تُدعى «أم المساكين» لكثرة معروفها وصدقاتها على الفقراء
والمساكين .

تزوجها النبي ﷺ بعد غزاة أحد وصارت من أمهات المؤمنين .
رحلت إلى ربها في هدوء الأبرار ، وصمت العابدين ،
وعمرها قرابة ثلاثين عامًا .

توفيت ودفنت بالبقيع ، وصلى عليها النبي ﷺ .

أم المؤمنين

زينب بنت خزيمة رضي الله عنها

من أبواب الخير :

المسلم الحقُّ أولى الناس بحياة سعيدة طيبة ، لأن المسلم - رجلاً كان أو امرأة - لا ينفرد بالخير لنفسه ، بل يعدُّ كل من حوله شريكه في الخيرات ، وهذه المشاركة تضيء على النفس صفاءً ونقاءً تجعلها تحيا حياة طيبة في ظلال الخيرات .

قال عباس العقاد رحمته الله : « إن من يحيا يحبُّ أن يعيش في كل صورة من صور الحياة ، ويشتهي أن يبسط ظله على كل موجود ، ويمد شعوره إلى كل مكان ، وينفذ بسريره إلى كل زاوية من زوايا هذا الكون ، ويجعل حياته مساحة هي مساحة هذا العالم الذي لا حد له ولا نهاية لأشكاله وأزمانه ، من يحيا يعزُّ عليه ألا يجد سوقاً ينفقُ فيها حياته ، كما يعزُّ على الغني ألا يجد متاعاً يشتريه بهاله » ^(١) .

ومن أَلِفَ عمل الخيرات والمعروف كافأه الله ﷻ بإدامة ثوابها عليه ، ومن تعود الإحسان وعمل الخيرات يشعر بالحاح في نفسه لمتابعة المسير في هذا الطريق الكريم .

وقد أشار القرآن الكريم إلى كثرة منافذ الخير التي يجبُ أن يسير عليها المسلم مهتدياً بمنهج ربه ﷻ ، إذ رغبه في ثواب الله ﷻ ؛ إذ إنه سبحانه لا يمنع

(١) انظر كتاب : مطالعات في الكتب والحياة (ص ٣٩٩، ٤٠٠) .

المكافأة على أي خير مهما قلَّ أو صغر ، قال تعالى : ﴿ وَمَاتَفَعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ ﴾ [البقرة: ١٩٧] ، وقال أيضًا : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ . [الزلزلة: ٧] .

وتحدث الآن عن واحدة من نساء أهل البيت النبوي الطاهرات ، اللواتي أكرمهن الله ﷺ وفضلهن على غيرهن من النساء ، وهي إحدى النسوة اللواتي اشتهرن بالإحسان ، وحلقن في سمائه فكتب لها الخلود ، وكتبت في سجل الخالدين ، لا بل نُظمت في عقد أمهات المؤمنين فنالت شرف أمومة المؤمنين ، ودخلت رحاب البيت النبوي الطاهر .

إنها زينب بنتُ خزيمة بن الحارث بن عبد الله الهلالية ^(١) ، أم المؤمنين هي من نسعى في استجلاء أخبارها في هذه الصفحات .

وهذه المرأة الكريمة كانت - وظلت - تُدعى أم المساكين لكثرة معروفها وإحسانها إليهم : ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾ [الرحمن: ٦٠] .

نرجو أن نوفق في إلقاء الضوء على سيرة أم المؤمنين زينب بنت خزيمة لنوفيتها بعض حقها من الذكر الحسن ، من خلال استجلاء سيرتها العطرة ، وذلك ما نرجوه من الله ﷻ بأن يكرمنا بالحديث عن سيرتها بمتهى الحب والشفافية .

(١) أزواج النبي لأبي عبيدة (ص ٧٧) ، والمحبر (ص ٨٣) ، وجلاء الأفهام (ص ١٩٨) ، وأسد الغابة (٦/ ١٢٩) ، ترجمة رقم (٩٦٥٣) ، والسير والمغازي (ص ٢٥٨) ، والإصابة (٤/ ٣٠٩) ، وطبقات ابن سعد (٨/ ١١٥ ، ١١٦) .

شذرات من حياتها :

ولدت زينب بنت خزيمة في أم القرى قبل البعثة النبوية بثلاث عشرة سنة تقريباً ، فتحت زينب عينيها في مكة على مجتمع يموج بفتنة الوثنية والانكباب على عبادة الأصنام وتقديسها ، والاستغراق في شرب الخمر ، والزنا ، ووأد البنات .

مجتمع زاخر بالفساد والانحلال ، فيه العصبية أقوى رابطة ، والحياة فيه للقوي السيد ، ولقمة العيش للعبيد الضعفاء مغموسة بالدم والعرق والدموع .
مجتمع ينزوي في الصحراء القاحلة الجرداء ، لا يرى ولا يعايش إلا قليلاً من تُنف الحضارة المادية ، يتأثر بها من خلال احتكاك قوافله التجارية الغادية والرائحة بين الشام واليمن .

فتحت زينب عينيها على صورة هذا المجتمع بواقعه المنحرف الفاسد ، ونجت من السوء ؛ لأنها من بيت عريق في السيادة والثراء ، ودرجت في أحضان والديها تنهل من عطفها وحبها .

لكنها نضجت وأدركت ثم أصغت بكثير من اللفظة والشوق والتأثر لأحداث عامة تجري في مكة ، وكان محورها : الأمين محمد بن عبد الله .

عاشت زينب أيام إعادة بناء الكعبة المشرفة واختلاف بطون قريش وفروعها حول إعادة الحجر الأسود إلى مكانه من الرُّكن .

وسمعت بحكمة الأمين – عليه الصلاة والسلام – وكيف حلَّ إشكال واختلاف الناس ، وحقن الدماء بيسط ردائه وإمساك رؤساء القبائل بأطراف

الرداء ، وكانهم جميعًا شاركوا في رفع الحجر الأسود ونالوا الشرف العظيم .
سمعت بذلك فعلق قلبها بصاحب العقل الراجح ، والرأي الصائب ،
والحكمة البالغة ، تعلق إعجاب وإكبار .

ولما أيفعت أشرفت مكة بنور الإسلام ، فسارعت زينبُ إلى الانضمام لثلة
الأولين الذين نعموا بأفياء الإيمان بالله ورسوله .

أما عن زواج زينب بنت خزيمة فهناك أقوال أشهرها ما قاله الزهري رحمته الله :
أنها كانت زوجًا لعبد الله بن جحش وقُتل عنها في يوم أحد .

وقيل : « كانت زوجة للطفيل بن الحارث ، ثم خلف عليها أخوه الشهيد
عبيدة بن الحارث المطلبي » ^(١) .

ولا نستطيع أن نجزم في هذه الأقوال شيئًا أو نرجح أحدها ؛ لأننا لا
نمتلك السند الوثيق في هذا المجال ، ويمكنني أن أضع القارئ الكريم أمام
آراء المؤرخين وكتاب السيرة والتراجم ، حتى نقرب معًا من ضوء الحقيقة
بإذن الله عز وجل .

فقد أورد الطبراني رحمته الله بسنده ، عن محمد بن إسحاق رحمته الله ، قال : « تزوج
رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب بنت خزيمة الهلالية أم المساكين ، وكانت قبله عند
الطفيل بن الحارث بالمدينة » ^(٢) .

وقريب من هذا ما أورده ابن الكلبي قال : كانت زينب بنت الحارث عند

(١) انظر : هذه الآراء في سير أعلام النبلاء (٢/٢١٨) .

(٢) رواه الطبراني ورجاله ثقات .

الطفيل بن الحارث فطلقها فتزوجها أخوه عبيدة بن الحارث ، فقتل يوم بدر شهيداً ، ثم خلف عليها رسول الله ﷺ في رمضان على رأس واحد وثلاثين شهراً من الهجرة ^(١) ، بعد حفصة بنت عمر رضي الله عنه .

زينب من أمهات المؤمنين :

في السنة الثالثة كانت غزاة أحد ، وفي هذه الغزوة استشهد رجال كرام من الصحابة الكرام رضي الله عنهم ، وتركوا وراءهم الدنيا والأهل طاعة لله عز وجل ، وابتغاء مرضاته والفوز بجنته التي وعدهم بها .

أما المسلمون من الصحابة الكرام فلم يتركوا أزواج الشهداء وذريتهم للضياع ، وإنما راح كل قادرٍ منهم يضم إليه زوجة شهيد وأبناءه كي يمسح عن قلوبهم ألم الفراق وألم اليتم .

تذكر - ههنا - حمنة بنت جحش رضي الله عنها ، وقد صرخت باكية على زوجها مصعب بن عمير رضي الله عنه ، وقالت : «واحزناه» ، ويسمعا رسول الله ﷺ فقال : «إن للزوج من المرأة مكاناً ما هو لأحد» ، وعندئذ قال لها رضي الله عنها : «لم قلت هذا؟» ، قالت حمنة رضي الله عنها : يا رسول الله ذكرتُ يتم بنيه فراعني ، فدعا لها رسول الله ﷺ ولولدها أن يحسن الله تعالى عليهم الخلف ، فتزوجت طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه فكان أوصل الناس لولدها .

ومن استشهد في أحد زوج زينب بنت خزيمة الهلالية ، فكانت دائمة الحزن عليه ، ونظرت فرأت نفسها وحيدة حزينة في المدينة المنورة ، وليس لها من

معيل أو معين أو عون سوى الله ﷻ .

إلا أن زينب بنت خزيمة ؓ كانت موصولة القلب بالله ﷻ ، وتذكر أن الله ﷻ لن يضيعها فأسلمت إليه أمرها ، واستسلمت لقضائه وقدره .

انقضت عدة زينب بنت خزيمة ، فلم تشعر إلا ورسول الله ﷺ يطرق الباب ليخطبها ، وحينذاك جعلت أمرها إليه ^(١) ، فالرسول الكريم ﷺ خير من يتولى أمرها ، ويرعى شأنها ، وقد أصدقها النبي الكريم ﷺ أربعمئة درهم وبنى لها حجرة إلى جوار حجرة عائشة بنت أبي بكر ، وحفصة بنت عمر رضي الله عنهم أجمعين ، وذلك قرب المسجد النبوي الشريف .

وبهذا أخذت زينب بنت خزيمة ؓ مكانة مباركة عالية ، إذ غدت إحدى أمهات المؤمنين اللاتي كُن من صفوة نساء الدنيا كمالاً ودينًا وعفة وحلمًا وكرمًا .

أم المؤمنين وأم المساكين :

في رحلة الإيمان ورحلة العطاء والكرم تسجل أم المؤمنين زينب ؓ فضائل جليلة في صفحات البيت النبوي الكريم ، إذ أثر عنها أنها كانت أمًّا للمساكين بالإضافة إلى كونها من أمهات المؤمنين رضي الله عنهن .

والذي يظهر - والله أعلم - أن كنية زينب بنت خزيمة بأم المساكين كنية قديمة قد تعود إلى ما قبل هجرتها إلى المدينة المنورة ، فقد كانت تُعرف بأم المساكين قبل قدومها المدينة ، ولعل خير ما يؤيد هذا ما ذكره ابن أبي خيثمة رحمته الله قال : « كانت زينب بنت خزيمة الهلالية تسمى أم المساكين في الجاهلية » .

(١) طبقات ابن سعد (٨/ ١١٥) ، وعيون الأثر (٢/ ٣٨١) .

وقال البلاذري رحمه الله : «وكنيت بذلك في الجاهلية» ^(١) .

أي أم المساكين .

وقال القسطلاني رحمه الله : «كانت تدعى في الجاهلية أم المساكين» .

وروى الطبراني رحمه الله برجال ثقات ، عن الزهري رحمه الله قال : «تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب بنت خزيمة الهلالية وهي أم المساكين ، سميت بذلك لكثرة إطعامها المساكين» ^(٢) .

وقال محمد بن إسحاق رحمه الله في السيرة : «تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب بنت خزيمة الهلالية - أم المساكين» .

وقال ابن كثير رحمه الله : «وهي التي يقال لها : أم المساكين لكثرة صدقاتها عليهم وبرّها لهم ، وإحسانها إليهم» ^(٣) .

نعم لقد كانت أمنا زينب بنت خزيمة رضي الله عنها من أرق النساء وأرحمهن للفقراء والمساكين في عصرها ، وزادت من حنانها عليهم بعد أن أنعم الله عليها بنعمة الإيمان ، وأكرمها الله بدخول البيت النبوي الطاهر ، لتصبح من أمهات المؤمنين الطاهرات رضي الله عنهن أجمعين .

إن هذه الصفة الكريمة - أم المساكين - تزيد من رصيد أمنا زينب بنت خزيمة في عالم نساء أهل البيت النبوي الطاهر ، فالإحسان إلى المساكين

(١) انظر : أنساب الأشراف (١/٤٢٩) .

(٢) أخرجه الطبراني ، وقال عنه الهيثمي في المجمع (٩/٢٤٨) : رجاله ثقات ، ودر السحابة للشوكاني (ص٣٢٨) .

(٣) البداية والنهاية (٤/٩٠) .

والعطف عليهم ، والرأفة بهم ، يشير إلى خيريتها وإلى كرمها الفياض الذي جعلها أمًّا للمساكين في المدينة المنورة ، تحنو عليهم ، وترعاهم ، إذ تعودوا على نوالها وكرمها ، وهذا ما يجعلها في صف الخالدات ، وفي صف الفضليات وفي عالم الكرم والكريمات .

أم المساكين وعائشة وحفصة :

كانت السيدتان النبيلتان عائشة بنت أبي بكر ، وحفصة بنت عمر رضي الله عنهما أسبق من زينب أم المساكين إلى دخول البيت النبوي الطاهر الكريم ، وكان لهاتين الكريمتين : عائشة وحفصة مكانة كبرى ، ومنزلة عظمى عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولذلك لم تستشعر عائشة ولا حفصة نحو السيدة زينب بنت خزيمة أية غيرة ، أو أي شيء من بواعثها .

كانت كل من أمنا عائشة وأمنا حفصة رضي الله عنهما تعرف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تزوج زينب بنت خزيمة أم المساكين رحمة منه وعطفًا ، وكانتا تعلمان أيضًا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ينطق عن الهوى ، وقد تزوجها بوحي من الله تعالى .

أما زينب بنت خزيمة أم المساكين رضي الله عنها ، فلم تكن راغبة هي الأخرى في منافسة عائشة وحفصة اللتين سبقتاها إلى بيت النبي الكريم صلى الله عليه وسلم .

كانت زينب بنت خزيمة عليها سحائب الرضوان تعيش في عالم العطف والمودة والحنان ، وتعيش في كنف الإسلام وعظمته ، وتحس بالسعادة الغامرة تملأ قلبها ووجدانها في رحمة المساكين ، وفي رقتها عليهم ورفقها بهم ، والإحسان إليهم ، فجعلت جُلَّ وقتها في عبادة الله تعالى ، ثم في رعاية ثلة

المساكين وإطعامهم والتصدق عليهم ، ولهذا غلب عليها تسمية أم المساكين ^(١) ، وناهيك بهذه التسمية الفضلى الفواحة بدفء الحنان ونسائم الإحسان .

لقد كانت أمنا زينب بنت خزيمة رضي الله عنها خيرة من الخيرات ، طيبة من ذوات النفوس الطيبات ، وما كان يخرج من حجرتها إلا الصدقات ، وإلا الطاعات والعبادات ، فأكرم وأعظم بذي المكرمات .

كانت رضي الله عنها قريرة العين ، مطمئنة القلب بأن أصبحت زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهل فوق هذا من فضل أو فخر ؟ فما كانت الغيرة تُعرفُ إلى نفسها سبيلاً ، وما كانت مشاغل النساء تداعب فؤادها ، فهي سعيدة راضية بأمومة المؤمنين ، وأم المساكين ، وقد غمرت أهل الصُّفَّة الذين انقطعوا للعبادة والمناجاة في المسجد النبوي الطاهر ، وعملوا على حراسة الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم ، غمرت هؤلاء الأخيار ببرها وعطفها وكرمها وإحسانها ، حتى لهجوا بالدعاء لها والثناء عليها رضي الله عنها .

إلى دار السلام :

لم يطلُ مقام أمنا زينب بنت خزيمة أم المساكين في البيت النبوي ، ولم تكن حياتها طويلة مع أمهات المؤمنين الطاهرات رضي الله عنهن ، فما كادت تمضي بضعة أشهر حتى علا الوجوم والحزنُ وجوه من كانوا في المسجد النبوي الشريف ، فقد خرج ذات يوم من بيت النبي صلى الله عليه وسلم من أعلن للملأ أن زينب بنت خزيمة أم المساكين قد لحقت ببرها .

(١) المعارف لابن قتيبة (ص ١٣٥) .

دخلت زينب بنت خزيمة رضي الله عنها بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في هدوء الأبرار ، وصمت العابدين ، وخرجت في صمت الخاشعين لتُدفن في البقيع إلى جوار الأبرار الأخيار الذين سبقوها إلى دار السلام ، ولنعم دار المتقين الجنة .

كان موت زينب أم المساكين أليماً على قلب الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم ، إذ تذكر بموتها الطاهرة خديجة بنت خويلد أول أمهات المؤمنين ، وأحبهن إلى قلبه الشريف رضي الله عنها وأرضاها .

توفيت أم المساكين ولم ترو شيئاً عن النبي صلى الله عليه وسلم .

قال الذهبي رحمته الله : « ما روت شيئاً » ^(١) .

وقال ابن الجوزي رحمته الله : « وما نعلمها أسندت شيئاً » ^(٢) .

ولعل هذا يعودُ إلى انشغالها بأحوال المساكين ، وإلى قلة مكثها في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

روى الطبراني رحمته الله قال : « وتوفيت أم المساكين ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم حي لم تلبث معه إلا يسيراً » ^(٣) .

توفيت أم المساكين في ربيع الآخر في السنة الرابعة من الهجرة المباركة ، وشيعت إلى مثواها الأخير في البقيع في المدينة المنورة ^(٤) .

(١) سير أعلام النبلاء (٢/٢١٨) .

(٢) المجتبي (ص ٩٥) .

(٣) انظر : مجمع الزوائد (٩/٢٤٨) .

(٤) السمط الثمين (ص ١٣٠) ، والإصابة (٣/٣٠٩) .

وكانت عندما توفيت في ريعان الشباب ، فقد ذكرت المصادر وكتب السيرة أنها ماتت وعمرها حوالي الثلاثين (١) .

وفي «الطبقات» أخرج ابن سعد رضي الله عنه ما يتوافق مع هذا عن شيخه محمد بن عمر قال :

سألت عبد الله بن جعفر رضي الله عنه : من نزل في حفرتها ؟

فقال : إخوة لها ثلاثة .

قلت : كم كان سنها يوم ماتت ؟

قال : ثلاثين سنة أو نحوها (٢) .

وكانت أم المساكين أول نساء النبي صلى الله عليه وسلم موتاً بالمدينة ، وقد توفيت أم المؤمنين خديجة قبلها في مكة .

وقد فازت زينب بنت خزيمة بوفاتها في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن صلى عليها ، ودعا لها ، ولم يمت من زوجاته بالمدينة غيرها في حياته صلى الله عليه وسلم .

رضي الله عن أمنا زينب بنت خزيمة ، وأكرم مثواها ، ووهبنا لها فهو الكريم الرحيم الوهاب ، وجزاها بالحسنى فهو القائل في كتابه العزيز :

﴿وَيَجْزِي الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَسَنَى﴾ [النجم: ١٣] ، وجعلها في عليين مع الأبرار والصالحين وأدخلنا معها ومع أهل البيت النبوي الطاهر في رحمته ، إن ربي غني كريم ، ومع وداع سيرة أم المساكين ما رأيكم أن نقرأ هذه التغريدة الجميلة ؟

(١) طبقات ابن سعد (١١٦/٨) ، والإصابة (٣٠٩/٤) .

(٢) طبقات ابن سعد (١١٦/٨) .

مع زينب أخرى نواصل للحديث مؤكدين
هي زوجة الهادي وإحدى أمهات المؤمنين
أم المساكين التي عُرِفَتْ بإحسان ودين
عرفت ببنت خزيمة ذاكم أبوها عن يقين
كانت قبيل المصطفى زوجًا لأحد الزاهدين
ذاكم عُبيدة في العمومة مع إمام المتقين
قد راح في بدر شهيدًا أول المستشهدين
فتأيمت من بعده مع لوعة الحزن الدفين
لما انتهى زمن الحداد كشرع كل المسلمين
قد أرسل الهادي ليخطبها كفعل الخاطبين
قالت فأمرني للنبي وإنني في الطائعين
فتزوج الهادي بها بالمهر ثم الشاهدين
لكنها لم توف عامًا عند ختم المرسلين
ظلت ثمانية أشهر ثم اغتدت في الراحلين
صلى عليها المصطفى ﷺ والصحب كانوا شاهدين

رضي الله عن أم المؤمنين زينب بنت خزيمة ، وجعلها في عباده المتقين ،
ونفعنا بسيرتها وسيرة أمهات المؤمنين ، وعفا عنا وأدخلنا برحمته في عباده
الصالحين .



فاطمة بنت عبد املك ﷺ

قال الزبير بن بكار :

لم تكن امرأة تستحق هذا البيت إلى يومنا هذا غيرها :
بنتُ الخليفة والخليفة جدها أختُ الخلائفِ والخليفة زوجها

فاطمة بنت عبد الملك رضي الله عنها

من هي ؟

امرأة بنتٌ لنفسها مجدها الذي ظلت آثاره إلى يومنا هذا .
امرأة تركت النعيم وأبهة الخلافة من حولها ، وألفت شظف الحياة التي
اختارها زوجها لنفسه وذويه ، وراحت تحياها بروحٍ محبةٍ متفانية .
وعلى الرغم من أن زوجها خليفة الأرض ، ويأتيه خراجها من المشرق
والمغرب ، إلا أن لمساته الإيمانية أثرت فيها ، فراحت تجد النعيم الكامن في
الشظف المائل ، وتستشرف من وراء الدنيا الفانية فردوس الله الأعلى ورضوانه
العظيم والنعيم المقيم .

وهذه المرأة لم تكن تفخر بأنها زوج أمير المؤمنين ، ولم تكن تنعم في الديباج
وترفل في الحليِّ والحُلل ، بل لم تكن ممن استهوتهن مفاتن الدنيا وزخرفها ،
وإنما كانت من نوع نادر من النساء قلَّ أن يوجد بمثلها الزمان .

إنها فاطمة بنت عبد الملك بن مروان الأموية القرشية ^(١) ، زوج عمر بن
عبد العزيز ، الإمام الحافظ العلامة المجتهد الزاهد العابد السيد ، أمير المؤمنين
حقاً ، خامس الخلفاء الراشدين ، ومن أولياء الله المتقين .

أخذت فاطمة عن زوجها عمر بن عبد العزيز ، واقتبست من علمه الغزير .

وإن فاطمة بنت عبد الملك هذه ستظل متألقة في وعينا ونفوسنا طوال هذه

(١) تاريخ دمشق (ص ٢٩٠) ، وأعلام النساء (٤ / ٧٥) .

الصفحات ، وبعد ذلك أيضًا ، وسنظل نزجي لها من التحية والإجلال ما هي له أهل فهي جديرة به .

رداء المجد :

منذ أن ولدت فاطمة بنت عبد الملك – رحمها الله – نشأت في أردية المجد ترفرف فوقها ، وتحقق من أمامها ، وعن يمينها وشمالها ، فقد كان اثنا عشر رجلاً من محارمها خلفاء : أبوها وجدها وزوجها وإخوتها ، وأبناء إخوتها كانوا خلفاء .

وفوق عرش الخلافة تقلبت فاطمة بنت عبد الملك ، وبين أحضان العز والنعيم تنقلت ، ومن شهى المعارف والعلوم نهلت حتى أضحت أثيرة لدى والدها الخليفة عبد الملك بن مروان ، الذي كان يحبها حباً يفوق التصور ، ويتوقع لها مجداً عظيماً ، ومنقبة ميمونة فكان يهب لها من الجواهر الثمينة والدرر اليتيمة ، مما لم يوجد مثلها في البلاد ، وكان حريصاً كل الحرص على الاهتمام بها وبأمرها ، وكان يوصي ابنه الوليد بها ، ويقول : عليك بالإحسان إلى أخواتك ، فأكرمهن وأحبهن إليّ فاطمة .

ثم توجه رافعاً يديه إلى السماء داعياً الله ﷻ فقال : اللهم احفظني فيها ، واستجيب دعوته فتزوجها ابن عمها عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، وزوجه إياها عبد الملك بنفسه .

قصة زواجها :

لزواج فاطمة بنت عبد الملك من ابن عمها عمر خبر طريف ، أوردته كتب

المصادر المتنوعة ، فعندما توفي عبد العزيز بن مروان ضم عبد الملك إليه ابن أخيه عمر بن عبد العزيز ، الذي اشتهر بالأدب والعلم والعقل والفهم ، مع حداثة سنه ، فخلطه عبد الملك بولده وقدمه على كثيرٍ منهم ، وكان سبب اهتمام عبد الملك به أنه كان ذكياً سريع البديهة ، ولأن الناس كانوا يتوقعون أن يكون عمر هو الأشج الذي يملأ الأرض عدلاً ، زد على ذلك أن عبد الملك كان يتفرسُ في عمر بأنه سيكون ذا شأن عظيم ، وصدق في فراسته .

و ذات يوم قال عبد الملك لابن أخيه عمر : قد زوجك عبد الملك ابنته فاطمة .

فأجابه عمر إجابة جميلة ، زادت عمه إعجاباً به فقال :

وصلك الله يا أمير المؤمنين ، فقد كفيت المسألة وأجزلت في العطية .

فقال بعض جلساء عبد الملك : هذا كلام تعلمه فأداه .

فدخل عمر على عبد الملك فقال له : يا عمر ، كيف نفقتك ؟

فأجابه عمر رضي الله عنه إجابة نالت إعجابه أكثر من ذي قبل ، وقال : بين

السيئتين يا أمير المؤمنين .

قال عبد الملك : وما هما ؟

قال : قول الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ

ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٧] .

فقال عبد الملك لابنه : من علمه هذا ؟ ^(١) .

(١) عن تاريخ دمشق (ص ٢٩١) ، والعقد الفريد (٦/ ١٠٠) ، بتصرف يسير .

إنها الحكمة التي وهبها الله سبحانه عمر بن عبد العزيز ، فالله ﷻ : ﴿يُؤْتِي
 الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩] .
 عُرسُ ابنة الخليفة :

وتزوج عمر بن عبد العزيز ابنة الخليفة ، وكانت من أحسن النساء ، ومن
 أكملهن حسبًا وأدبًا وعلماً ، وكان عرسها من الأعراس المشهورة في التاريخ ،
 ويوم زفافها يوماً مشهوداً بدمشق ، روى شاهد عيان ما رآه يوم عرسها فقال :
 حضرتُ عرس عمر بن عبد العزيز بفاطمة بنت عبد الملك ، فكانوا
 يسرجون القناديل بالغالية مكان الطيب ^(١) .

ومع هذا كان مكتوباً على قبة فاطمة :

بنت الخليفة والخليفة جدها أخت الخلائف والخليفة زوجها

قال الزبير بن بكار رحمته الله : ولم تكن امرأة تستحقُّ هذا البيت إلى يومنا هذا
 غيرها .

وعاشت فاطمة مع زوجها المترف تتقلب في ألوان النعيم ، وانتقلت مع
 زوجها إلى المدينة المنورة ، حيث كان والياً عليها ، وتابعت فاطمة وزوجها
 الأمير حياتهما ينهلان من ينابيع السعادة التي تفجرت في قلبيهما ، وأنجبت
 لعمر ابنه إسحاق ، ومن وراء إسحاق يعقوب وهما ابنا عمر من فاطمة رحمها الله .
 وظل الزوجان السعيدان على هذه الشاكلة بضع سنوات سمان ، ينعمان في
 ظلال الحياة الدافئة إلى أن تغير كل شيء في يوم من أيام سنة (٩٩هـ) .

(١) عن تاريخ دمشق (ص ٢٩١، ٢٩٢)، وعيون الأخبار (١/ ٣٠٤) .

بل أختارك؟

من يصدق أن امرأة عاشت في النعيم ، وغرقت في الحلي والحلل شطر حياتها ترك هذا كله في لحظة واحدة؟

إنها فاطمة بنت عبد الملك التي خلدها التاريخ - وإن شئت فقل : آثرها التاريخ - كانت كذلك ، فكثير ممن عاصرها من نساء كثيرات طواهن التاريخ دون أن يتركن أثرًا يبقى .

كان هذا - الحدث - في أحد الأيام من صفر في سنة (٩٩هـ) عندما أتت الخلافة إلى زوجها عمر منقادة تجر أذيالها ، وظنت فاطمة بادئ الأمر أنها ستكون كسابقاتها من ذوات الأمر والنهي ، والرأي والمشاركة فيما يعنينهن وما لا يعنينهن ، ولكن أتى لزخارف الدنيا وضوضاء الخلافة أن تستولي على قلب زوجها عمر بن عبد العزيز ، الذي طلق الدنيا من أول يوم آلت إليه الخلافة .

لقد تغير كل شيء في دنياها ، وبقي نعيمها مجرد ذكريات عبرت ، ولم يبق في خيالها سوى بارقات وومضات تمر سريعًا سريعًا ، ومن ثم تتلاشى ، لقد تغيرت الصورة ، وذوى الجسم الذي غذاه النعيم ، وتأتى الحياة الجديدة والحقيقة التي لم تكن فاطمة تتوقعها مطلقًا في يوم من الأيام ، أن تتخلى عن جواهرها ، وتخلى اللآلئ التي كانت تتحلى بها ، وتفتخر بها على بنات جنسها فماذا كان؟

جاء في كتب التاريخ والطبقات : أن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه خير فاطمة زوجه في اختيار مستقبلها ومصيرها ، إذ إنه أضحى الآن يشعر بالمسؤولية التي

أثقلته عن كل شيء ، حتى عن زوجته الحسنة فاطمة ، وأنشأ يقول :

قد جاء شُغل شاغل وعدلت عن طُرق السلامه
ذهب الفراغ فلا فراغ لنا إلى يوم القيامه

وهنا تتألق فاطمة بعقلها ، وتسمو بتفكيرها السليم ، فتختار المقام معه على كل حال ، وظلت بجوار زوجها تشاركه تقشفه الذي فرضه على نفسه ، ومن ثم أخذها معه إلى مسؤولياته ، وأضححت السيدة التي كانت زوجة خليفة و بنت خليفة ، وأخت خليفة ، والخلافة تحيط بها إحاطة السوار بالمعصم ، والمتقلبة في أبهى ما رق من حرير ، ولباس ، وذهب ، ولؤلؤ ، أضححت لا تملك من دنياها إلا ثوبين خشنين ، وأضححت لا تأكل إلا كسراتٍ من الخبز ، أو تأكل العدس والبصل ، وباتت أمعاؤها خاوية ليالي طويلة ، حتى لقد قالت ذات مرة : يا ليت كان بيننا وبين الخلافة بعد المشرقين ، فوالله ما رأينا سرورًا منذ دخلت علينا .

إلا أن هذه النظرة تبدلت بعد أن لمست عظمة زوجها في حياته الجديدة مع التقشف والزهد ، فقد جاءها يومًا بما يجعلها تعلو وترتفع في سماء المكرمات لحسن أدبها وعفتها ودينها ، فقد كان عندها جوهر لم يُر مثله ، فقال لها : من أين صار هذا إليك ؟ قالت : أعطانيه أمير المؤمنين - تقصد عبد الملك والدها .

قال : إما أن تردي حليكَ إلى بيت المال ، وإما أن تأذني في فراقك ، فإني أكره أن أكون وأنت وهو في بيت واحد .

قالت : لا بل أختارُك يا أمير المؤمنين على أضعافه لو كان لي ، فوضعت في

بيت مال المسلمين .

ولما ولي يزيد بن عبد الملك - أخوها - قال لها : إن شئت رددتُه عليك أو قيمته .

قالت : لا أريده ، طبْتُ به نفسًا في حياته ، وأرجع فيه بعد موته ، لا والله لا يكون أبدًا لا حاجة لي فيه .

فلما رأى يزيد ذلك قسمه بين أهله وولده ^(١) .

وهكذا اختارت فاطمة زوجها عمر ، فهو الجوهر الباقي ، أما حليها فهو جوهر زائل .

سر الخلود :

وصفت فاطمة زوجها فقالت : كان من أعظم قريش وأرفههم مركبًا ، وألينهم ثوبًا ، وأطيبهم طعامًا قبل أن يلي الخلافة ، فلما ولي الخلافة لبس الكرايس والصوف ، وربما ادهن بزيت العلة - تعني زيت الماء - ولا رفع ثوبًا يدخره ، ولا اتخذ أمة - خادمًا - منذ أن ولي إلى يوم أن مات فهذه كانت حياته ^(٢) .

وفاطمة بنت عبد الملك إنما خلدها التاريخ واحتفظ بأقوالها واختزنها في ذاكرته لموافقتها زوجها على فعل الخير وإيثارها النعيم المقيم على النعمة الزائلة ، وذلك بنفس راضية صابرة رحمها الله .

ومن أوائل مظاهر الرضا أن انتقلت من القصور ذات السرر المرفوعة ،

(١) الطبقات (٥/٣٩٣) ، والحلية (٥/٢٨٣) ، وتاريخ دمشق (ص ٢٩٢) ، والكامل في التاريخ (٥/٤١) .

(٢) محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار لمحيي الدين بن عربي (٢/٤٠٧) .

والأكواب الموضوعة ، والنهارق المصفوفة ، والزرابي المبوثة ، إلى دار ضيقة شمالي المسجد مبنية من الطين ، وكانت تعمل بيدها وتخيظ ثيابها ، وتساعد زوجها في إصلاح البيت إن لزم الأمر ، وهذا مما أثار إعجاب امرأة غربية رأت ذلك فقد ذكر ابن عبد الحكم أن امرأة قدمت من العراق على عمر بن عبد العزيز ، فلما صارت إلى بابه قالت : هل على أمير المؤمنين حاجب ؟ قالوا : لا ، فادخلي إن أحببت .

فدخلت المرأة على فاطمة وهي جالسة في بيتها ، وفي يدها قُطن تعالجه فسلمت ، فردت عليها السلام وقالت لها : ادخلي .

فلما جلست المرأة رفعت بصرها فلم تر في البيت شيئاً له قيمة ، أو يلفت الانتباه ، فتعجبت وقالت : إنما جئتُ لأعمر بيتي من هذا البيت الخرب . فقالت لها فاطمة : إنما خرب هذا البيت عمارة بيوت أمثالك .

فأقبل عمر حتى دخل الدار فمال إلى بئر في ناحية الدار فانتزع منها دلاء صبها على طين كان في البيت ، وهو يكثر النظر إلى فاطمة .

فقالَت المرأة الغريبة لفاطمة : لو استترت من هذا الطيان ، فإني أراه يديمُ النظر إليك .

فقالت : ليس هو بطيان ، إنما هو أمير المؤمنين .

ثم أقبل عمر فسلم ، ومن ثم قضى حاجة المرأة فانصرفت وهي تلهج بالدعاء له ، وتعجب من امرأته فاطمة التي تخيظ ثوبها بيدها ، وهي تقدر على التزود من نعيم الدنيا ما شاءت ^(١) .

(١) سيرة عمر لابن عبد الحكم (ص ١٦٩، ١٧٠)، بشيء من التصرف .

ومما يجعل فاطمة من علية النساء ما حدث أن عمر قال لها يوماً : عندك درهم أشترى به عبناً ؟ قالت : لا .

قال : فعندك ثمنه - يعني الفلوس ؟

فأقبلت عليه وقالت : لا ، أنت أمير المؤمنين ولا تقدر على درهم .

قال : هذا أهون من معالجة الأغلال في جهنم ^(١) .

ولله در عمر بن عبد العزيز حيث كان يقول دائماً :

ولا خير في عيش امرئ لم يكن له من الله في دار القرار نصيب
فإن تُعجب الدنيا أناساً فإنها متاع قليل والزوال قريب

ومن يصدق أن امرأة أمير المؤمنين لا تملك إلا ثوباً واحداً ، وزوجها ليس له غير قميص واحد ، فقد دخل مسلمة بن عبد الملك - أخوها - فرأى قميص زوجها وسخاً ، فقال لأخته : ألبسيه غير هذا القميص ، فسكتت ، فقال ثانية : ألبسي أمير المؤمنين غير هذا القميص ، أو اغسله ، فقالت : والله ما له قميص غيره ^(٢) .

وكان هذا القميص مرقوع الجيب بين يديه ومن خلفه ، وكان هذا مبعث الفخر لفاطمة ؛ إذ إن الرجال لا تقاس بما تلبس ، بل بما تقدم .

فاطمة ووفاة عمر :

دخلوا على عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وهو على فراش الموت وقالوا : يا أمير

(١) سير أعلام النبلاء (٥/١٣٤، ١٣٥) ، كانت نفقة عمر كل يوم درهمن .

(٢) المعرفة والتاريخ (١/٦٠٠) ، والكامل في التاريخ (٥/٦٢) .

المؤمنين ، ألا توصي لأولادك بشيء ، فلقد أقفرت أفواه بنيك ، فقال : أجلسوني ، فأجلسوه ، فقال : والله ما ظلمتهم حقاً هو لهم ، ولم أكن لأعطيهم شيئاً لغيرهم ، وإن وصيتي فيهم : ﴿ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٦] ، وإن ولد عمر بين أحد رجلين : إما رجل صالح ، فالله يتولى الصالحين وإما رجل غير ذلك فلن أترك لهم ما يستعينون به على معصية الله ادعوا لي بني ، فأتوه فلما رأهم ترقرت عيناه ، وقال : يا بني إني قد تركت لكم خيراً كثيراً ، لا تمرون على أحد من المسلمين وأهل ذمتهم إلا رأوا لكم حقاً ، يا بني إني قد خيرت بين أمرين : إما أن تستغنوا وأدخل النار ، أو تفتقروا إلى آخر يوم وأدخل الجنة ، فأرى أن تفتقروا ذلك أحب إليّ ، قوموا عصمكم الله ، قوموا رحمكم الله : ﴿ وَلِيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ [النساء: ٩] .

ودس «غصين» غلام عمر بن عبد العزيز السم له في شرابه ، وعلم عمر بذلك فور شرابه له ، لكنه لم يخبر غصيناً بذلك إلا عند اشتداد المرض عليه قبل موته ، حين أدخله عمر عليه فسأله أن يجعله في حل من كل إساءة أساءها إليه دون أن يعلم ، فبكى «غصين» واعترف بجريمته ، وأراد أن يتوب ، وسأله عمر عن الثمن الذي قبضه جزاء فعلته فأخبره أنها ألف دينار لن يقبضها إلا بعد موت عمر ، فقال له عمر : هل لك في عمل تنجو به من عذاب الله ؟

اذهب إلى من أمرك بقتلي ، وأخبرهم أن يعطوك الألف دينار ، وألا تخبر بأسمائهم ، ثم اذهب بهذه الألف وضعها في بيت مال المسلمين ، ففعل غصين ما أمره به عمر .

كانت فاطمة زوجة عمر تسترق السمع وأخوها مسلمة ، فعلمها بجريمة غصين ، وأرادا أن يعاقباه ، لكن عمر استحلفهما بالله ألا يمساها بسوء ، بل أعتق «غصيناً» لوجه الله ، وطلب إليه أن يهرب من المدينة لئلا يفتك به الناس إذا علموا بأمره ، واشتد المرض على عمر ، وجاءته إغماءة الموت ، فأفاق منها فرحاً وقال : يا فاطمة ، اخرجي عني هذه الساعة ، فإني أرى رجالاً يدخلون عليّ الآن لم أرهم من قبل ، قالت فاطمة : فخرجت ، ولكن نفسي لم تطاوعني أن أفارقه وقت الوفاة ، فوقفت على الباب فسمعتة يرد السلام ويقول : وعليكم السلام ورحمة الله يا آدم ، وعليكم السلام ورحمة الله يا صفي الله نوح ، وعليكم السلام ورحمة الله يا خليل الرحمن إبراهيم ، وعليكم السلام ورحمة الله يا كلیم الله موسى ، وعليكم السلام يا كلمة الله عيسى ، وعليكم السلام ورحمة الله يا سيدي وقرّة عيني وحببي رسول الله ﷺ ، قالت فاطمة : ثم أنصت قليلاً ، وقال : وعليكم السلام ورحمة الله وجوه قوم ليسوا بإنس ولا جان ، فعلمت أن ملائكة الموت قد حضرت فدخلت عليه لأحوال وجهه إلى القبلة فوجدته قد حوّل وجهه إلى القبلة بنفسه ، ثم سمعته يقول : ﴿ هَلُمَّ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٧] ، ثم يتلو قوله تعالى : ﴿ إِنَّ وَلِيَّ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ وَهُوَ تَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٦] ، ثم يتلو قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْنَدٍ ﴾ [القمر: ٥٤ ، ٥٥] .

ثم قال : اللهم اغفر لعبدك «غصين» ، واغفر لعبدك عمر ، ثم ردد الشهادتين ، وأسلم الروح لخالقها رضي الله عنه وأرضاه ، وجعل جنة الفردوس مأواه .

بعد عمر :

بعد وفاة عمر بن عبد العزيز سنة (١٠١هـ) تزوج فاطمة داود بن سليمان ابن مروان ، وكان داود قبيح الوجه ، أعور ، فقال الناس : هذا الخلف الأعور ، وولدت له هشامًا وعبد الملك .

وكان داود على الرغم من ثرائه العريض ، وترفه ، يحاول أن يلفت انتباه فاطمة إليه ، وأن يصرفها عن زوجها السابق عمر بن عبد العزيز ، غير أن محاولاته كانت تذروها الرياح ، ولم يفلح مرة واحدة في هذا ، بل كانت تُعرض به بقول موسى بن يسار ، وكان من شعراء سليمان بن عبد الملك الذي قال لها :

أبعد الأعز ابن عبد العزيز قريع قريش إذا يُذكر
تزوجت داود مختارة ألا ذلك الخلفُ الأعور

وكانت إذا سخطت عليه قالت له : صدق والله موسى ، إنك لأنت الخلف الأعور ، فينهال عليها داود بالشتائم ، ويودُّ لو يقدر أن يقطع لسانها وأوصالها .

وأخيرًا فلا تشير المصادر التي بين أيدينا إلى الأيام الأخيرة التي عاشتها فاطمة بنت عبد الملك ، ولا تحدد لنا تاريخ وفاتها .

رحم الله فاطمة رحمةً واسعة ، وأسكنها فسيح جناته ، فقد كانت قدوة صالحة للنساء ، وامرأة قلَّ أن يجود الدهر بمثلها ، ومثلها فلتكن النساء في كل زمان .



أم المؤمنين

ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها

شهد لها النبي ﷺ ولأخواتها بالإيمان فقال: «إن الأخوات لمؤمنات» .
أم ميمونة أكرم عجوز في الأرض أصهارًا .
وهبت ميمونة نفسها للنبي ﷺ ، ونزل القرآن مُسجلاً قصتها .
هي آخر امرأة تزوجها النبي ﷺ ، وكانت تقيه تصلُ الرحم .
من حافظات الحديث النبوي روت (٧٦) حديثًا ، ماتت
بسرف قرب مكة سنة (٥١هـ) رضي الله عنها .

أم المؤمنين

ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها

المرأة الميمونة :

ميمونة بنت الحارث الهلالية ^(١) أم المؤمنين واحدة من سادات النساء ، دخلت العقد النظيم ، فأضحت درة البيت النبوي الطاهر ، كان اسمها «برة» فسمها النبي ﷺ ميمونة .

وكانت كاسمها ميمونة السنّا ، والله در أحمد محرم إذ قال :

اسم سما لفظُهُ وازدان معناه حلاك ربك بالحسنى وحلاه
ميمونة أنت هذا ما تخيره لك الذي اختاره من خلقه الله

وفي رحاب المكارم والأصل الحسيب ، والنسب الرفيع ، كانت نشأة ميمونة آخر نساء رسول الله ﷺ ، ولعل يُمنها جعلها في هذا المقام الرفيع الذي تبوأته ، وحظيت بأمومة المؤمنين لتغدو من اللواتي ذكرهن الله ﷻ في كتابه الكريم حيث قال : ﴿ يَنْسَاءَ النَّبِيِّ لَسُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ أَتَقَيْنَنَّ ﴾

[الأحزاب: ٣٢].

إن أمنا ميمونة رضي الله عنها وأخواتها من سادات النساء ، وممن شهد هن رسول الله

(١) طبقات ابن سعد (٨/ ١٣٢ - ١٣٤) ، والمعارف (ص ١٣٧ ، ٣٤٤) ، وأسد الغابة (٦/ ٢٧٢ - ٢٧٤) ، ترجمة رقم (٧٢٩٧) ، والإصابة (٤/ ٣٩٧ - ٣٩٩) ، وتهذيب التهذيب (١٢/ ٤٥٣) ، وشذرات الذهب (١/ ٢١٩) ، والمسند (٦/ ٣٢٩) .

ﷺ بالإيمان ، وناهيك بشهادة رسول الله ﷺ .

فأختها أم الفضل بنت الحارث زوج العباس الحرة الجليلة ، وأم أولاده الستة النجباء ، كانت أول امرأة آمنت برسول الله ﷺ بعد أمنا خديجة بنت خويلد ، ولطالما حدثت أم الفضل ميمونة عن الإيمان وعن رسول الله ﷺ ، فهفا فؤادها ، وكانت من الثلة الأولى من المؤمنات المسارعات إلى الاستجابة لدعوة الإيمان والتلذذ برحيقها .

لم تكن أم الفضل وحدها التي ارتبطت بالإسلام من أهلها فأختها من أمها أسماء بنت عميس ، كانت زوج الشهيد جعفر بن أبي طالب ﷺ ، وقد تزوجت من بعده بشيخ الصحابة والمهاجرين سيدنا أبي بكر الصديق عليه سحائب الرضوان ، ثم تزوجت بعده من فارس الصحابة والمهاجرين سيدنا علي بن أبي طالب ﷺ .

وأختها الأخرى سلمى بنت عميس زوج أسد الله وأسد رسوله حمزة بن عبد المطلب ، عم النبي ﷺ ، ومن اللواتي شهدن مشرق الإسلام منذ أن أضاء أم القرى في ساعاته الأولى .

وهؤلاء السيدات السادات من النساء أمهن جميعًا : هند بنت عوف بن زهير ، إنها أكرم عجوز في مكة .

ولما شاءت إرادة الله أن ترتبط إحدى بناتها برسول الله ﷺ ، صارت هند بنت عوف أكرم عجوز في الأرض أصهارًا .

فمن أصهارها الحبيب المصطفى ﷺ .

وأبو بكر الصديق عليه سحائب الرضوان .

وحمزة بن عبد المطلب عم النبي ، وأسد الرحمن ، وفارس الميدان ، وفتى

قريش ﷺ .

والعباس بن عبد المطلب عم النبي ﷺ ، وصنو أبيه .

وجعفر بن أبي طالب الشهيد الكريم وابن عم النبي ﷺ .

ومن أحفادها عبد الله بن عباس أحد العبادلة الأربعة ، فارس الإسلام

وسيف الرحمن ، ومذل المشركين أهل الطغيان رضي الله عنه وأرضاه .

إذن فأمنا ميمونة ﷺ ميمونة النقيبة ، إذ تزوجها رسول الله ﷺ ، وهي

كذلك خالة عبد الله بن عباس ، وخالد بن الوليد ، وأم المؤمنين ، وتلك

فضائل حسان فهل فوق ذلك من مفخر ؟

همس القلوب :

كان اسم ميمونة كما أسلفنا برة بنت الحارث ، فسماها رسول الله ﷺ ميمونة ،

وكانت زوجاً لأبي رهم بن عبد العزى العامري القرشي ، فأضحت أرملة

وهي لا تزال في ريعان الشباب إلا أن نور الإيمان كان يضيء جوانب نفسها

وتغذي به روحها ، فغدت صافية السريرة ، عظيمة الإيمان بالله ﷻ ، حتى

شهد الله لها بالإيمان ، وحظيت بشرف الزواج من رسول الله ﷺ في وقت

فراغه من عمرة القضاء سنة سبع من الهجرة في ذي القعدة .

ففي السنة السابعة من الهجرة النبوية الشريفة ، دخل الحبيب المصطفى ﷺ وأصحابه مكة معتمرين ، وطاف رسول الله ﷺ والمسلمون بالبيت العتيق ، بيت الله الحرام ، وكان الصحابي الجليل سيدنا عبد الله بن رواحة الأنصاري بين يدي حبيبنا رسول الله ﷺ يرتجز متوشحًا بالسيف وهو يقول :

خلوا بني الكفار عن سبيله	خلوا فكل الخير في رسوله
قد أنزل الرحمن في تنزيله	في صُحُف تُتلى على رسوله
يا رب إني مؤمن بقليله	أعرف حق الله في قبوله
نحن قتلناكم على تأويله	كما قتلناكم على تنزيله
ضربًا يزيل الهام عن مقيله	ويذهل الخليل عن خليله

وكانت ميمونة ؓ في مكة ، وما إن سمعت واستمعت واستمعت بحذاء عبد الله بن رواحة ، ورجزه ، وما إن ملأت عينها من النبي ﷺ حتى استولت عليها فكرة أن تنال شرف الزواج من رسول الله ﷺ ، وأن تصبح أمًا للمؤمنين ، وما يمنعها من أن تحقق حلمها الذي طالما راودها في يقظتها ، وفي منامها ، وهي من الثلاثة الأولى في سجل الإيمان ، وقائمة المؤمنين ، وأخواتها أم الفضل بنت عميس ، وسلمى بنت عميس ، الأخوات المؤمنات .

وفي تلك اللحظات التي سرت فيها أنسام الإيمان تخفق على مكة ، همست ميمونة بما في قلبها إلى أختها أم الفضل زوج العباس فهل تحققت أمانيتها ؟ وهل أكرمها الله بما في نفسها ؟ لقد سجل القرآن الكريم تلك الخطوات الهامة في وجدان ميمونة ، فهلم نستمع إلى القرآن الكريم وهو يحكي قصة ميمونة :

ميمونة في القرآن الكريم :

قُلْنَا : «إِنَّ مَيْمُونَةَ ۙ كَانَتْ قَدْ أَفْضَتْ بِأَمْنِيَّتِهَا إِلَىٰ أَخْتِهَا أُمِّ الْفَضْلِ بِنْتِ الْحَارِثِ ۙ وَحَدَّثَتْهَا عَمَّا تَحْلُمُ بِهِ مِنْ أَنْ تَكُونَ زَوْجًا لِلرَّسُولِ الْأَعْظَمِ ۙ وَكَانَ لِيَكُونَ لِبَنِي هَلَالٍ شَرَفٌ مِصَاهِرْتَهُ كَمَا نَالَ هَذَا الشَّرَفُ قَبْلَهَا : بَنُو تَمِيمٍ ، وَبَنُو عَدِيِّ ، وَبَنُو أُمِيَّةٍ ، وَبَنُو مَخْزُومٍ ، وَبَنُو أُسْدٍ ، وَبَنُو الْمُصْطَلِقِ وَغَيْرِهِمْ .»

ويبدو أن أم الفضل لم تكتف هذا الخبر عن زوجها العباس بن عبد المطلب عم النبي ﷺ ، وصنو أبيه ، ويبدو أيضًا أن العباس قد أفضى إلى ابن أخيه بأمنية ميمونة بنت الحارث الهلالية ، فبعث رسول الله ﷺ ابن عمه جعفر بن أبي طالب ليخطبها فما إن خرج جعفر من عندها حتى سُرَّت لهذا الخبر الميمون ، فركبت بعيرها ، ثم انطلقت إلى حيث كان الرسول الحبيب ﷺ في قبته بالأبطح ، فما إن وقعت عيناها عليه حتى قالت : «البعيرُ وما عليه لله ورسوله» .

وتحدث الناس عما فعلت ميمونة حيث إنها لم تستطع الانتظار فجاءت تهبُ نفسها لله ورسوله ، وقد سماها رسول الله ﷺ ميمونة بعد أن كان اسمها برة .

سرى الهمس بين مرضى القلوب استخفافاً بالشابة التي استجابت استجابة صادقة لمشاعرها دون رياء ، ووجد المنافقون فرصة للغمز واللمز ، ومحاولة ذرّ الرماد في العيون ، وبذر بذور الاستياء في قلوب المسلمين ، وإذ ذاك أنزل الله ﷻ قرآنًا يتلى ويحسم أقوال أولئك الذين في قلوبهم مرض ، قال الله : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ النَّبِيَّاتِ أَتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ

وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكَ وَبَنَاتِ خَالَتِكَ أَلَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَأُمَّةً
مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِنْ دُونِ
الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا
يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿ [الأحزاب: ٥٠] (١) .

ميمونة وزواج ميمون :

في عمرة القضاء انساب المهاجرون في دروب مكة يستنشقون عبير أرض
الذكريات الحلوة ، ويتأملون مراتع الصبا والشباب فرحين مسرورين ،
وكانت بعض بيوتهم خاوية لا حركة فيها ، قد خيم عليها السكون فتبعث
الأسى في النفوس ، ولكنهم ألقوا عليها نظرات عابرة دون أن تترك أثراً في
قلوبهم التي عمرها الإيمان بحب الله ورسوله .

كان المسلمون المهاجرون ، وهم في المدينة يستشعرون شوقاً شديداً إلى مكة
أم القرى ، وكانت أعز أمانيتهم أن يعودوا إليها ، وأن يروا أقرباءهم وأن يروا
ظمأهم من ماء زمزم ، وأن يطوفوا بالبيت العتيق ، فإذا بآمالهم كلها تتحقق
وهاهم أولاء اليوم يطوفون بالبيت العتيق وهم بصحبة الحبيب المصطفى ﷺ .

أقام رسول الله ﷺ بمكة ثلاثاً ، فلما أصبح اليوم الرابع أتى حُوَيْطِبُ بن
عبد العزى - وقد أسلم فيما بعد - ونفر من مشركي قريش ، فقالوا لرسول الله
ﷺ قد انقضى الأجل فاخرج عنا فقد مضت الثلاث ، وكان قد أتم عمرة

(١) انظر: تفسير القرطبي (١٤/٢٠٥-٢١٤) ، وسير أعلام النبلاء (٢/٢٤٢، ٢٤٣) .

القضاء فقال : «وما عليكم لو تركتموني فأعرستُ بين أظهركم ، فصنعت لكم طعامًا فحضرتموه؟» .

فقالوا : لا حاجة لنا بطعامك فاخرج عنا ، فخرج النبي ﷺ ، ونزل في سرف فأقام بها .

ولما خرج رسول الله ﷺ من مكة خلف مولاه أبا رافع ليحمل ميمونة أم المؤمنين إليه حين يمسي ، ثم خرج أبو رافع بميمونة ليلحق رسول الله ﷺ والمسلمين في سرف .

وفي ذلك الموضع ضربت قبتها ، وبنى رسول الله ﷺ بها في هذه البقعة المباركة ، ويومئذ سهاها رسول الله ﷺ ميمونة ، فقد كان زواجه بها في هذه المناسبة الميمونة التي دخل فيها مكة للمرة الأولى منذ أن خرج منها مهاجرًا في سبيل الله منذ سبعة أعوام كوامل .

وأعرس رسول الله ﷺ بعد أن أحل من العمرة وفرح الصحابة الكرام بهذه المناسبة الميمونة المباركة .

دخلت ميمونة البيت النبوي ، ولما تتجاوز السادسة والعشرين ، وإنه لشرف ما بعده شرف لميمونة التي أحست كأنها ارتفعت حتى كادت تلمس الثريا ، ونجوم السماء عندما نُظمت في عداد أمهات المؤمنين الطاهرات رضي الله عنهن وأرضاهن .

في المدينة المنورة دخلت ميمونة أم المؤمنين الحجرة التي أعدها رسول الله

ﷺ لتكون بيتًا لها ، واستقبلت نساء النبي ﷺ ميمونة استقبالًا حسنًا وأكرم من مثواها إكرامًا لرسول الله ﷺ وطلبًا لمرضاة الله ﷻ .

أخذت ميمونة ﷺ تستمع إلى الأحاديث النبوية من الرسول الكريم ﷺ ، وتهتدي بما يقوله ﷺ ، فكانت تكثر من الصلاة في المسجد النبوي ؛ لأنها سمعت النبي ﷺ يقول : «صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام» (١) .

ظلت أمنا ميمونة - رضوان الله عليها - في البيت النبوي ، وظلت مكانتها رفيعة عند رسول الله ﷺ ، ولما اشتد المرضُ بالنبي ﷺ نزل في بيتها ، ثم انتقل إلى بيت عائشة ﷺ ليُمرض هنالك ، فرحبت أم المؤمنين ميمونة بذلك ، ونقل إلى بيت عائشة .

روت أم المؤمنين عائشة هذا فقالت : «أول ما اشتكى رسول الله ﷺ في بيت ميمونة ، فاستأذن أزواجه أن يمرض في بيتي فأذن له» (٢) .

انتقل الرسول الكريم ﷺ إلى الرفيق الأعلى وهو راضٍ عن زوجاته الطاهرات ، وكنَّ تسعًا ، وقد نظم بعض العلماء زوجات النبي ﷺ اللواتي مات عنهن فقال :

توفي رسول الله عن تسع نسوةٍ إليهن تُعزى المكرمات وتُنسبُ
فعائشة ميمونة وصفية جويرية مع سودة ثم زينبُ

(١) مسند أبي يعلى (١٣/٣٠، ٣١)، برقم (٧١١٣) .

(٢) المغازي للزهري (ص ١٣٠) .

كذارملة مع هند أيضًا وحفصة ثلاث وست نظمهن مهذبٌ

ويبدو أن كبار شعراء العلماء قد أغرموا في هذا الفن العظيم ، فتبادروا فيما بينهم في نظم أسماء النبي ﷺ ، وأسماء زوجاته وبناته وأولاده ، وصحبه المبشرين بالجنة ، وكذلك أسماء من كان يشبهه أو أسماء الخلفاء وغير ذلك .

قال أحدهم ، وقد أدلى دلوه في هذا المجال فنظم أسماء نساء النبي ﷺ اللواتي بقين بعده ومات عنهن فقال :

توفي رسول الله عن تسع نسوة

وهن ابنة الصديق رملة حفصة

جويرة هند وزينب سودة

وميمونة والمصطفاة صفية

ميمونة وابن أختها :

لما كان عام الوفود قدم وفد بني هلال بن عامر رهط أم المؤمنين ميمونة ؓ ، وذكر في وفد بني هلال زياد بن عبد الله مالك العامري فلما دخل المدينة المنورة ، قصد منزل خالته ميمونة بنت الحارث فدخل عليها ، فلما دخل رسول الله ﷺ منزله رآه فغضب ورجع .

فقالت له ميمونة : «يا رسول الله ، إنه ابن أختي» ، فدخل ثم خرج إلى المسجد ومعه زياد ، فصلى الظهر ، ثم أدنى زيادًا فدعا له ووضع يده على رأسه ثم حדרها على طرف أنفه فكانت بنو هلال تقول : «ما زلنا نتعرف البركة في وجه زياد مُذ مسح رسول الله ﷺ على وجهه» ، وفي هذه البركة قال أحد الشعراء لزياد بن عبد الله :

إن الذي مسح الرسول برأسه ودعاه بالخير عند المسجد

أعني زيادًا لا أريد سواه من عابر أو متهم أو منجد
 ما زال ذاك النور في عرينه حتى تبوأ بيته في ملحد^(١)
 ميمونة وشهادة ميمونة :

عكفت أم المؤمنين ميمونة رضي الله عنها في العبادة والصلاة في البيت النبوي ،
 وأخذت تهتدي بهدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكانت تكثر من الصلاة والوقوف بين
 يدي الله عز وجل ، آناء الليل وأطراف النهار .

وفي البيت النبوي الطاهر أخذت أمنا ميمونة تقتبس من أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم ،
 وتمشي على الطريق الذي أمر به ، وكانت شديدة غاية الشدة فيما يتعارض مع
 حدود الله عز وجل ، ولعل تطبيق الحدود الإلهية من أجل ما كانت تحاول أم المؤمنين
 ميمونة تطبيقه والحض عليه .

ذكر ابن سعد رضي الله عنه : « أن ذا قرابة لميمونة أم المؤمنين رضي الله عنها ، قد دخل عليها
 ذات يوم فوجدت منه ريح شراب ، فقالت وقد أخذها الغضب : والله لئن لم
 تخرج إلى المسلمين فيقام عليك الحد بالجلد ، لا تدخل عليَّ أبدًا بعد هذا اليوم ،
 وأمرته بالخروج فخرج »^(٢) .

وهذا الموقف يشير إلى تمسك أمنا ميمونة بأوامر الله سبحانه وتعالى ،
 وتطبيق السنة المطهرة ، فلا يمكن لها أن تُحابي قرابتها في تعطيل حدٍّ من حدود
 الله تعالى .

(١) البداية والنهاية (٩٢ / ٥) بشيء من التصرف .

(٢) عن طبقات ابن سعد (١٣٩ / ٨) ، بشيء من التصرف .

وقد زكى رسول الله ﷺ إيمان ميمونة ، وشهد لها ولأخواتها بالإيمان ، وحسن الثقة بالله سبحانه ، فقد أوردت المصادر الوثيقة بإسنادها إلى ابن عباس رضي الله عنه ، قال : قال النبي ﷺ : «إن الأخوات لمؤمنات» ، وفي لفظ : «الأخوات مؤمنات ميمونة - زوج النبي ﷺ وأم الفضل - وسلمى امرأة حمزة ، وأسما بنت عميس أختهن لأمهن» ^(١) .

وشهدت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها لميمونة بصفات كريمة منها : التقوى ، وصلة الرحم ، فقد قالت في حقها بعد وفاتها : «ذهبت والله ميمونة ، أما إنها كانت من أتقانا وأوصلنا للرحم» ^(٢) .

الأيام الأخيرة :

كانت أم المؤمنين ميمونة رضي الله عنها قد عاشت الخلافة الراشدة وهي تحظى باحترام الخلفاء والعلماء وامتدت بها الحياة إلى خلافة معاوية رضي الله عنه .

قال الإمام الذهبي وغيره : «توفيت سنة إحدى وخمسين رضي الله عنه» ^(٣) ، وكان لها يوم توفيت ثمانون أو إحدى وثمانون سنة ، وكانت امرأة جلدة» ^(٤) .

(١) سير أعلام النبلاء (٢/٢٤٥) ، والمواهب اللدنية (٢/٩٠) ، ومختصر تاريخ دمشق (٢/٢٨٦) .

(٢) مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر (٢/٢٨٦) .

(٣) مسند أبي يعلى (١٣/٢٧ ، ٢٨) ، حديث رقم (٧١١٠) .

(٤) سير أعلام النبلاء (٢/٢٤٥) ، وابن سعد في الطبقات (٨/١٤٠) .

وكانت أم المؤمنين ميمونة رضي الله عنها في زيارة لمكة المكرمة عام وفاتها ، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم كان قد أخبرها أنها لا تموت بمكة .

روى هذا الأثر ابن أخيها يزيد بن الأصم قال : ثقلت ميمونة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، وليس عندها أحد من بني أخيها فقالت : أخرجوني من مكة ، فإني لا أموت بها ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبرني أني لا أموت بمكة .

قال : فحملوها حتى أتوا بها سرف إلى الشجرة التي بنى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم تحتها في موضع القبة فماتت ، فلما وضعناها في لحدها أخذت ردائي فوضعتة تحت خدها في اللحد فأخذه ابن عباس فرمى به ^(١) .

وعن عطاء رضي الله عنه قال : «توفيت ميمونة في سرف فخرجت مع ابن عباس إليها فقال : إذا رفعتم نعشها فلا تُزلزلوها ولا تززعوها» ^(٢) .

وهكذا جعل الله صلى الله عليه وسلم المكان الذي تزوجت به ميمونة هو مكان وفاتها ، قال يزيد بن الأصم : «دفنا ميمونة بسرف في الظلة التي بنى فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم» .

وقد صلى على جنازتها سيدنا عبد الله بن عباس ، ودخل قبرها هو ويزيد بن الأصم وعبد الله بن شداد بن الهاد وهم أولاد أخواتها .

هذه أمنا ميمونة بنت الحارث الهلالية ، آخر حبات العقد الفريد وإحدى أمهات المؤمنين اللواتي ينصوين تحت قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٤٥) .

(٢) أسد الغابة (٦/ ٢٧٤) ، ترجمة رقم (٧٢٩٧) ، وتهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٣٥٦) .

اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿ [الأحزاب: ٣٣]
 صدق الله العظيم .

فرضي الله عن أمنا ميمونة وأرضائها ، وجعل جنة الفردوس مأواها ، مع
النبيين والصديقين والشهداء ، وحسن أولئك رفيقاً .



أمامة بنت حمزة رضي الله عنها

أبوها حمزة بن عبد المطلب سيد الشهداء .
خصها رسول الله ﷺ بهدية من حلة جميلة .

أمامة بنت حمزة رضي الله عنها

عُصْنُ رَطِيبٌ :

من دوحة مورقة فينانة ذات ظلال وارفة ، وأغصان رطيبة ، يظهر هذا الغصنُ الرطيبُ .

هذه الدوحة الحمزية قد تفرعت عن كرام وكرائم ، كانوا من نُجباء المدرسة المحمدية التي أظلت الدنيا بمحاسن أفعالها ، وعطرت الوجود بفضائل أعمالها :

عم الرسول وخير الصحب من شهدت
بفضله مُوجبات القرب في البلد
شهم شُجاع له يوم الهياج يد
طالت بلا شُبهة من فوق كل يد
الهاشمي كريم النسبتين له
في ساحة المجد روض بالكمال ندي

ذلكم هو أسد الله وأسد رسوله حمزة بن عبد المطلب عم النبي ﷺ ، يعرفه الخاص والعام ، وشهرته في عالم المشاهير معروفة كالشمس في رائعة النهار ، آمن والإسلام لا يزال يتفتح زهر أكمامه عن شذا عبيره ، وأنداء رحيقه ، فكتب مع ثلة السابقين إلى دوحة الحق ، وأهل الإيمان ، وسجل في أوراق الأيام أبداع سطور المجد والعز والدفاع عن الإسلام .

أما ابنته التي نعيش في رحاب أخبارها ، فهي أمامة بنت حمزة بن عبد

المطلب القرشية الهاشمية^(١)، تلك البنت التي لا يكاد أحد يعرف عنها شيئاً مذكوراً في دنيا بنات الصحابة الطاهرات؛ ولذلك رأينا أن نخصها بترجمة خاصة، وننظمها في عقد بنات الصحابة الخيرات، لتكون صورتها واضحة المعالم في جبين تاريخ النساء في مطلع شمس الرسالة المحمدية وفي صدر الإسلام.

فأبوها - كما علمنا - أسد الرحمن وأخو النبي ﷺ من الرضاعة حمزة بن عبد المطلب ﷺ.

وأما إحدى الأخوات المؤمنات اللاتي شهد هن رسول الله ﷺ بالإيمان، ووسمهن بعلامة أهل النجاة وأهل الفلاح، فقال: «الأخوات مؤمنات»، وهذه الشهادة الزاهرة الزهراء من رسول الله ﷺ تزيد من رصيد والدة أمامة وهي سلمى بنت عميس الخثعمية امرأة حمزة بن عبد المطلب، وإحدى النساء اللواتي عمر الإيمان قلوبهن منذ أن تضوع مسك نداه على الدنيا.

فتحت أمامة عينيها على أبوين أصلهما ثابت في منابت الإسلام، وفرعها متناول في سماء الإيمان، ولا نعلم بالتحديد متى كان مولد أمامة، ولكنها كانت صغيرة عندما استشهد أبوها حمزة في غزوة أحد في السنة الثالثة من

(١) أسد الغابة (٢١/٦)، ترجمة رقم (٦٧١٥)، وطبقات ابن سعد (٤٨/٨)، والمحبر (ص ٦٤، ١٠٧)، والإصابة (١٢/١٢٥، ١٢٦)، ترجمة رقم (٦٤)، وأعلام النساء (٧٦/١)، والاستيعاب (٢٦٦/١٣)، ترجمة رقم (٣٥٩٦)، وتهذيب التهذيب (٦١٥/١٠)، وسبل الهدى والرشاد (٢٩٦/٥، ٢٩٧).

الهجرة .

ابنة الشهيد :

كان لحمزة بن عبد المطلب ﷺ مكانة عظيمة عند رسول الله ﷺ ، وكان حمزة يرى بعين بصيرته أن النبي ﷺ يحب زيد بن حارثة مولاه حباً شديداً ، فكان ﷺ يؤثره بألوان المكارم والإكرام ، ويُضفي على نفسه الصافية مزيداً من إنعام الإنعام .

وكان زيد بن حارثة ﷺ قد تفانى في خدمة الحبيب المصطفى ﷺ ، وآثره على أهله وعشيرته أجمعين ؛ لذلك كانت هنالك مؤاخاة حمزة وزيد ، ولكنها مؤاخاة تجمع معالم الإخاء ومآثره .

ولعل مؤاخاة حمزة وزيد كانت مفتاح خير لكليهما ، فقد بلغت هذه المؤاخاة مبلغاً كريماً حتى إن حمزة قد أوصى لزيد في غزاة أحد إن حظي بوسام الشهادة ، وكان حمزة قد أشار إلى أن وصيته تشمل ابنته أمامة التي لم تشب عن الطوق بعد .

ولما كانت غزوة أحد ودع حمزة زوجته سلمى وابنته أمامة ، وخرج إلى ميدان الجهاد لينطلق إلى جنة عرضها السموات والأرض ، وراح يقاتل بسيفين بين يدي رسول الله ﷺ ، وهو يترنم ويقول وهو يقاتل : أنا أسد الله ، أنا أسد الله وحق له أن يفخر بهذا اللقب ، ولكن يد الحقد والغدر نسجت طريقة خبيثة لاغتيال أسد الإله ، فلقي الله ليكون سيد الشهداء ، نعم سيد الشهداء :

ففاز وأضحى سيد الشهداء في ملائكة الرحمن يسعى ويغتدي

وكان المصاب أليماً على زوجته وابنته أمامة والمسلمين وأصيب المسلمون به جميعاً ، وقد أصيب به الرسول ﷺ ، وأضحت أمامة ابنة سيد الشهداء في رعاية أمها سلمى التي أضفت عليها الود والعطف والحنان .

وظلت سلمى أليماً إلى أن انقضت عدتها ، فخلف عليها بعد استشهاد حمزة شداد بن الهاد الليثي ، فولدت له عبد الله وعبد الرحمن ، وكان عبد الله بن شداد يقول : كانت بنتُ حمزة أختي من أمي ، وكانت أمنا سلمى بنت عُميس .

أمامة تسأل عن قبر أبيها :

في شمال المدينة المنورة يقع جبل أحد ، وعند سفحه الداكن تُوجد قبور شهداء غزوة أحد ، ومنهم حمزة عم النبي ﷺ .

وفي الحديث النبوي : «هذا جبل يحبنا ونحبه» ، نعم في ذيل هذا الجبل المبارك تُوجد مضاجع شهداء الحق ، الذين أكرموا بالشهادة والذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه .

ولئذ بسادات ذاك السفح كلهم أصحاب خير الورى المختار ذي السدد
أعني بهم شهداء الحق قاطبة المهرفين الدماء في نصرة الأحد
فاستجل أنوارهم بالعين مقتبسًا كي تستضيء بها في ظلمة البلد

يوجد في ذلك السفح أيضًا قبر حمزة :

حبيب رسول الله ناصر دينه أجل شهيد فضله أخجل المزنا

نعم يوجد مثوى حمزة قاصم الشرك ، وفاصم عُراه .

أسد الله حمزة ذي الأيادي عم خير الورى رحى الهيجاء

أيد المصطفى وأولاه نصرًا وافتداه بنفسه في الوغاء
 في ذلك السفح الداكن يظل حمزة شعارًا لكل الشهداء ، ويظل أسد الله
 عنوان الكمال للفروسية ، وشدة البأس إذا حمي الوطيس :

عم الرسول شديد البأس حمزة يدعى لسطوته في الحرب بالأسد
 فعن ندى كفه حدث ولا حرج وعن مدى صيته نبى ولا تحد
 فدون أوصافه عد الرمال فكن بعروة الفضل منه آخذًا بيد

وبين هذه النسائم العطرات نشأت أمانة وهي تعي أن أباه سيد الشهداء ،
 وفارس الأبطال ، وعندما قدم رسول الله ﷺ من عمرة القضاء ، أخذ معه
 أمانة ابنة حمزة ، فلما قدمت أمانة المدينة طفقت تسأل عن قبر أبيها ، وفي أي
 مكان هو عند ذلك ، بلغ شاعر الرسول ﷺ حسان بن ثابت ما تبحث عنه
 أمانة فأنشد يذكر بعض مناقب حمزة ، ويقول مخاطبًا أمانة ، ومبينًا فضل أبيها :

تُسائلُ عن قرم هجان سميذع لدى الناس مغوار الصباح جسور
 أخي ثقة يهتز للعرف والندی بعيد المدى في النائبات صبور
 فقلت لها إن الشهادة راحة ورضوان رب يا أمامُ غفور
 فإن أباك الخير حمزة فاعلمي وزيرُ رسول الله خير وزير
 دعاه إله الحق ذو العرش دعوة إلى جنة يجيأ بها وسرور
 فذلك ما كنا نرجى ونرتجي لحمزة يوم الحشر خير مصير
 فوالله لا أنساك ما هبت الصبا بكاءً وحزنًا في محضري ومسيري
 على أسد الله الذي كان مدرها يذود عن الإسلام كل كفور
 أقول وقد أعلى النعي عشيرتي جزى الله خيرًا من أخ ونصير^(١)

(١) انظر : ديوان حسان بن ثابت (ص ٢١٩) ، والإصابة (١٢/١٢٦) ، ترجمة رقم (٦٤) .

ولعل بعض الناس قد أرشد أمانة إلى سفح جبل أحد ، حيث يرقدُ حمزةُ شهيداً ، فلقد كانت تعلم أي مجد مؤثّل بلغه ، ويكفيه من الفضل والشرف أنه رضيع رسول الله ﷺ :

يا سيد الشهداء بعد محمد	ورضيع ذي المجد المرفع أحمد
يا ابن الأعزة من خلاصة هاشم	سُرُج المعالي والكرام الممجد
يا أيها البطل الشجاع المحتمي	دين الإله ببأسه المتأسد
يا نبعة الشرف الأصيل المعتي	يا ذروة الحب الأثيل الأتلد
يا حمزة الخير المؤمل نفعه	يوم الهياج وعند فقد المنجد

هدية نبوية لابنة حمزة :

كان لأمانة بنت حمزة ؓ منزلة رفيعة عند رسول الله ﷺ ، فكان يخصها بالهدية ، وقد ورد أنه قد خصها مع أخريات بهدية من حلة جميلة .

جاء في الصحيح وغيره ، عن علي بن أبي طالب ؓ قال : أهدى إلى رسول الله ﷺ حلة سيرا «برد فيه خطوط صفراء» فقال لي : «اجعلها حمرا بين الفواطم ، حمرا لفاطمة بنت أسد ، وحمرا لفاطمة بنت محمد ﷺ ، وحمرا لفاطمة بنت حمزة بن عبد المطلب» (١) .

ولعل في هدية الرسول ﷺ لابنة حمزة إكراما لعمه سيد الشهداء وفتى الفتيان ، أسد الله ، وأسد رسوله ﷺ ، وأنضر أغصان دوحة عبد المطلب بن هاشم .

(١) انظر : تفسير مبهمات القرآن (٢/ ٣٦١، ٣٦٢) ، وأسد الغابة (٦/ ١٢٩) ، ترجمة رقم (٧١٧٢) .

ولعل ذلك أيضًا تكريم لبنات الشهداء من الصحابة الكرام أولئك البنات اللواتي نبتن في مدارج التربية الإسلامية ، فكانت التربية الحانية ترعى هؤلاء البنات الطاهرات رضوان الله عليهن .

يا عمُّ يا عمُّ :

كلمة بريئة : يا عم يا عمُّ ، أطلقتها أمامة في يوم من أيام الرسول ﷺ ، فكانت لها عزًا وحمى ، ومن ثم عاشت في بيت تتضوع أنفاس الإيثار في جوانبه ، وأنسام الإخلاص حوله ، ذلكم البيت هو بيت خالتها أسماء بنت عميس ، زوج جعفر بن أبي طالب ، رضي الله عنهم جميعًا .

فقد جاء في الصحيح وغيره ، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، أنهم اختصموا في ابنة حمزة فقضى رسول الله ﷺ لخالتها فقال : «إن الخالة أم» .

قلتُ : يا رسول الله ، ألا تزوجها ؟

فقال : «إنها لا تحل لي ، إنها ابنة أخي من الرضاعة» .

وقال لعلي : «أنت مني وأنا منك» .

وقال لزيد : «أنت أخونا ومولانا» .

وقال لجعفر : «أشبهت خُلُقي وخُلُقي»^(١) .

أما قصة أمامة بنت حمزة وكفالتها من قبل خالتها ، فنحن مرسلو القول فيها ، وباسطو أحداثها بإذن الله ، كي تنجلي لكم الأجواء الضبابية ، عن

(١) انظر : غوامض الأسماء المبهمة (ص ٧٠٩) ، خبر رقم (٢٥٠) .

القصة ، لتوضح صورة أمامة بشكل أفضل بين بنات الصحابة الطاهرات .
 ففي عُمره القضاء كان رسول الله ﷺ قد أعدَّ للرحيل من مكة وفاء بوعد
 لأهلها - كما هو مشهور في السيرة - وخرج رسول الله ﷺ ، وخرج معه
 أصحابه الذين رافقوه في أداء هذه العمرة ، وفيهم السادة الأعلام الأعلون :
 علي بن أبي طالب ، ومعه زوجه سيدتنا فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين ،
 وابنة رسول رب العالمين ، وابنة سيدة نساء العالمين ، وفيهم زيد بن حارثة
 حَبُّ الحبيب الأعظم ﷺ ، ورأس الأسرة الزيدية الحبيبة المحببة إلى قلب
 الحبيب المصطفى ﷺ ، وقلوب المؤمنين ، وفيهم جعفر بن أبي طالب رضي الله
 عنهم جميعًا .

فلما خرج النبي ﷺ تبعته أمامة وكانت جارية صغيرة ، وهي تنادي : يا عم ،
 يا عم ، وكانت هذه الكلمة كأنفاس الربى فوق زهر الكمام ، فسمعها علي بن
 أبي طالب ﷺ ، فتناولها وأخذ بيدها ، وقال لسيدتنا فاطمة الزهراء - عليها
 سحائب الرضوان : دونك ابنة عمك ، فحملتها فاطمة معها ، فلما رجعوا إلى
 المدينة المنورة اختصم عليٌّ وزيد وجعفر ﷺ ، في أيهم هو أولى بأمامة بنت حمزة ،
 فيكون وليها ، وراعيها ، وكافلها ، وتكون عنده في أهله وولده ، فكلم زيد
 رسول الله ﷺ وهو وصي حمزة ، ووديده في الأخوة الإيمانية الخاصة التي
 تبرعت وأزهرت في حياة حمزة ﷺ ، فتقدم علي فقال : أنا أخذتها وأخرجتها
 من بين أظهر المشركين ، وهي ابنة عمي حمزة ، وعندني بنت رسول الله ﷺ
 فاطمة الزهراء ، وهي أحق الناس بها ، وقال جعفر بن أبي طالب : هي ابنة

عمي أيضًا ، وخالتها تحتي ، يعني زوجه أسماء بنت عميس ، وقال زيد : ابنة أخي ، يعني لما كان بينه وبين حمزة من أخوة الود والمحبة ، ووصية حمزة له لما حضر القتال يوم «أحد» ، هناك قضى بها النبي ﷺ لخالتها ، وقال : «الخالة بمنزلة الأم» ، فلم تزل أمامة عند جعفر حتى نال الشهادة في سرية مؤتة ، وكان قد أوصى بها إلى أخيه علي ، فمكثت عنده حتى كبرت ، فعرضها على النبي ﷺ كيما يتزوجها ، فقال ﷺ : «إنها ابنة أخي من الرضاعة» ، أي : لا تحل لي ؛ لأن حمزة أخو رسول الله ﷺ من الرضاع ، أرضعتها ثوية مولاة أبي لهب .

ثم إن الحبيب المصطفى ﷺ زوجها من سلمة ابن أم سلمة أم المؤمنين ، وقال حين زوج أمامة من سلمة : «هل جُزيت سلمة؟» ، وذلك أن سلمة هو الذي زوج رسول الله ﷺ أمه أم سلمة ، وكان أكبر من أخيه عمرو بن أبي سلمة .

أمامة والقضاء النبوي العادل :

أجدني هنا - عزيزي القارئ - مرخيًا عنان القلم قليلاً في قصة أمامة والقضاء النبوي فيها لخالتها ، وذلك لما فيها من اللطائف النبوية ، والفرائد المحمدية على الرغم من أن قصة أمامة مع جعفر وعلي وزيد تبدو شائكة عسرة ؛ إذ إن كل واحد منهم أحلى دلوه ، وأتى بالحجة التي تخوله بأن يكفل ابنة حمزة ﷺ .

فعلي وجعفر رضوان الله عليهما تربطهما بالحبيب الأعظم ﷺ صلة القربى ، وهما بالنسبة لابنة حمزة أبناء عمومة .

أما زيد رضوان الله عليه فهو مولى النبي ﷺ ، وتربطه به علاقة تربية ومحبة ،

حيث تبناه النبي ﷺ لما آثره زيد على أهله ، ثم أبطل الإسلام ذلك التبني فيما أبطل .

ولكن هذه القصة كانت محل اهتمام النبي ﷺ ، في ضوء الهدى الرباني العظيم ؛ إذ إن زيد بن حارثة مها نال من شرف الأخوة وحقها لحمزة فهو دون علي وجعفر في استحقاق ابنة حمزة ، وقد يرى بعض بني هاشم في تربيتها في بيته ما يخل بمنزلتهم في قريش ، أو ربما ترى البنات الهاشمية في ذلك غضاضةً عليها ، ولكن التفاضل من بني هاشم وكلاهما ابن عم الرسول ﷺ ، وكلاهما ابن عم لها ، بل إن كليهما من أسبق السبق ومن أكرم الأولين المهاجرين إلى الله ورسوله ، ومنزلتها مشهورة معروفة في الإسلام ، وذروة الأسرة العلوية ورأسها وسنامها هو زوج فاطمة الزهراء عليها السلام ، وذروة الأسرة الجعفرية وسنامها هو زوج أسماء خالة ابنة حمزة ، إذ أبقى حكم وقضاء من تنزل عليه القرآن العظيم من فوق سبعة أرقعة ففضى بابنة حمزة لجعفر ؛ لأن خالتها عنده ، والخالة بمنزلة الأم ^(١) .

نقل الإمام الصالحى رحمته الله عن محمد بن عمر الواقدي قال : لما قضى رسول الله ﷺ بأمامة لجعفر ، قام جعفر فحجل حول الرسول ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : «ما هذا يا جعفر؟» .

قال : يا رسول الله ، كان النجاشي إذا أرضى أحداً قام فحجل ^(٢) .

(١) انظر : تفسير القرطبي (٤ / ٨٨) .

(٢) سبل الهدى والرشاد (٥ / ٢٩٧) .

ولله در القائل مخاطبًا جعفر بن أبي طالب عليه السلام :

ولسك العذر إن رقصت فهذي نشوة الحب تأخذ المخلصينا

ونظرة بسيطة نرى كمال هذا القضاء النبوي الوضيء فقد يبدو بادي الرأي
وللوهلة الأولى أن سيدنا عليًا عليه السلام قد كان أولى وأحق بابنة حمزة ، فهو ابن عم لها ،
وزوجه الزهراء ابنة ابن عمها ، ومن الزهراء ؟

ولكن كيف يكون ذلك وتعيش أمامة عند علي ؟ ابنة العم مهما بلغت من
الكرم ، ومهما بلغت من التسامح والرعاية ، فلن تكون كالحالة ، وربما ترى في
وجود ابنة عمها معها - وهي من تحلُّ لزوجها - منافسًا لها وعندئذٍ لا تعجب
إذا كان صاحب القضاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فقد قضى بهذا القضاء الحكيم الوضاء ،
فقضى بها لجعفر ؛ إذ عنده خالتها أسماء بنت عميس ، وهي من اللاتي نبتن في
منابت الإسلام ، وهي من هي دينًا وخُلُقًا ، وتضحيةً في سبيل الله ورسوله .

وهكذا وبهذا الحكم النبوي العادل ، طيب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خاطر علي ، وزيد ،
وجعفر ، حيث قضى بجلال الحق ومرضاة الله ، وبما فيه مصلحة للنفوس
البشرية ، ليكون ذلك القضاء صورة وضيئة جميلة في جبين التاريخ ، وليكون
الإسلام هو الدين الذي ارتضاه الله للعباد .

بقي أن نعلم أنه قد روى الحديث ^(١) عن ابنة حمزة فيما رواه عنها أخوها
لأمها عبد الله بن شداد ، قالت : مات مولى لي وترك ابنته ، فقسم رسول الله

(١) الدر المنثور في طبقات ربات الخدور (ص ٦٥) ، وأعلام النساء (١/ ٧٦) .

ﷺ ماله بيني وبين ابنته ، فجعل لي النصف (١) .

وتسكت المصادر فلا تحدثنا عن بقية حياة ابنة حمزة ولا عن وفاتها ، ولعل وفاتها كانت في المدينة المنورة ، فرضي الله عن أمامة وأرضائها ، وجعل جنة الفردوس مأواها .



(١) أسد الغابة (٦/٢١٩) ، والإصابة (١٣/٢٦٦) ، والاستيعاب (١٣/٢٦٦) .

جميلة بنت سعد بن الربيع رضي الله عنها

هي بنت سعد بن الربيع النقيب الشهيد الذي قال فيه رسولنا ﷺ: «اللهم ألِّقْ سعدًا وأنت عنه راضٍ» .
وقال ﷺ: «رحمه الله فقد نصح لله ولرسوله حيًّا وميتًا» .
قال ﷺ لعم جميلة: «أعط ابنتي سعد الثلثين ، وأمهما الثمن ، وما بقي فهو لك» .

جميلة بنت سعد بن الربيع رضي الله عنها

مع الأخيار :

هذه امرأة من نساء الأنصار تأتي لتأخذ مكانتها في عالم النساء ممن خلفن آثارًا وضيئة في تاريخ المرأة .

دخلت ابنة سعد بن الربيع رضي الله عنها على أبي بكر الصديق رضي الله عنه فألقى لها رداءه لتجلس عليه ، فدخل عليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه فسأله عنها ، وقال : من هذه ؟ فقال الصديق رضي الله عنه : هذه ابنة من هو خير مني ومنك إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال عمر رضي الله عنه : ومن هو يا خليفة رسول الله ؟

قال : رجل تبوأ مقعده من الجنة ، وبقيت أنا وأنت ، هذه ابنة سعد بن الربيع ، من النقباء يوم العقبة ، وشهد بدرًا ، واستشهد يوم أحد رضي الله عنه .

وما دُمننا في ذكر الأخيار وأخبارهم ، فالنقباء اثنا عشر نقيبًا ، وهم تسعة من الخزرج ، وثلاثة من الأوس وهم :

أسعد بن زرارة ، سعد بن الربيع ، عبد الله بن رواحة ، رافع بن مالك بن العجلان ، البراء بن معرور ، عبادة بن الصامت ، سعد بن عبادة ، المنذر بن عمرو ، وأبو الهيثم بن التيهان ، وأسيد بن الحضير ، سعد بن خيثمة ، رفاعة بن المنذر رضي الله عنهم جميعًا ^(١) .

(١) البداية والنهاية (٣/١٥٩) ، والسيرة النبوية (٢/٤٦٧) ، والمحبر (ص ٢٦٨ ، ٢٦٩) .

ثم قال رسول الله ﷺ للنقباء :

«أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحوارين لعيسى ابن مريم ، وأنا كفيل على قومي» ، قالوا : نعم .

فاعترض العباس بن عباد بن نضلة الأنصاري أخو سالم بن عوف قائلاً :
يا معشر الخزرج ، هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل ؟ قالوا : نعم ، قال :
إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس ، فإن كنتم ترون أنكم إذا
أنهكت أموالكم المصيبة ، وأشرفكم القتل أسلمتموه ، فمن الآن فهو والله إن
فعلتم - خزي الدنيا والآخرة ، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتوه إليه
على نهكة الأموال وقتل الأشراف ، فخذوه فهو - والله خير الدنيا والآخرة ،
قالوا : فإننا نأخذه على مصيبة الأموال ، وقتل الأشراف ، فما لنا بذلك يا
رسول الله ، إن نحن وفينا ؟ قال ﷺ : «الجنة» ^(١) .

ويا له من موقف عظيم من هذا الصحابي «العباس بن عباد» ، فلقد أراد
بمقالته تلك أن يؤكد عزم أصحابه ، ويوثق بيعتهم لرسول الله ﷺ على طريقة
تحدي الرجال ، وإثارتهم ، وشد عزائمهم وما قاله إلا ليشد العقد لرسول الله
ﷺ في أعناقهم .

ويشاء الله أن يكون لأسرة «سعد بن الربيع» المؤمنة سهم وافر في هذا
الشرف ، فقد عرض الصحابي الجليل الأمير الشاعر عبد الله بن رواحة - وهو

(١) السيرة النبوية (٢/ ٤٧٠) ، وتاريخ الطبري (١/ ٥٦٣) ، والبداية والنهاية (٣/ ١٦١) .

ابن عم سعد بن الربيع لرسول الله ﷺ قائلاً: يا رسول الله، اشترط لربك ولنفسك ما شئت، فقال ﷺ: «أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشرکوا به شيئاً، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم»، قال: فما لنا إن فعلنا ذلك؟ قال: «الجنة».

فما تمالك سعد بن الربيع وقد سمع «الجنة» من فم رسول الله أن صاح - جذلان مبتهجاً: «ربح البيع ربح البيع، والله لا نقيلاً ولا نستقيلاً»، فنزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١]، فضرب النقباء على يد رسول الله ﷺ مبايعين له على ما اشترط رضي الله عنهم أجمعين.

وقد تعامل سعد بن الربيع مع بيعته بصدق، فلا تسألن عن إخلاصه لبيعته ﷺ، فمن ذلك اليوم لم يتوان عن خدماته للإسلام وأهله، وجاهد في سبيل الله بنفسه وماله، وبكل ما يملك، وشهد بدرًا فأبلى بلاءً عظيمًا، وشهد المشاهد كلها حتى جاءت غزوة أحد فقاتل سعد قتالاً شديداً ليظفر بتلك الأمانة التي كانت تشغل قلوب الصحابة جميعاً ألا وهي الشهادة في سبيل الله.

وتراءت الجنة لسعد بن الربيع مزدانة متألقة، تفعمه بشذاها، وتهباً لدخولها، فانخلع من الدنيا، وتجرد من أسبابها، فألقى درعه، وكسر غمد سيفه، ورمى بكل ما يثقله، وطرح ما يعيقه، وخرَّ كالشهب على جموع المشركين، فما أهوى على أحد إلا غادره مولياً أو صريعاً، فلما رأى المشركون

ضراوة صنيع هذا البطل المغوار فيهم ، وفعله بهم ما يصد له أحد إلا أزاله ، اجتمعوا له ، واحتوشوه ، فأشرعت أرماحهم ونبالهم نحوه ﷺ ، وفوقت سهامهم صوبه ، وهو مندفع ، لا يبالي وما زالوا به ، وما زال بهم ، حتى شخبت جراحه ، فأنهكته وهو يتشحط في دمه ، ويترنح حتى هوى ، أجل هوى سعد بن الربيع البطل وهو يدفع ثمن الجنة ، ليتخذه الله شهيداً بين يدي رسول الله ﷺ ، هوى البطل ، وبه سبعون ضربة ما بين طعنة برمح ، وضربة بسيف ، ورمية بسهم (١) .

وانجلت المعركة الامتحان الصعب ، والاختبار الدقيق بكل ما حفلت به ، وما خلفته فسقط من سقط ، وفاز من فاز .

لقد سقط المنافقون والمرجفون فكشفهم الله وأخزاهم ، فبعداً لهم وسحقاً : ﴿وَلِيَمْحَصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمَّحَقَ الْكٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤١] ، وعفا الله عمن تلكأ وضعف وتأخر .

وسبق الفريق الفائز سعد بن الربيع وإخوانه ممن اتخذهم الله شهداء .

وما إن فرغ الناس مما هم فيه ، حتى كان أول شيء فعله رسول الله ﷺ أن قال : «وما فعل سعد بن الربيع ؟» ، ثم ما لبث أن قال : «من رجل ينظر لي ما فعل سعد بن الربيع ؟» .

فلما رأى الصحابة ﷺ أن النبي ﷺ لهف على سعد وخبره ، قام أبي بن كعب

(١) الكاندهلوى في حياة الصحابة (١/ ٥١٧) ، وفي ظلال القرآن (١/ ٤٥٩) .

فقال : أنا يا رسول الله أنظر لك ما فعل سعد بن الربيع .

فقام وجعل يطوف بين القتلى فبعد لأي عرفه ، وصل أبي بن كعب إليه والملائكة تنهياً لتزفه إلى الفردوس الأعلى ، وهو يرى أطيافها الحبيبة مقبلة نحوه ساعة إليه ، وهو في نشوة عظيمة وسرور لا يدرك .

فوقف أبي بن كعب عليه وراح ينادي بصوت شجي تخنقه العبرات : يا سعد بن الربيع ، لكنَّ سعدًا كان في شُغل عنه وعن دنياه ، إنه الآن في حالة من النعيم والمسرة ، فوق إحساس البشر حالة من السعادة لا يدركه أبي ولا سواه ممن على ظهر الأرض وعلام يناديه ؟ وماذا يبتغي منه ؟ وما يسره أن يرجع إليهم صحيحًا معافي ، وما في الدنيا شيء أحب إليه مما هو فيه الآن ، وما جنات الدنيا ونعيمها وثمارها ولذاتها بشيء في جنب ما يعاين ، بيد أن أبيًا ناداه الثالثة قال : يا سعد بن الربيع ، أنا أبي بن كعب ، وإن رسول الله ﷺ أمرني أن أنظر خبرك ، وقال لي : «أقرئه مني السلام ، وقل له : كيف تجددك؟» .

فما إن سمع سعد ذكر رسول الله ﷺ وتحيته والسؤال عنه ، حتى تنفس كما يتنفس الكير ، ثم قال ، وقد أشرق وجهه ، وعلاه الفرح والحبور والسرور :
وإن رسول الله لحَيّ ؟

قال أبي بن كعب : نعم ، وقد أخبرنا أنه سُرع لك اثنا عشر سننًا ، فاضطرب سرورًا لحياة رسول الله ، ولو استطاع قيامًا لقام ، بلى قد انتفض سعد مبتهجًا وكيف لا ؟

وقد سمع المحب ذكر حبيبه ، وها هو يسأل عنه ، ثم فتح الشهيد السعيد عينيْن كليتين متخضبتين بمسك دمه ، ثم انفجرت شفتاه لتعبر بصدق وإيمان عن سعادة غامرة ، ولتخرج من الدنيا وقد صدقت ووفت بما عاهدت عليه الله بنصيحة مخلص ، فقال سعد :

أقري رسول الله ﷺ مني السلام ، وقل له : إن سعد بن الربيع وجد ريح الجنة ، ويقول لك : جزاك الله خير ما جزى نبياً عن أمته ، وقل له : قد طعنت اثنتي عشرة طعنة كلها أجافنتي - أي : وصلت إلى جوفه - واقراً على قومي الأنصار السلام ، وقل لهم : يقول لكم سعد بن الربيع : الله الله ، وما عاهدتم عليه رسول الله ﷺ ليلة العقبة ، فوالله ما لكم عند الله عذر إن خُلف إلى نبيكم وفيكم عين تطرف ^(١) .

وَحَفَّتْ الصوت ، وسكن الخفقان ، فوجم «أبي بن كعب» وقتاً ، ثم انحنى على سعد يُقبله ، واختلطت الدموع بالدماء ، ثم نهض فترحم عليه ، واستغفر له ، ومضى راجعاً إلى رسول الله ﷺ ليؤدي رسالة الصدق الحقة من الحبيب إلى حبيبه .

يقول أبي : لما سمع رسول الله ﷺ مقالة سعد ، استقبل القبلة رافعاً يديه يقول : «اللهم الق سعد بن الربيع وأنت عنه راضٍ» ^(٢) ، ثم قال ﷺ : «رحمه

(١) الإصابة (٢/ ٢٦٠) .

(٢) المغازي (١/ ٢٩٣) .

الله ، نصح الله ولرسوله حيًّا وميتًا» (١) .

وسنصحب سيرة عطرة طيبة لابنة الشهيد النقيب سعد بن الربيع - جميلة - التي اشتهرت بكنيتها «أم سعد» بنت الربيع رضي الله عنه (٢) .
ولما استشهد أبوها كانت أمها حاملاً بها ، ووضعها بعد عدة أشهر من استشهاده سعد رضي الله عنه .

ونشأت أم سعد - جميلة - يتيمة في حجر أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، واقتبست من أخلاقه الكريمة ، ومن خصاله الحسان ، ومن فصاحته ما رفعها مكاناً علياً في سماء المكرمات ، وأم سعد هذه هي التي اعترضت النبي صلى الله عليه وسلم فقال لها : «من أنت؟» .

قالت : ابنة الخطيب النقيب الشهيد سعد بن الربيع (٣) .

يقضي الله في ذلك أمراً :

في شأن هذه الصحابية وأختها وأمها ، أنزل الله تعالى قرآناً ودستوراً للناس ، وينص هذا الدستور القرآني هذا على إبطال عادة جاهلية مقبحة ، كانت تهضم حقوق المرأة ولا تعترف بمكانتها ، ألا وهي عدم توريث الإناث ، وهي سنة من سنن العرب ، ذلك أن النساء لا يؤول إليهن من ميراث الرجل شيء ،

(١) الاستيعاب (٢/٣٤، ٣٥) .

(٢) انظر : الطبقات (٨/٤٧٧) ، والإصابة (٤/٤٣٧) .

(٣) البيان والتبيين (٢/٦) .

فجاء القرآن الكريم وأحلَّ المرأة المكنانة التي تستحقُّ ، وأنقذها من شرك الجاهلية العمياء .

ولتتابع ذلك فقد روي أنه لما استشهد سعد بن الربيع رضي الله عنه ، وترك ابنتين ، وكان المسلمون يتوارثون على ما كان في الجاهلية ؛ لأن أهل الجاهلية كانوا يجعلون جميع الميراث للذكور دون الإناث ، حتى استشهد سعد بن الربيع رضي الله عنه ، فأخذ عنهم الميراث ، ولم تنزل الفرائض بعد ، كانت امرأة زوج سعد امرأة حازمة صابرة ، فساءها ما صنع أخو زوجها ، وفزعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تشكو ما حدث لينطق بحكم الله صلى الله عليه وسلم ، وينقذها وابنتيها من ظلم الجاهلية ، فكان ذلك ، وروي هذا سيدنا جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : جاءت امرأة سعد ابن الربيع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ، هاتان ابنتا سعد بن الربيع ، قتل أبوهما معك يوم أحد شهيداً ، وإن عمهما أخذ مالهما فلم يدع لهما مالا ولا ينكحان إلا ولهما مال .

فقال المصطفى صلى الله عليه وسلم : «يقضي الله في ذلك» .

فنزلت آية الميراث فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عمهما ، فقال : «أعط الثلثين لابنتي سعد ، وأمهما الثمن ، وما بقي فهو لك» ^(١) .

وعند ذلك كبرت امرأة سعد ، وسُرت بحكم الله صلى الله عليه وسلم الذي نزل بالفصل ،

(١) الحديث رواه الإمام أحمد (٣/٣٥٢) ، وأبو داود (٢٨٩١) ، والترمذي (٢٠٩٣) ، وابن

وأمر بالعدل بين الناس ، وآية الميراث التي نزلت هي قول الحق سبحانه وتعالى
في سورة النساء :

﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَّاتِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ؕ أَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفَعًا فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١١] .

الزواج المبارك :

أوتيت أم سعد «جميلة» خيرًا كثيرًا بزواجها من الإمام الكبير ، وشيخ
المقرئين ، والفرضيين ، وكاتب الوحي ، والمصحف ، وأحد الأذكياء النجباء
من أصحاب رسول الله ﷺ سيدنا زيد بن ثابت الأنصاري ﷺ ، قالوا عنه :
الإمام الذهبي في ترجمته : «الإمام الكبير ، وشيخ المقرئين ، والفرضيين ،
مفتي المدينة» .

مسروق : «قدمت المدينة فوجدت زيد بن ثابت من الراسخين في العلم» .
الإمام مالك بن أنس : «كان إمام الناس عندنا بعد عمر بن الخطاب ﷺ ، زيد
ابن ثابت ﷺ ، يعني بالمدينة ، وكان إمام الناس بعده عندنا عبد الله بن عمر ﷺ» .
ثابت بن عبيد : «ما رأيت أحدًا أفكه في بيته ، ولا أحلم في مجلسه من زيد
ابن ثابت ﷺ» .

ولما مات ﷺ قال أبو هريرة ﷺ: «اليوم مات رباني هذه الأمة، ولعل الله يجعل في ابن عباس ﷺ منه خلفاً» .

وقال: «مات حبر الأمة» .

وقال ابن عباس: «هكذا يذهب العلم»، وقال ابن عمر ﷺ: «يرحمه الله، فقد كان عالم الناس في خلافة عمر ﷺ وحبرها» .

يقول الأستاذ خالد محمد خالد في كتابه «رجال حول الرسول»: «إذا حملت المصحف بيمينك، واستقبلته بوجهك، ومضيت تتأنيق في روضاته اليانعات سورة سورة، وآية آية، فاعلم أن من بين الذين يدينونك بالشكر والعرفان على هذا الصنيع العظيم رجل كبير اسمه زيد بن ثابت ﷺ»^(١) .

وقد تأثرت جميلة به، واقتبست منه من علمه وفقهه شيئاً كثيراً جعلها في مقدمة العالمات الفقيهات من نسوة الأنصار، رضي الله عنهن .

وكان من ثمرة هذا الزواج الميمون المبارك: أن ولدت لزيد عدداً من الأبناء النجباء الذين أتخفوا التاريخ بعملهم الناصع، وعلمهم الغزير المعطاء، وقد تكفل بذكر أسمائهم الإمام الذهبي فقال: وولد لزيد: خارجة، وسليمان، ويحيى، وعمارة، وإسماعيل، وأسعد، وعبادة، وإسحاق، وحسنة، وعمرة، وأم إسحاق، وأم كلثوم، وأم هؤلاء هي «أم سعد ابنة سعد بن الربيع ﷺ»^(٢) .

(١) رجال حول الرسول (ص ٤١٢) .

(٢) سير أعلام النبلاء (٢/ ٤٢٨) .

من مناقبها وكراماتها :

روى حفيدها إبراهيم بن يحيى بن زيد بن ثابت هذه المكرمة عنها فقال :
سمعت أم سعد بنت سعد بن الربيع تقول : دخل عليّ زيد بن ثابت في خلافة
عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : إن كنت تريدني أن تكلمي في ميراثك من أبيك
فتكلمي ، فإن أمير المؤمنين عمر قد ورث اليوم الحمل ، قال : وكان أبوها قُتل
شهيداً يوم أحد وهي «حمل» .

فقالت : ما كنت لأطلب من أختي شيئاً ^(١) .

ويبدو أن أخت أم سعد قد أخذت نصيبها من ميراثها إلا أن أم سعد قد
جادت بنصيبها ، وجعلته لأختها ، وهذا من تمام الكرم والجود والإيثار - بل
ومن محاسن الجود والفضيلة .

الراوية الفقيهة :

ذكر ابن الأثير رحمته الله أن أم سعد أدركت النبي صلى الله عليه وسلم وروت عنه ، وروى عنها
ثابت بن عبيد الأنصاري أن أباه وعمها قُتلا يوم أحد فدفنا في قبر واحد ^(٢) .

ولأم سعد رضي الله عنها مرويات هامة عن أحداث السيرة النبوية في المرحلة
المكية ^(٣) ، وكذلك عن المغازي من ذلك ما ذكرته عن غزوة أحد قالت :

(١) الطبقات (٨/ ٣٦٠) ، وأنساب الأشراف (١/ ٣٣٨) ، والإصابة (٤/ ٤٣٧) .

(٢) انظر : أسد الغابة (٥/ ٤١٨) .

(٣) انظر : دلائل النبوة للأصبهاني (١/ ٣٩٧، ٣٩٨) .

دخلت على أم عمارة - نسيبة بنت كعب رضي الله عنها - فقلت لها : يا خالة ، أخبريني

خبرك ؟

فقلت : خرجت أول النهار أنظر ما يصنع الناس ومعني سقاء فيه ماء ، فانتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في أصحابه ، والدولة - النصر والريح - للمسلمين ، فلما انهزم المسلمون انحزت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقامت أبأشر القتال ، وأذبت عنه بالسيف ، وأرمي عنه بالقوس ، حتى خلصت الجراح إلي .

قالت أم سعد : فرأيت على عاتقها جرحاً أجوف له غور ، فقلت لها : من

أصابك بهذا ؟

قالت أم عمارة : ابن قميئة - أقمأه الله - لما ولى الناس عن رسول الله أقبل يقول : دلوني على محمد ، لا نجوت إن نجا ، فاعترضت له أنا ومصعب بن عمير رضي الله عنهما ، وأناس ممن ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فضربني هذه الضربة ، ولقد ضربته على ذلك ضرباتٍ ، ولكن عدو الله كانت عليه درعان .

وقد عاشت «أم سعد» مع زوجها زيد بن ثابت رضي الله عنه حياة عبادة وجدِّ واجتهاد إلى أن لقيها الله صلى الله عليه وسلم ، فقد توفي زيد سنة (٤٥ هـ) ، وأما زوجه أم سعد فلا نملك لها سنداً وثيقاً فيما لدينا من المراجع يشير إلى وفاتها ، ولكن أخبارها تدل على أنها عاشت زمناً بعد وفاة زوجها رضي الله عنه .

رضي الله عن أم سعد «جميلة بنت سعد بن الربيع» وعن أبيها وزوجها ،

وجعلها وإياهم مع الذين سُعدوا في الجنة خالدین فیها ما دامت السموات والأرض .

وداعًا وداعًا أيتها القدوة الحسنة تربية الصديق ، لكل امرأة في جميع المجالات .



جميلة بنت عبد الله بن أبي ابن سلول

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال :

إن امرأة ثابت بن قيس «جميلة بنت عبد الله بن أبي» أتت النبي ﷺ فقالت :
يا رسول الله ، ثابت بن قيس ما أعتب عليه في خلق ولا دين ، ولكني
أكره الكفر في الإسلام، فقال رسول الله ﷺ : «أتردين عليه حديقته؟» ،
قالت : نعم ، قال رسول الله ﷺ : «اقبل الحديقة، وطلقها تطليقة» .
أخرجه البخاري (٥٢٧٣، ٥٢٧٥، ٥٢٧٦) ، وابن ماجه (٢٠٥٦) .

جميلة بنت عبد الله بن أبي ابن سلول رضي الله عنه

فضل الله يؤتيه من يشاء :

الإيمان هبة من الله سبحانه يمنُّ به على من يشاء من عباده ، وقد شاء الله أن يجعل الخير في أهل المدينة المنورة ، الذين استجابوا لدعوة الإسلام ، وتكونت منهم ومن المهاجرين جماعة خيرة ، نمت نموًّا طبيعيًّا سليمًا ، على أساس من التقوى كما تنمو الشجرة الباسقة الطيبة ذات الأصل الثابت والجذر العميق .

هذه الجماعة النادرة حففتها العناية الإلهية وعززتها بالصبر والإيمان ، لتحقيق مشيئة الله بها في الأرض ، فكانت خير أمة أخرجت للناس ، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر .

في المدينة المنورة وفي تلك المجموعة الفريدة السعيدة نشأت الصحابة الجليلة : جميلة بنت عبد الله بن الحارث بن مالك بن سالم بن عوف الخزرجية ، أما اسم «سلول» فهي جدة عبد الله بن أبي لأبيه ^(١) .

أبوها : عبد الله بن أبي ابن سلول : رأس المنافقين في الإسلام ، من أهل المدينة ، كان سيد الخزرج في آخر جاهليتهم ، وأظهر الإسلام بعد وقعة بدر تقيّة ، وهو الذي تولى كِبَرِ إشاعة الإفك التي اتهموا بها أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، فبرأها الله تعالى من فوق سبع سموات .

(١) راجع الأعلام (٤/٦٥) ، وسير أعلام النبلاء (٨/٢٨٤) .

أمها : خولة بنت المنذر بن حرام بن عمرو بن زيد بن عمرو بن مالك بن النجار من بني مغالة^(١) .

أخوها: عبد الله بن عبد الله بن أبي ابن سلول ﷺ ، أسلم عبد الله فحسن إسلامه ، وشهد بدرًا وأحدًا والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ، وكان يغمه أمر أبيه ، ويثقل عليه لزوم المنافقين إياه ، وكان عبد الله من سادة الصحابة وأخيارهم ، وكان اسمه الحباب ، فغيره النبي ﷺ ، وسماه عبد الله ، واستشهد عبد الله يوم اليمامة في زمن أبي بكر الصديق سنة ١٢ هـ^(٢) .

أزواجها :

قال ابن سعد رحمته الله في ترجمتها : تزوجها حنظلة بن أبي عامر الراهب - من الأوس فقتل عنها يوم أحد - وولدت له عبد الله بن حنظلة بعده .

ثم خلف عليها : ثابت بن قيس بن شماس فولدت له محمدًا ، ثم خلف عليها مالك بن الدخشم فولدت له الفريرة ، ثم خلف عليها حُبيب بن يساف ابن عتبة فولدت له أبا كثير واسمه عبد الله^(٣) .

وقبل أن نتعرف سيرة الصحابية جميلة بنت عبد الله بن أبي ابن سلول دعونا نتعرف أخبار والدها عدو الله وعدو رسوله ﷺ ، ورأس المنافقين .

(١) طبقات ابن سعد (٨/ ٢٨٤) ، و(٣/ ٤٠٨) .

(٢) سير أعلام النبلاء (١/ ٣٢١) ، وتاريخ الإسلام (٣/ ٦٨) .

(٣) الطبقات الكبرى (٣/ ٤٠٤ ، ٤١٤) و(٨/ ٢٨٤) ، والإصابة (٨/ ٧٠) .

من أخبار عبد الله بن أبي ابن سلول :

كان عبد الله بن أبي ابن سلول زعيم المنافقين في المدينة بعد الإسلام ، أما قبل الإسلام فقد كان زعيم الخزرج ، وكان قومه ينظمون له الخرز ليتوجوه ملكاً على المدينة ، فلما فشا الإسلام في المدينة ، وهاجر النبي ﷺ وأصحابه إليها ، تبخرت أحلامه في الملك ، فقد قامت دولة في المدينة ، ولكن كبيرها كان النبي ﷺ ، فكان يظن أن النبي ﷺ سلبه ملكه ، فأظهر الإسلام وأبطن الكفر ، وقد اجتمع حوله كل من اتصف بهذه الصفة من أهل المدينة وبعض من غلبت عليه العصبية القبلية ، وقد بدأت ظاهرة النفاق في الظهور بعد انتصار المسلمين في بدر ، وبعد أن أصبحوا قوة لا يستهان بها ، فقد اختار هذا الرجل وأمثاله من مرضى النفوس الطريق الثالث بين الإيمان والكفر ، وأظهروا خلاف ما يظنون ، والحق أنهم أخطر على الأمة والدولة الإسلامية من المشركين الصرحاء - ولقد ساهم الله ﷻ لنبيه الذي ساهم للصحابي الجليل حذيفة بن اليمان ؓ ، وقال : « يا حذيفة ، من مات بعدي من هؤلاء فلا تُصلِّ عليه » ، فكان عمر بن الخطاب لا يصلي على ميت إلا إذا رأى حذيفة يصلي عليه .

ما هو النفاق ؟

النفاق أن تظهر للناس خلاف ما تبطن ، يقول الحق في الحديث القدسي الجليل : « لقد خلقت خلقاً ألسنتهم أحلى من العسل ، وقلوبهم أتمر من الصبر ، فبي حلفت لأبتلينهم بفتنة تدع الحليم فيهم حيران ، أبي يغترون أم عليّ يجترئون » .

ولله در القائل :

يلقاك يُقسم أنه بك واثق
يسقيك من طرف اللسان حلاوة
كم من صاحبٍ يلقاك عناقا
ملك كريم في مظهره
إذا لقيك لقيك بوجهه
وإذا تواری عنك فهو العقرب
ويروغ منك كما يروغ الثعلب
ويقسم لك بالله أنه لا يطيق لك فراقا
شيطان رجيم في مخبره
أبي بكر وقلب أبي لهب

فكان عبد الله بن أبي ابن سلول على رأس هذه الفرقة ، كبير المنافقين ، أقسم بالله وقال : لئن رجعت المدينة لأخرجن منها محمداً ذليلاً ، وأنا العزيز ، وإذا بصبي من صبيان المسلمين يسمى زيد بن أرقم ، لم يتجاوز العشر سنين يبلغ النبي ﷺ ما قاله عبد الله بن أبي ابن سلول ، وإذا بكبار الصحابة ينهرون الصبي ويقولون : يا رسول الله ، لعل الأمر قد اختلط عليه ، أسمع كلام صبي صغير ؟ قال زيد بن أرقم : فذهبت إلى بيتي ، ومن شدة الحزن كأنني أحمل جبال الأرض على رأسي ، وإذا برسول الله ﷺ يطرق عليّ بابي فقلت : من الطارق ؟ فقال : «أنا محمد رسول الله ، افتح يا زيد فإن الله صدق أذنك من فوق سبع سموات» ، ماذا حدث ؟ يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون: ٨] .

روى ابن جرير الطبري بسند صحيح ، أن النبي ﷺ قال : «ادعوا لي عبد الله

ابن عبد الله بن أبي ابن سلول» .

فلما جاء قال له رسول الله ﷺ : «ألا ترى ما يقول أبوك يا عبد الله؟» ، فقال عبد الله : وماذا يقول أبي ، بأبي أنت وأمي يا رسول الله ؟
فقال رسول الله ﷺ : «يقول : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل» .

فقال عبد الله : لقد صدق والله يا رسول الله ، فأنت والله الأعز وهو الأذل ، أما والله لقد قدمت المدينة يا رسول الله وإن أهل يثرب لا يعلمون أحداً أبر بأبيه مني ، أما وقد قال فلتسمعن ما تقرُّ به عينك .

فلما قدموا المدينة قام عبد الله على بابها بالسيف لأبيه ، ثم قال : أنت القائل : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ؟

أما والله لتعرفن هل العزة لك أم لرسول الله ﷺ ، والله لا يأويك ظلها ولا تبيتن فيها ، إلا بإذن من الله ورسوله ﷺ .

فصرخ عبد الله بن أبي : يا للخزرج ، ابني يمنعني بيتي .

فاجتمع إليه رجال فكلموه .

فقال : والله لا يدخل بيته إلا بإذن من الله ورسوله .

فأتوا النبي ﷺ فأخبروه فقال : «اذهبوا إليه فقولوا له : يقول لك رسول الله ﷺ : خله مسكنه» .

فأتوه فقالوا له ذلك ، فقال : أما وقد جاء الأمر من رسول الله ﷺ فنعم ليعلم من الأعز ومن الأذل ، إنه الولاء لله ورسوله .

﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢].

ومن تلك الصور الرائعة ما حصل من المغيرة بن شعبه رضي الله عنه ، عندما نزل رسول الله ﷺ بالحديبية ، ومنعته قريش من دخول مكة ، وأرسلت إليه رسلاً للمفاوضة ، وكان من بينهم عروة بن مسعود الثقفي ، وكان عم المغيرة ، فلما أقبل عروة وكان سيد ثقيف ، كان يمد يده خلال حديثه مع رسول الله ليتناول لحية رسول الله ﷺ وهو يكلمه ، فلما رأى المغيرة أن يد عروة تمتد إلى لحية الحبيب ﷺ ، ماذا قال المغيرة ؟ لقد ضرب المغيرة يد عمه عروة بمؤخرة السيف ، ونظر إليه وهو يقول : اكفف يدك عن لحية رسول الله ﷺ قبل ألا تصل إليك ، إنه الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين ، إنه البراء من الشرك والمشركين : ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾

[المائدة: ٥٦].

يخرج الحي من الميت :

في هذا الجو الداكن الرهيب ، نشأت جميلة بنت عبد الله بن أبي ، وكانت ترى تلك الأحداث الأليمة غير أن عقلها كان يرفض ما يقوم به والدها من النفاق الذي لم يغن عنه ملكه ولا ماله الوفير ، ولا كنزه الكبير ، ولا كل ما جمع وقدر .

وعلى الرغم من كل الضغوط التي كانت حولها ، وجد الإسلام إلى قلبها

الصافي سبيلاً ، فأسلمت ، وأخرجها الله ﷺ من ظلمات الشرك إلى نور الإيمان والهداية فهو الذي يُخرج الحي من الميت .

جميلة وزوجها حنظلة «غسيل الملائكة» :

كان حنظلة ﷺ قد خطب لنفسه فتاة هي «جميلة بنت عبد الله بن أبي» ، واستأذن حنظلة النبي ﷺ في أن يدخل عليها فأذن له ، وكان ذلك في الليلة السابقة لغزوة أحد .

وأشهدت جميلة أربعة من قومها بأن حنظلة دخل بها .

ورأت جميلة ﷺ في نومها ليلة دخل بها ونام معها ، كأن باباً في السماء قد فتح أمام حنظلة فدخل منه ، ثم أغلق الباب عليه ، فأدركت جميلة من رؤياها هذه أن زوجها سيلقى الشهادة عما قريب .

وبعد أن أذن له رسول الله ﷺ بالدخول بزوجه جميلة ، أفضى حنظلة إلى عروسه فضمها فراش واحد ، لأول ليلة ، فلما كان صبيحة يوم أحد فصلى حنظلة الصبح لزمته جميلة ، فعاد فكان معها فأجنب منها .

ثم سمع النداء : يا خيل الله اركبي ، حي على الجهاد ، حي على الجهاد ، فيتتزع نفسه من بين أحضان عروسه ، وينطلق مسرعاً على الفور لينال شرف الصف الأول خلف رسول الله ﷺ .

والتقى حنظلة بأبي سفيان بن حرب ، فلما استعلاه حنظلة رآه شداد بن الأسود ، فعلاه شداد بالسيف حتى قتله ، وقد كاد يقتل أبا سفيان ، فقال

رسول الله ﷺ : «إن صاحبكم حنظلة تغسله الملائكة فسلوا صاحبته» ، وهي زوجته جميلة ، فقالت : خرج وهو جنب ، لما سمع الهائعة «صيحة الحرب التي فيها فزع» ، فقال رسول الله ﷺ : «فلذلك غسلته الملائكة» (١) .

جميلة والخلع في الإسلام :

عن ابن عباس رضي الله عنهما : أن امرأة ثابت بن قيس «جميلة بنت عبد الله بن أبي» أتت النبي ﷺ فقالت : يا رسول الله ، ثابت بن قيس ما أعتب عليه في خلق ولا دين ، ولكنني أكره الكفر في الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : «أتردين عليه حديقته؟» ، قالت : نعم ، قال رسول الله ﷺ : «أقبل الحديقة ، وطلقها تطليقة» (٢) .

وعن الربيع بنت معوذ ابن عفراء ، أن ثابت بن قيس بن شهاب ضرب امرأته فكسر يدها ، وهي «جميلة بنت عبد الله بن أبي» فأتى أخوها يشتكيه إلى رسول الله ﷺ ، فأرسل رسول الله ﷺ إلى ثابت فقال له : «خذ الذي لها عليك واخلّ سبيلها» ، قال : نعم ، فأمرها رسول الله ﷺ أن تتربص حيضة واحدة فتلحق بأهلها (٣) .

قال الحافظ ابن حجر :

الخلع في اللغة : فراق الزوجة على مال ، مأخوذ من خلع الثوب ؛ لأن المرأة

(١) صحيح : أخرجه ابن حبان (٧٠٢٥) ، والحاكم (٣/٢٠٤ ، ٢٠٥) ، والبيهقي في السنن

(٤/١٥) ، والطبراني في الكبير (١٢٠٩٤) ، وأحكام الجنائز للألباني (ص ٥٥) .

(٢) رواه البخاري (٥٢٧٣ ، ٥٢٧٤ ، ٥٢٧٥) ، وابن ماجه (٢٠٥٦) .

(٣) النسائي رقم (٣٤٩٧) .

لباس الرجل معني .

وضابطه شرعاً : فراق الرجل زوجته ببذل قابل للعوض يحصل لجهة الزوج .

وهو مكروه إلا في حالة مخافة ألا يقيماً - أو واحد منهما - ما أمر به، وقد ينشأ عن كراهة العشرة، إما لسوء خلق، أو خلق^(١) .

قال الحافظ ابن حجر رحمته الله :

قوله : «في خلق ولا دين» : أي لا أريد مفارقتها لسوء خلقه ولا لنقصان دينه، لكن كما تقدم من رواية النسائي أنه كسر يدها ، فيحمل على أنها أرادت أنه سيء الخلق، لكنها ما تعيبه بذلك بل بشيء آخر .

وقوله : «لكنني أكره الكفر في الإسلام» ، وكأنها أشارت إلى أنها قد تحملها شدة البغض على الوقوع فيه ، ويحتمل أن يكون تريد بالكفر كفران العشير؛ إذ هو تقصير المرأة في حق الزوج^(٢) .

من فوائد الحديث التي ذكرها ابن حجر في «الفتح»:

أن الشقاق إذا حصل من قبل المرأة فقط جاز الخلع والفدية ، ولا يتقيد ذلك بوجوده منها جميعاً ، وأن ذلك يشرع إذا كرهت المرأة عشرة الرجل ، ولو لم يكرهها ولم ير منها ما يقتضي فراقها .

(١) فتح الباري (٣٠٧/٩) .

(٢) فتح الباري (٣١١/٩) .

وفيه : أن المرأة إذا سألت زوجها الطلاق على مال فطلقها وقع الطلاق .
 وفيه : أن الخلع جائز في الحيض ؛ لأنه ﷺ لم يستفصلها أحائض أم لا ؟
 لكن يجوز أن يكون ترك ذلك لسبق العلم به أو كان قبل تقريره ، فلا دلالة فيه
 لمن يخصه من منع طلاق الحائض ، وهذا كله تفريع على أن الخلع طلاق .
 وفيه : أن الأخبار الواردة في ترهيب المرأة من طلب الطلاق من زوجها
 محمولة على ما إذا لم يكن بسبب يقتضي ذلك ^(١) .

جميلة وقافلة الشهداء :

استشهد زوجها الأول حنظلة يوم أحد فغسلته الملائكة لكونه جنباً ، ومن
 تقدير الله تعالى أن «جميلة» حملت من زوجها حنظلة في هذه الليلة ، وبعد مدة
 الحمل ولدت ابناً سمي «عبد الله بن حنظلة» .
 ويعتبر عبد الله من صغار الصحابة .
 وكان عبد الله من الثائرين على يزيد بن معاوية .

وفي سنة ثلاث وستين وفد عبد الله بن حنظلة ومعه ثمانية بنين له إلى يزيد بن
 معاوية ، فأعطاه يزيد مائة ألف ، وأعطى كل ابن عشرة آلاف سوى كسوتهم ،
 فلما رجع إلى المدينة قالوا : ما وراءك ؟ قال : أتيتكم من عند رجل لو لم أجد إلا
 بني هؤلاء لجاهدته بهم ، قالوا : إنه قد أكرمك وأعطاك ، قال : نعم ، وما
 قبلت ذلك منه إلا لأتقوى به عليه ، ثم حض الناس فبايعوه ، كان هو أمير

(١) انظر : فتح الباري (٩/٣١٣، ٣١٤) .

الأنصار وأمر على قريش عبد الله بن مطيع العدوي ، وعلى باقي المهاجرين معقل بن سنان الأشجعي ، ونفوا بني أمية .

فجهز يزيد لهم جيشاً عليهم مسلم بن عقبة في اثني عشر ألفاً ، فلما دنا أهل الشام من وادي القرى ، قام عبد الله بن حنظلة فصلى ثم خطب في الناس يحثهم على الجهاد .

والتحم الجيشان ، فقاتل أهل المدينة قتالاً شديداً حتى كثرهم أهل الشام ، ودخلت المدينة من النواحي كلها ، فلبس عبد الله بن حنظلة يومئذٍ درعه وجعل يحض أصحابه على القتال ، فلما هزم الناس طرح الدرع وما عليه من سلاح ، وجعل يقاتلهم وهو حاسر حتى قتلوه ، وسقط شهيداً ، كما استشهد والده من قبل : ﴿ ذُرِّيَّةٌ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٣٤] .

زوجها الثاني : ثابت بن قيس خطيب الأنصار ، وكان من نجباء أصحاب رسول الله ﷺ ، وغزا وجاهد مع رسول الله ﷺ ، ولم ينل الشهادة في زمن النبي ﷺ .

وبعد وفاة رسول الله ﷺ وفي زمن أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وارتد من ارتد ، وفي سنة اثنتي عشرة للهجرة وقعت وقعة اليمامة ، وأمير المسلمين خالد بن الوليد ، ورأس الكذب مسيلمة الكذاب ، فقتله الله واستشهد خلق من الصحابة منهم الصحابي الجليل ثابت بن قيس ، وكان أمير الأنصار في هذه الواقعة ، وأبلى بلاءً حسناً حتى نال الشهادة فرضي الله عنه .

وابنها : محمد بن ثابت بن قيس ، استشهد مع أخيه لأمه عبد الله بن حنظلة يوم «الحرّة» ، فرضي الله عنهم أجمعين ، وجمعنا معهم في الفردوس الأعلى اللهم آمين آمين .

وفاتها ﷺ :

لم أقف على تاريخ وفاتها فيما لدي من المراجع .

ولكن آخر أزواجها وهو خبيب بن يساف .

قال عنه ابن سعد : تأخر إسلامه حتى خرج رسول الله ﷺ إلى بدر ، فلحقه فأسلم في الطريق ، وشهد بدرًا وأحدًا والخندق ، والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ، وتوفي في خلافة عثمان بن عفان .

فلا ندري هل جميلة ﷺ ماتت قبل زوجها الأخير أم بعده ، الله أعلم .

فرضي الله عن زوجة الشهداء وأم الشهداء ، وجعل الفردوس الأعلى مثواها .



أم الدرداء الصغرى رضي الله عنها

قال ابن كثير :

كان الرجال يقرؤون عليها ويتفقهون في الحائط الشمالي بجامع دمشق .

وقال عون بن عبد الله : كُنَّا نَأْتِي أم الدرداء فنذكر عندها الله سبحانه وتعالى .

وقال ابن عساكر : كانت زاهدة فصيحة .

وقال الإمام النووي : كانت فقيهة حكيمة .

أم الدرداء الصغرى رضي الله عنها

من هي أم الدرداء الصغرى ؟

أم الدرداء صاحبة السيرة في هذه الصفحات ، هي هُجيمة بنت حييِّ الوصابية الأشعرية - ويقال: الأوصبية ^(١) .

زوج الصحابي الجليل أبي الدرداء عويمر بن زيد رضي الله عنه .

وكان لأبي الدرداء رضوان الله عليه ، امرأتان : كل واحدة منهما يقال لها :

أم الدرداء وهما : كبرى صحابية ، وصغرى تابعة .

زواجهما من أبي الدرداء :

نشأت أم الدرداء - رحمها الله - يتيمة في حجر أبي الدرداء رضي الله عنه ، إذ ربّأها على حب الله سبحانه وتعالى ، وحب النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، وأحسن تربيتها كل الإحسان لعلمه بما عند الله تعالى من ثواب كافل اليتيم .

وكانت تختلف مع أبي الدرداء إلى المسجد في بُرُوس ، تُصلي فيه في صفوف الرجال وتجلس في حلق القُراء ، وحفاظ القرآن الكريم ، تتعلم آياته وعلومه وتتلقى التلاوة من أفواه الصحابة ، وكبار القراء والعلماء حتى غدت ممن يتقن التلاوة والقراءة إتقاناً رائعاً ، وعرضت القرآن - وهي صغيرة على سيدنا أبي

(١) تاريخ دمشق (ص ٤٢٦) ، وتهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٣٦٠) ، وسير أعلام النبلاء

الدرداء فأعجب بحفظها ودقة تلاوتها له ، فأكرم مثواها، وحثها على المضي في هذا الطريق الوضيء .

ولما شبت أم الدرداء عن الطوق ، اعتزلت صفوف الرجال ، ولحقت بالنساء بإشارةٍ من أبي الدرداء حيث قال لها : الحقي بصفوف النساء .

ونشأت هُجيمة - أم الدرداء - على حب العلم والشغف بالعبادة ، وطلب الزهد كما أن الله ﷻ قد جباها بنعمة من كمال العقل ، وأنعم عليها بالحسن والجمال .

ولما بلغت مبلغ النساء وتزوجها أبو الدرداء، ومنه أخذت كنيتهـا - أم الدرداء - فأصبحت مشهورة بها، وكادت تغطي على اسمها الحقيقي : هُجيمة . وأخذت أم الدرداء تتعلم من زوجها ، فروت عنه علمًا جمًّا رفعها إلى مصاف العالمات الفاضلات الفقيهات الناسكات ، ممن تركز أنصع الآثار الكريمة في صفحات النساء .

أخبارها مع زوجها أبي الدرداء :

على الأخلاق الفاضلة وعلى الخصال الحميدة نشأت أم الدرداء ، فكانت الزوجة الصالحة القائنة العابدة الصالحة ذات القدوة الحسنة لغيرها من النساء ، فقد كانت تصغي لكل ما يقوله زوجها، وتسمع إلى نصائحه التي تديم المودة بينهما ، فاسمع إلى واحدة من هذه النصائح لها :

يا أم الدرداء إذا غضبتِ أَرْضَيْتُكَ، وإذا غضبتِ فأَرْضِينِي ، فإنك إن لم

تفعلي ذلك فما أسرع أن نفترق .

وكانت هذه الكلمات ملء سمعها، فكانت تحسن إلى أبي الدرداء ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً ، فهي تعلم مكانته من رسول الله ﷺ ، كما تعلم مكانته الرفيعة بين الصحابة الكرام ، إذ هو علم من أعلامهم في الزهد والحكمة ﷺ .

وقد تعلمت أم الدرداء - رحمها الله - القناعة والاعتماد على النفس، من ذلك ما روته عن إحدى نصائحه لها في هذا المضمار النفيس قالت : قال لي أبو الدرداء : لا تسألي أحداً شيئاً ، فقلت : إن احتجت ؟

قال : تتبعي الحصادين ، فانظري ما يسقط منهم فخذيه فاخبطيه ، ثم اطحنيه ، ثم اعجنه ثم كليه ، ولا تسألي أحداً شيئاً ^(١) .

وحدثت أن أبا الدرداء يجيء بعدما يصبح فيقول : أعندكم غداء ؟ فإن لم يجد قال : فأنا إذا صائم ^(٢) .

صور من عبادتها وطاقاتها :

كانت أوقات أم الدرداء - رحمها الله - كلها معمورة بالطاعة والعلم والعبادة، وكان بيتها موئلاً لكل مبتل ناسك أو اب ، وكل فقيه مجتهد ، وكل امرأة عابدة ، وكان كثير من العباد والزهاد يأتونها ليأخذوا عنها العلم

(١) تاريخ دمشق (ص ٤٢٦) ، وسير أعلام النبلاء (٤/ ٢٧٨) .

(٢) المعرفة والتاريخ للفوسوي (٢/ ٦٦) .

والحديث، ويذكروا الله سبحانه وتعالى .

قال ابن كثير - رحمه الله تعالى : كان الرجال يقرؤون عليها ويتفقهون في الحائط الشمالي بجامع دمشق (١) .

وكان النساء يصرفن أوقاتهن عند أم الدرداء بالذكر والصلاة ، قال يونس ابن ميسرة : كن - النساء - يتعبدن مع أم الدرداء، يُقمن الليل كله، حتى إن أقدامهن قد انتفخت من طول القيام .

وواصلت أم الدرداء عبادتها بالصلاة والذكر فلم تكن تُرى إلا وهي ساجدة قانتة ، وعن مواصلتها للصلاة يقول ميمون بن مهران : ما دخلتُ على أم الدرداء في ساعة صلاة إلا وجدتها مصلية ، ووصف الإمام مكحول الشامي صلاتها فقال : كانت أم الدرداء تجلس في صلاتها جلسة الرجل وكانت فقيهة .

وكانت أم الدرداء - رحمه الله - كلما زادت في العبادة والزهد ازدادت تواضعًا وتقى ، روى هذا إبراهيم بن أبي عبلة قال : قُلْتُ لأم الدرداء : ادعى لنا .

قالت : أو بلغت أنا ذلك ؟ ترى أنها ليست أهلاً لهذا .

ولأم الدرداء وقفات لطيفة ورائعة مع القرآن الكريم ، تشير إلى تدبرها لمعانيه وفهمها لآياته ، فعن أبي عمران الأنصاري قال : كنت أقود دابة أم

(١) البداية والنهاية (٩/ ٥٠) .

الدرداء فيما بين بيت المقدس ودمشق ، فقالت لي : يا سليمان ، أسمع الجبال ما وعدها الله ﷻ .

قال : فأرفع صوتي بهذه الآية : ﴿ وَيَوْمَ نُسِرُّ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً ﴾

[الكهف: ٤٧] .

ومن وقفاتها الرائعة مع القرآن ما رواه سعيد بن عبد العزيز قال : أشرفت أم الدرداء على وادي جهنم - موضع - ومعها إسماعيل بن عبيد الله فقالت : يا إسماعيل اقرأ ، فقرأ : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٥] ، فخرت أم الدرداء على وجهها وخر إسماعيل على وجهه ، فمارفعا رأسيهما حتى ابتل ما تحت وجهيهما من دموعهما .

وفي مجال الصبر والطاعة والتسليم لله ﷻ ، كانت أم الدرداء من الفئة الصابرة الراضية ، ويدل على هذا ما ذكره عنها يحيى بن معين رحمته الله قال : ماتت الدرداء قبل أم الدرداء ، فلما دفنتها قالت : اذهبي إلى ربك ، وأذهب إلى ربي فدخلت المسجد .

من فرائد حكمها ومواعظها :

لا عجب أن تجري الحكمة على لسان أم الدرداء عذبة رائقة ، فقد تخرجت في مدرسة حكيم الأمة أبي الدرداء رحمته الله ، وقد أثرت عنها كلمات رائعة رقت معانيها ، وراق لفظها ، من أمثلة ذلك قولها : «أفضل العلم المعرفة» .

وقد كتبت لواحد من تلاميذها في لوحة هذه الحكمة البليغة : تَعَلَّمُوا

الحكمة صغارًا تُعَلِّمُها كبارًا - أو تعملوا بها كبارًا - وإن كل زارع حاصد ما
زرع من خير أو شر^(١).

ومن نفائس أقوالها في ذم الدنيا والتحذير من سحرها وزخرفها قولها:
الدنيا أسحر لقلب العبد من هاروت وماروت، وما أثرها عبد قط إلا صرعه
(أذلته).

ومن حكمتها في الحياة الاجتماعية ما ورد أنها عوتبت في شيء فقيل لها: لم
كذا وكذا؟

قالت: نقص الناس فنقصت كما نقصوا.

ومن أبداع مواعظها وأنصح أقوالها وتجاربها ما أورده الزمخشري في «ربيع
الأبرار» أنها قالت:

من وعظ أخاه سرًّا فقد زانه، ومن وعظه علانية فقد شانه.

وعن شهر بن حوشب عن أم الدرداء قالت:

إنما الوجل في القلب كاحتراق الشمعة، أما تجد لها قشعريرة؟

قال: بلى.

قالت: فادع الله ﷻ إذا وجدت ذلك، فإن الدعاء يُستجاب عند ذلك.

ومن أقوالها البديعة في الحكمة ما قالته في علاج القلوب القاسية، فقد قال

(١) تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٣٦٠، ٣٦١).

لها رجل : إني لأجد في قلبي داء ، لا أجد له دواءً ، وأجد قسوة شديدة وأملاً بعيداً ، قالت : اطلع في القبور ، واشهد الموتى .

وأتاها هشام بن إسماعيل المخزومي فقال لها : ما أوثق خصالك في نفسك ؟
قالت : الحب في الله ﷺ (١) .

ثناء العلماء وأهل العلم عليها :

حظيت أم الدرداء - رحمها الله - على شهادات موقعة من أكابر العلماء بالثناء عليها لتقدمها في المعرفة والعلم والعبادة والفضائل .

فقال مكحول رضي الله عنه : كانت أم الدرداء فقيهة .

وقال ابن عساكر : كانت زاهدة فصيحة .

وقد وصفها النووي بقوله : كانت زاهدة فقيهة .

وقال أيضاً : كانت فقيهة حكيمة .

وأورد ابن كثير في ترجمتها ووصفها بقوله : عابدة ، عالمة ، فقيهة .

ونعتها الذهبي بقوله : السيدة العالمة الفقيهة ، واشتهرت بالعلم والعمل والزهد .

وأما ابن حبان فقد ذكرها في «الثقات» وقال : كانت من العابدات .

وقد أجمع العلماء والمؤرخون على وصفها بالفقه ، وهذه الصفة أعظم الصفات التي تجتمع في الإنسان ، إذ إنه من يُرد الله به خيراً يفقهه في الدين .

في رحاب الرواية :

لا عجب أن نجد امرأة كأم الدرداء بلغت منزلة كبيرة في الفقه والتفسير والعلم ، إذا علمنا أنها تلقت معارفها عن كبار الصحابة ، وفي مقدمتهم زوجها الإمام القدوة قاضي دمشق ، وصاحب رسول الله ﷺ أبو الدرداء أحد حكماء أمة الإسلام ، وسيد القراء بدمشق ، ومن جمع القرآن الكريم في حياة رسول الله ﷺ ، وروى (١٧٩) حديثاً عن النبي ﷺ ، وفيه قال عليه الصلاة والسلام : «حكيم أمتي عويمر» .

ولم تقتصر أم الدرداء في تحصيل علومها عن زوجها فحسب ، بل روت عن سلمان الفارسي ، وأبي مالك الأشعري ، واسمه كعب بن عاصم ، وأبي هريرة وفضالة بن عبيد الله ، كما روت عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها .

وتخرج في مدرسة أم الدرداء عدد من أكابر العلماء وأجلة التابعين منهم : جبير بن نفيير ، وأبو قلابة الجرمي ، ورجاء بن حيوة ، ويونس بن ميسرة ، ومكحول الشامي ، وغيرهم كثيرون جداً .

وروى لها الإمام مسلم في صحيحه ، وكذلك أبو داود والترمذي وابن ماجه في سننهم (١) .

مما روته أم الدرداء :

فمن مروياتها التي تدل على فقهها وعلمها بالسنة المطهرة ما أخرجه الإمام

مسلم في صحيحه من حديث صفوان بن عبد الله بن صفوان - وكانت تحتها الدرداء قال : قدمت الشام فأتيت أبا الدرداء في منزله فلم أجده ، ووجدت أم الدرداء فقالت : أتريدُ الحج العام ؟

فقلت لها : نعم .

قالت : فادع الله لنا بخير، فإن النبي ﷺ كان يقول : «دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة ، عند رأسه ملك موكل به، كلما دعا لأخيه بخير قال الملك الموكل به : آمين ولك بالمثل» .

قال : فخرجت إلى السوق ، فلقيت أبا الدرداء ، فقال لي مثل ذلك ، يرويه عن النبي ﷺ (١) .

وأخرج الإمام مسلم أيضًا بسنده، عن أم الدرداء قالت: حدثني سيدي - تعني أبا الدرداء - أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : «من دعا لأخيه بظهر الغيب ، قال الملك الموكل به : آمين ، ولك بمثل» (٢) .

وعن أم الدرداء رضي الله عنها عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال :

قال رسول الله ﷺ : «من أصبح منكم معافي في بدنه ، آمنًا في سربه ، عنده قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها» (٣) .

(١) أخرجه مسلم (٨/٨٦، ٨٧) ، باب : فضل الدعاء للمسلمين بظهر الغيب .

(٢) أخرجه مسلم (٨/٨٦) .

(٣) جامع الأصول (١٠/١٣٥) .

من أخبارها مع عبد الملك بن مروان :

كانت أم الدرداء - رحمها الله تعالى - : معظمة عند بني أمية ، تحظى باحترام خلفائهم ، وقد رأينا كيف كان سيدنا معاوية يجلسها ويحترمها .

وأما عبد الملك بن مروان فكان يجلس في حلقتها مع المتفهمة ، يشتغل عليها بالعلم وهو الخليفة ، وكان كثيرًا ما يجلس في مؤخر المسجد بدمشق ، يستمع إلى أم الدرداء - رحمها الله .

ولأم الدرداء أخبار كثيرة مع عبد الملك بن مروان ، وفي بعض هذه الأخبار ما يدل على فراستها وذكائها ، فقد قالت لعبد الملك يومًا : ما زلت أنخيلُ فيك هذا الأمر مذرأيتك .

قال : وكيف ذاك ؟

قالت : ما رأيت أحسن منك محدثًا ، ولا أعلم منك مستمعًا ، وعبد الملك ابن مروان خليفة الدنيا في وقته كان يستفيد من حديثها ، وإذا ما بدرت منه هفوة من الهفوات كانت أم الدرداء الناسكة العالمة التقية تصحح له ذلك بالحجة والحكمة والموعظة الحسنة .

وكانت لأم الدرداء - بعد وفاة زوجها عادة منتظمة في حياتها إذ كانت تقيم ستة أشهر في بيت المقدس تُعلم ، وتتعبد في المسجد الأقصى الذي بارك الله ﷻ فيه وحواله ، وتقيم ستة أشهر أخرى في دمشق من بلاد الشام موطنها الأصلي . وهي خلال إقامتها في بيت المقدس تتمتع باحترام عبد الملك لها ، فلقد رئي

عبد الملك جالسًا بالقرب من صخرة بيت المقدس ، وأم الدرداء معه جالسة حتى إذا نودي للمغرب ، قام عبد الملك ، وقامت أم الدرداء تتوكأ على عبد الملك حتى يدخل بها المسجد ، فإذا فرغت ودخلت المسجد مع النساء ، ومضى عبد الملك إلى المقام فصلى بالناس ^(١) .

ورد عن زيد بن أسلم أن عبد الملك بن مروان بعث إلى أم الدرداء فكانت عنده ، فلما كانت ذات ليلة قام عبد الملك من الليل ، فدعا خادمه فكأنه أبطأ عنه فلعنه ، فلما أصبح قالت له أم الدرداء : قد سمعتك الليلة لعنت خادمك . قال : إنه أبطأ عني .

قالت : سمعتُ أبا الدرداء يقول : قال رسول الله ﷺ : « لا يكون اللعانون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة » ^(٢) .

وداعًا أم الدرداء :

وفي سنة إحدى وثمانين من الهجرة الشريفة أدت أم الدرداء فريضة الحج ، ولما فرغت من حجتها عادت إلى دمشق .

وفي سنة (٨٢هـ) ^(٣) وافى أم الدرداء الأجل المحتوم ، ولقيت ربها بموطنها في الشام .

(١) تاريخ دمشق (ص ٤٣٥) ، وسير أعلام النبلاء (٤/ ٢٧٩) ، والأعلام (٨/ ٧٧) .

(٢) تاريخ دمشق (ص ٤٣٥) ، والحديث في جامع الأصول لابن الأثير (١٠/ ٧٥٧) .

(٣) تهذيب التهذيب (١٢/ ٤٦٦) .

وفي مقبرة باب الصغير بدمشق يثوى جثمان أم الدرداء إلى جانب زوجها أبي الدرداء رضي الله عنه ، إذ إن قبره معروف بباب الصغير .

قال النووي رحمته الله : وقبر أبي الدرداء وقبر زوجته أم الدرداء الصغرى بباب الصغير من دمشق مشهوران .

ولعله من المفيد أن نذكر هنا من دُفن بباب الصغير بدمشق من النساء الصحابيات ، فقد قال الحافظ ابن طولون - وهو محمد بن علي الدمشقي الصالح المؤرخ العالم الفقيه : وقبلي باب الصغير قبر بلال ابن حمامة رضي الله عنه ، وثلاث من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، وقبر فضة جارية السيدة فاطمة الزهراء ، وقبر أم الدرداء ، وهؤلاء كلهن في تربة واحدة .

رحم الله أم الدرداء الصغرى ، ونضر قبرها وألحقها بال صالحين ، فقد كانت سيرتها إمتاعاً للأسماع .



أخى معبد الخزاعية ﷺ

قال رسول الله ﷺ: «اللهم بارك لها في شاتها».

كانت تطعم وتسقي كل عابر.

أم معبد الخزاعية رضي الله عنها

المرأة السعيدة:

لم تكن هذه المرأة التي نحن بصدد سيرتها العطرة من النساء ذوات الشهرة في الجاهلية، فلقد كانت امرأة بدوية بسيطة، لا تتجاوز شهرتها خيمتها، أو أهلها وعشيرتها الذين يعيشون حولها، ولكنها غدت إحدى شهيرات النساء في الإسلام لما نزل رسول الله ﷺ ضيفاً عليها في هجرته المباركة إلى المدينة المنورة، والله در القائل:

وإذا سخر الإله أناساً لسعيد فإنهم سعداء

إنها أم معبد الخزاعية، واسمها عاتكة بنت خالد بن منقذ^(١) أخت حبش بن خالد الخزاعي الكعبي الصحابي، وهو صاحب حديث أم معبد الخزاعية رضي الله عنها.

وما إن نزل رسول الله ﷺ بأم معبد حتى بدأت شهرتها تلمع في سماء النساء، فقد كانت - بالإضافة إلىكرمها وجودها - فصيحة اللسان، سجلت أجمل وصف لرسول الله ﷺ، لا يزال من أهم المراجع المحمودة في الشئال المحمدية^(٢).

الهجرة المباركة:

لقد ارتبط اسمها بأعظم حدث في تاريخ الدعوة، ألا وهو الهجرة من مكة

(١) الطبقات (٨/٢٢٨)، والاستيعاب (٤/٤٧١)، والإصابة (٤/٤٧٤).

(٢) الاستيعاب (١/٣٨٨).

إلى المدينة.

لما أسرفت قريش في السّفه الإسراف كله، دبّرت وخططت لقتل النبي ﷺ، فنزل الأمين جبريل وأذنه بمؤامرة قريش، وبإذن ربه له بالهجرة إلى المدينة «يثرب» وقال له:

«لا تبث هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبث عليه».

ومن فوره بدأ ﷺ في تنفيذ أمر ربه، وليس أفضل من أمنا عائشة ؓ لتقص علينا الخبر.

قالت ؓ:

فبينما نحن جلوس في بيت أبي بكر في نحر الظهرية، قال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله ﷺ متقنعا جاء في ساعة لم يكن يأتينا فيها، فقال أبو بكر: فداء له أبي وأمي، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر، فقال النبي ﷺ لأبي بكر: «أخرج من عندك».

فقال أبو بكر: إنما هم أهلك بأبي أنت يا رسول الله.

قال ﷺ: «فإني قد أذن لي في الخروج».

فقال أبو بكر: الصحبة بأبي أنت يا رسول الله؟

قال رسول الله ﷺ: «نعم».

فقال أبو بكر: فخذ بأبي يا رسول الله إحدى راحلتي هاتين.

قال ﷺ: «بالثمن».

فجهزناهما أحت - أي أسرع - الجهاز، وصنعنا لهما سفرة في جراب، ثم لحق رسول الله ﷺ وأبو بكر بغار في جبل ثور، فكنا فيه ثلاث ليال يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر، وهو غلام شاب ثقف لقن، فيدلج من عندهما بسحر، فيصبح مع قريش بمكة كبئت، فلا يسمع أمراً يكتادان «أي: يطلب لهما فيه الكيد والمكروه» به إلا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام، ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر منحة من غنم فيريحها عليهما حين تذهب ساعة من العشاء، فيبيتان في رسلٍ منحتهما ورضيفهما حتى ينق بها عامر بن فهيرة بغلس، يفعل ذلك كل ليلة من تلك الليالي الثلاث، واستأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر رجلاً من بني الدليل هاديًا خريتا «أي: خبيرًا بالطريق»، فأمناه فدفعنا إليه راحلتيهما، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليالٍ، وانطلق معها عامر بن فهيرة والدليل (١).

كان ﷺ قد أمر علي بن أبي طالب أن يبيت في مضجعه ليلة خروجه، واجتمع أولئك النفر من قريش يتطلعون من صير الباب ويرصدونه، ويريدون بياته ويأتمرون على قتله، فخرج رسول الله ﷺ عليهم فأخذ حفنة من البطحاء، فجعل يلقي التراب على رؤوسهم وهم لا يرونه وهو يتلو: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ٩].

(١) حديث صحيح: أخرجه البخاري (٣٩٠٤).

ومضى رسول الله ﷺ إلى بيت أبي بكر فخرجا من خوخة في دار أبي بكر ليلاً، وجاء رجل ورأى القوم ببابه فقال: ما تنتظرون؟
قالوا: محمداً.

قال: خبتم وخسرتم، قد والله مرّ بكم، وذرّ على رؤوسكم التراب.
قالوا: والله ما أبصرناه.

وقاموا ينفضون التراب عن رؤوسهم، فلما رأوا علياً رد الله مكرهم،
فقالوا: أين صاحبك هذا؟
قال: لا أدري.

فاقتصوا أثره، فلما بلغوا الجبل خلط عليهم، فصعدوا في الجبل، فمروا بالغار^(١).
فقال أبو بكر: يا رسول الله، لو أن أحدهم نظر إلى ما تحت قدميه لأبصرنا،
فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟»^(٢).

اللهم بارك لها في شاتها:

وارتحل النبي ﷺ وأبو بكر الصديق ﷺ ومعهما عامر بن فهيرة مولى
الصديق يخدمهما، وانطلق الركب المهاجر إلى غايته، والمطايا تسرع بهم تارة
وتبطئ بهم تارة أخرى، وهم معمنون في غمار الصحراء المترامية، وكانوا كلما
أرهقهم السير نزلوا منزلاً، فأخذوا قسطاً من الراحة، وتلمسوا من الحيّ

(١) رواه أحمد في مسنده (٣٤٨/١)، وحسنه ابن كثير وابن حجر في الفتح (٧/١٨٤، ١٨٥).

(٢) حديث صحيح: أخرجه البخاري (٣٦٥٣)، ومسلم (٢٣٨١).

المقيمين بقربهم ما عسى أن يكون لديهم من طعام أو شراب، حتى مرّوا في طريقهم «بأم معبد الخزاعية».

وكان منزلها بقُديد «موضع قرب مكة»، وهي أعرابية كريمة، تبدو على ملامحها علائمُ القوة والصبر والجلد، وكانت تجلس أمام خيمتها مجلس الكرماء، تُطعم وتسقي من يمرُّ من السيارة والمسافرين، فلما نزلوا عندها سألوها لحمًا وتمرًا يشتروه منها، فلم يصيبوا عندها شيئًا وقالت لهم وهي تبدي عذرها الممزوج بالأسف: والله لو كان عندنا شيء ما أعوزناكم القري، وما كتمم إذًا بحاجة إلى أن تسألوا شيئًا، أو تدفعوا ثمنًا، وكانت أيام جَدب وقحط، واحتبس الغيث، فجذبت الأرض ونضبت الزروع، وجفت الضروع، وكانت البادية شهباء في قحط شديد، والناس مُرْمَلُونَ مُسْتَتُونَ «أي: نفد زادهم»، وأستتوا: أصابهم القحط لشدة المجاعة التي أصابتهم.

فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة في كسر الخيمة، فقال: «ما هذه الشاة يا أم معبد؟».

قالت: هذه شاة خلفها الجهد - الضعف - عن الغنم، فقال: «هل بها من لبن؟».

قالت: هي أجهد من ذلك.

قال: «أتأذنين أن أحلبها؟».

قالت: نعم - بأبي أنت وأمي - إن رأيت بها حلبًا فاحلبها.

فمسح رسول الله ﷺ بيده ضرعها، وذكر اسم الله، ودعا وقال: «اللهم بارك لها في شاتها».

فتفاجت «فتحت ما بين أرجلها»، ودرت باللبن، فدعا بإناء يُربض الرهط «يشبع الجماعة»، فحلب فيه حتى علت الرغوة، فسقاها حتى رويت، وسقى أصحابه حتى رووا، وشرب ﷺ آخرهم، وقال: «ساقى القوم آخرهم شرباً». ثم حلب فيه ثانياً، حتى ملاً الإناء فغادره عندها ثم ارتحلوا عنها، وقد فازت «أم معبد» بدعوة مستجابة بالبركة من النبي ﷺ.

وقد أشار البوصيري إلى هذه الحادثة في الهمزية فقال:

درت الشاة حين مرّت عليها فلها ثروة بها ونماء

وأشار الإمام السبكي أيضاً إلى هذه في تائيته المشهورة فقال:

مسحت على شاة لدى أم معبد بجهدٍ فألفها أدر حلوبة^(١)

وما أجمل ما سجله «أحمد محرم» شاعر الإسلام في ديوان «مجد الإسلام»،

هذا الحديث اللطيف من خيمة أم معبد فقال:

ما حديث أم معبد تستقيه ظمأى النفوس عذباً نميرا

سائل الشاة كيف درت وكانت كزة الضرع لا ترجى الدرورا

بركات السمع المؤمل يقري أمم الأرض زائراً أو مزوراً

(١) انظر: الطبقات (١/٢٣٠)، وأسد الغابة (٥/٤٩٧)، ودلائل النبوة للبيهقي (١/٢٧٨)،

(٢٧٩)، وزاد المعاد (٣/٥٦)، والبداية والنهاية لابن كثير (٣/١٨٨)، والسيرة الحلبية

(٢/٢٢٤، ٢٢٥).

مظهر الحق للنبوة سبحانه
رئاً فرد الجلال قديراً
فصاحتها ووصفها رسول الله ﷺ:

وقد عرفت أم معبد بالفصاحة؛ إذ كان أسلوبها ساحراً وبيانها آسراً،
وسجلت بحسن بيانها وصفاً جعلها خالدة الذكر على مر الدهر، وذلك عندما
وصفت النبي الكريم ﷺ، وقد وصفه رجال كثر، لقد وصف الصحابة رسول
الله ﷺ من الناحية الخلقية، كان علي ؓ أكثرهم دقة وشمولاً، وهذا ليس
بمستغرب ولا مستهجن؛ لأنه ﷺ كان أكثر معاشة وقرباً لرسول الله ﷺ
أضف إلى ذلك فصاحة «علي» وبلاغته، وكذلك هند بن أبي هالة التميمي
ريب رسول الله ﷺ، وكان وصافاً عن حلية النبي ﷺ، وقد عُرف بالفصاحة
فلم يبلغ واحد من وصفه ما بلغت أم معبد، ولما وصفته لزوجها أبي معبد،
واسمه «أكثم بن أبي الجون» الخزاعي وصفاً جعله ملء سمعه وبصره ونفسه
ووجدانه، بل جعله يهرع ليعلم إسلامه بين يدي رسول الله ﷺ.

كان هذا عندما جاء زوجها أبو معبد يسوق أعنزاً عجافاً هزالاً ضعافاً، فلما
رأى اللبن الحليب - عند أم معبد - عجب وقال: من أين لكم هذا والشاة
عازب ولا حلوبة في البيت؟

فقالت: لا والله، إلا أنه مرَّ بنا رجلٌ مبارك كان من حديثه كذا وكذا، ومن
حاله كذا وكذا.

قال أبو معبد: إني والله أراه صاحب قريش الذي يُطلب، صفيه لي يا أم

معبد، فجعلت أم معبد تصفُ له ما بهرها منه، ووصفته بصفاته الرائعة بكلماتٍ رائعة، أسرةٍ ساحرة، كأن السامع ينظرُ إليه وهو أمامه، وقالت تصفه

ﷺ

«ظاهر الوضاعة، أبلجُ الوجه، حسن الخلق، لم تعبهُ ثُجلة، ولم تُزر به صُعلة، وسيم قسيم، في عينيه دعج، وفي أشفاره وطف، وفي صوته صحل، وفي عنقه سطم، أحور، أكحل، أزج، أقرن، شديد سواد الشعر، إذا صمت علاهُ الوقار، وإن تكلم علاه البهاء، أجمل الناس وأبهاهم من بعيد، وأحسنهم وأحلاهم من قريب، حلو المنطق، فصل، لا نزر ولا هذر، كأن منطقهُ خرزات نظم يتحدرن، ربعة لا تقتحمه عين من قصر، ولا تشنؤه من طول، غصن بين غصنين، فهو أنضر الثلاثة منظرًا وأحسنهم قدرًا، له رفقاء يحفون به إذا قال استمعوا لقوله، وإذا أمر تبادروا إلى أمره، محفود محشود، لا عابس ولا مُفند»^(١).

فقال أبو معبد: والله هذا صاحب قريش الذي ذكروا من أمره ما ذكروا، لقد هممت أن أصحبه، ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلاً، وأصبح صوت بمكة عاليًا يسمعونه، ولا يرون من القائل:

(١) الوضاعة: الحسن، ثجلة: ضخامة البطن، الصعلة: صغر الرأس، وسيم قسيم: حسن جميل، الدعج: شدة سواد العين، في أشفاره وطف: غزارة شعر أجفان العين وطولها، صحل: شبه البحة في الصوت، سطم: طول العنق في جمال، أزج: الحاجب الرقيق في الطول، لا نزر ولا هذر: أي وسط لا قليل ولا كثير، محفود: مخدوم، أي الذي يخدمه أصحابه، محشود: يجتمع عليه الناس، مفند: لا يستقل عقل أحد.

جزى الله ربَّ الناس خير جزائه
 هما نزلًا بالبر وارتحلابه
 فيا لقصي ما زوى الله عنكم
 ليهن بني كعب مكان فتاتهم
 سلوا أختكم عن شاتها وإنائها
 رفيقين قالوا خيمتي أم معبد
 وأفلح من أمسى رفيق محمد
 به من فعال لا تُجازى وسؤدد
 ومقعدا للمؤمنين بمرصد
 فإنكم إن تسألوا الشاة تشهد^(١)

ومن الجدير بالذكر أن أم معبد الخزاعية قد أسلمت على يدي رسول الله ﷺ، وهاجرت، وكذلك زوجها وقومها هاجروا وأسلموا.

أم معبد ونساء النبي ﷺ الطاهرات:

لنساء النبي ﷺ لقاء طيب مع أم معبد أكرمناها، وأغدقن عليها، وعرفن مكانتها وقدرها - وروت أم معبد ﷺ هذا اللقاء فقالت: رأيت عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف في آخر خلافة عمر ﷺ، ونساء النبي ﷺ قد حججن، وعثمان يسير أمامهن على راحلته، فإذا دنا منهن إنسان قال: إليك إليك وعبد الرحمن وراءهن يفعل مثل ذلك، ولما نزلن ستر عليهن بالشجر من كل ناحية، فلما رأيتهن بكيتُ، وقلت لهن: ذكرتُ رسول الله ﷺ، ورحبن بي، ووصلتني كل امرأة منهن بصلة وقُلن: إذا أخرج أمير المؤمنين العطاء فاقدمي علينا، فقدمت عليهن فأعطتني كل امرأة منهن خمسين دينارًا، وكن سبعة رضي الله عنهن^(٢).

(١) انظر: الاستيعاب (٤/٤٧٣)، وعيون الأثر (١/٢٤٨)، وتاريخ الإسلام للذهبي (١/٤٣٨، ٤٣٩)، وأنساب الأشراف (١/٣٩١)، ومجمع الزوائد (١٦/٦٠)، والسيرة النبوية لدحلان (١/٣١٦).

(٢) أنساب الأشراف (١/٤٦٥، ٦٦٦).

فعن هشام بن حرام عن أبيه، أن أم معبد كانت تجري عليها كسوة وشيء من غلة اليمن، وقطران لإبلها، فمر عثمان رضي الله عنه فقالت له:

أين كسوتي؟ وأين غلة اليمن التي كانت تأتيني؟ فقال: هي لك يا أم معبد عندنا، فأتبعته حتى أعطها إياها.

وقد ذكر الواقدي بأن الشاة التي مسح ضرعها رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده الشريفة واحتلبها قد عمرت سنين عددًا، وبقيت إلى عام الرمادة في خلافة عمر رضي الله عنه، سنة ثمان عشرة من الهجرة، قالت أم معبد: وكنا نحلبها صبحًا وغبوقًا، وما في الأرض لبن قليل ولا كثير، ولا نرى في ذلك عجبًا، بل نرى فيه بركة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وحان وقت الرحيل:

وبعد حياة حافلة طويلة مباركة بالحب والعطاء والوفاء، نامت هذه الصحابية المباركة على فراش الموت، بعدما بذلت كل ما تستطيع لخدمة دين الله صلى الله عليه وسلم، ويبدو من أخبار أم معبد أنها قد عاشت إلى نهاية خلافة سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ويسكت التاريخ ولا تسعفنا المراجع بعد، فلا يحدّد زمن وفاتها رضي الله عنها، ولكن تبقى ذكراها معطرًا، كلما تحدثنا عن الهجرة أو عن وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم.

رضي الله عن أم معبد، وأحسن مثواها، وجعلها في أعلى عليين، وجعل جنة الفردوس مثواها.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

سلمى بنت خصفة رضي الله عنها

زوجة المثني بن حارثة الشيباني ، ثم خلف عليها سعد بن أبي وقاص .
أخرجت سلمى أبا محجن الثقفي من محبسه ليخوض حرب القادسية .
ذات رأي حسن ، وفراصة .

سلمى بنت خصفة رضي الله عنها

المرأة والجهاد :

إن نساء الصحابة لم يدعن لرجلهن خلة يستأثرون بها دونهن ، ولم يتركن سبيل خير من سبل العظائم ، ولا مشرفاً من مشارف المكارم إلا وكن من السابقات إليه ، بل كانت النسوة يخرجن مع المجاهدين فيحرضنهم على القتال والاستبسال ، ومنهن من كُنَّ يداوين جرحاهم ، ويساعدنهم أثناء الحرب فيما يحتاجون إليه من قضاء حوائجهم ، وممن حاز السبق في مقام الجهاد والتمريض منهن : عائشة أم المؤمنين ، رفيدة الأسلمية ، الشفاء بنت عبد الله ، أم عطية ، نسيبة بنت كعب ، أم سليم ، معاذة الغفارية ، الربيع بنت معوذ ، أم سنان الأسلمية رضي الله عنهن .

وكانت بعض النسوة قد خضن ساحات الوغى بكل بسالة ورباطة جأش ، وحُزنَ النصر المبين على الأعداء ، وقد وعت لنا ذاكرة التاريخ عددًا من فضليات المجاهدات منهن الصحابية الجليلة نسيبة بنت كعب رضي الله عنها ، وأسماء بنت يزيد الأنصارية ، وأسماء بنت أبي بكر ، وأم سلمة رضي الله عنهن .

وفي عصر التابعين برزت خولة بنت الأزور الكندية ، وغزالة الحرورية ، زوجة شبيب بن يزيد ، وأم حكيم التي اشتركت في القتال بجيش قطري بن الفجاءة ، وكانت تحارب وهي تقول :

أحمل رأسًا قد سئمت حملة

وقد مللت دهنه وغسله

ألا فتى يحمل عني ثقله

وتبرز امرأة صحابية جليلة كان لها كبير الأثر في الشجاعة والحمية والمشاركة في حماية المسلمين ، والذود عن حياض الدين ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً ، وقد تألقت بحسن رأيها وفراستها في معركة القادسية ، فاستحقت بذلك الخلود مع الخالديات في دنيا النساء الفاضلات .

إنها سلمى بنتُ خصفة من فاضلات النساء ، وممن عاشت فترة الفتوحات الإسلامية الأولى ، وشاركت في حضور ساحات الجهاد ، فكانت ممن واسين الجرحى وآسين جراحاتهم .

أقبلت هي وزوجها المثنى بن حارثة الشيباني على رسول الله ﷺ ، فأسلما بين يديه ، وكان ذلك في العام التاسع وقيل : العاشر للهجرة ، فكانت نعم الزوجة الصابرة المجاهدة التي أعانت زوجها وأيدته في جهاده لنصرة دين الله تعالى ، فصحبته في كل موقف ، بداية من جهاده في قتال المرتدين في البحرين تحت إمرة العلاء بن الحضرمي ؓ ، وبعد أن أحرز المسلمون النصر ، وأخذوا فتنة المرتدين ، تقدم المثنى ؓ في ثمانية آلاف ، فتوغل في بلاد الفرس ، فهزم جمعاً منهم ومن أوليائهم ليستهل به مرحلة جديدة من فتوحات المسلمين في بلاد العراق ، وكان المثنى نعم الجندي المخلص المطيع الذي أفنى حياته في سبيل نصره دين الله تعالى ، فقاتل تحت لواء خالد بن الوليد ؓ ، فدحروا جموع الفرس في خمس عشرة موقعة ، ثم تولى القيادة العامة لهذه الجيوش ، بعد

أن وجه أبو بكر الصديق ﷺ قائده خالدًا لقتال الروم في الشام ، فلما مات الصديق ﷺ وتولى عمر الخلافة ، وجه إلى العراق أبا عبيدة بن مسعود الثقفي قائدًا ، فاختر منه بطلنا المثني ، ولما انهزم المسلمون يوم الجسر ، ووقف ببسالة يُحسد عليها في وسط فرقة من قواته ، فأشرعوا الرماح على الركب ، فكونوا سدًا بأجسامهم حال دون تقدم الفرس ، وأمر المسلمين أن ينسحبوا من ورائهم ، ورغم إصابته بسهم في شقه إلا أنه واصل القتال بجرأة وشجاعة ، حتى نجا المسلمون ثم أعاد على الفرس الكرة في معركة «البويب» ، وكانت بعد الجسر بعام ، فحقق المسلمون فيها نصرًا مؤزرًا تحت قيادة المثني ، وكان المثني لم يبرأ من جرحه يوم الجسر ، وانتقضت جراحه ، وما هو إلا قليل حتى ولى رعاة الدجاج والخنازير الأدبار ، ولاذ قائدهم «هرمز» بالفرار ، واحتل المثني بن حارثة الشيباني «بابل» .

فأحرز ما حوته من الغنائم ، وسبى ما اشتملت عليه من النساء فجعل يُسبحُ الله العظيم ويقول :

صدق رسول الله ﷺ ، صدق نبي الله ﷺ .

لقد ملكنا الأرض ، وأخذنا المال ، وسبينا النساء ^(١) .

وقد استشهد المثني ﷺ ، وذلك في سنة (١٤ هـ) ^(٢) .

وتزوج سعد بن أبي وقاص ﷺ قائد جيوش المسلمين زوجته سلمى إكرامًا

(١) حياة الصحابة (١/١٤١) ، وأسد الغابة (٥/٥٩) ، والأعلام (٦/١٥٨) .

(٢) تاريخ الطبري (٢/٣٨٤) .

لهذا البطل الشهيد ، فشهدت مع سعد زوجها يوم القادسية وما بعدها .

سلمى وسعد ﷺ :

لما استشهد المثنى بن حارثة ؓ ، كان قد أمر أن يسير المسلمون إلى القادسية ومما يلفت النظر أن المثنى قد أوصى بزوجه سلمى بنت خصفة إلى سعد بن أبي وقاص ، وكان قرب القادسية ، فلما انتهى إلى سعد ما أوصى به المثنى ترحم عليه ، وأوصى بأهل بيته خيراً .

ولما انقضت عدة سلمى ، خطبها فتزوجها وبنى بها بمكان يقال له : «شراف» ، وكان مع سعد في الناس يومئذٍ بضعة وسبعون بدرية وثلاثمائة وبضعة عشر ممن كانت له صُحبة في بيعة الرضوان إلى ما فوق ذلك ، وثلاثمائة ممن شهد الفتح وسبعمائة من أبناء الصحابة ^(١) .

ونزل سعد بزوجه سلمى إلى القادسية ، حيث كانت جموع الفرس تعسكرُ هنالك ، وشهدت سلمى مع سعد القادسية وغيرها ، ولكن كان لها في معركة القادسية شأن كبير .

وقبل أن تبدأ المعركة - القادسية - أصابت سعدًا ؓ بعض القروح والدمامل في جسمه ، فكان من شدة الألم لا يستطيعُ الجلوس ، فلما كان يوم أرمات - وهو أول يوم من أيام القادسية - جال الناس ، ولم يستطع سعد ؓ مباشرة القتال لما به من القروح ، لكنه صعد وهو متحامل على نفسه وآلامه إلى

(١) انظر : الكامل في التاريخ (٢/٤٥٣) .

أعلى القصر ، الذي كان ينزل فيه بالعُذيب ، لينظر في مصالِح الجيش وفي الشرفه جلس متكئاً على صدره .

وكان ﷺ لا يُغلق عليه باب القصر لشجاعته، ولو فرَّ الناس لأخذته الفرس قبضاً باليد لا يمتنع منهم ، وكانت بجانبه امرأته سلمى بنت خصفه ، وهي ترى ما به من الألم ، فلما رأت سعداً يتململ ويحوقل فوق القصر ، وهو يخشى على أصحابه من غدرات الفرس ، فلما قرَّ بعض الخيل يومئذٍ ، ورأت ما يصنع أهل فارس فزعت وقالت : وامثياه ، ولا مثني للخيل اليوم ، قالت ذلك عند رجلٍ ضجر مما حلَّ بأصحابه ونفسه - فغضب سعد ﷺ - من ذلك ولطم وجهها، وقال : أين المثني من هذه الكتيبة التي تدور عليها الرحي ؟

فَقالت : أغيرة وجبناً - يعني أنها تعيره بجلوسه في القصر يوم الحرب ؟

فقال ﷺ : والله لا يعذرني اليوم أحدٌ إذا أنت لم تعذريني ، وأنت ترين ما بي ، فالناس أحق ألا يعذروني .

فتعلقها الناس ولاموها ، وكان سعد غير جبان ولا ملوم^(١) .

ولم يمض إلا وقت قصير حتى اعتذرت سلمى عما بدر منها إلى زوجها سعد ، وطلبت منه أن يصفح عنها فكان ذلك .

هل لك في خير يا سلمى بنت خصفه؟

ذكرت المصادر موقفاً رائعاً لسلمى بنت خصفه يوم القادسية ، إذ تصرفت

تصرفاً دل على فراستها وذكائها في وقت من أشد الأوقات حرجاً على جيش المسلمين .

فقد كان أبو محجن الثقفي - واسمه عبد الله بن حبيب - من الشعراء المخضرمين ، الذين أدركوا الجاهلية والإسلام ، وكان أبو محجن شاعراً فارساً معدوداً في أولي البأس والنجدة ، إلا أنه كان من المعاقرين للخمر ، وقد حُدد^(١) فيها أكثر من مرة ، قال الإمام النووي : ثماني مرات ، فأمر سيدنا عمر بن الخطاب أن ينفى ، وبعث إلى سعد بن أبي وقاص أن يجبسه فسجنه سعد ، وقيده بالحديد في قصره بالعذيب في القادسية .

ولما اشتد القتال بين جيش المسلمين وجموع الفرس ، وحمي وطيس المعركة ، وأخذت الأصوات تصل إلى سمع أبي محجن ، صعد إلى أعلى القصر في الليل ، وسأل سعداً أن يعفيه من السجن ويستقبله ، ليخوض غمار المعركة ويكون ممن شرى وباع فيها ، غير أن سعداً رضي الله عنه رده ، فنزل أبو محجن وقلبه يكاد ينفطر من شدة ما حلَّ به ، فأتى يرسف في قيوده إلى زوج سعد سلمى بنت خصفة ، فقال :

يا سلمى بنت آل خصفة ، هل لك إلى خير ؟

قالت : وما ذاك يا أبا محجن ؟

(١) واتفق الفقهاء على وجوب حد شارب الخمر ، وعلى أن حد الجلد أربعون ، وفي حد شارب الخمر قولان : أحدهما ثمانون جلدة ، والآخر : أربعون جلدة .

قال : تخلين عني ، وتعيرني البلقاء - فرس سعد - فله عليّ إن سلمني الله أن أرجع إليك حتى أضع رجلي في قيدي ، وإن قُتلت استرحمّ مني ، فأوجست سلمى خيفة منه بادئ الأمر ، ثم قالت : وما أنا وذاك ؟ دعني من هذا ، فرجع يرسف في قيوده ، وأنشأ يقول في حرقة وندم :

كفى حزناً أن تردي الخيل بالقنا	وأترك مشدوداً عليّ وثاقيا
إذا قُمتُ عناني الحديد وأغلقت	مصارع دوني قد تصمّ المناديا
وقد كنت ذا مالٍ كثيرٍ وإخوةٍ	فقد تركوني واحداً لا أخاليا
وقد شف جسمي أنني كل شارق	أعالج كبلًا مصمتًا قد برانيا
فله دري يوم أترك موثقًا	وتذهل عني أسرتي ورجاليا
حبيسًا عن الحرب العوان وقد بدت	وأعمال غيري يوم ذاك العواليا
ولله عهد لا أخيس بعهده	لئن فرجت أزور الحوانيا

وسمعت سلمى ما ينفث به أبو محجن ، ولاحظت شدة تأثره وندمه ، وتفرست في ملامحه فرأت علائم الصدق في وجهه عندئذٍ قالت له : يا أبا محجن ، إني استخرتُ الله ﷻ ، ورضيتُ بعهدك وأطلقته من قيده ، ثم قالت له : هذا ما أستطيع أن أقدمه لك ، أما الفرس فلا أعيرها ، ورجعت إلى بيتها .

واستطاع أبو محجن أن يصل إلى البلقاء «فرس سعد» ، فاقتادها وأخرجها من باب القصر الذي يلي الخندق ، فركبها ثم دبَّ عليها وأخذ الرمح وانطلق حتى أتى الناس ، ولما كان بحيال الميمنة كَبَّرَ ، ثم حمل على ميسرة القوم يلعب برمحه وسلاحه بين الصفين ، ثم رجع من خلف المسلمين ، وحمل على ميمنة القوم برمحه وسلاحه ، فجعل لا يحمل على ناحية إلا هزمهم الله ، وكان

يقصف الناس قصفًا منكرًا ، وتعجب الناس منه وهم لا يعرفونه ؛ لأنه كان ملثماً ، إذ لم يروه من النهار .

وجعل سعد رضي الله عنه يقول وهو مشرف على الناس من فوق القصر ينظر إلى أبي محجن وشجاعته : والله لولا محبس أبي محجن لقلتُ : هذا أبو محجن ، وهذه البلقاء ، بينما قال بعض الناس وقد تملكهم العجب أيضًا : إن كان الخضر عليه السلام يشهد الحروب فنظن صاحب البلقاء الخضر نفسه .

وقال آخرون : لولا أن الملائكة لا تباشر القتال لقلنا : ملك يقاتل معنا ويثبتنا .

ولم يزل أبو محجن يقاتل ، ولا يذكره المسلمون ، ولا يأبهون له ؛ لأنه كما يعرفون ، قد بات في محبسه ، وقد أثقلته القيود ، ولم يعلموا أن مبيته كان تلك الليلة على صهوة الجواد ، لا في القيود والأصفاد ، ولما انتصف الليل حاجز أهل فارس وتراجع المسلمون ، وأقبل أبو محجن حتى دخل القصر من حيث خرج ، ووضع نفسه عن دابته ، ووفى لسلمي بعهده ، فأعاد رجله في القيد كما كانتا ، وطفق يقول والحماس يسيلُ على لسانه :

لقد علمت ثقيفٌ غير فخرٍ	بأننا نحن أكرمهم سيوفا
وأكثرهم دروعًا سابغاتٍ	وأصبرهم إذا كرهوا الوقوفا
وأننا وفدهم في كل يوم	فإن عمُّوا فسل بهم عريفا
وليلة قادمٍ لم يشعروا بي	ولم أشعر بمخرجي الزحوفا
فإن أحبس فذلكم بلائي	وإن أترك أذيقهم الختوفا

سلمى وتوبة أبي محجن :

وسمعت سلمى - رحمها الله - ما أنشد أبو محجن فسرت في نفسها فرحة عارمة بإطلاقه، ومن ثم وفائه، فأقبلت نحوه، وقالت له : يا أبا محجن ، في أي شيء حبسك هذا الرجل؟ تعني سعد بن أبي وقاص، قال : أما والله ما حبسني في حرام أكلته ولا شربته ، ولكنني كنت صاحب شراب في الجاهلية ، وأنا امرؤ شاعر يدب الشعر على لساني فأبعثه على شفتي أحياناً ، فيسأئ لذلك ثنائي ، ولذلك حبسني لأنني قلت :

إذا متُّ فادفني إلى أصل كرمية تروي عظامي بعد موتي عروقتها
ولا تدفني بالفلاة فإنني أخافُ إذا ماتت ألا أدوقها

وفي صباح تلك الليلة جاءت سلمى سعداً رضي الله عنه ، وأخبرته خبرها وخبر أبي محجن ، فدعاه وأطلقه، وأخذ عليه العهد ألا يُقدم على الخمرة ، فتاب أبو محجن إلى الله توبةً نصوحاً ، فلم يعد إلى معاقرتها أو ذكرها ، ولم يعد يتكلم بقبیح أبداً .

وكان لسلمى بنت خصفه كبير الفضل في سبب توبة أبي محجن ، وفي حسن بلائه مع المسلمين إلى أن أنزل الله تعالى نصره عليهم ، ودحر عدوهم ، وقهر كبارهم ، وأذلمهم إلى أبد الدهر ^(١) .

(١) انظر القصة كاملة في المصادر التالية : تاريخ الطبري (٢/٤١٦) ، والاستيعاب (٤/١٨١ - ١٨٥) ، وأسد الغابة (٥/٢٩٠ ، ٢٩١) ، والبداية والنهاية (٧/٤٥) ، والأغاني (٢١/١٣٩ ، ١٤٠) ، والإصابة (١٠/١٧٣ - ١٧٥) .

ودود ولود:

كانت سلمى بنت خصفة - رحمها الله - ودودًا ولودًا ، فقد أورد صاحب «الطبقات» أنها ولدت لسعد ذكورًا وإناثًا فالذكور هم : عمير الأصغر ، وعمران ، وعمرو .

والإناث : أم عمرو ، وأم أيوب ، وأم إسحاق ^(١) .

وظلت سلمى - رحمها الله - في كنف زوجها حتى توفاه الله سنة (٥٥هـ) رضي الله عنه .
أما أولادها فقد ذكر ابن سعد في «الطبقات» أن عمرو بن سعد وعمير بن سعد قد قُتلا يوم الحرة بالمدينة المنورة سنة (٦٣هـ) رحمها الله .

أما سلمى بنت خصفة فقد وافاها الأجل قبل مقتل ولديها بثلاث سنين ، وبعد وفاة زوجها بخمس سنين ، إذ كانت وفاتها في سنة (٦٠هـ) على أصح تقدير ، رحمها الله عز وجل .

وبذلك يطوي الموتُ شخص سلمى بينما نشر التاريخ صفحتها الناصعة التي تحمل مروءتها وشجاعته ، وتجعلها في مقدمة النساء القدوة لمن أرادت أن تقتدي بها .

فرحم الله سلمى بنت خصفة رحمة واسعة ، وجعلها في مستقر رحته ، فقد كانت قدوة صالحة للنساء وامرأة قلَّ أن يجود الدهر بمثلها ، ومثلها فلتكن النساء في كل زمان .



فاطمة بنت الخطاب رضي الله عنها

- . هي أخت أمير المؤمنين أبي حفص عمر بن الخطاب .
- . وكانت سببا في إسلامه ، من المهاجرات إلى المدينة .
- . راوية للحديث النبوي الشريف .

فاطمة بنت الخطاب رضي الله عنها

من الرعيل الأول :

بدأت نساتُ الإسلام تفوح بأريجها العطر في أم القرى ، وبدأ أصحاب العقول الواعية يتقبلون هذه الدعوة بقلوبٍ صافية متعطشة للتخلص من براثن الجاهلية ، وتهيؤوا لرسالة الإسلام الكبرى التي وجدوا فيها الحياة الحقيقية ، وهؤلاء السابقون لم يكونوا من الرجال فحسب ، بل كانت النساء من السابقات أيضًا إلى الاستجابة لله ﷻ ولرسوله محمد ﷺ .

وقد قرن الله - سبحانه وتعالى - بين الرجال والنساء في حسن المثوبة ، وادخار الأجر ، وارتقاء الدرجات العلا في الآخرة ، فقال عز من قائل في محكم التنزيل : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٧٩] .

ومن بين الثلة المبكرة صحابية جليلة القدر ، أسلمت مع تنفس صبح الإسلام ، وقبل دخول النبي ﷺ دار الأرقم بن أبي الأرقم رضي الله عنه ، إنها فاطمة بنت الخطاب بن نفيل القرشية العدوية ^(١) ، أخت عمر بن الخطاب ، وزوجة سعيد بن زيد ، وأمها حنمة بنت هاشم بن المغيرة القرشية المخزومية .

وقبل أن نتحدث عن فاطمة رضي الله عنها دعونا نعطر الأجواء ونؤنس القلوب

(١) الاستيعاب (٤/ ٣٧٠) ، وأسد الغابة (٥/ ٥١٩) ، والإصابة (٤/ ٣٧٠) .

بذكر زوجها سعيد بن زيد أحد العشرة المبشرين بالجنة، عليه سحائب
الرضوان والرحمة .

والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه :

لقد كان زيد بن عمرو بن نفيل والد سعيد بن زيد فريداً في عصره وزمانه ،
فقد كان الناس يعبدون الأصنام، وهو يعبد الواحد الديان ، فخرج من صلبه
هذا الابن المبارك سعيد بن زيد؛ ليكون واحداً من العشرة الذين بشرهم النبي
ﷺ بالجنة .

كان زيد بن عمرو يُحیی الموءودة يقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته : مه لا
تقتلها ، أنا أكفيك مؤنتها ، فياخذها فإذا ترعرعت قال لأبيها : إن شئت
دفعتها إليك ، وإن شئت كفيتك مؤنتها^(١) .

وكان يعيب على قريش ويقول : الشاة خلقها الله ، وأنزل لها من السماء الماء ،
وأنت لها من الأرض ، ثم تذبحونها على غير اسم الله ؟

قال زيد بن عمرو : وقفت على اليهودية والنصرانية ، فأعرضت عنهما ؛ إذ لم
أجد فيهما ما أطمئن إليه ، وجعلت أضرب في الآفاق بحثاً عن ملة إبراهيم ،
حتى صرت إلى بلاد الشام ، فذكر لي راهب عنده علم من الكتاب فأتيته ،
فقصصت عليه أمري ، فقال : أراك تريد دين إبراهيم يا أخا العرب .

قلتُ : نعم ، ذلك ما أبغي ، فقال : إنك تطلب ديناً لا يوجد اليوم ، لكن

(١) أخرجه البخاري معلقاً (٣٨٢٨) في المناقب، والحاكم وصححه (٤٠٤/٣) ووافقه الذهبي .

الحق ببلدك، فإن الله يبعث من قومك من يجدد دين إبراهيم، فإذا أدركته فالتزمه، فقفل زيد راجعاً إلى مكة يحثُّ الخطأ التماساً للنبي الموعود، ولما كان في بعض طريقه بعث الله نبيه محمداً بين الهدى والحق، لكن زيدياً لم يدركه؛ إذ خرجت عليه جماعة من الأعراب فقتلته قبل أن يبلغ مكة، وتكتحل عيناه بروية رسول الله ﷺ، وفيما كان زيد يلفظ أنفاسه الأخيرة، رفع بصره إلى السماء وقال:

«اللهم إن كنت حرمتني من هذا الخير، فلا تحرم منه ابني سعيداً»، وشاء الله سبحانه أن يستجيب دعوة زيد، فما إن قام الرسول ﷺ يدعو الناس إلى الإسلام، حتى كان سعيد بن زيد في طليعة من آمنوا بالله ورسوله، وصدقوا رسالته.

ولم يسلم سعيد وحده، وإنما أسلمت معه زوجته فاطمة بنت الخطاب، أختُ عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

لقد شهد سعيد بن زيد رضي الله عنه المشاهد كلها ما خلا «بدرًا»: وذلك لأن النبي ﷺ كان قد أرسله في مهمة، فلما عاد وجد النبي ﷺ عائداً من الغزوة، فضرب له النبي ﷺ بسهمه فكان كمن شهدها، وما زال يشهد المشاهد بعد وفاة الرسول ﷺ يبحث عن الشهادة في سبيل الله، ولا يرضى عنها بديلاً.

وفي زمن بني أمية وقعت «لسعيد» بن زيد حادثة ظل أهل «يثرب» يتحدثون بها زمناً طويلاً.

ذلك أن «أروى بنت أويس» زعمت أن سعيد بن زيد قد غصب شيئاً من أرضها إلى أرضه ، وجعلت تردد ذلك بين المسلمين وتحدث به ، ثم رفعت أمرها إلى «مروان بن الحكم» والي المدينة، فأرسل إليه مروان أناساً يكلمونه في ذلك، فصعب الأمر على صاحب رسول الله وقال : يروني أظلمها كيف أظلمها ، وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : «من ظلم شبراً من الأرض ، طوقه الله يوم القيامة من سبع أرضين» ، اللهم إنها قد زعمت أني ظلمتها ، فإن كانت كاذبة فأعم بصرها ، واجعل قبرها في أرضها ، وأظهر من حقي نوراً يبين للمسلمين أني لم أظلمها ، لم يمض على ذلك غير قليل حتى سال «العقيق» بسيل لم يسلم مثله قط ، فكشف عن الحد الذي كانا يختلفان فيه ، وظهر ذلك للمسلمين أن سعيداً كان صادقاً .

ولم تلبث المرأة بعد ذلك إلا شهراً حتى عميت ، وبينما ^(١) هي تطوف في أرضها تلك سقطت في بئرها ، قال عبد الله بن عمر : فكنا ونحن غلمان نسمع الإنسان يقول للإنسان : «أعمك الله كما أعمى أروى» .

ولا عجب في ذلك فالرسول ﷺ يقول : «اتقوا دعوة المظلوم ، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب» .

فكيف إذا كان المظلوم سعيد بن زيد أحد العشرة المبشرين بالجنة؟! ^(٢) .

(١) الاستيعاب وبهامشه الإصابة (٢/٢) .

(٢) طبقات ابن سعد (٣/٢٧٥) ، وصفة الصفوة (١/١٤١) ، والحلية (١/٩٥) .

أولئك المقربون :

كانت فاطمة بنت الخطاب رضي الله عنها امرأة عاقلة، سليمة القلب، زكية النفس ، رقيقة المشاعر ، طاهرة القلب؛ لذلك كان إيمانها إيماناً لا مثار فيه للريب ، فقد أُشربت الإيمان منذ أول عهداها به ، فوجدت الله ﷻ ملء سمعها وبصرها ، ووجدت في تصديق النبي الخاتم ﷺ الأمل الذي أخرجها من الظلمات إلى النور؛ لذلك كانت فاطمة من المسلمات الأوّل فقد ورد أن أول من أسلم من النساء بعد خديجة رضي الله عنها أم الفضل زوج العباس بن عبد المطلب ، وأسماء بنت أبي بكر ، وفاطمة بنت الخطاب رضي الله عنهن ^(١) .

وكان مشركو قريش يذيقون من آمن ألواناً من العذاب تنوء عن حملة الجبال ، وكان عمر بن الخطاب يعذبُ أخته فاطمة على الإسلام ^(٢) ، وطالما لقي المسلمون الأذية منه ، ولكن فاطمة كانت من الأسباب التي غيرت مسار أخيها عمر الذي غدا أحد أسياد الصحابة، رضي الله عنهم جميعاً .

فاطمة وإسلام عمر :

لا يكاد الباحثُ يمرُّ على أخبار فاطمة رضي الله عنها إلا ويعرج على تلك الحادثة العظيمة التي كانت من فواتح الخير على الإسلام والمسلمين ، وهي إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

(١) السيرة الحلبية (١/ ٤٤٥) .

(٢) جمهرة أنساب العرب (١/ ١٥١) .

روى أصحاب السير : أن عمر خرج يوماً متوشحاً سيفه ، وقد ضاق ذرعاً بهذا الدين وأهله ، يريد رسول الله ﷺ ومن معه ليفتك بهم ، فلقيه نعيم بن عبد الله النحام ، فقال : أين تعمد يا عمر ؟

قال : أريد أن أقتل محمداً .

قال : كيف تأمن من بني هاشم ومن بني زهرة وقد قتلت محمداً ؟

فقال عمر : ما أراك إلا قد صبوت، وتركت دينك الذي كنت عليه .

قال : أفلا أدلك على العجب يا عمر ، إن أختك وخَتَّتَكَ - صهرك - قد

أسلمها وتركا دينك الذي أنت عليه .

فمشى عمر مغضباً حتى أتاهما، وعندهما خباب بن الأرت ﷺ ، معه صحيفة فيها «طه» يقرئها إياها، فلما سمعوا حسَّ عمر تواري خباب في البيت ، وأخفت فاطمة الصحيفة ، وكان عمر قد سمع حين دنا من البيت قراءة خباب عليها ، فلما دخل عليها قال : ما هذه الهينة التي سمعتها ؟

ف قالت : ما عدا حديثاً تحدثناه بيننا .

قال : فلعلكما صبوتما ، فقد أخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه .

فقال صهره وابن عمه سعيد : يا عمر ، أرأيت إن كان الحقُّ في غير دينك ؟

فلم يتالك عمر نفسه ووثب على صهره فوطئه ، وبطش به ، فقامت فاطمة

فرفعت عن زوجها فنحها بيده نفحةً فدمى وجهها .

فقالت فاطمة : يا عمر ، إن كان الحق في غير دينك ، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله .

فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ، ندم واستحيا وقال : أعطوني هذا الكتاب الذي عندكم فأقرأه ، وكان عمر يقرأ ويكتب ، فقالت له أخته ، وقد طمعت في إسلامه : إنك رجس ولا يمسه إلا المطهرون ، فقم فاغتسل ، فقام فاغتسل ثم أخذ الكتاب فقرأ : «بسم الله الرحمن الرحيم» ، فقال : أساء طيبة طاهرة ، ثم قرأ : ﴿طه﴾ ، حتى انتهى إلى قوله تعالى : ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ فقال : ما أحسن هذا الكلام دلوني على محمد .

وفي هذه اللحظات الصافية بزغ خباب بن الأرت من مخبئه ، وأسرع نحو عمر وقال : أبشر يا عمر ، فإني أرجو أن تكون دعوة الرسول ﷺ سبقت لك ليلة الخميس : «اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب ، أو بأبي جهل بن هشام» ، ورسول الله ﷺ الآن في الدار في أصل الصفا ، يعني دار الأرقم .

فأخذ عمر سيفه فتوشحه ، ثم ذهب إلى رسول الله ﷺ وأصحابه معه ، فطرق الباب ، فقام رجل من الصحابة فنظر من خلل الباب ، فرآه متوشحاً سيفه ، فرجع إلى رسول الله ﷺ وهو فزع ، فقال : يا رسول الله ، هذا عمر بن الخطاب جاء متوشحاً سيفه .

فقال حمزة بن عبد المطلب : فائذن له ، إن كان يريد خيراً بذلناه له ، وإن كان يريد شراً قتلناه بسيفه ، فقال رسول الله ﷺ : «ائذن له» ، فلما رآه رسول

الله ﷺ أخذ بمجامع ثوبه ، وحمائل سيفه ، فقال : «أما أنت منتهياً يا عمر ، حتى ينزل الله بك من الخزي والنكال ما أنزل بالوليد بن المغيرة ؟ اللهم هذا عمر بن الخطاب ، اللهم أعز الدين بعمر بن الخطاب» .

فقال عمر : يا رسول الله ، لقد جئتك لأؤمن بالله ورسوله ، وبما جاء من عند الله ، فكبر رسول الله ، وكبر المسلمون فرحاً بإسلام عمر ﷺ (١) .

وقال عمر بعد أن أسلم : يا رسول الله ، ألسنا على الحق إن متنا أو حيننا ؟ قال : «بلى» ، قال : فما مكثنا هنا ؟ فلنخرج ولنطف بالبيت ولنظهر الإسلام ، فخرج المسلمون في صفين : صف يتقدمه حمزة ، وصف يتقدمه عمر ، والرسول ﷺ بين الصفين فطافوا بالبيت ، والمشركون ينظرون فلا يستطيع أحد أن يفعل بالمسلمين ما كان يفعل .

وذكر ابن سعد في «الطبقات» : أن عبد الله بن مسعود قال : كان إسلام عمر فتحاً ، وكانت هجرته نصرًا ، وكانت إمارته رحمة ، ولقد رأيتنا وما نستطيع أن نصلي بالبيت حتى أسلم عمر .

مكانة فاطمة ﷺ :

ظلت لفاطمة المكانة الكبرى في قلوب المسلمين ، كيف لا ؟ وهي السبب الذي ساقه الله تعالى لإسلام عمر الذي كان إسلامه فتحًا كما قال ابن مسعود

(١) انظر : الطبقات (٣/٢٦٧، ٢٦٨) ، وأسد الغابة (٤/٥٢، ٥٣) ، وصفة الصفوة

(١/٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧١) ، والبداية والنهاية (٣/٧٧) .

ﷺ ، فكان هذه المرأة القرشية كانت أول الفاتحين في عهد الإسلام ، وقد ظلت هذه القصة تذكر حتى إن أمير الشعراء أحمد شوقي قد نظم شعراً حكي فيه دور فاطمة ﷺ في إسلام الفاروق .

يقول شوقي ﷺ :

ثار إلى حيث النبي موعداً
فجاءه مُوحداً من الزمر
وحدث الله ابنة الخطاب
فجاءها معتزم الشراس
فراعه من الخباء هينمة
فقال ما أسمع؟ قالت : طه
وقال وعرفان الصواب مكرمه
وأنست سكينة الحوارى
كحمل مدلي صار الأسد
فجاء نادى النبي فاهتدى

وُمبرقاً بسيفه ومُرعداً
وقال جئ أهلك فانظربا عمر
وآمن السعيد في الأخطاب
وكان صلياً خشن المراس
وصوت مستخفية مرنمة
فلم يصوبها ولا خطأها
فاطم هذا منطلق ما أكرمه
من رجل في صحوه موار
والصارم المسلول عاد كالمسد
وكبر الهادي وهل المتدى^(١)

فاطمة في شعر عمر :

كان للقرآن الكريم كبير الأثر في نفس سيدنا عمر ﷺ ، فقد توقف ملياً عند آياته التي هي شفاء ورحمة للمؤمنين ، وبالقرآن الكريم تتحلى المسامع والأفواه ، وفيه ما تشتهيهِ الأنفس ، وتلذ الأعين ، فأزالت الغوامض التي كانت تعتمل في نفس عمر ، فصفت نفسه ، وقال عندما تلا صدرًا من سورة طه : لا ينبغي

(١) انظر : دول العرب وعظاء الإسلام (ص ٣٩ ، ٤٠) .

لمن هذه آياته أن يكون له شريكٌ يعبد معه .

وذكر السهيلي رحمه الله : أن سيدنا عمر قال حين أسلم هذه الآيات ، وفيها يذكر أخته فاطمة ، وكيف منَّ الله عليه بالإسلام :

الحمد لله ذي المنِّ الذي وجبت
وقد بدأنا فكذبنا فقال لنا
وقد ظلمتُ ابنة الخطاب ثم هدى
وقد ندمتُ على ما كان من زللي
لما دعت ربها ذا العرش جاهدة
أيقنتُ أن الذي تدعوه خالقها
فقلت أشهد أن الله خالقنا
نبي صدقٍ أتى بالحق من ثقيّة
هجرتها ﷺ :

له علينا أيادٍ ما لها غير
صدق الحديث نبئٌ عنده الخبر
ربي عشية قالوا : قد صبا عمر
بظلمها حين تُتلى عندها السُّور
والدمع من عينها عجلان يتدر
فكاد تسبقني من عبرة درر
وأن أحمد فينا اليوم مشتهر
وافى الأمانة ما في عوده خور^(١)

لما بدأت طلائع المسلمين تهاجر إلى المدينة المنورة ، كانت فاطمة بنت الخطاب بصحبة زوجها سعيد بن زيد رضي الله عنه في عداد المهاجرين الأولين ، وفي المدينة ظلت فاطمة تتابع الأحداث الإسلامية يوماً بيوم ، وتشارك في بناء صرح الإسلام ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً ، كما أنها ظلت تنهلُ من المعين النبوي الصافي شيئاً كثيراً .

رحم الله هذه المرأة الصالحة وأخاها وزوجها؛ لما قدمت للإسلام، وكفاها

(١) انظر : الروض الأنف على هامش السيرة النبوية (٢/ ١٠٠) .

أن جعلها الله سبياً في إسلام عمر، ونسأل الله أن يجعلهم في مستقر رحمته في الجنة، ونعم دار المتقين.



أم هانئ بنت أبي طالب ﷺ

قال رسول الله ﷺ :

«قد أجرنا من أجرنا ، وأمنا من أمنت» .

قال ﷺ :

«نعم الإدام الخلل يا أم هانئ ، لا يفتقر بيتٌ فيه خل» .

أم هانئ بنت أبي طالب رضي الله عنها

السيدة الفاضلة :

عندما تحدث الإمام الذهبي رحمته الله عن أم هانئ قال : السيدة الفاضلة أم هانئ ، بنت عم النبي صلى الله عليه وسلم ، أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف الهاشمية المكية^(١) .

وأما السيدة الكريمة فاطمة بنت أسد بن هاشم ، وهي من المهاجرات المبايعات ، وأم جميع ولد أبي طالب : علي ، وجعفر ، وعقيل ، وطالب ، وأم هانئ^(٢) .

اشتهرت أم هانئ بمكة بأنها إحدى ذوات الرأي السديد والأدب الجم بين نساء قريش عامة ، وبين نساء بني هاشم خاصة .

وقد ورثت الفصاحة عن أبيها الذي كان أحد فصحاء قريش وشعرائهم ، وبلغائهم ، فكان أبو طالب يشير إلى الفضائل التي كان يجبها في شخص ابن أخيه ، ولقد ترجم عن عواطفه بقوله يمتدح ، ويصف النبي صلى الله عليه وسلم :

وأبيض يُستسقى الغمام بوجهه ثمأل اليتامى عصمة للأرامل
حليم رشيد عادل غير طائش يُوالي إهأليس عنه بغافل^(٣)

(١) سير أعلام النبلاء (٢/٣١١، ٣١٢) .

(٢) المعارف (ص ١٢٠) ، وجمهرة أنساب العرب (١/١٤) .

(٣) تاريخ الإسلام للذهبي (٢/١٦٣) ، ثمأل: عماد وملجأ .

ناهيك أنها اقتبست أخلاق أمها فاطمة بنت أسد مما جعلها من عليّة النساء في عالم الإسلام .

زواجها وأولادها :

قال ابن عباس : خطب النبي ﷺ إلى أبي طالب أم هانئ ابنته في الجاهلية ، وخطبها هبيرة بن عمرو بن عائذ المخزومي ، أحد شعراء قريش ، وولدت له : عمراً ، وجعدة ، وهانئاً ، ويوسف .

فقال النبي ﷺ : « يا عم ، زوجت هبيرة وتركتني ؟ » ، فقال : يا بن أخي ، إنا قد صاهرنا إليهم ، والكريم يكافئ الكريم ، ثم أسلمت ففرق الإسلام بينها وبين هبيرة ، فخطبها رسول الله ﷺ إلى نفسها فقالت : يا رسول الله ، لأنت أحب إليّ من سمعي وبصري ، وحق الزوج عظيم ، فأخشى إن أقبلت على زوجي أن أضيع بعض شأن ولدي ، وإن أقبلت على ولدي أن أضيع حق الزوج ، فقال رسول الله ﷺ : « إن خير نساء ركن الإبل نساء قريش ، أحناه على ولد في صغره ، وأرعاه على بعل في ذات يده » (١) .

فلما كبر أولادها عرضت نفسها على النبي ﷺ ، فقال لها النبي ﷺ : « أما الآن فلا » ؛ لأن الله أنزل عليه قوله سبحانه وتعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنْ أَحَلَّلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا آفَاءَ اللَّهِ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِكَ

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٨ / ١٢٠) ، وقال ابن حجر في الإصابة (٨ / ٤٨٥) : سنده

وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَلَّتِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَأَمْرًا مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ ﷺ [الأحزاب: ٥٠]، قالت: فلم أكن أحل له لأنني لم أهاجر، وكنت من الطلقاء (١).

إسلامها وفضلها ﷺ :

أجمعت المصادر والأخبار بأن «أم هانئ» فتح الله على قلبها بالإسلام عام الفتح سنة ثمان للهجرة، حيث أعلنت إسلامها، وعن يوم الفتح يتحدث ابن القيم رحمته الله بكلام قيم فيقول: هو الفتح الأعظم الذي أعز الله به دينه ورسوله وجنده وحزبه الأمين، واستنقذ به بلده وبيته، الذي جعله هدى للعالمين، من أيدي الكفار والمشركين، وهو الفتح الذي استبشر به أهل السماء، وضربت أطناب عزه على مناكب الجوزاء، ودخل الناس به في دين الله أفواجًا، وأشرق به وجه الأرض ضياءً وابتهاجًا.

ولما دخل النبي ﷺ مكة وقف وقال: «يا معشر قريش، ما ترون أي فاعل بكم؟».

قالوا: خيرًا، أخ كريم، وابن أخ كريم.

قال: «فإني أقول لكم كما قال يوسف لإخوته: ﴿لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ اذهبوا فأنتم الطلقاء».

وبعد هذا الموقف الأسر المؤثر، كان لأم هانئ رحمته الله يومئذ منقبة كبيرة لم

تحظ بها امرأة قط ، فقد دخل النبي ﷺ بيتها واغتسل وصلى صلاة الفتح ، أو صلاة الشكر ، وهذه فضيلة باهرة لها ﷺ .

أم هانئ وصلاة الفتح :

تشير الروايات كلها إلى أن رسول الله ﷺ قد دخل يوم الفتح دار ابنة عمه أم هانئ ، فاغتسل وصلى ثماني ركعات في بيتها وكانت ضحى .

قالت : لم أره صلى صلاة قط أخف منها ، غير أنه يتم ركوعها وسجودها ^(١) ، وهذه الصلاة تسمى صلاة الفتح ، وكان أمراء الإسلام إذا فتحوا حصناً أو بلدًا صلوا عقيب الفتح هذه الصلاة ، اقتداء برسول الله ﷺ ، فلما فتح خالد ابن الوليد ﷺ الحيرة صلى صلاة الفتح ثماني ركعات .

وكان لأم هانئ منقبة أخرى خصّها النبي ﷺ بها ، حيث أكل من طعامها وامتدحه ، فقد ورد أنه ﷺ قال لها : «هل عندك من طعام نأكله؟» ، قالت : ليس عندي إلا كسرٌ يابسة ، وأنا أستحي أن أقدمها إليك .

فقال : «هلمي بهن» ، فكسرن في ماء وجاء بملح ، فقال : «هل من إدام؟» ، فقالت : ما عندي يا رسول الله إلا شيء من خلّ .

فقال : «هلميه» ، فصبه على الكسر ، وأكل منه ، ثم حمد الله ، ثم قال : «نعم الإدام الخلل يا أم هانئ ، لا يفتقر بيت فيه خل» ^(٢) .

(١) الحديث رواه الشيخان في الصحيحين ، والترمذي (٤٧٤) ، وأبو داود (١٢٩١) ، ودلائل النبوة للبيهقي (٨١ / ٥) ، وأسد الغابة (٥ / ٢٦٤) .

(٢) السيرة الحلبية (٤٢ / ٣) .

أم هانئ وإجارة المشرك :

كانت المرأة في عهد الجاهلية تُجبر الخائف ، وتفك العاني - الأسير - وجاء الإسلام الحنيف فحفظ للمرأة المسلمة مكانتها ، ورعى كرامتها حق الرعاية ، فأجاز لها إعطاء الأمان للرجل والرجلين ، فقد افتدت زينب الكبرى بنت رسول الله ﷺ إيسار زوجها أبي العاص بن الربيع ، وكان من أسرى بدر ، وأجارته زينب .

وقد أجات أم هانئ ﷺ رجلين من أحمائها ، حكم عليهما بالقتل ، فقبل النبي ﷺ إجاتها .

روت أم هانئ هذه الحادثة فقالت :

لما نزل رسول الله ﷺ بأعلى مكة ، فرّ إليّ رجلان من أحمائي من بني مخزوم - وهما - عبد الله بن أبي ربيعة ، والحارث بن هشام وكلاهما من بني مخزوم ، فدخل عليّ أخي علي بن أبي طالب فقال : والله لأقتلنهما ، فأغلقت عليهما باب بيتي ، ثم ذهبت إلى رسول الله ﷺ ، فوجدته يغتسل وفاطمة ابنته تستره بثوب ، قالت : فسلمت ، فقال : «من هذه؟» .

فقالت : أم هانئ بنت أبي طالب .

فقال : «مرحبًا وأهلًا يا أم هانئ ما جاء بك؟» .

فأخبرته خبر الرجلين وخبر عليّ - أخي - فقال رسول الله ﷺ : «قد أجزنا

من أجزت يا أم هانئ ، وأمنا من أمنت فلا يقتلها»^(١) .

(١) انظر : المغازي (٢/٨٢٩، ٨٣٠) ، وسير أعلام النبلاء (٢/٣١٣) ، وتاريخ الإسلام

(٢/٥٥٥) ، وزاد المعاد (٣/١٢١) .

وبهذه الواقعة عرف الصحابة الكرام لأم هانئ فضلها في هذا الباب ، فكانوا يجلبونها ويحترمونها ﷺ .

أم هانئ وزوجها :

عندما فتح رسول الله ﷺ مكة هرب هبيرة زوجها إلى نجران - باليمن - وقال حين فرَّ معتذراً من فراره :

لعمرك ما وليتُ ظهري محمداً وأصحابه جنباً ولا خيفة القتل
ولكنني قلبتُ أمري فلم أجد لسيفي غناء إن ضربت ولا نبلي
وقفتُ فلما خفتُ ضيعة موقفي رجعتُ لعود كاهزبر إلى الشبل^(١)

وأقام هبيرة بنجران طريداً شريداً كافراً ، ولما بلغه إسلام أم هانئ قال أبياتاً منها :

وعاذلة هبت بليل تلومني وتعذلني بالليل ضللاً ضلالها
وتزعم أني إن أطعت عشيرتي سأردى وهل يرديني إلا زوالها
ثم بعد عدة أبيات قال يخاطب أم هانئ :

فإن كنت قد تابعت دين محمد وقطعت الأرحام منك حبالها
فكوني على أعلى سحيق بهضبة ململمة غبراء يبس بلاها^(٢)

(١) الاستيعاب (٤/٤٧٩) ، وأسد الغابة (٥/٦٢٤) .

(٢) انظر : الأبيات كاملة في الروض الأنف (٤/١٠٦) ، واقرأ القصة في تاريخ الطبري

(٣/١٦٣) ، وأسد الغابة (٥/٦٢٤) ، والاستيعاب (٤/٤٨٠) .

وأقام هبيرة بنجران إلى أن مات على شركه كافرًا .

أم هانئ وصيام التطوع :

عن أم هانئ رضي الله عنها قالت : لما كان يوم الفتح - فتح مكة - جاءت فاطمة فجلست عن يسار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأم هانئ عن يمينه ، قالت : فجاءت وليدة بإناء فيه شراب ، فناولته فشرب منه ، ثم ناوله أم هانئ فشربت منه فقالت : يا رسول الله ، لقد فعلت شيئًا ما أدري يوافقك أم لا ؟

قال : «وما ذاك يا أم هانئ؟» .

قالت : كنت صائمة ، فكرهت أن أرد فضلك فشربته ، قال : «تطوعًا أو فريضة؟» ، قالت : بل تطوعًا .

قال : «فإن الصائم المتطوع بالخيار ، إن شاء صام ، وإن شاء أفطر» ^(١) .

قال الخطابي رحمه الله :

في هذا بيان أن القضاء غير واجب عليه إذا أفطر في تطوع ، وهو قول ابن عباس ، وإليه ذهب الشافعي وأحمد وإسحاق .

أم هانئ وفوائد الذكر :

لما دخل بها السن ، وكبرت ولم تعد تستطيع أن تجتهد في العبادة أرادت أن تسأل النبي صلى الله عليه وسلم عن عمل صالح يتناسب وسنها ، تقول : جئت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله ، إني امرأة قد ثقلت فعلمني شيئًا أقوله وأنا جالسة .

(١) أخرجه الترمذي (٧٣٢) ، وأبو داود (٢٤٥٦) ، وأحمد (٤٢٤ / ٦) .

قال ﷺ: «قولي : الله أكبر مائة مرة ، فإنه خير لك من مائة بدنة مجللة متقبلة ، وقولي : الحمد لله مائة مرة ، فإنه خير لك من مائة فرس مسرجة ملجمة ، حملتها في سبيل الله ، وقولي : سبحان الله مائة مرة خير لك من مائة رقبة من ولد إسماعيل تُعتقيهنَّ ، وقولي : لا إله إلا الله مائة مرة ، لا تذر ذنبًا ولا يسبقها عمل»^(١) .

أم هانئ راوية للحديث النبوي :

رُوي لأم هانئ ؓ عن رسول الله ﷺ ستة وأربعون حديثًا ، وأحاديثها في الكتب الستة وغيرها ، حدث عنها ابنها جعدة ، وابنه يحيى ، وحفيدها هارون ، وحدث عنها عدد من كبار التابعين والزهاد والعلماء منهم : عبد الرحمن بن أبي ليلى ، وعطاء بن أبي رباح ، وعروة بن الزبير وغيرهم .

ومن مروياتها أنها قالت : قدم علينا رسول الله ﷺ مكة قدمته وله أربع غدائر - أي ضفائر .

ومن مروياتها ، قالت : سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالى : ﴿ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ ﴾ [العنكبوت: ٢٩] ، قال : «يحفون أهل الطريق ، ويسخرون منهم ، وذلك المنكر الذي كانوا يأتونه»^(٢) .

كما أنها روت حديث الإسراء ، وفيه تقول :

ما أسري برسول الله ﷺ إلا من بيتنا ، نام عندنا تلك الليلة بعدما صلى

(١) أخرجه أحمد (٤٢٥/٦) ، وابن ماجه في الأدب (ح ٣٨١٠) ، وحسنه الألباني .

(٢) تفسير الخازن وبهامشه البغوي (١٩٢/٥) ، ومختصر تفسير ابن كثير (٣٥/٣) .

العشاء ، فلما كان قبل الفجر أنبهناه ، فقام ، فلما صلى الصبح قال : «يا أم هانئ ، جئت إلى بيت المقدس ، فصليت فيه ، ثم صليت الغداة معكم» .

فقلت : لا تحدث الناس فيكذبوك .

قال : «والله لأحدثنهم» ، فأخبرهم فتعجبوا (١) .

وفي مكة ذكرت أم هانئ أنها كانت تصغي لسماع القرآن الكريم ، فقالت : كنا نسمع قراءة رسول الله ﷺ في جوف الليل عند الكعبة ، وأنا على عريش (٢) .

ومن مناقبها ما ذكره ابن عباس رضي الله عنهما عن أدبها مع النبي ﷺ فقال : خطبها النبي ﷺ فقالت : إني امرأة ذات صبيان ، وأكره أن يؤذوك ، فسكت عنها ، عندها قال رسول الله ﷺ : «خير نساء ركبن الإبل نساء قريش ، أحناه على ولد...» (٣) .

ومما يُضاف إلى مناقب أم هانئ أنها حضرت غزوة خيبر مع النبي ﷺ ، وأطعمها يومذاك أربعين وسقاً (٤) .

وفاتها رضي الله عنها :

عاشت أم هانئ رضي الله عنها بعد أخيها علي رضوان الله عليه ، وامتدت حياتها إلى

(١) زاد المعاد (٣/ ٣٠٤) ، وتاريخ الإسلام (١/ ٢٧٢) ، والسيرة الحلبية (٢/ ٧٢) .

(٢) دلائل النبوة للبيهقي (٦/ ٢٥٧) .

(٣) البداية والنهاية (٥/ ٢٦٢) ، والإصابة (٤/ ٤٧٩) .

(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد (٨/ ٤٧) .

ما بعد سنة خمسين من الهجرة ، وكانت محل احترام الخلفاء والعلماء ، لمكانتها من رسول الله ﷺ ، وظلت كذلك إلى أن لقيت الله ﷻ .

رضي الله عن أم هانئ ، العالمة الفاضلة ، وجعلها في مستقر رحمته مع الأبرار والصالحين ، وجعل مثواها الفردوس الأعلى .



عائكة بنت يزيد

محبة للعلم ، محارمها اثنا عشر خليفة ، راوية للحديث النبوي الشريف ،
سخية بهاها ، محسنة إلى الفقراء ، من المعمرات .

عاتكة بنت يزيد

المجدة المجتهدة :

الحديث عن هذه السيدة الحصان الرزان شائق وجميل ، أسر للنفس ، بقدر ما هو مؤثر فيها ، فقد أخذت من كل فضيلة بطرف .

إذا تحدثت عن الأم المثالية وجدت الأم الرؤوم .

وإن تحدثت عن الزوجة الوفية جاءت في أولى الأسماء .

وإن تحدثت عن السبق إلى الإيمان كانت من الأوائل .

أما إذا بحثت عن العبادة والنسك ألفتها قائنة عابدة .

لقد نشأت ونشأ معها نصيبها من عزة الجانب ، وحرمة الرأي ، وشرف النفس ، ومضاء القلب ، وسناء المنزلة ، حتى كادت تكون متفردة بين نساء الخلفاء على مرّ العصور .

حدثوا فقالوا : إنها كانت تضع خمارها بين يدي اثني عشر خليفة ، كلهم لها محرم .

أبوها : يزيد بن معاوية بن أبي سفيان .

وأخوها : معاوية بن يزيد بن معاوية .

وجدها : سيدنا معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه .

وزوجها : عبد الملك بن مروان .

وأبو زوجها: مروان بن الحكم .

وابنها: يزيد بن عبد الملك .

وبنو زوجها: الوليدُ وسليمانُ وهشام .

وابن ابنها: الوليد بن يزيد .

وابن ابن زوجها: يزيد بن الوليد بن عبد الملك .

وابن ابن زوجها أيضًا: إبراهيم بن الوليد المخلوع .

هذه المرأة قيل عنها: إنها أعرق الناس في الخلافة؛ لأن محارمها اثنا عشر خليفة، وفوق هذا وذاك كانت من فضليات نساء عصرها علمًا وأدبًا وكرمًا، جمعت من كل فضيلة بطرف، هذه المرأة الفريدة هي: عاتكة بنت يزيد بن معاوية بن أبي سفيان الأموية القرشية .

وأما: أم كلثوم بنت عبد الله بن عامر بن كُرَيْز .

وزوجها: عبد الملك بن مروان .

وإليها تنسب أرض عاتكة بدمشق خارج باب الجابية، وكان لها بها قصر، وفي قصرها هذا مات زوجها عبد الملك بن مروان^(١) .

ولدت عاتكة لعبد الملك يزيد ومروان ومعاوية، توفي صغيرًا، وابنة اسمها أم كلثوم^(٢) .

(١) تاريخ دمشق (ص ٢٠٣)، وجمهرة أنساب العرب (١/ ٩١)، وتاريخ الطبري (٣/ ٦٦٨) .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير (٩/ ٧٣) .

عاتكة وفقراء آل أبي سفيان :

ما استبقت عاتكة ونساء عصرها في سبيل الكرم إلا وكانت هي أبعد مدى وأطول يدًا ، وأصدق ندى ؛ لأنها تفقدت بإحساسها مواطن البؤس لدى الفقراء ، وتتبعت مواقع الشقاء عندهم فسترت الجسد العاري ، وجبرت كسر الجناح المهيبض ، وأعدت البسمة إلى الوجوه ، ولم تكن عاتكة تجود باليسير من متاعها فحسب ، بل خرجت عن مالها كله للفقراء من آل أبي سفيان ، فيما رواه أهل الأخبار في هذا قالوا : لما كبر يزيد ومروان ابنا عبد الملك بن مروان من عاتكة بنت يزيد بن معاوية قال لها زوجها عبد الملك : إن ابنك قد بلغا فلو أشهدت لهما مالك وميراث أبيك كان لهما فضيلة على سائر إخوتها - يعني لأبيها ، فقالت : اجمع لي شهودًا من ثقات موالي ومواليك ، حتى أشهدهم ، فجمعهم ووجه إليها بعدة منهم ، فدخلوا عليها وأدخل معهم روح بن زنباع ، وكانت بنو أمية تدخله على نسائها مدخل مشايخها وأهلها قال له عبد الملك :
رغبها فيما صنعت وحسنه لها ، وأخبرها برضائي عنها .

فدخل روح عليها ، فتكلم بما قاله عبد الملك تمامًا ، وكانت تصغي لما يقول ، ولما فرغ من رسالته قالت له :

يا روح ، أتراني أخشى على ابني العيلة ، وهما ابنا أمير المؤمنين ؟

إن بني في غنى عن مالي بأبيهم وموضعهم من الخلافة ، ولكن أشهدك وأشهدكم أني تصدقت بمالي على فقراء آل بني سفيان ، وأوقفته عليهم فهم إلى ذلك أحوج لتغير حالهم .

عندئذٍ خرج روح بن زنباع وقد تغير لونه وأقبل يجري رجله ، فلما نظر عبد الملك إليه قال : أما أنا فأشهد أنك قد أقبلت بغير الوجه الذي أدبرت به فما لك ؟
 قال روح : يا أمير المؤمنين ، وجهتني إلى معاوية بن أبي سفيان وهو جالس في أثوابه في الديوان ، يريد أن عاتكة كجدها معاوية في الحزم والذكاء ، وأخبره الخبر فغضب عبد الملك وتوعددها .

قال روح : مهلاً يا أمير المؤمنين ، فوالله لهذا الفعل في ابنيها خير لك من مالها ، عندئذٍ سكن غضب عبد الملك وكف عنها .

أرأيت كيف بلغت عاتكة المدى في الجود ؟ وكيف كانت إجابتها التي تدلُّ على بُعد نظرها في أمور الخلافة ؟ كما تدلُّ أيضاً على أنها بلغت المقام الأوفى في الأدب وكمال التربية وتمام العقل .

عاتكة تغضب وترضى :

شغلت عاتكة بنت يزيد - رحمها الله - مساحة كبيرة في قلب زوجها عبد الملك ، فكان يحبها ويجلها ، ويحترمها ويحترم رأيها ، غير أن هذا الحب الشديد كان يشوبه بعض الهجر والجفاء أحياناً ، فقد كانت عاتكة تغضب على زوجها وتسدُّ الأبواب فيما بينهما ، ولكن عبد الملك يسلك الطرق التي تؤدي إلى استرضائها بالحيلة أو الاستعانة بأهل الحزم والمشورة .

ذكروا أنها غضبت على عبد الملك ، وكان بينهما باب فأغلقتة ، فشق ذلك على عبد الملك ، وشكا ذلك إلى رجل من خاصته يُدعى : عمر بن بلال

الأسدي .

فقال له عمر : مالي عندك إن رضيت عاتكة ؟

قال عبد الملك : ما تريد يا عمر - وكان عمر ظريفاً ذا حيلة ، وانطلق عمر

إلى بابها ، وجعل يتباكى ، فخرجت له جواريتها فقلن له : ما لك ؟

قال : ابنائي لم يكن لي غيرهما ، فقتل أحدهما صاحبه ، فقال أمير المؤمنين :

أنا قاتل الآخر به .

فقلت : أنا الولي وقد عفوت .

قال : لا أعودُ الناس هذه العادة ، وقد رجوت أن ينجي الله ابني هذا على

يدي مولاتكن عاتكة ، فدخلن عليها ، وذكرن لها ذلك ، ووصفن حاله ،

وبكائه ، وجزعه ، فقالت : وكيف أصنع مع الجفوة بيننا وما أظهرت له ؟ قلن

لها : إذا والله يُقتل يا مولاتي .

فلم يزلن بها حتى دعت بثياها ، ثم خرجت نحو الباب فأقبلت وسلمت .

فقال لها عبد الملك : أما والله لولا عُمر بن بلال ما جئت ، وسأقتل القاتل

وأكره أن أعودَ الناس هذه العادة فتكثر الفوضى .

فقالت : أنشدك الله يا أمير المؤمنين ، إن عمر يبأي يطلبُ العفو ، ولم تزل

تتعطفه حتى أخذت برجله ، فقبلتها فقال : هو لك ، ولم يبرحاً حتى اصطلحا .

وبرَّ عبد الملك بوعدة ، وأنعم على عمر بن بلال الأسدي ، ووصله وأكرمه

لحسن وساطته وظرفه ، ثم اندفع عبد الملك يتمثل بشعر كثير بن عبد الرحمن :

وإني لأرعى قومها من جلالها ولو حاربوا قومي لكنث لقومها
وإن أظهروا غشاً نصحت لهم جهدي صديقاً ولم أحمل على قومها حقدي^(١)
ما عند الله خير وأبقى :

على الرغم من حب عاتكة بنت يزيد للفخر ، والنسب والمال ؛ إلا أن ذلك لم يقطع صلتها بالله ﷻ ، بل كانت تعرف وتذكر أن كل شيء سيزول ، وأن ما عند الله سبحانه وتعالى باقٍ .

ومن الأخبار التي ترفع مكانة عاتكة في هذا المجال ما ذكرت المصادر أنها استأذنت زوجها عبد الملك في أداء فريضة الحج ، فأذن لها وقال : يا عاتكة ، ارفعي حوائجك - قدمي - واستظهري فإن عائشة بنت طلحة تحج ، وإن أقمتم كان أحب إليّ .

فأبت عاتكة ، ورفعت حوائجها ، وجهازها بما يُرضي رغبتها ، وانطلقت ، فلما كانت بين مكة والمدينة أقبل ركب في جماعة ، فضعضعها وفرق جماعتها ، فقالوا : هذه عائشة بنت طلحة ، فإذا ذلك الموكب مع جارية من جواربها ، ثم جاء ركب مثله ، فسألت فقالوا : هذه ماشطتها ، ثم جاء موكب أعظم من ذلك في ثلاثمائة راحلة ، فقالت عاتكة : ما عند الله خير وأبقى^(٢) .

كانت عاتكة - رحمها الله - تحج بيت الله الحرام كثيراً ، فتنفق الصدقات وتوزع الهبات ، وتبتهل إلى الله تعالى أن يتقبل منها .

(١) عن الأغاني (٢/ ١٣٥) ، وأعلام النساء (٣/ ٢١٦، ٢١٧) ، بتصرف يسير .

(٢) انظر : تاريخ دمشق (ص ٢٠٥، ٢٠٦) .

وكانت امرأة يداعب مشاعرها ما يداعب النساء ، عادة من اعتزاز بالمديح
وتقريظ بالحسن والجمال ، وكانت كما عرفنا على جانب عظيم من البهاء والفتنة ،
وقد عاصرها بعض فتيات العرب اللواتي طارت الأخبار بالحديث عن جاهلن ،
ولم تكن هي أقل منهن ، أضف إلى ذلك مكانتها فجدها خليفة وأبوها
وزوجها خليفة .

وفي إحدى حجاتها قالت لها بعض جواربها ، وقد حللن من إحرامهن
وقضين حجهن وتفتهن :

يا سيدي ، هذا الغريض الشاعر ، يبدو بين الناس .

فقالتهن : عليّ به .

فلما دخل خيمتها سلم فردت عليه ، ثم سألته أن يحدثها عن أخباره ، وما
جدّ من شعره فحدثها وأنشدها ، ثم سألته أن ينشدها ما قاله في «عائشة بنت
طلحة» ، فأنشدها فلم تهتز لذلك ولم تتأثر فقال :

أقول والضيف مخشى ذمامته على الكريم وحق الضيف قد وجبا
فابتسمت وقالت :

وجب حقك علينا يا «غريض» فغنى ، فقال :

يا دهر قد أكثرت فجعتنا	بُسرانا ووقرت في العظم
وسلبتنا ما لست مخلفه	يا دهر ما أنصفت في الحكم
لو كان لي قرُنٌ أناضله	ما طاش عند حفيظةٍ سهمي
لو كان يعطي النصف قلت له	أحرزت سهمك فاله عن سهمي

فقال له «عاتكة» :

نعطيك النصف ، ولا نضيع سهمك عندنا ، ونجزل لك قسمك ، وأمرت له بخمسة آلاف درهم ، وثياب وهدايا .

لقد فهمت مُرادَه وهي الأريية اللبية الفصيحة ، وبذلت عن طيب خاطر .

خشيتها على عبد الملك :

كان مصعب بن الزُّبير بالعراق قد أعيا عبد الملك بن مروان ، وأجهدَه وفرق جيوشه ، وأنزل بهم الهزائم فلما طال عليه ذلك اشتد غمه ، فأمر الناس فاستعدوا للمسير إلى العراق ، فلما أجمع على المسير قالت له «عاتكة» : يا أمير المؤمنين لا تخرج بنفسك بل وجّه الجنود ، وأقم فليس الرأي أن يباشر الخليفة الحرب بنفسه ، وألحت عليه في البقاء فقال : لو وجهت إليه أهل الشام كلهم ، وعلم مصعب أني لست معهم لهلك الجيش كله ، ثم تمثل قائلاً :

ومستخبرٍ عنا يريدُ بنا الرّدى ومستخبرات والعيون سواكُ

ولما عزم على الخروج لمحاربة «مصعب» تعلقت به عاتكة ، فبكت جواربها معها ، فلما علا الصوت رجع إليها فقال : قاتل الله كثير عزة كأنه رأى موقفنا هذا حين قال :

إذا ما أراد الغزولم تثن همه حصان عليها نظم دريزينها

نهنه فلما لم تر النهي عاقه بكت فبكى مما عراها قطينها^(١)

(١) «القطين» : الخدم والإماء والحشم والأتباع من أهل الدار .

ثم عزم عليها أن تقصر ، فأقصرت ثم مضى وخرج لقصده (١) .

قال أبو الحسن عز الدين بن الأثير في «الكامل» :

ولما قُتل مصعب بعث عبد الملك بن مروان رأسه إلى الكوفة ، أو حمّله معه إليها ، ثم بعث به إلى أخيه عبد العزيز بن مروان في مصر ، فلما رآه وقد قطع السيف أنفه قال : رحمك الله ، أما والله لقد كنت من أحسنهم خلقاً وأشدّهم بأساً وأسخاهم نفساً ، ثم سيره إلى الشام فأخذته «عاتكة» بنت يزيد بن معاوية زوجة عبد الملك بن مروان ، وهي أم يزيد بن عبد الملك فغسلته ودفنته ، وقالت : أما رضيتم بما صنعتم حتى تطوفوا به في المدن هذا بغية ، وكان مقتل مصعب سنة (٧١هـ) بِسْمِ اللَّهِ (٢) .

من أخبارها مع عبد الملك :

ما رواه الإمام الزهري قال : دعاني عبد الملك في قُراء من قُراء أهل دمشق فدخلنا عليه ، وإذا امرأته «عاتكة بنت يزيد بن معاوية» جالسة وابن لها صغير مريض ، فأخذنا ندعو الله تَعَالَى وأخذ هو يدعو فقال : بحق مكاني الذي وضعتني ، فلم يبرح حتى مات .

قال الزهريّ : وكان هو أشدّ جزعاً من أم الصبي - عاتكة - فلما مات صبر ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، أنت كنت أشدّ جزعاً منها ، وهي الساعة أشدّ جزعاً

(١) تاريخ دمشق (ص ٢٠٣، ٢٠٤) ، والأغاني (٨/ ١٣٤) ، ووفيات الأعيان (٤/ ١٠٨) ،

والكامل (٤/ ٣٢٤) ، والبداية والنهاية (٩/ ٢٦٢) .

(٢) الكامل في التاريخ لابن الأثير (٤/ ٣٣٢، ٣٣٣) .

منك، فقال: إنا نجزع من الأمر ما لم يقع، فإذا وقع صبرنا^(١).

عاشت عاتكة معظم الخلافة الأموية؛ إذ كانت من النساء المعمرات حيث بقيت حتى أدركت قتل ابن ابنها الوليد بن يزيد بن عبد الملك في سنة (١٢٦هـ).

وتوفيت عاتكة في دمشق بعد سنة (١٣٢هـ)، ودفنت فيها في المحلة التي تنسب إليها، فيقال: قبر عاتكة وهو مكان مشهور بدمشق الآن.

وقد ذكر صاحب كتاب «الهفوات النادرة»، خبرًا يشير به إلى أن عاتكة عاشت إلى نهاية دولة بني أمية، حيث إنها رأت حلمًا، ولم يمض على حلمها شهر حتى قُضي على الخلافة الأموية بدمشق، وكان ذلك في سنة (١٣٢هـ).
رحم الله عاتكة بنت يزيد، وأدخلها في رحمته مع من يشاء في جنات النعيم،
إنه غفور رحيم.



معاذة بنت عبد الله

قال يحيى بن معين : معاذة : ثقة، حجة، عابدة، زاهدة ، فقيهة ،
لها أقوال مشهورة ، صابرة شاكرة لله ﷻ .

معاذة بنت عبد الله رضي الله عنها

مناجاة :

يا نفس النوم أمامك لو قد متٍ لطالت رقدتك في القبر على حسرة أو سرور.
بمثل هذه العبارة كانت معاذة بنت عبد الله العدوية البصرية أم الصهباء^(١)،
تخاطب نفسها إذا ما غلبها النوم وهي غارقة في عبادتها ومناجاتها لله عز وجل.

كانت معاذة من النساء ذوات الفضل والمكانة ، نشأت قريبةً من ينابيع
الصحابة الكرام ، تنهل من معين علمهم الصافي الذي أخذوه عن رسول الله
صلى الله عليه وسلم.

وقد تخرجت معاذة في مدرسة أم المؤمنين عائشة وعلي بن أبي طالب وهشام
ابن عامر رضي الله عنهم.

وقد بلغت معاذة - رحمها الله - مبلغًا عظيمًا في التفقه في الدين ، والنسك
والعبادة ، ونهلت من معين القرآن الكريم والحديث الشريف شيئًا مباركًا ،
جعل الحكمة تجري على لسانها ، وتنبعث من قلبها لتحتل قلوب الآخرين ،
وتستقر في نفوسهم ، وتصل صدأ قلوبهم .

وكانت - رحمها الله - مولعة بقرآن الفجر الذي تشهده الملائكة؛ إذ تصبح
وتسمي على قراءة القرآن الكريم وترتيله ، وقلبا يلهج بذكر الله عز وجل ، ولم يكن

(١) سير أعلام النبلاء (٤/٥٠٨) ، وطبقات الشعراي (١/٦٥) ، والأعلام (٧/٢٥٩) .

يشغلها عن هذا أي شيء حتى يوم زفافها .

زواجها :

زوج معاذة العدوية هو صلة بن أشيم أبو الصهباء العدوي البصري الزاهد العابد السيد القدوة، صاحب الكرامات الثابتة، وقبل أن نتحدث عن زوجه دعونا نعطر الأجواء، ونؤنس القلوب بذكر صلة بن أشيم أبي الصهباء، عليه سحائب الرضوان .

كان صلة بن أشيم عابداً من عبّاد الليل ، وفارساً من فرسان النهار ، كان إذا نشر الظلام أستاره على الكون ، وأسلمت الجنوب إلى المضاجع ، قام فأسبغ الوضوء ، ثم صف في محرابه ، ودخل في صلاته وهام وجدّاً بربه .

حكى جعفر بن زيد فقال :

خرجنا مع جيش من جيوش المسلمين في غزاة إلى المدينة في «كابل» ، رجاء أن يفتحها الله لنا ، وكان في الجيش «صلة بن أشيم» ، فلما أرخى الليل سدوله ونحن في بعض الطريق - حطّ الجُنْد رحالهم وأصابوا شيئاً من الطعام ، وأدوا العشاء الآخرة ، ثم مضوا إلى رحالهم يلتمسون عندها حظّاً من الراحة ، فرأيت صلة بن أشيم يمضي في رحله كما مضوا ، ويُسلم جنبه إلى الرقاد كما فعلوا .

فقلت في نفسي : أين الذي يروونه من صلاة الرجل وعبادته ، ويشيعونه من قيامه حتى تتورم قدماه ؟ والله لأرْمقنه الليلة حتى أرى ما يكون منه .

فما إن غرق الجند في نومهم ، حتى رأته يستيقظ من رقدته، وينحاز عن العسكر مُستترًا بالعممة ، ويدخل في غابة لفاء باسقة الأشجار ، وحشية الأعشاب ، كأنها لم تطأها قدمان منذ دهر طويل ، فمضيت في إثره .

فلما بلغ منها مكانًا قصيا ، التمس القبلة واتجه إليها ، وكبرَّ للصلاة ، واستغرق فيها ، فنظرت إليه من بعد فرأيته مشرق الوجه ، ساكن الأعضاء ، هادئ النفس ، كأنها يجد في الوحشة أنسًا ، وفي البعد قربًا ، وفي الظلمة ضياءً منيرًا ، وفيما هو كذلك طلع علينا أسد من الجانب الشرقي للغابة ، فما إن أثبتته حتى انخلع فؤادي هلعًا منه ، فعلوت شجرة باسقة لِوَأذا من شره ، فما زال الأسد يدنو من صلة بن أشيم وهو غارق في صلاته حتى أصبح على قيد خطوات منه ، فوالله ما التفت إليه ولا حفل به ، فلما سجد قُلت : الآن يفرسُهُ ، فلما نهض من سجوده ، وجلس ، وقف الأسد بإزائه كأنه يتأمله ، فلما سلم نظر إلى الأسد في سكون ، وحرك شفثيه بكلام لم أسمعه ، فإذا بالأسد ينصرف عنه في هدوء ، ويعود من حيث جاء ، ولما انبلج الفجر نهض فأدى المكتوبة ، ثم طفق يحمده بِحَمْدِ الله بِحَمْدِ لم أسمع مثلها قط ، ثم قال : اللهم إني أسألك أن تجيرني من النار ، وهل يجترئ عبد خاطئ مثلي أن يسألك الجنة ؟ وما زال يُكررها حتى بكى وأبكاني .

ثم رجع إلى الجيش دون أن يفتن له أحد ، وبدا لعيون القوم كأنه بات على الحشايا ، وعُدتُ أنا في إثره وبني من سهر الليل ، وفتور الجسم ، وخوف الأسد ما الله به عليم .

فلنشهد أحداث هذا الزواج المبارك لهذين العلمين الكريمين^(١) :

لما كان يوم زفاف معاذة العدوية وحينما أهديت إلى زوجها صلة بن أشيم ، جاء ابن أخي صلة فمضى به وأدخله الحمام ، ثم ألبسه أجمل الثياب ، وأدخله على معاذة في بيت يتضوع بالطيب ، وتنبعث منه أجمل روائح البخور والعمور ، وقد هُيئ البيت كأجمل ما تكون البيوت .

ولما صار الزوجان معاً في البيت ، ألقى صلة السلام على معاذة ثم قام يصلي ، فقامت معه ، فصلت أيضاً واستغرقت في الصلاة ، فلم يزالا يصليان حتى وافاهما عمود الفجر ، وتنفس الصُّبح ونسيا أنها في ليلة الزواج .

وفي الصباح أتاه ابن أخيه يتفقد أحواله ، فعلم أنه ظل يُصلي حتى أسفر الصبح ، فقال لعمه : أي عم ، أهديت إليك ابنة عمك الليلة فقامت تصلي وتركتها ؟

فقال صلة : يا ابن أخي ، إنك أدخلتني أمس بيتاً أذكرتني به النار ، ثم أدخلتني بيتاً أذكرتني به الجنة ، فما زالت فكرتي فيهما حتى أصبحت .

على مثل هذا المنهج من العبادة تابعت معاذة وزوجها حياتهما في طلب مرضاة الله ﷻ ، وقد رسمت معاذة صورة حية عن عبادة زوجها فقالت : كان أبو الصهباء يصلي حتى ما يستطيع أن يأتي فراشه إلا زحفاً^(٢) .

(١) عن صفة الصفوة (٣/ ١٤٤ ، ١٤٥) ، بتصرف ، وربع الأبرار (٥/ ٢٨٥) ، والبداية والنهاية (١٨/٩) .

(٢) الطبقات (٧/ ١٣٦) ، وسير أعلام النبلاء (٣/ ٤٩٧) .

وحدث ابن شوذب فقال : قالت معاذة العدوية : ما كان صلة يجيء من مسجد بيته إلى فراشه إلا حبوا ، من كثرة ما يقوم في الصلاة ^(١) .

وكانت - رحمها الله - تأتسي بزوجها في عبادته حتى غدت إحدى النساء اللاتي يُضرب المثل بهن في العبادة .

من فرائد أقوالها :

المؤمن المخلص لله ﷻ من أطيب الناس عيشًا ، وأنعمهم بالآ ، وأشرحهم صدرًا ، وأسرهم قلبًا ، وقد كانت معاذة - رحمها الله - من المؤمنات الورعات ، ومن الناسكات المتزهديات ، إذ تحيي الليل كله في العبادة فجرت الحكمة على لسانها جريان السلسيل .

وقد أثرت عنها أقوال تشير إلى فصاحتها وبلاغتها وتمكنها من ناصية الكلام ، كما تدل على مدى صلتها الوثيقة بالله سبحانه وتعالى ، فمن أقوالها : عجبْتُ لعين تنام ، وقد علمت طول الرقاد في ظلم القبور .

وكانت أقوالها لا تخلو من النصيحة والتحذير من الدنيا ، فقد قالت لامرأة أرضعتها : يا بنية ، كوني من لقاء الله ﷻ على حذر ورجاء ، فإني رأيت الراجي له محقوقًا بحسن الزلفى لديه يوم لقائه ، ورأيت الخائف له مؤولًا للأمان يوم يقوم الناس لرب العالمين .

وفي تحذيرها من الدنيا وعدم الغرور بها والركون إليها تقول : صحبتُ

(١) المعرفة والتاريخ للفسوي (٧٩ / ٢) .

الدنيا سبعين سنة ، فما رأيت فيها قرّة عين قط .

عبادتها وصلاتها :

كانت معاذة قد وهبت نفسها للعبادة والصلاة ، فلا تكاد تخلو إلى نفسها إلا وهي على موعد مع الصلاة ، فقد كانت تحيي الليل كله بالصلاة والذكر والتسبيح ، وكانت تصلي في كل يوم وليلة ستمائة ركعة ، وتقرأ من القرآن كل ليلة ، فإذا جاء النهار قالت :

هذا يومي الذي أموتُ فيه فما تنام ، فإذا جاء الليل قالت : هذه ليلتي التي أموت فيها فلا تنام حتى تصبح ، فإذا غلبها النوم قامت فجالت في الدار تعاتب نفسها ، ثم لا تزال تدور إلى الصباح تخاف الموت على غفلة ونوم .

وكان إذا هجم الشتاء ببرده على الناس تعمد معاذة إلى لبس الثياب الرقاق حتى يمنعها البرد من النوم ، ولا تتكاسل عن العبادة والمناجاة ، وكان إلى جانبها زوجها يجتهد في عبادته أيضًا ، حتى ضُرب المثل بهما ، قال أبو السوار العدوي : بنو عدي أشد أهل هذه البلدة - البصرة - اجتهادًا ، هذا أبو الصهباء لا ينام ليله ، ولا يفطر نهاره ، وهذه امرأته معاذة ابنة عبد الله لم ترفع رأسها إلى السماء أربعين عامًا .

وكانت معاذة مع عبادتها ونسكها فقيهة عالمة ، قال عنها يحيى بن معين : معاذة ثقة حجة ، وذكرها ابن حبان في «الثقات» ، وأثنى عليها .

صبرها وشكرها لله :

وفي سنة ثنتين وستين للهجرة استشهد زوج معاذة وابنها في سجستان في

قتال الترك في بلاد ما وراء النهر ، فلما التقى الجمعان ، وحمي وطيس المعركة قال صلة لابنه : أي بُنيّ ، تقدم وجاهد أعداء الله حتى أحتسبك عند الذي لا تضيعُ عنده الودائع .

فانطلق الفتى إلى قتال العدو ، كما ينطلق السهم عن القوس ، وما زال يقاتل حتى خر صريعاً ، فما كان من أبيه إلا أن مضى على إثره ، وظل يجاهد حتى ثوى إلى جنبه شهيداً ، فلما وصلها الخبر لم تلطم وجهها ، ولم تمزق ثوباً ، وإنما صبرت واسترجعت ^(١) ، واجتمع النساء عندها للتعزية ، ولكن معاذة - رحمها الله - قالت لهن :

مرحباً بكن إن كنتن جئتنَّ للهناء فمرحباً بكن ، أما إذا كنتن قد جئتن لغير ذلك فارجعن وجُزيتنَّ خيرًا ^(٢) .

وعجب النسوة من صبر معاذة وخرجن ، وهن يتحدثن عما آتاها الله ﷻ من حسن الصبر ، وزادها ذلك الموقف في أعينهن مكانة ورفعة ، فأكرم بها وبموقفها ، نَصَّر الله هذه الوجوه النبيلة الكريمة ، وجزاها عن الإسلام والمسلمين خيرًا ، فما عرف تاريخ الإنسانية أتقى منها ، ولا أنقى .

وحدثت أم الأسود بنت زيد العدوية ، وكانت معاذة قد أرضعتها فقالت : قالت لي معاذة لما قُتل أبو الصهباء ، وقُتل ولدها :

والله يا بنية ، ما محبتي للبقاء في الدنيا للذيذ عيش ، ولا لروح نسيم ، ولكن

(١) استرجعت : قالت : إنا لله وإنا إليه راجعون .

(٢) الطبقات (٧/١٣٧) ، والبداية والنهاية (٩/١٨) ، وسير أعلام النبلاء (٤/٥٠٩) .

والله ما أحبُّ البقاء إلا لأتقرب إلى ربي ﷺ بالوسائل، لعله يجمع بيني وبين أبي الصهباء وابنه في الجنة (١).

وطبقت معاذة هذا القول عملياً، فلم تكن تمرُّ عليها ليلة إلا وهي تدعو ربها خوفاً وطمعاً، وترجو لقاءه، وتأمل رحمته، ومنذ أن استشهد زوجها لم تتوسد فراشاً حتى ماتت خيفة أن تشعر بلين الفراش فتنسى ما عاهدت الله عليه من حسن الرجاء.

كرامة باهرة لمعاذة:

في كتابه «تهذيب التهذيب» أورد ابن حجر رحمته الله كرامة باهرة لمعاذة - رحمها الله - تشير إلى مكانتها في عالم العبادة فذكر أن رجلاً من أهل البصرة قال: أتيت معاذة فقالت: إني اشتكيتُ بطني، وكان قد وصف لي نبذ الجر، فأتيتها منه بقدح فوضعتة فقالت: اللهم إن كنت تعلم أن عائشة أم المؤمنين حدثتني: أن النبي ﷺ نهى عن نبذ الجر فاكفنيه بما شئت.

قال: فانكفاً القدح وأهريق ما فيه، وأذهب الله تعالى ما كان بها.

وفاتها:

عاشت معاذة بعد وفاة زوجها أكثر من عشرين عاماً، وهي في كل يوم يمر عليها تستعدُّ للقاء الله ﷻ، وتأمل أن يجمعها بزوجها وابنها في رحمته.

(١) مصارع العشاق (١/٢٠٨).

وقد روي أن معاذة لما حضرها الموت بكت، ثم ضحكت، فقبل لها : مم البكاء ، ومم الضحك ؟

قالت : أما البكاء الذي رأيتم فإني ذكرت مفارقة الصيام والصلاة والذكر فكان البكاء لذلك .

وأما التبسم والضحك ، فإني نظرت إلى أبي الصهباء قد أقبل في صحن الدار وعليه حلتان خضراوان ، وهو في نفر والله ما رأيت لهم في الدنيا شبيهاً ، فضحكت إليه، ولا أراني بعد ذلك أدرك فرصاً .

وبذلك طويت صفحة امرأة من النساء الصالحات القانتات العابدات غير أن سيرتها لم يطوها التاريخ ، بل نشر فضائلها لتكون قدوة للنساء في كل عصر . رحم الله معاذة العدوية ، وأعادها من النار ، وجزاها خير الجزاء ، وألحقها بال صالحين ، وصدق الله إذ يقول : ﴿ وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴾ [الرحمن: ٤٦] .

وكانت وفاة معاذة سنة (٨٣هـ) ^(١) .

فرحم الله معاذة ، وأجزل مثوبتها ، وأناها مرادها ، وجمعها في الجنة مع أبي الصهباء، إنه سميع مجيب .



(١) سير أعلام النبلاء (٤/٥٠٩)، والأعلام (٧/٢٥٩)، ومصارع العشاق (١/٢٠٩)، وقيل : توفيت سنة (١٠١هـ) رحمها الله .

سفانة بنت حاتم الطائي رضي الله عنها

كانت امرأة جزلة .

وكانت من أجود نساء العرب .

وشهد لها التاريخ بالفصاحة والبلاغة وجودة الرأي .

سفانة بنت حاتم الطائي رضي الله عنها

البداية الخيرة :

الإيمان هبة من الله - سبحانه - يمنُّ به على من يشاء من عباده، وقد شاء الله أن يجعل الخير في أهل حاتم الطائي الذين استجابوا لدعوة الإسلام، وتكونت منهم ومن الأنصار والمهاجرين جماعة خيرة نمت نموًّا طبيعيًّا سليمًا على أساس من التقوى، كما تنمو الشجرة الباسقة الطيبة ذات الأصل الثابت، والجذر العميق .

لقد وضح صبح الإسلام فظهرت المرأة في مشرق نوره فياضة النفس بالإيمان والوجدان، ملأى اليدين من حق موفور وفضل مأثور، فقد أدلت دلوها في الفضائل والكرم والجود، فكان لها أكبر الأثر في تكوين الرجال، ونشر العلم كما تركت أجمل الأثر وأبقاه في مجال اللسان والسنان .

ونحن أولاء مرسلو القول في سيرة امرأة عظيمة المكانة، جليلة القدر خصها الله بحسن المنطق، وقوة البيان، وسحر الكلام، والسبق إلى الإسلام، وقد عرفت برباطة الجأش، والدفع بالحجة القوية، ورجاحة التفكير في الأمور الصعبة التي تتزعزع فيها إرادة الإنسان، ويفلت من يده زمام التفكير، وهذه سيدة شهد لها التاريخ بالفصاحة والبلاغة وجودة الرأي فقال : كانت امرأة جزلة .

وشهد لها بفيض الكرم، ووفرة الجود، وسعة العطاء فقال : وكانت سفانة بنت حاتم الطائي من أجود نساء العرب ^(١) .

ولم لا، وهي ابنة حاتم الطائي «وكان أبوها من شعراء الجاهلية، وكان جوادًا يشبه جوده شعره، ويصدق قوله فعله، وكان حيثما نزل عرف منزله، وكان مظفرًا إذا قاتل غلب، وإذا سئل وهب، وإذا سابق سبق، وإذا أسر أطلق، وكان إذا أهل رجب الذي كانت تعظمه مضر في الجاهلية، نحر كل يوم عشرًا من الإبل وأطعم الناس، واجتمعوا إليه» ^(٢) .

وتجلو لنا كتب السير والتراجم أخبار سخاء وكرم حاتم وجوده، تلكم الأخبار التي تشبه الأساطير ولا تناظرها، إلا أخبار سخاء الصحب الكرام رضي الله عنهم، أو تضاعفها في البذل والعطاء .

الشجرة الطيبة :

وفي أكناف هذا الرجل الكبير نشأت سفانة بنت حاتم الطائي فنهلته من معينه الصافي، وتحلقت بخلقه حتى سابقت أخبار جودها أخباره، ونافس عطاؤها عطاءه، فقد قيل عنها : كانت من أجود نساء العرب، وكان أبوها يعطيها الضريبة، أي : القطيع الكبير من الإبل، فتهبها وتعطيها للناس، فقال لها أبوها : يا بنية، إن الكريمين إذا اجتمعا في المال أتلفاه، فإما أن أعطي

(١) انظر : أسد الغابة، ترجمة سفانة بنت حاتم (١٩٩٦) .

(٢) المستطرف في كل فن مستظرف، الباب الثالث والثلاثون، في الجود والسخاء والكرم ومكارم الأخلاق .

وتمسكين، وإما أن أمسك وتعطين، فإنه لا يبقى على هذا شيء .

فقال له : منك تعلمت مكارم الأخلاق .

﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء: ٨١] .

كلمات كريمة من آي الذكر الحكيم، ترددت أصدائها في أرجاء جزيرة العرب، كأنها صدى لصوت رسول الله ﷺ، وهو يحطم أصنام قريش في مكة، كلما بثت الرعب والفرع في قلوب رؤوس الكفر في سائر أرجاء الجزيرة العربية .

ومن هؤلاء كان الصحابي «عدي بن حاتم الطائي»، الذي نتركه يروي لنا رحلته من الضلال إلى الهدى، يقول ﷺ : «ما من رجل من العرب كان أشد كراهية لرسول الله ﷺ حين بعث به مني، فكرهته أشد ما كرهت شيئاً قط، وكنت امرأ شريفاً، وكنت نصرانياً أتولى أمر قومي وأسير فيهم بالمرباع .

فكنت في نفسي على دين، وكنت ملكاً في قومي لما كان يصنع لي .

ولما عظم أمر رسول الله ﷺ، وجعلت قبائل العرب تدين له قبيلة بعد قبيلة أخرى، قُلت لغلام لي :

اختر لي من إبلي نوقاً سمينة سهلة القيادة، واجعلها قريبة مني، فإذا سمعت بجيش محمد يؤم أرضنا لغزوها فأذني «أي أعلمني»، وذات يوم أقبل عليّ غلامي صائحاً :

يا سيدي، اصنع ما كنت تنوي صنيعه؛ إذ أمّ جيش محمد أراضينا فقلت :

ولم لا أبا لك؟ فقال الغلام : إن جيشه في طريقه إلى ديارنا فقلت له : قرب

النوق التي أمرتك بإعدادها، ثم دعوت أهلي عاجلاً، ورحلت لساعتي إلى أهل ديني ببلاد الشام، وزلت بي العجلة في الخطأ فقد تركت أختي «سفانة» في أرضنا نجد مع من بقي من طيئ تركتها عجلة وسهواً ليس عن قصد ونية^(١).

ابنة حاتم الطائي :

كان عدي بن حاتم الطائي يعادي النبي ﷺ، فبعث النبي ﷺ علي بن أبي طالب إلى طيئ، فهرب عدي بأهله وولده، ولحق بالشام وخلف أخته «سفانة» فأسرتها خيل رسول الله ﷺ، فلما أتى بها إلى النبي ﷺ قالت :

يا محمد، هلك الولد وغاب الوافد، فإن رأيت أن تخلي عني، ولا تشمت بي أحياء العرب، فإن أبي كان سيد قومه يفك العاني، ويقتل الجاني، ويحفظ الجار، ويحمي الذمار، ويفرج عن المكروب، ويطعم الطعام، ويفشي السلام، ويحمل الكل، ويعين على نوائب الدهر، وما أتاه أحد في حاجة فرده خائباً، أنا بنت حاتم الطائي .

فقال لها النبي ﷺ : «يا جارية، هذه صفات المؤمنين حقاً، لو كان أبوك مسلماً لترحمنا عليه، خلوا عنها، فإن أباهما كان يجب مكارم الأخلاق، والله يجب مكارم الأخلاق»^(٢).

وأطلقها رسول الله ﷺ ومنَّ عليها، فاستأذنته في الدعاء له، فأذن لها وقال

(١) الإصابة (٥٤٩١)، وتاريخ الإسلام (٣/٤٧-٤٩)، وتهذيب التهذيب (٧١/١٦٦-١٦٧)، وأسد الغابة (٣٦١٠)، بتصرف شديد .

(٢) الأغاني للأصفهاني ج ١٦، (ص ٩٣) .

لأصحابه : «اسمعوا وعوا»، فقالت :

أصاب الله برك مواععه، ولا جعل لك إلى لئيم حاجة، ولا سلب نعمته عن كريم قوم إلا وجعلك سبباً في ردّها عليه .

ولما قدم ركب من بلي فأتيت رسول الله ﷺ فقلت :

قدم رهط من قومي، فكساني رسول الله ﷺ وحملني، وأعطاني نفقة، فخرجت حتى قدمت الشام على أخي عدي بن حاتم فوالله إنه لقاعد في أهله، إذ أبصر هودجي يقصده فقام نحوي وقال : ابنة حاتم .

فبادرته بقولي : القاطع الظالم حملت أهلك وولدك، وتركت بقية والدك وعورتك .

فقال : أي أختية، لا تقولي إلا خيراً .

وجعل يسترضيني حتى رضيت، ثم قال : ماذا ترين في أمر الرجل ؟

فقلت : أرى أن نلحق به، فإن يكن الرجل نبياً فللسباق إليه فضل، وإن يكن ملكاً فلن تذل وأنت أنت، قال : والله إن هذا الرأي .

وهكذا نجحت شقيقة عدي في أن تلين قناة أخيها، وتجمعه برسول الله ﷺ، عسى أن يشرح الله به صدره للإسلام .

والله ما هذا بملك :

فخرج عدي بن حاتم من الشام، حتى قدم على رسول الله ﷺ المدينة، فدخل عليه وهو في المسجد، فسلم عليه، فقال رسول الله ﷺ : «من

الرجل؟»، فأجابه قائلاً: عدي بن حاتم، فقام رسول الله ﷺ، فانطلق به إلى بيته، وفي الطريق استوقفت امرأة ضعيفة رسول الله ﷺ، فوقف لها النبي طويلاً تكلمه في حاجتها، فقال عدي في نفسه: ما هذا بملك، ثم واصلاً المسير إلى بيت رسول الله ﷺ، فدخلوا وتناول الرسول وسادة من أدم محشوة ليفاً، فقدمها لعدي قائلاً: «اجلس على هذه»، فقال له عدي: بل أنت فاجلس عليها، وجلس رسول الله ﷺ على الأرض، فقال عدي في نفسه: والله ما هذا بأمر ملك، ثم قال له رسول الله ﷺ: «إيه يا عدي بن حاتم، ألم تك ركوسياً؟»، «أي من قوم لهم دين بين النصرى والصابئة»، فقال عدي: بلى، قال رسول الله ﷺ: «أو لم تكن تسير في قومك بالمرباع؟»، قال عدي: بلى، قال رسول الله ﷺ: «فإن ذلك لم يكن يحل لك في دينك»، قال عدي: أجل والله، فقال له رسول الله ﷺ: «لعلك يا عدي إنما يمنعك من دخول هذا الدين ما ترى من حاجتهم - يقصد المسلمين - فوالله ليوشكن المال أن يفيض حتى لا يوجد من يأخذه، ولعلك إنما يمنعك من الدخول فيه أنك ترى أن الملك والسلطان في غيرهم، وإيم الله ليوشكن أن تسمع القصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم»^(١).

عندها أسلم عدي، ونطق بالشهادتين بين يدي رسول الله ﷺ؛ ليكسب الإسلام رجلاً، وأي رجل هو.

(١) تاريخ الطبري، ج ٣، (ص ١١٣)، والروض الأنف، ج ٢، (ص ٣٤٣)، والسيرة النبوية لابن كثير، ج ٤ (ص ١٢٣).

خير مولود وأعظمه بركة على قومه :

وينتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وترتد العرب عن الإسلام، ويرفض الخليفة الصديق أن يهادن أي مرتد، ويصر على حربهم جميعًا .

ويرسل الصديق خالد بن الوليد لحرب «بني أسد» حيث كان طليحة بن خويلد الأسدي، قد ادعى النبوة، ويخرج خالد بجيشه قاصدًا بني أسد، وكان فيمن خرج معه عدي بن حاتم الطائي، الذي ثبت على إسلامه، وقدم على أبي بكر بالمدينة بإبل الصدقة، فيرسل طليحة إلى «جديلة» و«الغوث» أما طييء ذاتها فكانت قد ارتدت عن الإسلام، فقصدها خالد بن الوليد .

وعلم عدي بما كان من قومه، فاستمهل خالدًا أيامًا ليثني طييًا عن ردتها، وأفلح في ذلك، بل ونجح في استرجاع خمسمائة فارس أرسلتهم «غوث» لمساندة طليحة .

فاستبشر المسلمون، وحمدوا الله أن عادت طييء إلى الإسلام بغير قتال، ولكن بقيت «جديلة»، عندها أدرك خالد ما لعدي من تأثير في قومه، فقرر أن يستفيد من هذا التأثير، فخاطب عديا قائلًا: يا أبا طريف، الآن نسير إلى جديلة؟

قال عدي : يا أبا سليمان، لا تفعل، أقاتل معك بيدين أحب إليك، أم بواحدة ؟ فقال خالد : بل بيدين، فأجابه عدي : فإن جديلة إحدى يدي .

فكف خالد يده عن جديلة، وأوفد إليهم عدي بن حاتم أملًا أن يجري الله الخير على يديه، فدعاهم عدي إلى الإسلام، فأسلموا، فحمد الله وسار بهم إلى

خالد، وهم في أهبة الحرب، فلما رأهم خالد في عدتهم ظن أنهم جاؤوا لحربه، فنادى في جيشه فقيل: إنما هي «جديلة» أتت تقاتل معك، ففرح خالد بهم، وضمهم إلى جيشه، وعقد لواء طيئ و غوث و جديلة لعدي بن حاتم الطائي، وكانت جملتهم (١٠٠٠) مقاتل بكامل عتادهم وسلاحهم، فارتفع عدد جيش خالد من أربعة آلاف إلى خمسة آلاف مقاتل .

اجعل قومي مقدمة أصحابك :

سار خالد بالجيش يقصد بني أسد، فلما اقترب منهم، قال عدي لخالد : يا أبا سليمان، اجعل قومي مقدمة أصحابك، فقد كان عدي مطمئنًا تمامًا إلى حسن إسلام قومه، وكان هناك حلف يربطهم ببني أسد، فإذا ما انهزموا قيل : اختارت طيئ حلفها مع طليحة وبني أسد على الإسلام، فتلحقها معرة ما بعدها معرة، وهكذا أصبح مطلوبًا من بني طيئ أن ينتصروا فقط دفاعًا عن الإسلام أولاً، وعن كرامتهم وشرفهم ثانيًا، أدرك عدي هذا فألح على خالد أن يجعل قومه في المقدمة، فقال له خالد : يا أبا طريف، إن الأمر قد اقترب، وأنا أخاف أن أقدم قومك، فإذا لحمهم القتال انكشفوا فأنكشف معهم، ولكن دعني أقدم قومًا صُبرًا لهم سوابق، وهم من قومك «يقصد المهاجرين والأنصار»، فقال له عدي : الرأي ما رأيته، وبدأت المعركة، وأبلى قوم عدي ابن حاتم البلاء كله في القتال .

وهكذا حقن عدي دماء قومه في حروب الردة، وحفظهم للإسلام جنديًا مظفرة، كان لهم الفضل الأكبر في فتوح فارس .

كما شهد عدي معارك القادسية، وكان أمير قومه فيها، ومعركة مهران، والجسر، ونهاوند، والجمل، وصفين، والنهروان، مع الإمام علي عليه السلام، وفقئت عينه يوم صفين .

ولم يكن عدي بن حاتم يدعو قومه إلى الجهاد ويترك أسرته، فلقد كان ابنه مثلاً يجاهد إلى جواره، واستشهد ذلك الابن في إحدى المعارك إلى جوار أبيه، فلم يجزع لذلك عدي، ولم يحزن، بل تولى دفن ابنه صابراً محتسباً، وهو يقول مخاطباً ولده الشهيد : « الحمد لله الذي ابتلاني بيومك على حاجتي إليك » .

ومع هذا الجهاد الموصول، والنضال المستمر، كان عدي بن حاتم رجلاً متعبداً محافظاً على الصلاة حتى قال : « ما دخل عليّ وقت صلاة إلا وأنا مشتاق إليها » . رضي الله عن عدي وعن سفانة وأرضاهما، فما كان لمثل عقلهما أن يجانب الصواب .

ورضي الله عن سفانة بنت حاتم الطائي وأرضاهما، وأدخلها الجنة مع الذين يقال لهم : « سلام عليكم طبتم » .



زينب بنت أبي سلمة رضي الله عنها

كان رسول الله ﷺ يدخل على أم سلمة - زوجته - يداعب زينب بقوله :
«أين زنا ب؟» ، أو : «ما فعلت زنا ب؟» .

زينب بنت أبي سلمة رضي الله عنها

في بيت النبوة :

في بيت كريم زكي طاهر ، وفي رحاب البيت النبوي نشأت زينب بنت أبي سلمة ، وعاشت فيه سنوات كريمة ، صُنعت على عيني رسول الله ﷺ ، فكانت من فضليات نساء المدينة في زمانها .

وسعيدة الحظ هذه زينب بنتُ أبي سلمة بن عبد الأسد بن هلال المخزومية ^(١) ربيبة رسول الله ﷺ ، صُنعت على عينه ، أدبها بأدب النبوة ، وغذاها بالعلم النبوي ، فكانت كما أرادها الله تعالى عالمة فقيهة رضي الله عنها .

ولدت بالحبشة أثناء هجرة والديها هناك فرارًا بدينهم من المشركين ، حيث كان والدها أبو سلمة وأمها أم سلمة من أول مَنْ خرج فارًا بدينه إلى أرض الحبشة ، وولد مع زينب سلمة ، وعمر ، ودرة .

وكان اسم زينب بنت أبي سلمة هذه «برة» فسماها النبي ﷺ زينب والزينب: شجر حسن المنظر طيب الرائحة ، وبه سميت المرأة زينب .

وقد كان للنبي ﷺ هدي في الأسماء - فكان يحب للمسلم صالح الأسماء وحسنها ، فقد ثبت عنه أنه غير اسم عاصية وقال : «أنت جميلة» ^(٢) ، وكان

(١) الطبقات (٨ / ٤٦١) ، وسير أعلام النبلاء (٤ / ٣١٢) ، وجمهرة أنساب العرب (١ / ١١) .

(٢) أخرجه أبو داود (٤٩٥٢) .

اسم جويرية برة، فغيره باسم جويرية .

وكان ﷺ يكره للمسلم سيئ الأسماء وقيحها ، ويأمر بتحسينها ، روت زينب بنت أبي سلمة قالت : إن رسول الله ﷺ نهى عن هذا الاسم - أي : برة - وسميتُ « برة » فقال ﷺ : « لا تزكوا أنفسكم ، الله أعلم بأهل البر منكم » .

قالوا : بم نسميها ؟

قال : « سموها زينب » ^(١) .

والدها : أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد وهو ابن عمه رسول الله ﷺ ، وكان أخو رسول الله ﷺ من الرضاعة ، فأمه برة بنت عبد المطلب ، أرضعتهم ثوية مولاة أبي لهب ، وكان أبو سلمة قد أسلم مع عشرة أنفس ، أي من السابقين للإسلام ، شهد أبو سلمة بدرًا ، وأحدًا ، وجرح في أحد فمكث شهرًا يداويه ، ثم بعته رسول الله ﷺ في سرية بني أسد ، ثم رجع وازداد ألم الجرح حتى مات سنة ٤ هـ ﷺ ^(٢) .

وأما : أم سلمة ، هند بنت أبي أمية سهيل بن المغيرة بن عبد الله القرشية المخزومية ، أم المؤمنين « أم سلمة » ، وهي مشهورة بكنتيتها ، وهي بنت عم خالد بن الوليد .

أسلمت أم سلمة مع زوجها أبي سلمة في أول الإسلام بمكة ، ولما كثر

(١) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه ، وانظر : الطبقات (٨ / ٤٦١) .

(٢) الطبقات الكبرى (٣ / ١٨٢) ، وسير أعلام النبلاء (١ / ١٥٣) .

المسلمون ، واشتد البلاء والعذاب عليهم أذن الله لهم بالهجرة إلى أرض الحبشة ، وهي في غرب مكة وبين البلدين صحاري السودان ، والبحر الآخذ من اليمن إلى القلزم .

فكان من أول من خرج من المسلمين فارًّا بدينه إلى أرض الحبشة أبو سلمة ومعه امرأته أم سلمة رضي الله عنها ، فولدت له هناك زينب ، وولدت له سلمة وعمر ودرة .

فعن أم سلمة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله : إنا لله وإنا إليه راجعون ، اللهم أجرني في مصيبي ، وأخلف لي خيراً منها إلا أخلف الله له خيراً منها » .

قالت : فلما مات أبو سلمة قلت : أي المسلمين خير من أبي سلمة ؟

أول بيت هاجر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم إني قلتها فأخلف الله لي رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) .

وتأتي المنحة الربانية لتتنزل على أم سلمة فتصبح بفضل الله إحدى أمهات المؤمنين ، لتغدو من البيت الطاهر الكريم ، ويالها من منقبة لا توازيها منقبة في الدنيا بكل ما فيها من متاع زائل .

وعن عمر بن أبي سلمة ، أن أم سلمة لما انقضت عدتها خطبها أبو بكر فردته ، ثم عمر بن الخطاب فردته ، فبعث إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر بن

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه (٩١٨) .

الخطاب يخطبها عليه فقالت : أخبر رسول الله ﷺ أني امرأة غيري «أي كثيرة الغيرة» ، وأنى امرأة مصيبة «أي ذات صبيان» ، وليس أحد من أوليائي شاهداً ، فأتى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له ، فقال : «ارجع إليها فقل لها : أما قولك : إني امرأة غيري ، فسأدعو الله لك فيذهب غيرتك ، وأما قولك : إني امرأة مصيبة فستكفين صبيانك ، وأما قولك : ليس أحد من أوليائي شاهداً ، فليس من أوليائك شاهد ولا غائب يكره ذلك» ، فقالت لابنها : يا عمر ، قم فزوج رسول الله ، فزوجه (١) .

قال الإمام الذهبي : دخل بها في سنة أربع من الهجرة ، وكانت من أجمل النساء وأشرفهن نسباً (٢) .

زينب ربيبة رسول الله ﷺ :

بعد أن تزوج رسول الله ﷺ أم سلمة رضي الله عنها ، كانت زينب ما زالت ترضع من أمها أم سلمة ، وكان رسول الله ﷺ يأتيها ، فإذا جاء أخذت زينب فوضعتها في حجرها لترضعها ، وكان رسول الله ﷺ حياً كريماً ، يستحيي فيرجع ، فعل ذلك مراراً ففطن عمار بن ياسر لما تصنع قال : فأقبل ذات يوم وجاء عمار ، وكان أخاها لأمها ، فدخل عليها فأخذها من حجرها ، وقال : دعي هذه المقبوحة والمشقوحة التي أذيت بها رسول الله ﷺ ، فكان رسول الله

(١) أخرجه ابن سعد (٨/ ٩٠) ، وأحمد (٦/ ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣١٧) ، والنسائي (٦/ ٨٢٨١) ، وابن حبان (١٢٨٢) ، والحاكم (٤/ ١٧) ، ووافقه الذهبي .
(٢) سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٠٢) .

ﷺ يدخل على أم سلمة زوجها يداعبُ زينب بقوله : «أين زناب» ، أو : «ما فعلت زناب؟» .

وتربت زينب في بيت النبوة، ونعم التربية، فخرجت فقيهة فكان رسول الله ﷺ لزينب بنت أبي سلمة خيراً من أبيها الذي مات ﷺ .

والربيبة : هي بنت الزوجة وجمعها ربائب ، قال الله تعالى : ﴿وَرَبِّبْنَاكُمْ
الَّتِي فِي حُجُورِكُمْ﴾ [النساء: ٢٣] .

والربيبة : سميت بذلك لأن زوج أمها يربّيها في العادة .

مكرمة نبوية لازمت زينب بنت أبي سلمة ﷺ :

قال الحافظ ابن حجر ، من طريق عطاء بن خالد ، عن أمه ، عن زينب بنت أبي سلمة : كان رسول الله ﷺ إذا دخل يغتسل تقول أُمّي : ادخلي عليه ، فإذا دخلت نضح في وجهي الماء، ويقول : «ارجعي» ، فرأيت زينب وهي عجوز كبيرة ما نقص من وجهها شيء ، وفي رواية ذكرها أبو عمر : «فلم يزل ماء الشباب في وجهها حتى كبرت وعمرت ، ولم ينقص من بهاء وجهها وجماله شيء»^(١) .

وهذا من بركة النبي ﷺ ودلائل نبوته .

زواجها :

وقد تزوجت زينب من الصحابي الجليل عبد الله بن زمعة وهو ابن خالتها ،

(١) الاستيعاب (٤/٣١٢) ، وأسد الغابة (٥/٤٦٨ ، ٤٦٩) ، والإصابة (٤/٣١١) .

ابن أخت أم سلمة زوج النبي ﷺ ، وأمه قُريبة بنت أبي أمية ، وكان يسكن المدينة المنورة ، وكان يأذن على النبي ﷺ ، وقد قتل مع عثمان رضي الله عنه يوم الدار سنة (٣٥هـ) ^(١) .

وقد ولدت له : يزيد ، وكثيراً ، وأبا عبيدة ، وكان لأولادها شأن كبير في التاريخ الإسلامي وحضارتنا العريقة .

الفقيهة العالمة :

كانت زينب رضي الله عنها من أئمة نساء زمانها كما قال عنها ابن عبد البر رضي الله عنه ، وهذا ليس بمستغرب على من كان مثلها ، ومن كان في مكانها من رسول الله ﷺ .

وقال : كانت زينب من أئمة نساء زمانها .

وقال أبو بكر بن عبد الله المزني : زينب بنت أبي سلمة رضي الله عنها ، كنت إذا ذكرت امرأة بالمدينة فقيهة ذكرت زينب بنت أبي سلمة ^(٢) .

ولعل مصدر فقيها آتٍ من كثرة تردها على زوجات النبي رضوان الله عليهن ، وخصوصاً الصديقة بنت الصديق أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، ناهيك بفهمها الأحكام الشرعية فهماً سليماً دقيقاً .

عن زينب بنت أبي سلمة قالت : دخلت على أم حبيبة زوج النبي ﷺ

(١) انظر : أسد الغابة (٣/١٦٤) ، والإصابة (٢/٣٠٣ ، ٣٠٤) .

(٢) تهذيب التهذيب (١٢/٤٢١) .

فقالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يجل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر ، تُحَدُّ على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشرا » .

يؤخذ من الحديث :

الحداد والإحداد : هو ترك الزينة من لباس ، وكحل ، وحناء ، وطيب للمرأة إذا مات لها ميت .

والنهي عن الحداد أكثر من ثلاثة أيام للمرأة على غير زوجها ، وكان هذا القدر أبيض لأجل حظ النفس ومراعاتها ، وغلبة الطباع البشرية .

ويكون الإحداد على الزوج أربعة أشهر وعشرا ، وقيل : الحكمة فيه أن الولد يتكامل تخليقه وتنفع فيه الروح .

فيجب على المرأة المحدّ أن تجتنب الكحل والطيب والخضاب بالحناء ونحوها ، ولبس الثياب المصبوغة ، ولبس الذهب .

وعن زينب بنت أبي سلمة ، عن أم سلمة قالت : حَضَّت وأنا مع النبي ﷺ في القطفية ، فانسلت «أي ذهبت في خفية» ، فخرجت منها ، فأخذت ثياب حِيضِي فلبستها ، فقال لي رسول الله ﷺ : «أنفست؟» ، قلت : نعم ، فدعاني فأدخلني معه الخميعة ، قالت : وحدثني «أي أمها أم سلمة» أن النبي ﷺ كان يقبلها وهو صائم ، وكنت أغتسل أنا والنبي ﷺ من إناء واحد من الجنابة^(١) .

في الحديث : جواز النوم مع الحائض في ثيابها ، والاضطجاع معها في لحاف

(١) أخرجه الإمام البخاري (٣٢٢) .

واحد .

وفيه : استحباب اتخاذ المرأة ثيابًا للحيض غير ثيابها المعتادة .

وفيه : جواز القبلة للصائم إذا كان أملك لإربه، أي التحكم في شهوته .

وفيه : جواز غسل المرأة مع زوجها من إناء واحد .

زينب الصابرة المحتسبة :

تخرجت زينب في مدرسة النبوة في بيت النبوة ، فتعلمت فيما تعلمته الصبر الجميل ، وبلغت ﷺ منزلة كبيرة في مجال الصبر على الشدائد ، يدل على ذلك ما روي عن الحسن البصري رضي الله عنه أنه ذكر يوم الحرة قال :

لما كان يوم الحرة، قُتل أهل المدينة، فكان فيمن قتل ابنا زينب ربيبة رسول الله ﷺ ، فحملا فوضعا بين يديها مقتولين ، فقالت : إنا لله وإنا إليه راجعون ، والله إن المصيبة فيهما عليّ لكبيرة ، وهي علي في هذا أكبر منها في هذا ؛ لأنه جلس في بيته فدُخل عليه فقتل مظلومًا ، وأما الآخر فإنه بسط يده وقاتل فلا أدري علام هو ذلك ؟ فالمصيبة عليّ أعظم منها في هذا ، وهما ابنا عبد الله بن زمعة ^(١) .

وقال الذهبي : وقتل يوم الحرة : يزيد ، ووهب ابنا عبد الله بن زمعة ^(٢) .

روايتها للحديث :

حفظت زينب وروت عن النبي ﷺ سبعة أحاديث ، وروت عن أزواجه

(١) تاريخ الإسلام (٥/٢٥، ٢٦)، وأسد الغابة (٥/٤٦٩)، والاستيعاب (٤/٣١٣).

(٢) تاريخ الإسلام للذهبي (٥/٢٩).

الطاهرات أمها عائشة ، وزينب بنت جحش ، وأم حبيبة بنت أبي سفيان ،
وأمها أم سلمة رضي الله عنهن .

وروى عنها : عروة بن الزبير ، وعلي بن الحسين ، والقاسم بن محمد ، وابنها
أبو عبيدة بن عبد الله بن زمعة ، وعامر الشعبي ، وزين العابدين علي بن
الحسين بن علي بن أبي طالب ، ومحمد بن عطاء وآخرون ^(١) .

وروى لها البخاري حديثاً ومسلم حديثاً آخر ، ومن مروياتها في الحديث ما
حدثت به : أن رسول الله ﷺ كان عند أم سلمة فجعل الحسن من شقِّ
والحسين من شقِّ وفاطمة في حجره ، فقال ﷺ : «رحمة الله وبركاته عليكم أهل
البيت» ^(٢) .

وفاتها ﷺ :

توفيت زينب سنة (٧٣هـ) بالمدينة ، وطارق بن عمرو أمير الناس ، فأتى
بجنازتها بعد صلاة الصبح ، فوضعت بالبقيع .

وكان طارق يغلس بالصبح ، وحضر عبد الله بن عمر رضي الله عنهما جنازتها ، وقال
لأهلها : إما أن تصلوا على جنازتكم الآن ، وإما أن تتركوها حتى ترتفع
الشمس ^(٣) .

(١) تهذيب الكمال (١٨٥/٣٥) ، وسير أعلام النبلاء (٢٠١/٣) ، وتهذيب التهذيب
(٤٢١/١٢) .

(٢) سير أعلام النبلاء (٢٠١/٣) .

(٣) الطبقات الكبرى (٤٦٢/٨) ، وتهذيب التهذيب (٤٢١/١٢) .

وهناك في البقيع كان مثواها الأخير مع الصالحين الخالدين الأبرار .
فرضي الله عن الربيبة الفقيهة الصابرة التقية النقية زينب بنت أبي سلمة ،
وجعل الفردوس الأعلى مثواها ، وجزاها عن الإسلام خيرًا ، وألحقها
بالصالحين .



زینب بنت أبی معاویة رضی اللہ عنہا

قال رسول الله ﷺ: «إذا خرجت إلى العشاء الآخرة فلا تمسي طيبًا» .

وقال عليه الصلاة والسلام:

«صدق ابن مسعود، زوجك وولدك أحقُّ من تصدقت به عليهم» .

زينب بنت أبي معاوية رضي الله عنها

الصالحة والعمل الصالح :

قال رضي الله عنه : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً

طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧] .

والصحابة اليوم واحدة ممن جمعت صفات الخير والبر والصلاح والعلم

والزهد والعبادة ، وصفها أبو نعيم الأصبهاني رضي الله عنه في مطلع ترجمته لها فقال :

المصدقة المصلية ، زينب الثقفية المتخلية عن حليها ، المتقربة به إلى وليها

رضي الله عنه .

وزينب هذه إحدى الزيانب - جمع زينب - اللواتي بلغن شأواً عظيماً بين

نساء الصحابة في مجال الفضائل ، إنها زينب بنت أبي معاوية الثقفية ^(١) ، امرأة

عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وعنهما ^(٢) .

وقبل أن نبدأ الحديث عن زينب دعونا نعطر الأجواء ، ونؤنس القلوب

بذكرى «عبد الله بن مسعود» ، عليه من الله سبحانه الرحمة والرضوان .

عبد الله بن مسعود كان أول من جهر بالقرآن بعد رسول الله رضي الله عنه ، وقال

(١) قيل في نسبها : زينب بنت أبي معاوية الثقفية .

(٢) الطبقات (٨ / ٢٩٠) ، وأسد الغابة (٥ / ٤٧٠) ، والإصابة (٤ / ٣١٣) ، وتهذيب التهذيب

رسول الله ﷺ : «من سرّه أن يقرأ القرآن رطبًا كما نزل ، فليقرأه على قراءة ابن أم عبد» .

كان يومئذٍ غلامًا يافعًا لم يجاوز الحلم ، وكان يسرح في شعاب مكة بعيدًا عن الناس ، ومعه غنم يرعاها لسيد من سادات قريش ، هو عقبة بن أبي معيط . وكان الناس ينادونه : «ابن أم عبد» ، أما اسمه فهو عبد الله ، واسم أبيه «مسعود» .

كان الغلام يسمع بأخبار النبي ﷺ الذي ظهر في قومه ، فلا يأبه لها لصغر سنه من جهة ، ولبعده عن المجتمع المكي من جهة أخرى ، فقد دأب على أن يخرج بغنم عقبة منذ البكور ، ثم لا يعود بها إلا إذا أقبل الليل .

وفي ذات يوم أبصر الغلام المكي عبد الله بن مسعود كهلين عليهما الوقار ، يتجهان نحوه من بعيد ، وقد أخذ الجُهدُ منهما كل مأخذ ، واشتد عليهما الظمُّ حتى جفت منهما الشفاه والخُلُوقُ ، فلما وقفا عليه سلما وقالا :

يا غلام ، احلب لنا من هذه الشياه ما نُطفئُ به ظمَّانا ، ونبل عروقنا ، فقال الغلام : لا أفعلُ فالغنم ليست لي ، وأنا عليها مؤتمن ، فلم ينكر الرجلان قوله ، وبدا على وجهيهما الرضا عنه ، ثم قال له أحدهما :

«دُلني على شاة لم ينزُ عليها فحل» ، فأشار الغلام إلى شاة صغيرة قريبة منه ، فتقدم منها الرجل ، واعتقلها وجعل يمسح ضرعها بيده ، وهو يذكر اسم الله ، فنظر إليه الغلام في دهشة ، وقال في نفسه :

ومتى كانت الشياه الصغيرة التي لم تنز عليها الفحول تُدرُّ لبنًا ؟

لكن ضرع الشاة الصغيرة ما لبث أن انتفخ ، وطفق اللبن ينبثق منه ثراً غزيراً ، فأخذ الرجل الآخر حجراً مُجَوْفًا من الأرض ، وملاه باللبن وشرب منه هو وصاحبه ، ثم سقياني معهما ، وأنا لا أكاد أصدق ما أرى .

فلما ارتويانا قال الرجل المبارك لضرع الشاة :

انقبض ، فما زال ينقبض حتى عاد إلى ما كان عليه .

عند ذلك قلت للرجل المبارك : علمني من هذا القول الذي قلته .

فقال لي : «إنك غلام مُعَلَّم» .

كانت هذه بداية قصة عبد الله بن مسعود مع الإسلام ، إذ لم يكن الرجل المبارك إلا رسول الله صلوات الله عليه ، ولم يكن صاحبه إلا الصديق ﷺ .

وكما أحب الرسول الكريم ﷺ الغلام ، فقد أحب الغلام رسول الله ﷺ وصاحبه ، وتعلق بهما ، ولم يمض غير قليل حتى أسلم ابن مسعود ، وعرض نفسه على رسول الله ﷺ ليخدمه ، فوضعه الرسول ﷺ في خدمته .

ومنذ ذلك اليوم انتقل الغلام المحظوظ عبد الله بن مسعود من رعاية الغنم إلى خدمة سيد الخلق والأمم .

ولم يكن عبد الله بن مسعود قارئاً عالماً عابداً زاهداً فحسب ، وإنما كان - مع ذلك - قوياً حازماً مجاهداً مقداماً ، إذا جد الجدُّ فحسبه أنه أول مُسلم على ظهر الأرض جهر بالقرآن بعد رسول الله ﷺ .

كان أول من جهر بالقرآن وسمعه الطاغية «أبو جهل» ، فلطمه على خده

وقال : حتى أنت يا ربيع الغنم ؟ وفي غزوة بدر «معركة بدر» سقط الطاغية أبو جهل على يدي شاين غلامين ، كان كلُّ منهما يتساءل : أين عدو الله ؟ فلما وقع على الأرض ذهب إليه عبد الله بن مسعود ، ووضع رجله وقدمه بنعله على رقبة أبي جهل ، فقال له أبو جهل : من أنت ؟ قال : أنا ربيع الغنم ، ذكره قال : أنت ربيع الغنم ؟ أسرع وأجهز عليّ ، وأبلغ محمداً عني أي لا زلت عدوه الألد ، فلما ذهب عبد الله بن مسعود إلى رسول الله ﷺ وأبلغه بما حدث ، فقال عليه الصلاة والسلام : «إن فرعون أمتي أشد من فرعون موسى ، إن فرعون موسى حين جاءه الغرق قال : آمنت ، وهذا حين جاءه الموت قال : أبلغ محمداً عني أي لا زلت عدوه الألد ، فإن فرعوني لأشد من فرعون موسى» ، لماذا نقول هذا الكلام ؟ لأن الجبارة والطغاة غفلوا عن هذه الحقيقة ، غفلوا عنها تماماً ؛ ولذلك نراهم تهادوا في غيهم ، وتهادوا في ضلالهم ، وتهادوا في جبروتهم .

نقول لهم : رويداً رويداً ، فإن الموت حقيقة ، لا بد أن تدركهم ، وأن الحساب شديد ، لا بد أن يدركهم ، تذكروا الله ، تذكروا أن الله تعالى لن يترككم أبداً ، وقد ضرب لكم الأمثال في هذه الحياة ، ولكن قلّ منهم من يتعظ ، نقول لهم ما جاء في كتاب الله : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾ [إبراهيم: ٤٢] ^(١) .

(١) للاستزادة من أخبار ابن مسعود ، انظر : تاريخ الإسلام للذهبي (٢/ ١٠٠ - ١٠٤) ،
والبداية والنهاية (٧/ ١٦٢ ، ١٦٣) ، وأسد الغابة (٣/ ٣٨٤) .

هذا الصحابي الكريم النجيب هو زوج «زينب بنت أبي معاوية الثقفية» التي نصحب سيرتها في هذا اللقاء المبارك الطيب، وما أحلاها من سيرة صحابية مجاهدة مبايعة راوية .

كانت زينب امرأة صَنَاعًا، تعمل بيدها، وتبيع صناعتها، وتنفق على ذويها، وقد أسلمت مع من أسلم، وبايعت مع من بايع، وروت عن رسول الله ﷺ وشهدت خيبر^(١).

لا تَمْسِي طيبًا :

زينب الثقفية ﷺ إحدى فضليات الصحابة اللاتي وعين الحديث النبوي، حيث بلغت مروياتها ثمانية أحاديث، وروت عن رسول الله ﷺ وعن زوجها عبد الله بن مسعود، وعمر بن الخطاب ﷺ، وروى عنها الحديث ابنها أبو عبيدة، وابن أخيها، وبشير بن سعيد وغيرهم .

ومن مروياتها ما ذكرته عن نبي رسول الله ﷺ المرأة عن مس الطيب عند خروجها من بيتها، فقد أخرج ابن سعد ﷺ بسنده عن بشير بن سعيد قال : أخبرني زينب الثقفية امرأة عبد الله بن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال لها : «إذا خرجت إلى العشاء الآخرة فلا تَمْسِي طيبًا»^(٢).

وفي رواية : «إذا شهدت إحداكن المسجد فلا تَمْس طيبًا»^(٣).

(١) انظر : مجمع الزوائد (٦/١٠).

(٢) الطبقات (٨/٢٩٠)، والاستيعاب (٤/٣١٠)، والإصابة (٤/٣١٣).

(٣) أخرجه الإمام مسلم (٤٤٣) وغيره .

زينب وحكم تعليق التهائم :

في حياة الصحابية الكريمة «زينب الثقفية» وقفات رائعة ، ولمسات مباركة ، وأعمال رائعة ، إذ اقتبست من زوجها كثيرًا من الفضائل والصفات الحميدة ، فقد كان زوجها إمامًا حبرًا فقيهاً ، سابقًا للإيمان ، نجيبًا عالمًا خيرًا دينًا ، أحد أذكى علماء الصحابة وفضلائهم ، فقد اقتدت زينب بزوجها المؤتسى برسول الله ﷺ ، وربما سابقته في مجال الفضائل والكرم وكان زوجها يرشدها لتقتفي الهدى النبوي في جميع أمورها ، وتنقل زينب ﷺ صورة طيبة عن ذلك ، فقد أخرج الإمام أحمد رحمته الله بسنده عنها قالت : كان عبد الله إذا جاء من حاجة فانتهى إلى الباب تتحنح ، وبزق كراهة أن يهجم على أمرٍ يكرهه ، وإنه جاء ذات يوم فتنحح وعندي عجوز ترقيني من الحمرة ، فأدخلتها تحت السرير ، فدخل فجلس على جانبي فرأى في عنقي خيطًا فقال : ما هذا الخيط ؟

قلت : خيطٌ رُقي لي فيه ، فأخذه فقطعه ، ثم قال : إن آل عبد الله لأغنياء عن الشرك ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن الرقى والتهائم والتولة شرك» . قلت له : لم تقول : شرك ؟ وقد كانت عيني تقذف ، فكنت أختلف إلى فلان اليهودي يرقئها ، فكان إذا رقاها سكنت ؟

قال : إنما ذلك من الشيطان يخنسها بيده ، فإذا رقاها كفَّ عنها ، إنما يكفيك أن تقولي كما قال النبي ﷺ : «أذهب الباس رب الناس ، اشف أنت الشافي ، لا شفاء إلا شفاؤك ، شفاء لا يغادر سقمًا»^(١) ، أي : لا يترك .

(١) الحديث رواه البخاري في الطب ، باب رقية النبي ﷺ ، ومسلم في السلام ، باب استحباب رقية المريض ، وأبو داود (٣٨٨٣) ، وابن ماجه (٣٥٣٠) ، وتفسير ابن كثير (٤٩٤ / ٢) .

وكلام ابن مسعود رضي الله عنه في هذا الحديث يتوافق مع ما ورد في السنة الثابتة من أنه ينبغي للمريض أن يقرأ على نفسه الفاتحة ، وقل هو الله أحد ، والمعوذتين ، وينفث في يديه ، ويمسح بهما وجهه كما ثبت ذلك عنه رضي الله عنه في الصحيحين ^(١) .

زينب رضي الله عنها والزكاة على الأقارب :

يقولُ الفقهاء : إذا كان للزوجة مال تجب فيه الزكاة ، فلها أن تعطي زوجها من زكاتها ، إذا كان من أهل الاستحقاق ؛ لأنه لا يجب عليها الإنفاق عليه ، وثوابها في إعطائه أفضل من ثوابها إذا أعطت الأجنبي .

وقد توفرت هذه الشروط في «زينب الثقفية» رضي الله عنها ، خصوصاً وأنها قد سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يحض النساء على الصدقة والتقرب إلى الله تعالى ، فأخذت حلياً لها لتصدق به ، فقال لها زوجها عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : أين تذهين بهذا الحلي ؟

ف قالت : أتقرب به إلى الله ورسوله .

فقال : هلمي تصدقي به عليّ وعلى ولدي ، فأنا له موضع ^(٢) .

وفي «صحيح البخاري» ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه : أن زينب امرأة عبد الله ابن مسعود قالت :

يا نبي الله ، إنك أمرت اليوم بالصدقة ، وكان عندي حلي ، فأردت أن

(١) صحيح البخاري في فضائل القرآن ، باب فضل المعوذتين ، ومسلم باب رقية المريض .

(٢) انظر : الحلية لأبي نعيم (٢/٦٩) .

أصدق به ، فزعم ابن مسعود أنه وولده أحق من تصدقت به عليهم ، فقال النبي ﷺ : «صدق ابن مسعود ، زوجك وولدك أحق من تصدقت به عليهم» .

وفي رواية أخرى ، عن عمرو بن الحارث ، عن زينب امرأة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قالت :

قال رسول الله ﷺ : «تصدقن يا معشر النساء ، ولو من حليكن» .

قالت : فرجعت إلى عبد الله فقلت : إنك رجل خفيف ذات اليد - قليل المال - وإن الرسول ﷺ قد أمرنا بالصدقة ، فأته فاسأله ، فإن كان ذلك يُجزئ عني ، وإلا صرفتها إلى غيركم ، فقال لي عبد الله : بل ائتيه أنت .

فانطلقت فإذا امرأة من الأنصار بباب رسول الله ﷺ ، حاجتها حاجتي ، وكان رسول الله ﷺ قد ألقيت عليه المهابة ، فخرج علينا بلال بن أبي رباح رضي الله عنه ، فقلنا له : ائت رسول الله ﷺ فأخبره أن امرأتين بالباب تسألانك : أتجزئ الصدقة عنهما على أزواجهما وعلى أيتام في حجورهما ، ولا تخبره من نحن ؟

فدخل بلال على رسول الله ﷺ فسأله فقال له رسول الله ﷺ : «من هما؟» .

فقال : امرأة من الأنصار وزينب .

فقال رسول الله ﷺ : «أي الزيانب؟» .

قال : امرأة عبد الله بن مسعود .

فقال رسول الله ﷺ : «لهما أجران : أجر القرابة ، وأجر الصدقة» ^(١) .

(١) رواه البخاري في الزكاة ، باب الزكاة على الأقارب ، ومسلم في الزكاة ، باب فضل النفقة على الأقربين والزوج والأولاد ، وانظر : الحلية (٢/٦٩ ، ٧٠) ، وأسد الغابة (٥/٤٧٠ ، ٤٧١) ، والإصابة (٤/٣١٣) .

ورجعت زينب وقد قرت عينها بما أخبرها النبي الكريم ﷺ عن مضاعفة الأجر من الله ﷻ لها في الإنفاق على زوجها وذويها .

يستدل من الحديثين : على جواز دفع المرأة زكاتها إلى زوجها .

ومن الفوائد : الحث على صلة الرحم ، وجواز تبرع المرأة بما لها من غير إذن زوجها ، والحث على الصدقة على الأقارب وهو محمول في الواجبة على من لا يلزم المعطي نفقة عنهم ، ومنها : عظة النساء وترغيب ولي الأمر في أفعال الخير للرجال والنساء ، والتحدث مع النساء الأجانب عند أمن الفتنة ، والتخويف من المؤاخذة بالذنوب ، وما يتوقع بسببها من العذاب .

ومنها : فتيا العالم مع وجود من هو أعلم منه ، وطلب الترقى في طلب العلم ^(١) .

الأيام الأخيرة :

تشير أخبار الصحابية زينب الثقفية إلى أنها عاشت إلى نهاية عصر الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم ، يدل على ذلك وصية زوجها عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، ولتقرأ سويًا هذه الوصية : «بسم الله الرحمن الرحيم : هذا ما أوصى عبد الله بن مسعود إن حدث به حدث في مرضه ، إن مرجع وصيته إلى الزبير بن العوام ، وإلى ابنه عبد الله بن الزبير ، وإنهما في حلٍّ وبِلٍّ فيما وليا من ذلك ، وقضيا من ذلك لا حرج عليهما في شيء منه، وإنه لا تزوج امرأة من بناته إلا بعلمهما ، ولا يُحجزُ ذلك عن امرأته زينب بنت عبد الله الثقفية» ^(٢) .

(١) راجع فتح الباري لابن حجر (٣/٣٨٦، ٣٨٧) .

(٢) الطبقات (٣/١٥٩) ، وحلية الأولياء (٢/٨٢) .

وقد توفي ابن مسعود سنة (٣٢هـ)، وربما عاشت امرأته زينب بعده مدة من الزمن ﷺ .

هذه نفحات ندية عطرة من سيرة صحابية كريمة ، كانت مثال الزوجة التقية التي تستحق أن تكون قدوة صالحة للنساء ، ومثلاً رائعاً بين نساء الصحابة ممن آثرن الآخرة ففزن بمرضاة الله ﷻ في الدارين .

فرضي الله عن المتصدقة المصلية ، زينب الثقفية المتخلية من حليها، المتقربة به إلى وليها، وأسكنها فسيح جناته .



الشيماء بنت الحارث السعوية

قال رسول الله ﷺ :

«إن أحببت فأقيمي عندي مكرمة محبة، وإن أحببت أن ترجعي
إلى قومك وصلتك» .

الشيما بنت الحارث السعدية رضي الله عنها

الحاضنة الأولى :

هذه امرأة بدوية من بني سعد ، ألفت عيناها فضاء البادية الرحب ، الذي لا تحدُّه ولا تقيدُه قيود ، وألفت نفسها حياة البساطة على رمال البادية السهلة ، وأرضها المنبسطة ، وبطاحها الواسعة .

و ذات يوم انطلقت مرضع بني سعد إلى مكة يلتمسن الأطفال لإرضاعهم ، ومن بينهن حليلة السعدية ، فكان من شيم العرب وأخلاقهم ، إذا وُلد لهم ولد يلتمسون له مرضعة في غير قبيلتهم ، ليكون أنجب للولد وأفصح له .

وكان أشرف قريش يبعثون أطفالهم إلى البادية ، يقضون فيها مدة الرضاع في حضانة المرضع من نساء البدو ، وكانوا يختارون المرضع اختياراً يدل على ذكائهم الفطري ، إذ يختارون المرأة المرضع الحسنة في نفسها وعشيرتها ، فأيتهن كانت أسمح خُلُقًا ، وأقوم خُلُقًا ، وأبين بيانًا ، وأعز نفرًا فهي الظافرة السابقة .

وكانت نساء البادية يأتين المدائن والقرى من آن إلى آن ، ملاء الأثناء ، فيرجعن بولدان الحضر يُرضعنهم ، ويتعهدن منابتهم بين ملاعب البدو ومضارب الخيام ، ولهذا فقد كان رسول الله ﷺ يُرجع فصاحته المعجزة إلى منبته في قريش ، واسترضاعه في بني سعد ، وكان يقول لأصحابه الكرام : «أنا أعربكم ، أنا قرشي ، واسترضعت في بني سعد» ^(١) .

(١) السيرة الحلبية (١/١٤٦) .

وقال له سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه : ما رأيت أفصح منك يا رسول الله ، فقال صلى الله عليه وسلم : «وما يمنعني وأنا من قريش ، وقد أرضعت في بني سعد؟» .

ومن بين هؤلاء تبرز حليلة السعدية ، فهي مرضع رسول الله ذات الحظ السعيد ، قال عنها الشيخ يوسف النبهاني رحمته الله :

وأرضعته ذات حظ وافر حليلة من غرر العشائر
كان لديها القوتُ غير ياسر فأصبحت أيسر أهل الحاضر
سعيدة قد سعدت من سعد (١)

ولم يطل مكث حليلة السعدية بمكة المكرمة ، وعادت وهي تحملُ طفلاً ، ولم يكن هذا الطفل الرضيع سوى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، الذي أرضعته حليلة ، وطُرحت البركة في كل ما عندها ، فقد سمت أغنامها ، وزاد لبنها ، واخضر مرعاها .

وأقام نبينا وحبیبنا محمد صلى الله عليه وسلم في الصحراء سنتين ، ترضعه حليلة ، وتحضنه ابنتها الشیاء بنت الحارث بن عبد العزی بن رفاعة السعدية أخت النبي صلى الله عليه وسلم من الرضاعة (٢) .

والشیاء اسمها حذافة - أو جدامة - وغلب عليها لقب الشیاء أو الشیاء ، فلا تُعرفُ في قومها إلا به (٣) ، ومن الجدير بالذكر أن إخوة النبي صلى الله عليه وسلم من الرضاعة : عبد الله ، وأنيسة والشیاء ، بنو الحارث ، وكانت الشیاء تحضن

(١) حجة الله على العالمين للنبهاني (٢٥٢/١) .

(٢) الإصابة (٣٣٥/٤) .

(٣) دلائل النبوة لليهقي (١٣٢/١) .

رسول الله ﷺ مع أمها حليلة السعدية ، فهي حاضنته الأولى قبل أم أيمن^(١) بركة الحبشية ﷺ .

دعاء مستجاب :

ها هو ذا النبي ﷺ يبدو وكأنه ابنُ أربع ، بينما لما يجاوز هو الستين بعد ، وها هي حليلةٌ في طريقها إلى مكة تعود به إلى أمه آمنة بنت وهب ، ثم ترجوها أن ترجع به ثانية إلى البادية ، فأذنت لها بذلك ، وعاد الحبيبُ المصطفى ﷺ سعيداً مسروراً برجوعه مع حليلة إلى باديتها الأثيرة لديه .

وهناك كان يخرج ﷺ مع أولاد حليلة إلى المراعي وأخته الشيماء تحضنه وتراعيه ، فتحمله أحياناً إذا اشتد الحر ، وطال الطريق ، وتركه أحياناً يدرج هنا وهناك ، ثم تدركه فتأخذه بين ذراعيها وتضمه إلى صدرها ، وأحياناً أخرى تجلس في الظل وترقصه ، وتقول :

ياربنا أبق لنا محمداً حتى أراه يافعاً وأمرداً
ثم أراه سيّداً مسوداً وأكبت أعاديه معاً والحسداً
وأعطه عزاً يدوم أبداً

وكان أبو عروة الأزدي إذا أنشد هذا الترقيص اللطيف قال : ما أحسن ما أجاب الله دعاءها^(٢) .

هذا أخ لي :

كانت الشيماء وأهلها يرون من بركة النبي ﷺ ما يزيدهم تعلقاً به ،

(١) اقرأ سيرة أم أيمن في كتابنا «نساء مبشرات بالجنة» (ص ١٤١) ، ط فياض .

(٢) الإصابة (٤/٣٣٦) ، والسيرة النبوية لأحمد زيني دحلان (١/٦٣) .

وحرصاً عليه ، وكانت حليلة لا تدعه يذهب مكاناً بعيداً ، وتوصي ابنتها الشياء بذلك دائماً وتلاحقه بعينها حيثما كان .

وذات يوم - وفي الظهيرة - غفلت عنه حليلة ، فخرجت وأفزعتها الحرُّ وقتذاك ، فوجدته مع الشياء وهي ترقصه وتقول :

هذا أخ لي لم تلده أمي وليس من نسل أبي وعمي
فأنمه اللهم فيما تنمي

وجعلت حليلة تلوم ابنتها، وتقول في لهجة العقاب : في هذا الحرِّ يا شياء ؟
فقلت : يا أماه ، ما وجد أخي حراً ، رأيتُ غمامة تظلُّ عليه ، إذا وقف
وقفت ، وإذا سار سارت حتى انتهى إلى هذا الموضع ، فجعلت حليلة
والعجب يرسم على وجهها تقول : أحقَّ يا بنية ؟
قالت : إي والله ، إي والله ^(١) .

وأقام النبي ﷺ في بني سعد إلى الخامسة من عمره، ينهل من جو البادية
الطلق : الصحة والنماء ، ويتعلم من بني سعد اللغة المصفاة الفصيحة ، وكان
ﷺ يعتز - فيما بعد - ويقول لأصحابه : «أنا أعربكم ، أنا قرشيٌّ ، واسترضعت
في بني سعد بن بكر» .

هذا وقد تركت السنوات الخمس في نفسه الكريمة أجمل الأثر وأبقاه ،
وبقيت الشياء وأهلها وقومها موضع محبته ﷺ وإكرامه طوال حياته ﷺ ،
وفي السطور التالية نرى مصداق ذلك .

(١) عن السيرة الحلبية (١/١٦٧، ١٦٨) بتصرف شديد .

النبي ﷺ يتعرف على أخته الشيماء :

بعد فتح مكة تجمعت قبائل «هوازن» ، و«ثقيف» ، و«بنو بكر بن سعد» ، وغيرهم ، وأجمعوا أمرهم على قتال محمد ﷺ ، وقد استبدت بهم حمية الجاهلية ، وصور لهم غرورهم أنهم ورثة «قريش» في الزعامة والقيادة ، فهم أهل لذلك . وقد بلغ تعدادهم ما يزيد على ثلاثين ألفاً خرجوا بكل عدتهم وعددهم ، وأخرجوا معهم نساءهم وذريتهم ومواشيهم ، بناء على طلب «مالك بن عوف» ، الذي اختاروه قائداً لهم .

وكان تجمعهم في وادي «حنين» بين الطائف ومكة .

وهناك كان الصدام والقتال الشرس العنيف .

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [التوبة: ٢٥-٢٧] .

ولقد نظر بعض المسلمين يومئذٍ إلى أنفسهم فأعجبتهم كثرتهم فقالوا : لن نغلب اليوم من كثرة ، ولم يردوا الأمر في النصر إلى من بيده مقاليد السموات والأرض ، فحاققت بهم الهزيمة مع بدء القتال ، وزلزلوا زلزالاً شديداً ، وتفرق أكثرهم .

وكان بطل الموقف يومئذٍ في استعادة كفة الميزان إلى رجحان الإيمان هو الذي علّم الناس الثبات على الحق مهما كانت الأخطار ، ومهما كانت الظروف إنه رسول الله ﷺ الذي نادى في الناس :

«أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب» .

وهو ﷺ راكب على بغلته «دُلْدُل» .

ثبت النبي ﷺ ، والتف حوله مائتان من الصحابة ، تداعوا إليه وكرؤا معه ، وأيد الله الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين .

وتشتت جمع المشركين ووقع القتل والسبي ، وكثرت مغانم المسلمين من النساء والنعم .

إني لأختُ صاحبكم :

لما كان يوم هوازن ظفر المسلمون بهم ، وأخذوا الشياء فيمن أخذوا من السَّبي ، فقالت للمسلمين : تعلمون والله إني لأختُ صاحبكم من الرضاعة ، فلم يصدقوها ، حتى قدموا بها على رسول الله ﷺ .

فقالت : يا رسول الله ، إني أختك من الرضاعة .

قال : «وما علامة ذلك؟» .

قالت : عضة عضضتها وأنا متوركك^(١) .

عرف رسول الله ﷺ العلامة ، فبسط لها رداءه ، فأجلسها عليه وخيرها ،

(١) انظر: جمهرة أنساب العرب ، لابن حزم (١/ ٢٦٥) ، ومتوركتك : أي حاملتك على وركي .

وقال : «إن أحببت فأقمني عندي مكرمة محببة ، وإن أحببت أن ترجعي إلى قومك وصلتك» .

قالت : بل أرجع إلى قومي ، ثم أسلمت ، وشهدت بالرسالة ، فأعطاه رسول الله ﷺ غلامًا يقال له : مكحول ، وجارية ، فزوجت الغلام للجارية ، فلم يزل فيهم من نسلهما بقية ^(١) ، كما وهبها من الشاء والنعم شيئًا كثيرًا ، وردّها إلى قومها .

ولم يتوقف إكرام النبي ﷺ للشيماء عند هذا الحد فحسب ، بل شمل عفوه وكرمه بني سعد جميعهم ^(٢) ، وبنو سعد من هوازن .

خطيب هوازن يطلب الشفاعة من النبي ﷺ :

عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال : كنا مع رسول الله ﷺ بحنين ، فلما أصاب من هوازن ما أصاب من أموالهم وسبائهم ، عندئذ أتاه وفد من هوازن وفيهم عمه من الرضاعة ، وهم يرجون عفوه ، ويعلنون خضوعهم وإسلامهم ، وتقدم خطيبهم «زهير بن صرد» ، وقال :

يا رسول الله ، إنما في هذه الحظائر من كان يكفلك من عماتك وخالاتك وحواضنك ، وقد حضناك في حجورنا ، وأرضعناك بشدّينا ، لقد رأيتك مُرضعًا فما رأيت مرضعًا خيرًا منك .

(١) البداية والنهاية (٤/٣٦٣) ، والإصابة (٣/٤٣٥) .

(٢) الاستيعاب (٤/٣٣٦) ، والبداية والنهاية (٣/٣٦٣) ، وتاريخ الطبري (٢/١٧١) ، والشفاء (١/٢٥٩ ، ٢٦٠) ، وأسد الغابة (٥/٤٨٩) ، وعيون الأثر (٢/٢٢١ ، ٢٢٢) ، والإصابة (٤/٣٣٥) ، والمغازي (٣/٩١٣ ، ٩١٤) .

ورأيتك فطيماً فما رأيت فطيماً خيراً منك .

ثم رأيتك شاباً فما رأيت شاباً خيراً منك .

وقد تكاملت فيك خلال الخير ، ونحن مع ذلك أصلك وعشيرتك ، فامنّ علينا من الله عليك ، ثم أنشأ يقول :

امنن علينا رسول الله في كرم
 امنن على نسوة قد كنت ترضعها
 فإني المرء نرجوه ومنتظر
 إذ فوك يملؤه من محضها درر
 من أمهاتك إن العفو مشتهر
 فإلبس العفو من قد كنت ترضعه
 إنا نؤمل عفواً منك تلبسه
 هذه البرية إذ تعفو وتتنصر

فلما سمع النبي ﷺ هذا البيان الساحر ، وهذا الشعر العذب قال : « ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم » .

وقال المهاجرون : ما كان لنا فهو لله ولرسوله .

وقالت الأنصار : ما كان لنا فهو لله ولرسوله .

قال ابن كثير رحمته الله تعليقا على هذه الحادثة :

فكان هذا سبب إعتاقهم عن بكرة أبيهم ، فعادت فواضله عليه الصلاة والسلام عليهم قديماً وحديثاً ، خصوصاً وعموماً ^(١) .

وفاتها 

لم يذكر أصحاب التراجم تاريخ وفاتها إلا الزركلي قال : توفيت بعد السنة

(١) عن البداية والنهاية (٤/٣٦٣، ٣٦٤)، وعيون الأثر (٢/٢٢٣، ٢٢٤)، وانظر تاريخ الطبري (٢/١٧٣)، والدرر لابن عبد البر (ص ٢٧٦، ٢٧٧)، والفصول لابن كثير (ص ٢٠٨)، والسيرة الحلبية (١/١٧٠) .

الثامنة من الهجرة^(١) .

وبعد ، فهذه سيرة صحابية حباها الله ﷺ من فضله ، وأنعم عليها بالإسلام
ففاضت بالسعادة في الدارين .

فرضي الله عن الشيءاء وأرضاها ، وأدخلها في رحمته ، وجعل الفردوس
الأعلى مثواها .



(١) انظر : الأعلام للزركلي (٣/ ١٨٤) .

درة بنت أبي لهب رضي الله عنها

- قال لها رسول الله ﷺ : «أغضب الله من أغضبك» .
وقال عليه الصلاة والسلام : «أنت مني وأنا منك» .

درة بنت أبي لهب رضي الله عنها

النذيرُ الميئُ :

أخذت الدعايةُ للإسلام تنتشر في أم القرى - مكة - وتعمل عملها في أصحاب الأفتدة الكبيرة ، فسرعان ما يطرحون جاهليتهم العمياء ، ويسرعون إلى الإيمان الذي أضاء نفوسهم ، وصاغ منهم قادة البشرية ، وترامت أبناء الدين الجديد إلى قريش ، فلم تُعرها اهتمامًا بادئ الأمر .

واستمرت الدعوة سرًا ثلاث سنوات ، ثم نزل الأمين جبريل عليه السلام على النبي ﷺ يكلفه بإظهار الدعوة ، وأنه هو النذير الميئ .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : لما نزلت الآية : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤] صعد النبي ﷺ على جبل الصفا ، فجعل ينادي : « يا بني فهر ، يا بني عدي ، يا بني عبد مناف » ، حتى اجتمعوا ، فجعل الذي لم يستطع أن يخرج يرسل رسولاً لينظر ما هو ، فجاء أبو لهب وقريش ، فقال النبي ﷺ : « أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً وراء هذا الوادي تريد أن تغير عليكم ، أكنتم مصدقي؟ » .

قالوا : ما جربنا عليك كذباً قط .

قال : « فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد » .

فقال أبو لهب : تباً لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا ؟

فنزل قول الحق سبحانه : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ إلى آخر السورة ^(١) .
 وقبل أن نتعرف على سيرة الصحابية درة بنت أبي لهب بن عبد المطلب
 الهاشمية القرشية ^(٢) ابنة عم رسول الله ﷺ دعونا نتعرف أخبار والدها عدو
 الله وعدو رسوله ﷺ .

من أخبار أبي لهب :

أبو لهب أحد أعمام رسول الله ﷺ ، واسمه عبد العزى بن عبد المطلب بن
 هاشم القرشي ، وأحد الأشراف الشجعان في الجاهلية ، ومن أشد الناس
 عداوة للمسلمين ، كان كثير الأذية لابن أخيه محمد ﷺ ، والبغض له ،
 والتنقص له ولدينه ، وكني بأبي لهب لحسنه وإشراقه وجهه ، وقد صرفهم الله
 ﷻ أن يقولوا : «أبو النور» ، و«أبو الضياء» ، الذي هو المشترك بين المحبوب
 والمكروه ، وأجرى على ألسنتهم أن يضيفوه إلى لهب الذي هو مخصوص
 بالمكروه المذموم وهو النار ، ثم حقق ذلك بأن جعلها مقره ^(٣) .

كان أبو لهب لا يكف الأذى عن رسول الله ﷺ في أي مكان وأي مناسبة ،
 فقد روى الإمام أحمد رحمه الله ، عن أبي الزناد قال : أخبرني رجل يقال له : «ربيعة
 ابن عباد» من بني الدليل - وكان جاهلياً فأسلم - قال :

رأيت النبي ﷺ في الجاهلية في سوق ذي المجاز وهو يقول : «يا أيها الناس ،

(١) الحديث صحيح : أخرجه البخاري ومسلم ، وانظر : تفسير الخازن (٣١٧/٧) ، وانظر :
 تفسير القرطبي وابن كثير لسورة المسد ، وأسباب النزول للواحيدي .

(٢) سير أعلام النبلاء (٢/٢٧٥) ، وأسد الغابة (٥/٤٤٩) .

(٣) تفسير القرطبي (٢٠/٢٣٨) .

قولوا : لا إله إلا الله تفلحوا» ، والناس مجتمعون عليه ، ووراءه رجل وضيء الوجه ، أحول ذو غديرتين يقول : إنه صابئ كاذب ، يتبعه حيث ذهب ، فسألت عنه فقالوا : هذا عمه أبو لهب ^(١) .

ولم يتوقف أبو لهب عند هذا الحد فحسب ، بل حسب أن ماله سينقذه من الهوان ، فقد روي أن رسول الله ﷺ لما دعا قومه إلى الإيمان قال أبو لهب : إن كان ما يقول ابن أخي حقاً ، فإني أفتدي نفسي يوم القيامة من العذاب بمالي وولدي .

ونسي أبو لهب أنه : ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾

[الشعراء: ٨٨، ٨٩] .

ولم تكن زوج أبي لهب أقل منه إيذاء للنبي ﷺ ، واسمها أروى بنت حرب ابن أمية ، وهي أخت أبي سفيان بن حرب ، وتكنى أم جميل ، وكانت عوناً لزوجها على كفره وجحوده وعناده .

كانت تضع الشوك في طريق رسول الله ﷺ ، وتنفق من مالها في عداوته فسمها الله ﷻ : «حمالة الحطب» .

وقد شقي أبو لهب وزوجته لتصديهما للنبي ﷺ ، وصدتهما عن الإسلام ، وأنزل الباري جل شأنه فيهما سورة المسد ، وأخبر فيها عنهما بالشقاء وعدم الإيمان ، وعمما سينالان من عذاب ووعيد .

(١) انظر : تفسير ابن كثير لسورة المسد .

نهاية أبي هلب :

أما عن موت أبي هلب ، فقد أوردت المصادر أنه مات عقب غزوة بدر بعد أن سمع الأخبار بانتصار المسلمين ، فقد أصابه الله بالعدسة^(١) .

ويروي الإمام ابن كثير رحمته الله قصة وفاته فيقول : قامت «أم الفضل» إلى عمود من عمود الحجرة ، فأخذته فضربته به ضربة فبلغت في رأسه شجة منكرة ، فوالله ما عاش بعدها إلا سبع ليالٍ حتى رماه الله «بالعدسة» ، فقتلته ، فلقد تركه ابنه بعد موته ثلاثاً ما دفناه حتى أنتن «تعفن» ، وكانت قريش تتقي هذه «العدسة» كما تتقي الطاعون ، حتى قال لهم رجل من قريش : ويحكمأ ألا تستحيان ؟ إن أباكما قد أنتن في بيته ألا تدفناه ؟

فقالا : إنا نخشى عدوى هذه القرحة .

فقال : انطلقا أنا أعينكم عليه ، فوالله ما غسلوه إلا قذفاً بالماء عليه من بعيد ، ما يدنون منه ، ثم احتملوه إلى أعلى مكة فأسندوه إلى جدار ثم رضوا عليه الحجارة^(٢) . وهكذا أخذه الله ﷻ أخذ عزيز مقتدر ، وركبته الأمراض الخبيثة المنفرة ، وحل به الداء الذي لا بُرء منه ولا يعالج ، فنفر منه الأهل والولد ، وفر منه الصاحب ، وتحاشاه الأهل ، هذا في الحياة الدنيا ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى .

فهذه نهاية السابقين لعبادة الشيطان :

١- مرض .

(١) «العدسة» بثرة تخرج بالبدن قاتلة ، وهي تشبه الطاعون وقلما يسلم منها أحد ، لسان العرب (٢/٧٠٤) .

(٢) انظر : البداية والنهاية (٣/٣٠٩) .

٢- وتعفن .

٣- وانتفاخ .

٤- ورضخ بالحجارة ، وكل ذلك قبل القبر ، فماذا يا ترى بعد القبر أو البعث أو النشور ؟ بل ماذا يجد عند الحساب وعلى الصراط ؟

يخرج الحي من الميت :

في هذا الجو الداكن الرهيب نشأت دُرّة بنت أبي لهب ، وكانت ترى تلك الأحداث الأليمة غير أن عقلها كان يرفض ما يقوم به والدها أبو لهب ، الذي لم يغن عنه ماله الوفير ولا كنزه الكبير ، ولا كل ما جمع وقدر .

إن الله تعالى يحاسب الناس على حسب أعمالهم ، لا أعمال آبائهم ، وإلا ما أغرق ابن نوح عليه السلام في المغرقين ، وإن كان الولد مؤمناً وأبوه كافراً فالولد يحاسب على إيمانه، ويمجازى الكافر على كفره .

وهذا ينطبق على هذه الصحابية الجليلة دُرّة بنت أبي لهب .

أبوها : أبو لهب عبد العزى بن عبد المطلب ، من قريش عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأحد الأشراف الشجعان في الجاهلية ، ومن أشد الناس عداوة للمسلمين في بداية الإسلام كان غنياً غنياً ، كبر عليه أن يتبع ديناً جاء به ابن أخيه ، فأذى أنصاره وحرص عليهم وقتلهم .

أمها : أم جميل بنت حرب بن أمية بن عبد شمس ، وهي أخت أبي سفيان ابن حرب .

وكانت تحمل الشوك والعضاء فتطرحه في طريق رسول الله ﷺ وأصحابه لتعقرهم .

قال ابن كثير رحمته الله في «البداية والنهاية»: وكانت زوجته من سادات نساء قريش ، وهي أم جميل واسمها أروى بنت حرب بن أمية ، وهي أخت أبي سفيان وعمة معاوية ، وكانت عوناً لزوجها على كفره وجحوده وعناده : ﴿ في جِدِّهَا حَبْلٌ مِّنْ مَّسَدٍ ﴾ .

إخوتها : عتبة ، ومعتب ، وعتيبة ، فأما عتبة ومعتب فقد أسلما في فتح مكة ، وفرح بإسلامها رسول الله ﷺ ، وأما عتيبة فمات على الكفر وهو الذي طلق أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ قبل الدخول بها .

أخواتها : عزة بنت أبي لهب ، تزوجها أوفى بن حكيم بن أمية بن حارثة بن الأوقص السلمي ، فولدت له عبيدة ، وسعيداً ، وإبراهيم بن أبي أوفى .
وقال الدارقطني : ولا رواية لها ^(١) .

خالدة بنت أبي لهب : تزوجها عثمان بن أبي العاص الثقفي ، فولدت له ،
وقال الدارقطني : لا رواية لها ^(٢) .

وعلى الرغم من الضغوط التي كانت حولها ، وجد الإسلام إلى قلبها الصافي سيلاً ، وإلى سمعها الأذن الواعية ، فأسلمت بمكة ^(٣) .

(١) الإصابة (٨/ ٢٣٩) ، والطبقات الكبرى (٨/ ٤٠) .

(٢) الإصابة (٨/ ٩٨) ، الطبقات (٨/ ٤٠) .

(٣) الأعلام (٢/ ٣٣٨) .

وأخرجها الله ﷻ من ظلمات الشرك إلى نور الإيمان ، فهو الذي يخرج الحي من الميت .

إسلامها وهجرتها :

أسلمت بمكة وهاجرت إلى المدينة المنورة ، فكتب الله ﷻ لها السعادة والتوفيق ، ونالت أجر المهاجرات وثوابهن ، وبذلك سجلت أعظم المواقف في تاريخ المرأة المسلمة بتحديها كل الظروف التي أحاطت بها .

كانت دُرّة ﷺ متزوجة من الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب ، فولدت له عقبة والوليد وأبا مسلم ، وقتل زوجها يوم بدر ، وهو مشرك ، فخلف عليها دحية الكلبي ﷺ .

مكانتها عند النبي ﷺ :

في المدينة المنورة أخذت درة ﷺ مكانتها بين نساء الصحابة ، غير أن نظرات مريبة من بعض النساء كانت تؤثر فيها تأثيرًا بالغًا ، مما جعلها تشعر بالخرج ، حيث كانت أولئك النسوة ينظرن إليها أنها ابنة أبي لهب - عدو الله - ولكن النبي الكريم ﷺ عالج هذه المشكلة علاجًا أظهر فيه مكانة دُرّة ﷺ ، وأنه لا تزر وازرة وزر أخرى ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يُرى ، ثم يجزي الجزاء الأوفى .

وقد أوردت المصادر هذه الحادثة بأساليب متقاربة ، تقول عن أبي هريرة وعمار بن ياسر: إن درة بنت أبي لهب قدمت المدينة مهاجرة ، فنزلت في دار رافع بن المعلى الأنصاري الزرقي ﷺ ، فقال لها نسوة من بني زريق : أنت ابنة

أبي لهب ، الذي قال الله ﷺ فيه : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝ مَا يَغْنِي عَنْكَ مَهْجَرُكَ ؟ ﴾

فأتت درة النبي ﷺ فشكت إليه ما قلن لها ، وكانت متأثرة جداً ، فسكنها رسول الله ﷺ ، وقال : « اجلسي » ، ثم صلى بالناس الظهر وجلس على المنبر ساعة ، ثم قال : « يا أيها الناس ، مالي أودى في أهلي؟ فوالله إن شفاعتي تنال قرابتي ، حتى إن صداً وحكماً لتناولها يوم القيامة »^(١) .

وفي رواية أخرى تشير إلى مكانة درة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال لها : « أغضب الله من أغضبك »^(٢) .

أنت مني :

لم تكن درة ﷺ بعيدة عن البيت النبوي الطاهر ، فقد كانت تزور عائشة أم المؤمنين ﷺ ، وتقتبس من علمها وفقهها ، وكانت تسابق عائشة في خدمة رسول الله ﷺ ، وفي إحدى زياراتها لأمتنا عائشة حظيت بمكرمة نبوية خاصة ، روت درة ﷺ خبر هذه المكرمة فقالت :

كنت عند عائشة ﷺ فدخل النبي ﷺ فقال : « ايتوني بوضوء » ، فابتدرت أنا وعائشة الكوز فبدرتُها - سبقتها - فأخذته أنا فتوضأ فرفع إليّ عينه أو بصره

(١) انظر : أسد الغابة (٥/٤٥٠) ، والإصابة (٤/٢٩٠ ، ٢٩١) ، ودر السحابة للشوكاني

(ص ٥٤٢) ، وحياة الصحابة (١/٥٥٤ ، ٥٥٥) ، وصداً وحكماً ، قبائل يمنية .

(٢) در السحابة (ص ٥٤٢) .

فقال : « أنت مني وأنا منك »^(١) .

المحدثة الشاعرة :

درة رضي الله عنها إحدى القرشيات الشاعرات، ومن روين الحديث النبوي الشريف، وقد حدثت عن النبي صلى الله عليه وسلم وعائشة رضي الله عنها ثلاثة أحاديث، فمن مروياتها قالت: قام رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر فقال: يا رسول الله، أي الناس خير؟ فقال صلى الله عليه وسلم: «خير الناس أقرؤهم، وأتقاهم، وأمرهم بالمعروف، وأنهاهم عن المنكر، وأوصلهم للرحم»^(٢) .

وعنها أيضاً قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يؤذى حي بميت»^(٣) .

وكما برعت درة رضي الله عنها في رواية الحديث وحفظه برعت كذلك في نظم القريض، فكانت درة شاعرة جيدة المعاني، ومن قولها في حرب الفجار:

لاقوا غداة الروع ضمززة	فيها النسور من بني فهر
ملموسة خرساء تحسبها	لما بدت موجاً من البحر
والجرذ كالطغيان كاسرة	تهوى أمام كتائب خضر
منها ذعاف الموت أبردة	ينجلي بهم وأحره يجري
قوم لو أن الصخر صالدهم	صُلبوا ولان عرامى الصخر ^(٤)

وظلت درة رضي الله عنها تحتفظ بمكانتها، وتوفي النبي صلى الله عليه وسلم وهو عنها راضٍ،

(١) در السحابة (ص ٥٤٣)، والحديث رواه الإمام أحمد بإسناد رجاله ثقات .

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٤٣٢/٦)، وأسد الغابة (٤٥٠/٥)، والإصابة (٢٩١/٤) .

(٣) الإصابة (٢٩١/٤)، والأعلام للزركلي (٣٣٨/٢)، والاستيعاب (٢٩١/٤) .

(٤) انظر: كتاب شاعرات العرب (ص ١٢٠) .

وامتدت بها الحياة إلى سنة (٢٠هـ)، حيث توفيت في خلافة أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضوان الله عليه، بعد أن أثرت تاريخ المرأة بالمواقف العطرة .
 رضي الله عن درة وأرضائها، وجعل الفردوس الأعلى مثواها - وما أجمل -
 ونحن نودع سيرتها العطرة أن نتذكر قول الحبيب المصطفى ﷺ لها : «أنا منك،
 وأنت مني» .



قولة بنت حكيم رضي الله عنها

وهبت نفسها للنبي ﷺ خطبت عائشة لرسول الله ﷺ .

راوية للحديث الشريف ، مؤمنة بنص القرآن لقوله تعالى :

﴿وَأَمْرٌ مِّنْهُ إِنْ وَهَبْتَ نَفْسَكَ لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِنْ دُونِ
الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا
يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٠] .

خولة بنت حكيم رضي الله عنها

المرأة والإسلام :

لقد وضع صبح الإسلام فظهرت المرأة في مشرق نوره فياضة النفس بالإيمان والوجدان ، ملأى اليدين من حق موفور ، وفضل مأثور ، فقد أدلت بدلوها في الفضائل والشمائل ، فكان لها أكبر الأثر في تكوين الرجال ، ونشر العلم ، كما تركت أجمل الأثر وأبقىه في مجال اللسان والسنان .

ونحن أولاء مرسلو القول في سيرة امرأة عظيمة المكانة ، جليلة القدر ، ذات شهرة واسعة في عالم المرأة ، خصها الله ﷻ بنعمة الإسلام ، وسبقت إلى الإيمان ، وأنزل الله فيها قرآنا يتلى في المحاريب إلى قيام الساعة .

هذه المرأة هي خولة بنت حكيم بن أمية السلمية ، امرأة عثمان بن مظعون تكنى «أم شريك»^(١) .

وزوجها عثمان بن مظعون من سادة المهاجرين ، ومن أولياء الله المتقين الذين فازوا بوفاتهم في حياة نبيهم ، فصلى عليهم ، وهو أول من دُفن بالبقيع رضي الله عنه .

أسلمت خولة بنت حكيم مع المجموعة المبكرة من المسلمين ممن صافحت نساء الإسلام أسماهم منذ أن هبت في الأيام الأولى ، فكتبت في قائمة

(١) الطبقات (١٥٨/٨) ، وأسد الغابة (٤٤٤/٥) ، والإصابة (٢٨٣/٤) ، والاستيعاب

(٤/٢٨١) ، وتهذيب التهذيب (٤١٥/١٢) .

السابقات الأول ، وفازت بالرحمة والرضوان .

ومنذ أن عرفت «خولة» الإسلام وذاقت حلاوة الإيمان ، استنارت بصيرتها بنور الحق ، وسعدت بالصحبة النبوية ، فقد كانت تخدم النبي ﷺ ، وترعى بعض شؤونه، فحازت بذلك الفضل والفلاح ، وهذا ما جعل «ابن عبد البر» رحمته الله يقول : كانت امرأة صالحة فاضلة ، كما أخرج الحميدي رحمته الله في مسنده عن عمر بن عبد العزيز قوله : زعمت المرأة الصالحة خولة بنت حكيم امرأة عثمان بن مظعون ^(١) .

وشهادة الصلاح والفلاح شهادة عظيمة ، تضاف إلى رصيد خولة بنت حكيم رحمته الله .

اهتمامها بالنبي ﷺ :

من الأخبار التي تثير الإعجاب بسيرة خولة اهتمامها ببعض أمور النبي ﷺ ، والعمل على إدخال السرور إلى قلبه الشريف رحمته الله ، من خلال اهتمامها بزوجه الطاهرة السيدة خديجة رحمته الله ، فقد كانت خولة ترى في السيدة خديجة رحمته الله كل معاني البر وكل الفضائل .

ولما توفيت خديجة عليها رضوان الله لاحظت خولة حزن النبي ﷺ ، وتأثره الشديد لفقدائها ، عند ذلك سألته وقالت له : يا رسول الله ، كأي أراك قد دخلتك خلّة - حزن وحاجة - لفقد خديجة ؟

فقال رحمته الله : «أجل ، كانت أم العيال ، وربة البيت» .

(١) انظر : الإصابة (٤/ ٢٨٣) .

وكانت خولة رضي الله عنها بصيرة بالنساء ، ورأت النبي صلى الله عليه وسلم وحيداً بعد موت
 زوجه الرؤوم خديجة رضي الله عنها ، فجاءته وقالت له بكل توقير : يا رسول الله ، ألا
 أخطب عليك ؟

قال صلى الله عليه وسلم : «بلى ، فإنكنَّ معشر النساء أرفق بذلك» ^(١) .

فخطبت «سودة بنت زمعة» ، و«عائشة بنت أبي بكر» رضي الله عنها .

ولكن كيف تمت تلك الخطبة ؟

هذا ما سنشهده في السطور التالية :

ذكرت المصادر بسند وثيق دور خولة رضي الله عنها في عرض فكرة الزواج من سودة

وعائشة رضي الله عنها ، تقول الروايات مع الجمع بينهما :

لما توفيت خديجة أم المؤمنين - عليها من الله سبحانه الرحمة والرضوان -

جاءت خولة بنت حكيم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ، ألا تزوج ؟

قال : «من ؟» .

قالت : إن شئت بكراً ، وإن شئت ثيباً .

قال : «فمن البكر؟ ومن الثيب؟» .

فقالت : فأما البكر فعائشة بنت أحب الخلق إليك أبي بكر الصديق ، وأما

الثيب فسودة بنت زمعة قد آمنت بك واتبعتك .

قال : «فاذهبي فاذكريهما علي» .

(١) عن الطبقات لابن سعد (٨ / ٥٧) ، بتصريف يسير جداً .

قالت خولة رضي الله عنها : فدخلت على أم رومان في بيت أبي بكر رضي الله عنه ، فقلت لها : يا أم رومان ، ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة ؟ قالت : ماذا ؟

فقلت : أرسلني رسول الله صلى الله عليه وسلم أخطب عليك عائشة ، هنا فكرت أم رومان لحظات ، وسرت فرحة كبيرة في نفسها ، ثم قالت : انتظري فإن أبا بكر آتٍ .
وجاء أبو بكر رضي الله عنه فذكرت ذلك له فقال : إن المطعم بن عدي قد ذكرها على ابنه ، والله ما أخلف وعدًا قط .

ثم إن أبا بكر أتى مُطعمًا وعنده امرأته فسأله : ما تقول في أمر هذه الجارية ؟
فأقبل الرجل على امرأته ليسألها : ما تقولين ؟

فأقبلت على أبي بكر تقول : لعلنا إن أنكحنا هذا الفتى عليك تصبئه ، وتدخله في دينك الذي أنت عليه ، فلم يجبه أبو بكر ، وسأل المطعم بن عدي : ما تقول أنت ؟ فكان جوابه : إنها تقول ما تسمع ^(١) ، وتحلل أبو بكر رضي الله عنه عند ذلك من وعده ، وصدق في وفائه ، فقال : يا خولة ، قولي لرسول الله صلى الله عليه وسلم فليأت ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فزوجها إياه الصديق رضي الله عنه .

وتتابع خولة حديثها عن مهمتها فتقول :

ثم انطلقتُ فدخلتُ على سودة بنت زمعة فقلت لها : ماذا أدخل الله عليك من الخير والبركة ؟
قالت : وماذا ؟

(١) تاريخ الإسلام للذهبي (١/ ٢٨٠، ٢٨١) ، بتصرف يسير .

قالت : أرسلني رسول الله ﷺ أخطبك إليه .

قالت : وددتُ ادخلي إلى أبي ، فاذكري ذلك له - وكان أبوها شيخًا كبيرًا - فوافق على الخطبة ، وقال : قولي لرسول الله ﷺ فليأت ، قالت خولة : فجاء رسول الله ﷺ فزوجها إياه ^(١) .

مع أمهات المؤمنين رضي الله عنهن :

كانت خولة كثيرة الدخول على نساء النبي ﷺ ، وكن رضي الله عنهن يكرمنها ، ويسألنها عن أحوالها ، ويتفقدن شؤونها ، ومن ذلك ما ورد أنها دخلت عليهن فرأينها سيئة الهيئة فقلن لها : ما لك فما في قريش أغنى من بعلك ؟ قالت : ما لنا من شيء ، أما ليلة ففائم ، وأما نهاره فصائم .

فدخل النبي ﷺ فذكرن ذلك له ، فلقيه فقال : «يا عثمان بن مظعون ، أما لك بي أسوة؟» .

قال : بأبي أنت وأمي وما ذاك ؟

قال : «تصوم النهار ، وتقوم الليل» .

قال : إني لأفعل .

قال : «لا تفعل ، إن لعينيك حقًا ، وإن لجسدك حقًا ، وإن لأهلك حقًا ، فصلّ ونمّ ، وضمّ وأفطر» .

(١) تاريخ الطبري (٢/٢١١) ، ودلائل النبوة للبيهقي (٢/٢١١) ، والبداية والنهاية (٢/١٧٠) ، والإصابة (٤/٣٤٩) ، وأنساب الأشراف (١/٤٠٨) .

قال : فأتتهن بعد ذلك عطرة ، حسنة الهيئة كأنها عروس ^(١) .

ومما يحضرنى في هذا المجال ، ما حدث في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فعن محمد بن معن الغفاري قال : أتت امرأة إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقالت : يا أمير المؤمنين ، إن زوجي يصوم النهار ، ويقوم الليل ، وأنا أكره أن أشكوه - وهو يعمل بطاعة الله عز وجل - فقال لها : نعم الزوج زوجك ، فجعلت تكرر هذا القول ويكرر عليها عمر الجواب .

فقال له كعب بن سوار :

يا أمير المؤمنين ، هذه المرأة تشكو زوجها في مباحثته إياها عن فراشه .

فقال عمر : كما فهمت كلامها فاقض بينها .

فقال كعب : عليّ بزوجها ، فأتي به فقال له : إن امرأتك هذه تشكوك .

فقال : أفى طعام أو شراب ؟ قال كعب : لا ، فقالت المرأة :

يا أيها القاضي الحكيم رشدهُ ألهى خليلي عن فراشي مسجده

زهدهُ في مضجعي تعبده فاقض القضا كعب ولا ترده

نهاره وليله ما يرقدهُ فلست في أمر النساء أحمده

فقال زوجها :

زهدي في النساء وفي الحجل أني امرؤ أذهلني ما قد نزل

في سورة النحل وفي السبع الطول وفي كتاب الله تخويف جلال

فقال كعب :

إن لها عليك حقًا يا رجل تصيبها في أربع لمن عقل

(١) الطبقات (٣/٣٩٥) ، وسير أعلام النبلاء (١/١٥٧ ، ١٥٨) .

فأعطها أحقها اذاك ودع عنك العليل

ثم قال : إن الله ﷻ قد أحل لك من النساء مثنى وثلاث ورباع ، فلك ثلاثة أيام ولياليهن ، تعبد فيهن الله ، فقال عمر : والله ما أدري من أي أمريك أعجب ؟ من فهمك أمرهما أم من حكمك بينهما ، اذهب فقد وليتك قضاء البصرة .

فصاحتها وبلاغتها :

مما يثير الإعجاب بهذه الصحابية : فصاحة لسانها ، وكمال أدبها ، ورقة مشاعرها ، فلما توفي زوجها رثته بأبياتٍ فيها من ذوب القلوب ، ما يجعلها أروع ما قيل في الرثاء ، قالت :

يا عين جودي بدمعٍ غير ممنون على رزية عثمان بن مظعون
على امرئٍ بات في رضوان خالقه طوبى له من فقيد الشخص المدفون
طاب البقيع له سكنى وغرقده وأشرفت أرضه من بعد تفتين
وأورث القلب حزناً لا انقطاع له حتى الممات فما ترقاله شوني

وقد ولدت خولة لعثمان : السائب ، وعبد الرحمن ، وكان لها دور عظيم في بناء صرح الإسلام .

من مناقبها وفضائلها :

جمعت خولة من الفضائل ما جعلها تتبوأ مكانة سامية بين النسوة ، فقد جمعت خدمة النبي ﷺ ورواية الحديث الشريف ، حيث روت عنه ﷺ (١٥) حديثاً ، وروى لها الإمام مسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه ، وروى عنها

سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، وسعيد بن المسيب رضي الله عنه وغيرهما .

وفي مجال الجهاد كان لها نصيب مشكور، فقد خرجت إلى الطائف، وقالت للنبي ﷺ : يا رسول الله ، أعطني إن فتح الله عليك الطائف حلى بادية بنت غيلان ، أو حلي الفارعة بنت عقيل ، وكانتا من أحلى نساء ثقيف .

فقال لها : «لم يؤذن لنا حتى الآن فيهم ، وما أظن أن نفتحها الآن» .

فخرجت خولة فذكرت ذلك لعمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فدخل على النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، ما حديث حدثتني خولة زعمت أنك قلتها ؟ قال ﷺ : «قد قلتها» .

قال عمر : أفلا أؤذن بالرحيل ؟

قال رسول الله ﷺ : «بلى» ، فأذن عمر بالرحيل ^(١) .

المؤمنة الصابرة :

خولة بنت حكيم رضي الله عنها من اللاتي وهبن أنفسهن للنبي ﷺ ، فأرجأها ، ويؤكد هذه المقولة ما روته عائشة رضي الله عنها قالت : التي وهبت نفسها للنبي ﷺ خولة بنت حكيم .

وورد عن الزبير بن العوام رضي الله عنه قال : كنا نتحدث أن خولة بنت حكيم كانت وهبت نفسها للنبي ﷺ ، وكانت امرأة صالحة .

ومما يلفت النظر في هذا المجال ما قاله ابن عباس رضي الله عنه : لم يكن عند النبي

(١) أسد الغابة (٥/٤٤٤ ، ٤٤٥) ، والإصابة (٤/٢٨٤) ، والمغازي (٣/٩٣٥) ، ودلائل النبوة

للبیهقي (٥/١٦٨ - ١٧٠) ، والسيرة النبوية (٢/٤٨٤) .

ﷺ امرأة وهبت نفسها له ^(١)، أي أنه لم يقبل واحدة منهن وهبت نفسها له، وإن كان ذلك مباحاً له ومخصوصاً به؛ لأنه مردود إلى مشيئته ﷺ، كما قال الله ﷻ: ﴿إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا﴾ [الأحزاب: ٥٠]، أي: إن اختار ذلك.

وهنا يكفي خولة بنت حكيم - أم شريك - أنها صحابية كريمة ازدادت عن الدنيا بُعداً، فازدادت من الآخرة قرباً، فحظيت برضوان الله ﷻ، وكانت في مقدمة الخالدات الصالحات، ومن نساء الإسلام اللاتي كن قدوة في الفضائل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فرضي الله عنها وأجزل لها المثوبة والعتاء، وجعل جنة الفردوس مأواها يوم يقوم الأشهاد.



(١) انظر: تفسير القرطبي وابن كثير للآيتين (٥٠، ٥١) من سورة الأحزاب، وتفسير الخازن والبغوي (٢٧٠/٥)، والبداية والنهاية (٢٥٩/٥).

أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان رضي الله عنها

أخت عمر بن عبد العزيز بن مروان .

عابدة ، تالية للقرآن الكريم ، فقيهة ، سخية .

لها رأي نافذ وحكمة بالغة .

أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان رضي الله عنها

العصر الذهبي :

امرأة كانت في الذروة والسنام من الإعزاز والإكرام ، ترفع أعلام العزة بين آله وذويها من الخلفاء والأمراء، وحُقَّ لها ذلك ، فهي أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان القرشية ، أخت عمر بن عبد العزيز ، وزوج الخليفة الوليد ابن عبد الملك وابنة عمه ، وولدت له عبد العزيز ومحمدًا وعائشة .

وأجمع كل من ترجم سيرة أم البنين بنت عبد العزيز أنها إحدى فضليات النساء في عصرها ، فهي ممن صرفن أوقاتهن في اقتناص العلم والفقهِ ، وانصرفن إلى عبادة الله ﷻ ، قد تلقت العلم عن أكابر العلماء أجلة التابعين .

جوانب مُضيئة من حياتها :

كانت أم البنين - رحمها الله تعالى - على جانب عظيم من التفقه في أمور الدين ، كما كانت من العابدات القانتات الموصوفات في صدر الإسلام ، فكانت كثيرة الصلاة والاستغراق في مناجاة الله ﷻ ، حتى إنها تكاد تنسى مَنْ حولها فقد أثار عنها أنها كانت تبعثُ إلى نساءها وأهلها ، فيجتمعن ويتحدثن عندها ، ثم تعمد إلى الصلاة فتقف طويلاً بين يدي الله ﷻ ، وبعد أن تصلي ما شاء الله أن تصلي تنصرف إليهن ، وتقول : أحبُّ حديثكن ، ولكنني إذا قمتُ في صلاتي لَهَوْتُ عنكن ونسيْتُكن .

وكانت - رحمها الله - دائمة الذكر لله - سبحانه - موصولة القلب بكتابه

الكريم تتعاهد القرآن صباح مساء ، فلا تكاد تُرى إلا وهي تالية للقرآن الكريم خاضعة لذكر الرحمن ، ومن الإنصاف أن نشير أن زوجها الوليد بن عبد الملك - الذي أنشأ جامع بني أمية - كان يختم القرآن الكريم في كل ثلاث مرة ، وختم في رمضان سبع عشرة ختمة^(١) ، فكانت زوجه أم البنين تُسابقه في هذه الفضيلة الكريمة الجليلة .

أما خشيتها لله ﷻ فكانت شيئاً آخر يختلف عما كانت عليه عامة النساء ، فإذا ما ذكر الله ﷻ استشعرت خشيته ومهابته في قلبها ، ورأت بنور بصيرتها أن السُّعداء هم الذين يخافون الله ، ومن أقوالها في هذا : ما تحلى المتحلون بشيء أحسن عليهم من عظيم مهابة الله ﷻ في صدورهم .

وكانت تتقرب لله ﷻ بكل ما يُرضيه ويقربها إليه ، ومن صور حياتها المضيئة ما ذكره أبو الفرج بن الجوزي رحمته الله أنها كانت تعتق في كل جمعة رقبة ، وتحمل على فرس في سبيل الله ﷻ .

وبلغت هذه السيدة الفاضلة مكاناً علياً في مجال الورع والخوف من الله سبحانه وتعالى ، فلا تكاد امرأة تصل إلى درجتها في ذلك ؛ إذ كانت تتحرى أموراً بدقة ، فلا تكاد تقبل عَرَضاً أو ما لا جاء إلا من وجه شرعي وترفض كل «هدية» جاءت من أي مصدر غير مشروع ، ففي كتاب «تاريخ الأمم والملوك» هذا الكتاب النفيس - ذكر الطبري قصة تشير إلى شدة ورعها فقال : حج الوليد بن عبد الملك ، وحج محمد بن يوسف من اليمن ، وحمل هدايا

للوليد فقالت «أم البنين» للوليد زوجها : يا أمير المؤمنين ، اجعل لي هدية محمد بن يوسف ، فأمر بصرفها إليها ، فجاءت رسل أم البنين إلى محمد ابن يوسف فيها فأبى وقال :

ينظر فيها أمير المؤمنين فيرى رأيه - وكانت هدايا كثيرة - فقالت : يا أمير المؤمنين ، إنك أمرت بهدايا محمد بن يوسف أن تُصرف إليّ ولا حاجة لي بها .
قال : ولم ؟

قالت : بلغني أنه غصبتها من الناس ، وكلفهم عملها وظلمهم ، وحمل محمد ابن يوسف المتاع إلى الوليد .

فقال له الوليد : بلغني أنك أصبتها غصبًا .
قال : معاذ الله .

فأمر الوليد فاستُحلف بين الركن والمقام خمسين يمينا بالله ما غصب شيئًا منها ، ولا ظلم أحدًا ، ولا أصابها إلا من طيب ، فحلف فقبلها الوليد ، ودفعها إلى أم البنين ، فمات محمد بن يوسف باليمن أصابه داءٌ تقطع منه ^(١) .

جود أم البنين وسخاؤها :

قيل لأم البنين - رحمها الله : ما أحسن شيء رأيت ؟ قالت : نعمُ الله مُقبلة عليّ .

ومما يسرُّ النفوس في سيرة أم البنين ، ذلك الكرم الذي فطرت عليه ، ولها

مع الجود والكرم أخبار تدلُّ على نبل شخصيتها، وحُسنِ طباعها، وكمال أدبها، واعترافها بنعم الله ﷻ، وشكرها لله على إنعامه عليها.

وقد ورثت كرمها عن أبيها عبد العزيز بن مروان الذي كان شديد الكرم، وكان يذم البخل والبخلاء، ومن أقواله في هذا المجال: لو لم يدخل على البُخلاء في بخلهم إلا سوء ظنهم بالله ﷻ لكان عظيمًا.

وكانت لأم البنين في قلوب الناس محبة عظيمة لمآثرها، وكريم أفعالها، واصطناعها المعروف معهم، فكانت ترى أن الإنفاق والجود مدعاة إلى زيادة الرزق.

ومن عيون أخبار أم البنين مع الكرم: أنها كانت تدعو النساء إلى بيتها، وتكسوهن الثياب الحسنة، وتعطينهن الدنانير وتقول: الكسوة لکن، والدنانير أقسمنها بين فقرائكن - تريد بذلك أن تعلمهن وتعودهن على البذل والجود.

ولأم البنين أقوال مشهورة في الجود والكرم، تدل على حبها الشديد له واصطناعه، ومن أبدع ما قالته في هذا المجال ما ذكره راويتها إبراهيم بن أبي عبلة قال: سمعت أم البنين أخت عمر بن عبد العزيز تقول: أفٌ للبخل والله لو كان ثوبًا ما لبسته، ولو كان طريقًا ما سلكته (١).

وكانت تقول أيضًا:

البخل كل البخل من بخل على نفسه بالجنة (٢).

(١) تاريخ دمشق (ص ٤٨١)، وبهجة المجالس (١/٦٢٧).

(٢) المحاسن والمساوئ للبيهقي (ص ١٨٦).

فقد كانت - رحمها الله - ترى أن السخاء يؤدي إلى الجنة مع صالح الأعمال .
ويبدو أن أم البنين قد أحبت بذل المال ، وإنفاقه في طرقٍ مشروعة لتشعر
بنعمة الله عليها ، ولم تكن الدراهم والدنانير تعرف إلى بيتها سبيلاً ، فسرعان
ما تنفقها ، والله در الشاعر فكأنه عنها بقوله :

وإني امرؤ لا تستقر دراهمي على الكف إلا عابرات سبيل
ولشدة حرصها على الإنفاق ووضع المال في مواضعه واصطناع آيات
المعروف كانت رحمها الله تقول : ما حسدت أحداً قط على شيءٍ إلا أن يكون ذا
معروف ، فإني كنتُ أحب أن أشركه في ذلك .

ومن روائع أقوالها الناصعة في هذا :

وهل ينال الخيرُ إلا باصطناعه ؟

فمن جملة اصطناعها للمعروف ، والإعانة عليه ما ورد أن الثريا بنت علي
ابن عبد الله ، لما مات زوجها سهيل بن عبد الرحمن عنها - أو طلقها - خرجت
إلى الوليد بن عبد الملك وهو خليفة بدمشق في دَيْنٍ كان عليها ، فبينما هي عند
زوجها «أم البنين بنت عبد العزيز» إذ دخل عليها الوليد فقال : من هذه عندك ؟
قالت «أم البنين» : الثريا بنت علي جاءني أطلب إليك في قضاء دين عليها
وحوائج لها ، فقضيت حوائجها وانصرفت شاكرة لأم البنين وزوجها الوليد
ابن عبد الملك .

مكانتها الرفيعة :

عُرِفَت «أم البنين» رحمها الله بأنها ذات رأي نافذ ، وأدب وافر ، وخصال

محمودة؛ ولذا فقد كان عمها الخليفة عبد الملك بن مروان يحفظ مكانها ، ويجلبها ويكرمها ، ويعرف لها جاهها ويقضي لها حوائجها فهي ابنة أخيه وزوج ابنة الوليد ولي عهده .

وكانت أم البنين - رحمها الله - هي السبب في حقن دم عبيد الله بن قيس الرقيات - شاعر قريش في العصر الأموي - من سطوة عبد الملك ذكروا أن عبيد الله بن قيس الرقيات كان منقطعاً إلى مصعب بن الزبير يمدحه ، فلما قُتل مصعب طلبه الخليفة فالتجأ عبيد الله إلى عبد الله بن جعفر الطيار رضي الله عنه ، لعله يشفع له عند عبد الملك بن مروان، وهنا أخبره عبد الله بن جعفر بحقيقة أمره فقال له : ويحك ما أجدهم في طلبك ، وأحرصهم على الظفر بك ، ولكنني أكتبُ إلى أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان وعبد الملك أرق شيء عليها .

فكتب عبد الله بن جعفر إليها يسألها التشفع إلى عمها عبد الملك لعبيد الله ابن قيس الرقيات .

فلما وصلها الكتاب دخلت على عمها ، وألقت السلام فسألها كعادته : هل من حاجة ؟

قالت : نعم يا عمها لي حاجة .

فقال : قد قضيتُ كل حاجة لك إلا ابن قيس الرقيات .

فقالت : لا تستثنين علي يا أمير المؤمنين .

فنفخ بيده فأصاب حرّاً وجهها - ما بدا من الوجنة - فوضعت يدها على خدها - وتأثرت أشد التأثر ، وأطرقت برأسها إلى الأرض ، فقال عبد الملك لها :

ارفعني يدك يا أم البنين ، قد قضيت كل حاجة لك وإن كانت ابن قيس الرقيات .

فوضعت يدها على خدها وقالت : حاجتي - يا أمير المؤمنين - أن تؤمنه فقد كتب إليّ يسألني أن أسألك ذلك .
قال : هو آمن .

وحظي عبيد الله بن قيس الرقيات بالأمان من عبد الملك ، وشكر لأم البنين وساطتها وصنيعها ، فقد أنقذته من موت محقق ، وأبدل من بعد الخوف بأمن وطمأنينة ، وامتدح بعدئذ عبد الملك بقصيدة مشهورة ^(١) .

- أم البنين والحجاج :

- في حياة هذه المرأة جوانب مضيئة وخلال حميدة ترقى بها إلى درجة الأوائل من النساء في المآثر الحسنة، فقد كانت - بالإضافة إلى ما مرّ معنا - تمتلك ناصية البيان وتقرع بالحجة القوية خصومها وأوتيت فوق هذا وذاك قلبا ثابتا وعزيمة قوية إذ اشتهرت بمواقف مضيئة من هذا القبيل مع الحجاج بن يوسف الثقفي الذي أجمته بجرأتها وفصاحتها ، وإقامة الحجة عليه بالمنطق ، وقد ساقّت المصادر المتنوعة موقف «أم البنين» هذا، وشهدت لها بالفضل ومضاء القلب ، وشفاء النفوس .

تقول المصادر :

قدم الحجاج بن يوسف الثقفي على الوليد بن عبد الملك ، فأذن له بالدخول

(١) انظر : الفرج بعد الشدة للتونخي (٤/ ٢٨٢ - ٢٨٥) ، باختصار .

فدخل وعليه عمامة سوداء ، وقوس عربية ، وكنانة ، فبعثت إليه «أم البنين» فقالت : من هذا الأعرابي المستلثم - المتسلح - في السلاح عندك وأنت في غلالة غرر .

فأرسل إليها أنه الحجاج بن يوسف الثقفي .

فراعها ذلك ، أوجست خيفة في نفسها، وقالت :

والله لأن يخلو بك ملك الموت أحب إليّ من أن يخلو بك الحجاج بن يوسف ، وقد قتل الخلق وأهل الطاعة ظلماً وعدواناً .

فعرف الحجاج رأي أم البنين فقال للوليد :

يا أمير المؤمنين، دع عنك مفاكهة النساء بزُخرف القول، فإنما المرأة ربحانة وليست بقهرمانة، لا تطلعهن على أمرك، ولا تطمعهن في شرك، ولا تستعملهن بأكثر من زينتهن ، وإياك ومشاورتهن ، فأما رأيهن فإلى أفن وعزمهن إلى وهن، ولا تملك الواحدة منهن من الأمور ما يجاوز نفسها ، ولا تطمعها أن تشفع عندك لغيرها ، ولا تطل الجلوس معهن فإن ذلك أوفر لعقلك وأبين لفضلك ، ثم نهض الحجاج وخرج من عند الوليد .

فدخل الوليد على أم البنين ، فأخبرها بمقالة الحجاج ورأيه فقالت : يا أمير المؤمنين ، أحبُّ أن يأمره أمير المؤمنين بالتسليم عليّ غدًا ، قال : أفعل .

فغدا الحجاج على الوليد فقال : ائت أم البنين ، فسلم عليها .

فقال : أعفني من ذلك يا أمير المؤمنين .

فقال الوليد : لتفعلنّ فلا بد من ذلك .

وسُقط في يد الحجاج فهو يعلم رأيها فيه ، وفي محمد بن يوسف من قبل واللقاء معها لا يبشُر بخير ، ولكن ليس في الأمر حيلة ، ولا مخرج له من هذا الموقف المحرج .

فمضى إليها، وأتى مكانها فحجبتة طويلاً، ثم أذنت له، وتركته قائماً ، ولم تأذن له في الجلوس ، ثم قالت له : أنت الممتن على أمير المؤمنين بقتل ابن الزبير وابن الأشعث ؟

ثم ذكرت له قتل عبد الله بن الزبير وعددت له فظائعه ، وأنكرت عليه قوله بالأمس - في النساء - مع زوجها وذكرت له قبح منظره وسوء خلقه، ثم قالت تعرض به :

قاتل الله الذي يقول وسنان غزالة الحرورية ، هي امرأة شبيب بن يزيد الشيباني ، قائد الخوارج وبطلهم ، ولدت بالموصل وهي من شهيرات النساء في الشجاعة والفروسية ، وكانت من القادة الذين دوخوا البلاد وروعوا الجيوش ، وملئوا القلوب أثراً والأفواه خبراً ، والأرض عبراً ، خرجت مع زوجها على عبد الملك بن مروان سنة (٨٦هـ) ، أيام ولاية الحجاج على العراق فكانت تقاتل في الحروب قتال الأبطال الأشداء .

ومن أخبارها أنها تعرضت للحجاج بن يوسف في إحدى الوقائع ، فاختلط عليه الأمر وخلع الفرعُ قلبه ، فولى هارباً ودخل الكوفة ، فعيّره عمران بن حطان بذلك في القصيدة المشهورة :

أسدٌ عليّ وفي الحروب نعامة ربداءٌ تنفرُ من صفير الصافر

هلا برزت إلى غزالة في الوغى أم كان قلبك في جناحي طائر
صدعت غزالة قلبه بفوارس تركت منابره كأمس الدابر

ثم أمرت جارية لها ، فأخرجته مقبوحًا مدحورًا ، فلما دخل على الوليد سأله فقال : ما كنت فيه يا أبا محمد ؟ قال : والله يا أمير المؤمنين ، ما سكتت حتى كان بطن الأرض أحب إليّ من ظهرها ، فضحك الوليد حتى فحص برجله وقال : يا حجاج ، إنها ابنة عبد العزيز بن مروان .

وبعد فهذه «أم البنين بنت عبد العزيز» إحدى النسوة الفاضلات في عصور الإسلام الزاهية ، ذات الأثر المحمود ، والفضل المشهود ، والعقل المنير .
فرحم الله أم البنين التي بنت قصورًا من المحامد ، وغفر لها ، وأجزل مثوبتها في الخالدين ، وأدخلها بكرمه وعفوه في جنات النعيم .



سلمى بنت عميس رضي عنها

هي زوج حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ .

وقد ولدت لحمزة ابنته عمارة بنت حمزة .

قال رسول الله ﷺ في سلمى وأخواتها : «الأخوات مؤمنات» .

سلمى بنت عميس رضي الله عنها

الخيرَةُ والأخيار :

في رحلتنا السعيدة بين الأخيار ، ومع عالم الصحابيات نلتقي امرأة ذات صلة وقرابة ومكانة لدى رسول الله ﷺ ، امرأة صادف الإيمان قلبها خاليًا ، فتمكن منه ، وأصبح إيمانها إيمانًا لا مثار فيه للريب أو الشُّبهات ، وكانت مع أخواتها ممن وجدن الله ﷻ ملء سمعهن وبصرهن ، فلا يشعرون إلا به ، ولا يعملن إلا له ، ولا يقدمن على ما عساه أن يغضبه أو يستنزل سخطه .

لهذه السمات الوضيئة حظين بشهادة مختومة برحيق الإيمان ، موقعة من رسول الله ﷺ ، بعنوان : «الأخوات مؤمنات» ^(١) .

والأخوات المؤمنات هن : ميمونة بنت الحارث زوج النبي ﷺ ، وأم الفضل بنت الحارث امرأة العباس بن عبد المطلب ، وأسما بنت عميس امرأة جعفر بن أبي طالب ، وسلمى بنت عميس بن معد الخثعمية ^(٢) ، التي سنصحب سيرتها في هذه الصفحات رضي الله عنها .

سلمى وأحداث مكية :

تربط سلمى برسول الله ﷺ صلة قرابة وثيقة ، فهي زوج عمه وأخيه من الرضاعة «حمزة بن عبد المطلب» رضي الله عنه ، وقد ولدت سلمى لحمزة ابنته عمارة

(١) الاستيعاب (٤/ ٣٢٠) ، ودر السحابة (ص ٥٤٥) .

(٢) الطبقات (٨/ ٢٨٥) ، والاستيعاب (٤/ ٣١٩) ، وأسد الغابة (٥/ ٥٧٩) .

بنت حمزة .

وفي مكة شهدت سلمى أحداث الدعوة الإسلامية وتطوراتها ، فشاهدت ما لقيه المسلمون من الأذى في سبيل الله ﷻ ، وشهدت هجرة أختها أسماء بنت عميس ، وزوجها جعفر بن أبي طالب إلى أرض الحبشة مع ثلة من المؤمنين . غير أن حادثة ضجت لها قريش ، ولم تكن هذه الحادثة سوى إسلام حمزة بن عبد المطلب زوجها ﷺ .

إسلام حمزة بن عبد المطلب :

لقد خرج يوماً من داره متوشحاً قوسه وسيفه ، ميمماً وجهه شطر الصحراء ليبارس هوايته المحببة ، ورياضته المفضلة ، وهي الصيد والقنص ، وكان صاحب مهارة فائقة ، فلما قضى هناك بعض يوم ، رجع إلى مكة ميمماً وجهه شطر المسجد الحرام ، ليطوف بالكعبة المشرفة قبل أن يعود إلى بيته ، وفي الطريق إلى الكعبة لقيته جارية لعبد الله بن جدعان ، وكانت تُخفي إسلامها ، فقالت له : يا أبا عمارة ، أترك أبا جهل يفعل بابن أخيك محمد ﷺ كذا وكذا ، وإذا بشهامة ومروءة حمزة بن عبد المطلب ﷺ تحركه ، وهو ما يزال على الكفر ، فيذهب إلى أبي جهل ويضربه بالقوس على رأسه ، ويقول : أتسب محمداً وأنا على دينه ؟ فشج رأس أبي جهل بقوسه ، وأدماه ، وقبل أن يفيق الجالسون من الدهشة صاح حمزة في أبي جهل : أتشتم محمداً وأنا على دينه ؟ ونسي الجالسون الإهانة التي نزلت بزعيمهم الذي ينزف الدم من رأسه ، وشغلتهم تلك الكلمة التي حاقت بهم كالصاعقة ، فقالوا : أسلم حمزة أعز فتیان قريش وأقواهم شكيمة ؟ وتوجه حمزة أسد الله في برائه إلى دار الأرقم ليلقى فيها

محمدًا وصحبه ، ليعلن إسلامه ، وينطق بكلمة التوحيد مدوية في أرجاء مكة ،
ففرح النبي ﷺ وأصحابه ، ويتحول حمزة بن عبد المطلب ﷺ بيوم شهامة من
أسد الصحراء إلى أسد الله ، ثم سيد الشهداء .

يقول ابن إسحاق رضي الله عنه :

لما أسلم حمزة عرفت قريش أن رسول الله ﷺ قد عزّ وامتنع ، وأن حمزة
سيمنعه ، فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه ^(١) ، وفي هذا يقول حمزة رضي الله عنه :

حمدت الله حين هدى فؤادي	إلى الإسلام والدين الحنيف
لدين جاء من رب عزيز	خير بالعباد بهم لطيف
فلا والله نسلّمه لقوم	ولما نقض فيهم بالسُيوف
ونترك منهم قتلى بقاع	عليها الطير كالورد العكوف ^(٢)

الصابرة المحتسبة :

بدأت كتائب المهاجرين تنطلق نحو المدينة المنورة ، وكانت سلمى وحمزة
رضي الله عنهما فيمن هاجر إلى الله ورسوله ﷺ ، واستقرا في المدينة ، وآخى النبي ﷺ بينه
وبين زيد بن حارثة رضي الله عنه ، ولقد بلغت المؤاخاة الكريمة بينهما مبلغًا عظيمًا ،
فهي محبة خالصة لوجه الله تعالى لا تشوبها أي شائبة ، من طلب حُطام الدنيا
وزهرتها الفانية .

وجاءت غزوة بدر ، وما أدراك ما يوم بدر ؟ يوم بدر هو الفرقان الأعظم ،
يوم التقى الجمعان : جمع المسلمين الموحدين في إيمانهم الراسخ ، وقوة إيمانهم ،

(١) ذكره الهيثمي في المجمع (٩/٢٦٧) ، وقال : رواه الطبراني مرسلًا ، ورجاله رجال الصحيح .

(٢) عن الروض الأنف للسهيلى (٢/٥٠) .

ويقينهم ، وجمع الكفرة في غرورهم المهزول الضئيل ، وكفرهم الغشوم الهزيل .

يوم بدر هو يوم الفيصل بين حياة وحياة .

يوم علت فيه كلمة الله ، وهي العُليا منذ الأزل .

يوم بدر يوم فتح الله به للحق وأهله أبواب الكرامة والعزة ، فكرم الحق على

أهله ، وعز وكرموا به ، وعزوا لما فيه من نصر وظفر .

يوم بدر يوم فتح الله به للباطل وأهله سرايب الهاوية ، فاندحر واندحروا ،

وارتفع الحق شامخاً تسامى إلى الآفاق مضيئاً مشرقاً متلألئاً ، واندحر الباطل

منكوساً يهوي إلى وادي الفناء ذليلاً محسوراً .

وفي يوم بدر أبلى حمزة في قتال المشركين أشد البلاء وأعظمه ، فكان ثقیل

الوطأة على المشركين شديد النكاية بهم ، فما إن التقى الجمعان في ذلك اليوم

الأغر ، حتى برز حمزة كالجمل الأورق ، وقد وضع على صدره علامة تُميِّزه من

غيره ، وتدل عليه من أراد أن يقصده .

وكانت علامته ريشة نعامةٍ حمراء أثبتها على صدره .

وهنا خرج من بين صفوف المشركين الأسود بن عبد الأسد المخزومي ،

وكان رجلاً شرساً سيء الخلق ، فقال : أعاهد اللات والعزى لأشربن من

حوض المسلمين أو لأهدمنه ، أو لأموتن دونه .

فبرز له حمزة رضوان الله عليه ، وضربه ضربة أطارت ساقه فوق على ظهر

الأرض والدماء تشخب منه .

ثم جعل يجبو نحو الحوض ليرب بيمينه ، فأجهز عليه حمزة قبل أن ينال مبتغاهُ .

ثم خرج من بعده عتبةُ بن ربيعة ، ومعه أخوه شيبة والوليد بن عتبة ، فلما فصلوا عن الصف دعوا إلى المبارزة .

فأسرع إليهم في لمحة الطرف ثلاثة فتية من الأنصار ، كأعواد الرماح فقال لهم عتبةُ : من أنتم ؟

فقالوا : جماعة من الأنصار .

فقال : ارجعوا ما لنا بكم حاجة .

ثم نادوا : يا محمد ، أخرج لنا الأكفاء من بني قومنا .

فقال رسول الله ﷺ : «قم يا عبيدة بن الحارث ، وقم يا حمزة بن عبد المطلب ، وقم يا علي بن أبي طالب» .

فقال عتبة : الآن ، نعم أكفاء كرام .

فقام علي إلى الوليد بن عتبة ، وكانا شابين متشابهين ، فقتله ، ثم قام حمزة بن عبد المطلب إلى شيبة بن ربيعة ، وكانا متقاربين سنًّا فقتله .

وقام عبيدة بن الحارث إلى عتبة بن ربيعة ، وكانا شيخين فقتله ، وما إن قتل أبطال قريش الثلاثة في لحظات معدودات ، حتى حمي وطيس المعركة ، وأبلى حمزة بلاء ملاً قلوب المشركين حقداً عليه وكيداً منه ^(١) .

(١) صفة الصفوة (١/ ٣٧٠) ، وأسد الغابة (٢/ ٥١) ، وسير أعلام النبلاء (١/ ١٧١) .

ولما كانت غزوة أحد شهدها حمزة وهو صائم ، وكان يقاتل يومذاك بين يدي النبي ﷺ بسيفين ويقول : أنا أسد الله ، ولكن يد الغدر نالتة على يد وحشي فسقط شهيداً ، ولسان حاله يقول : ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴾

[طه: ٨٤] .

ودفن عند أحد في موضعه ، وحزن عليه رسول الله ﷺ حزناً شديداً ، فقد نظر عليه الصلاة والسلام إلى مشهد لم ير أوجع منه فقال : « رحمك الله يا عماء ، لقد كنت وصولاً للرحم ، فعولاً للخيرات ، أما والله لأمثلن بسبعين منهم إن ظفرت بهم » .

فنزل جبريل عليه قبل أن يبرح مكانه بقوله ﷺ :

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾

[النحل: ١٢٦] .

فكفر رسول الله ﷺ عن يمينه ، وأمسك عن ذلك ، وأمر الرسول ﷺ بالشهداء فدفنوا جماعات جماعات وقال :

« انظروا أكثر هؤلاء جمعاً للقرآن فاجعلوه أمام أصحابه » .

أما زوجه سلمى فقد كانت من أشد الناس عليه حزناً ، وصبرت صبراً جميلاً ، واحتسبته عند الله سبحانه وتعالى .

وبعد انقضاء عدتها تزوجها الصحابي شداد بن الهاد الليثي ، فولدت له عبد الله بن شداد ، وكان ابنها فقيهاً محدثاً ، وهو أخو ابنة حمزة لأمها ، وهو ابن خالة ولد العباس بن عبد المطلب لأم الفضل ، وهو ابن خالة خالد بن الوليد ، وكذلك ابن خالة محمد بن أبي بكر ، وابن خالة أولاد جعفر بن أبي طالب

رضي الله عنهم جميعاً^(١) .

سلمى وابنتها عمارة :

لما اعتمر رسول الله ﷺ عمرة القضاء في ذي القعدة من السنة السابعة للهجرة ، وخرج من مكة تبعتهم عمارة بنت حمزة فنادت : يا عم ، فتناولها عليّ ﷺ ، وقال لفاطمة الزهراء رضوان الله عليها : دونك ، فحملتها ، فاختصم فيها علي ، وزيد بن حارثة ، وجعفر بن أبي طالب ﷺ ، فقال علي : أنا أخذتها وهي ابنة عمي .

وقال جعفر : ابنة عمي وخالتها تحتي - يعني أسماء بنت عميس - وقال زيد : ابنة أخي ، كان ﷺ أخى بين حمزة وزيد حين أخى بين المهاجرين والأنصار ، ففضى بها رسول الله ﷺ لخالتها ، وقال ﷺ : «الخالة بمنزلة الأم»^(٢) .

وفي المدينة طففت عمارة تسأل عن قبر أبيها أسد الله حمزة ، فلما بلغ ذلك حسان بن ثابت ؓ قال :

تسأل عن قرم هجان سميدع لدى الناس مغوار الصباح جسور
فقلت لها إن الشهادة راحة ورضوان رب يا إمام غفور
دعاه إله الخلق ذو العرش دعوة إلى جنّة فيها رضاء وسرور^(٣)

وعاشت عمارة في كنف خالتها أسماء بنت عميس ؓ ، وفي شأن عمارة

(١) الطبقات (٨/ ٢٨٦) ، والمعارف لابن قتيبة (ص ٢٨٢) ، والإصابة (٣/ ٦٠) .

(٢) دلائل النبوة للبيهقي (٤/ ٣٣٧ ، ٣٣٨) ، وتاريخ الإسلام للذهبي (٢/ ٤٦٦ ، ٤٦٧) .

(٣) الإصابة (٤/ ٢٢٩) ، والمغازي (٢/ ٧٣٨ ، ٧٣٩) .

هذه قيل للنبي ﷺ: تزوجها، فقال النبي ﷺ: «هي ابنة أخي من الرضاعة». فزوجها رسول الله ﷺ سلمة بن أبي سلمة، وقال حين زوجها منه: «هل جزيت سلمة؟»، وكان سلمة هو الذي زوج أم سلمة أمه من رسول الله ﷺ (١).

وفي هذه الحادثة إكرام رسول الله ﷺ سلمى بنت عميس زوج عمه، ولابتها عمارة، ووفاء لسلمة بن أبي سلمة رضي الله عنهم جميعاً.

تلك شذرات عبقة من حياة الصحابية الصابرة سلمى بنت عميس التي سكت التاريخ فلم يحدثنا عن وفاتها، ولكنه ظل يذكرنا دائماً بالأخوات المؤمنات على مر العصور والأوقات، رضي الله عنهن وعن صحابيات رسول الله ﷺ.

فرضي الله عن سلمى، وأحسن مثوبتها في الدارين، فقد صبرت صبراً جميلاً ابتغاء مرضاة الله ﷻ، فرضي الله عنها وأرضاها، فقد كانت بحق امرأة معطاءة ضربت أفضل الأمثلة في الصبر والوفاء.



(١) الطبقات (٨/١٦٠)، والمغازي (٢/٧٣٩)، ودلائل النبوة للبيهقي (٤/٣٤٠)، والإصابة (٤/٢٣٠)، والسيرة الحلبية (٢/٧٨٢) بتصرف.

ريحانة بنت زيد رضي الله عنها

كانت ذات مكانة في قومها ، عُرِفَتْ بِكَمالِ عقلها وسلامة رأيها .
دخلت البيت النبوي سنة ست من الهجرة ، فاتخذها النبي ﷺ سُرية له .
قال النبي لريحانة : «إن اخترت الله ورسوله اختارك رسول الله لنفسه» .
فقالَتْ : إني أختار الله ورسوله .

كان شعارها قول الله عز وجل : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ .
توفيت بعد رجوع النبي ﷺ من حجة الوداع ، ودفنت بالبقيع في المدينة .

ريحانة بنت زيد رضي الله عنها

في الرحاب النبوية :

هزم الله الأحزاب وحده بعد حصار شديد، وبعد أن زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر، وظن المسلمون بالله الظنون، وأفشل الله خطط المشركين، وانهارت آمال الأحزاب وأشياهم في استئصال المسلمين، ورجع الرسول الكريم ﷺ من الخندق بعد حصار شديد دام قرابة الشهر: ﴿ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ [الأحزاب: ١١].

بلغ رسول الله ﷺ المدينة المنورة وقت الظهر فصلاها والصحابة الكرام وفرسانه الأخيار، ثم دخل بيت عائشة رضي الله عنها، ودعا بباء فاغتسل، وقد وضع السلاح فإذا جبريل عليه السلام يقول له: «أو قد وضعت السلاح يا رسول الله؟». قال: «نعم».

قال جبريل: «ما وضعت السلاح».

كيف يضع جبريل السلاح، وهناك بنو قريظة قد خانوا الله ورسوله، ونقضوا العهد أثناء المعركة، ولولا فضل الله ﷻ ورحمته لقضي على الإسلام والمسلمين، ثم إن جبريل عليه السلام قال: «إن الله يأمرك يا محمد بالمشير إلى بني قريظة، فإنني عامد إليهم فمززل بهم الحصون».

وأمر بلائاً أن يؤذن في الناس: «من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة»، أراد الرسول الكريم ﷺ بهذا الأمر أن يحث على الإسراع

للمسير إلى يهود بني قريظة .

وأسرع المسلمون ملين الأمر النبوي حتى حاصروا بني قريظة ، ومرت الأيام ويهود بني قريظة في الحصون ، واستمر المسلمون في حصار القرظيين الذين ألقى الله في قلوبهم الرعب ، وقد ملأت جريمتهم نفوسهم الخبيثة ، لأنهم خانوا رسول الله ﷺ والذين معه ، وظاهروا عليهم الأحزاب والمشركين وفتات المتشرذمين من الأعراب .

لم يبق لبني قريظة أمام حصار المسلمين لهم إلا أن يشهدوا شهادة الإسلام ويؤمنوا بالرسالة المحمدية أو يموتوا جوعاً أو كمدًا .

أحب بنو قريظة أن ينزلوا على حكم حليفهم سعد بن معاذ الأشهلي ، وكان سعد قد أصيب يوم الخندق بسهم ، فقال ﷺ : « اجعلوه في خيمة رفيده حتى أعوده من قُرب » .

وجاء الوقت الذي حدد للاستماع إلى حكم سعد بن معاذ، ذلك الرجل الذي لا تأخذه في الله لومة لائم ، وأخذ العهد على بني قريظة أن الحُكم ما حكم به ، فأجابوه : « نعم » .

فقال سعد : « فإني أحكم فيهم بأن تقتل الرجال ، وتغنم الأموال ، وتُسبى الذراري والنساء ، وتكون الديار للمهاجرين دون الأنصار » .

فقال رسول الله ﷺ لسعد : « لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات » .

وأمر النبي ﷺ أن يُجمع ما وُجد في حصونهم من السلاح وغير ذلك، ثم

عاد إلى المدينة ومعه أسرى بني قريظة والأغلال في أعناقهم والسلاسل تكبل أقدامهم ، وقد نكسوا رؤوسهم خزيًا، وحبس الأسارى في دار أسامة بن زيد، ووضع النساء والذرية في دار بنت الحارث .

نفذ الحكم ببني قريظة وقُضي الأمر ، ثم أمر رسول الله ﷺ بالغنائم فجمعت، وكان نصيبه امرأة دخلت البيت النبوي لتكون واحدة من النساء اللواتي دخلن التاريخ وصاغتهن عناية البيت النبوي فكنَّ القدوة في الفضيلة وفي كل مكرمة .

ريحانة بنت زيد بن عمرو^(١) ، من بني قريظة هي التي حظيت بدخول البيت الميمون ، فانتظمت في عداه ، ولكن كيف تخلت عن دينها ، وانضوت تحت نور دعوة الإسلام ؟

هذا ما ستجלוه لنا الصفحات التالية بإذن الله ﷻ .

بشارة النبي ﷺ بإسلام ريحانة :

ذكر البلاذري رحمته الله في كتابه «أنساب الأشراف» بسنده عن عبد الله بن أبي بكر قال : «كان لرسول الله ﷺ صفي من المغنم حضر رسول الله ﷺ أو غاب، قيل : الخمس عبد أو أمة أو سيف أو درع ، فأخذ يوم بدر ذا الفقار ويوم بني قينقاع درعًا ، وفي غزاة ذات الرقاع جارية، وفي غزاة المريسيع عبدًا أسود يُقال له : رباح ، ويوم بني قريظة ريحانة بنت زيد ، ويوم خيبر صفية بنت حيي ، وفي

(١) طبقات ابن سعد (٨/١٢٩ - ١٣١) ، والاستيعاب (٤/٣٠٢ ، ٣٠٣) ، والإصابة

يوم حُنين فرسًا أشعر» (١) .

كانت ریحانة متزوجة رجلًا من بني قريظة يُقال له : الحكم (٢) ، وذكر أهل العلم أن ریحانة كانت تعيش حياة هنية مع زوجها ، وكان زوجها مُحبًا لها ، يكرمها ويحسن إليها .

كانت ریحانة امرأة قد رزقت حظًا من الملاحاة والجمال ، وكانت تحظى بمكانة رفيعة في قومها ، كما كانت معروفة بكمال عقلها ، وحسن تدبيرها للأمر ، فلما وقع السبي على بني قريظة سبها رسول الله ﷺ ، ولكن ریحانة - بعد السبي - أبت الإسلام ، فعزلها رسول الله ﷺ ، ووجد في نفسه لذلك ، وبينما هو في مجلس أصحابه ، إذ سمع وقع نعلين خلفه ، فأخبر أصحابه أنه قد جاء من يبشره بإسلام ریحانة .

فقد جاء عند ابن سعد رضي الله عنه في «طبقاته» : أنه لما سبى رسول الله ﷺ ریحانة ، عرض عليها الإسلام ، فأبت ، وقالت : أنا على دين قومي .

فقال رسول الله ﷺ : «إن أسلمت اختارك رسول الله لنفسه» ، فأبت فشق ذلك على رسول الله ﷺ ، فبينما رسول الله ﷺ جالس في أصحابه إذ سمع خفق نعلين فقال : «هذا ابن مسعية يبشرني بإسلام ریحانة» ، فجاءه فأخبره أن قد أسلمت (٣) .

(١) أنساب الأشراف (١/٤٤٣) و(١/٥١٥) .

(٢) طبقات ابن سعد (٨/١٢٩) .

(٣) طبقات ابن سعد (٨/١٣١) .

وسرَّ رسول الله ﷺ لإسلام ريحانة^(١)، كما سرَّ أيضًا لخروجها من ظلمات الشرك والكفر إلى أنوار الإيمان .

إني أختار الله ورسوله :

هذه المرأة واحدة من نساء عصر النبوة ، ممن كُتِبَ لهن أسباب السعادة ، فكانت من الخالدات ، ومن المتوقع أن ريحانة قبل أن تقع في السبي كانت قد سمعت كثيرًا عن نبي الإسلام ، وسمعت كثيرًا عن أصحابه الكرام ، وعرفت وفاء رسول الله ﷺ ، ولمست غدر قومها أكثر من مرة ، كما لمست غدر يهود المدينة منذ أن قدم النبي ﷺ مهاجرًا إليها ، ولاحظت الحقد الدفين الذي ترسخ في نفوسهم الصدئة العفنة ، والذي حملهم على نكث العهود ، ونقض المواثيق ، والغدر بنبي الإسلام ﷺ والغدر بأصحابه .

فهذا كله قد وقر في نفس ريحانة بنت زيد وكانت مما أفاء الله على رسوله ، وكانت امرأة جميلة وسيمة ، وفي غزاة قريظة قتل زوجها مع من قتل من يهود قريظة ، ووقعت ريحانة في السبي ، فكانت صفي رسول الله ﷺ يومذاك ، فأمر بها فعُزلت حتى انتهى من تقسيم الغنائم .

ولما عُزلت ريحانة شعرت بطمأنينة تستقر في أعماق قلبها ، وتسكن حناياها ، وخار الله ﷻ لها الخير كله ، ثم إن رسول الله ﷺ أرسل بها إلى منزل الصحابية الجليلة أم المنذر سلمى بنت قيس الأنصارية ، ومكثت ريحانة في بيت أم المنذر ،

(١) انظر : تاريخ الإسلام للذهبي ، المغازي (ص ٣١٨) .

ودخل على ریحانة فتوارت حياءً منه ، واستحيت حياءً شديداً، ولكن رسول الله ﷺ دعاها فجاءته تمشي على استحياء ، وجلست بين يديه ، وكلمها كلاماً لطيفاً ، وبين لها محاسن الإسلام، ثم قال : «إن اخترت الله ورسوله اختارك رسول الله ﷺ لنفسه» .

وأي سعادة أعظم لريحانة من هذا ؟ إنها لا تكاد تصدق نفسها مما تسمعه - الآن - من رسول الله ﷺ ، ولكن سعادتها كانت تصاحبها منذ أن سبيت ، وإذ ذاك قالت - بعد أن كُشفت لها أنوار اليقين وحقيقة الخلود : «إني أختار الله ورسوله» .

ثم نظقت ریحانة بالشهادتين وأسلمت ، وبعد ذلك أعرس بها رسول الله ﷺ في بيت أم المنذر في المحرم سنة ست من الهجرة النبوية ، وحظيت بالمكانة النبيلة عند رسول الله ﷺ ، وكان معجباً بها لا تسأله شيئاً إلا أعطاها ^(١) .

ومنذ ذلك اليوم البهيج الذي دخلت فيه ریحانة في الإسلام نُظمت في عداد نساء أهل البيت الطاهرات .

اختيار موفق :

عندما رحلتُ أبحث في سيرة ریحانة بنت زيد رضي الله عنه ، وقفت طويلاً أمام مسألة مفادها : «هل كانت ریحانة من أمهات المؤمنين ؟ وهل انتظمت في عقدهن ؟ أم هي سُرّية من سراري رسول الله ﷺ ؟» .

والحقيقة فقد وجدني أمام فريقين من العلماء :

(١) عن طبقات ابن سعد (٨/١٢٩، ١٣٠)، والإصابة (٤/٣٠٢، ٣٠٣) .

فريق يزعم أنها من نساء النبي ﷺ^(١) .

وفريق يزعم أنها سُريّة^(٢) من سراري النبي ﷺ .

والذي تميل إليه النفس أنها سريّة النبي ﷺ، ويبدو أن ريحانة نفسها قد طلبت أن تكون كذلك - فقد ورد أن الحبيب المصطفى ﷺ خيرها في هذا، وسألها عما تحبه فقال: «إن أحببت أن أعتقك وأتزوجك فعلت، وإن أحببت أن تكوني في ملكي فعلت» .

فقالت: يا رسول الله، أكون في ملكك أخف عليّ وعليك فكانت في ملك رسول الله ﷺ^(٣) .

ومما يزيد النفس طمأنينة ما أورده البلاذري رحمه الله في «أنسابه» بسند عن ابن سيرين رحمه الله أن رجلاً لقي ريحانة بالموسم - بالحج - فقال لها: «إن الله لم يرضك للمؤمنين أمّا»^(٤) .

فقالت: «وأنت لم يرضك الله لي ابناً» .

وهذه الإجابة من ريحانة - رضوان الله عليها - تُعتبر من بدائع البدائع، ومن الأجوبة المسكتة التي تشير إلى عقلها الكبير وإلى حصافة رأيها وتفكيرها، ويشير من ناحية أخرى إلى أن ريحانة ظلت ملك اليمين، ويعزز هذا ما أورده

(١) طبقات ابن سعد (٨/١٢٩، ١٣٠)، والمغازي (٢/٥٢١)، والإصابة (٤/٤٠٢) .

(٢) السيرة النبوية (٢/٣٠٨، ٣٠٩)، والاستيعاب (٤/٣٠٢)، والمحبر (ص ٩٤) .

(٣) مختصر تاريخ دمشق (٢/٢٩٢)، والبداية والنهاية (٥/٣٠٥) .

(٤) أنساب الأشراف (١/٤٥٤) .

البلاذري أيضاً بسنده ، عن الإمام الذهبي رحمته الله أنه كان للنبي صلى الله عليه وسلم سُرَيْتان :
«مارية القبطية ، وريحانة» .

ومما يزيدنا ثقة بأن ريحانة من سراري رسول الله صلى الله عليه وسلم ما نظمته العلماء في
أزواج النبي صلى الله عليه وسلم اللواتي توفي عنهن - أو توفي في حياته - ولم يذكروا ريحانة أو
مارية رضي الله عنهن أجمعين فقال أحدهم :

توفي رسول الله عن تسع نسوة	إليهن تُعزى المكرمات وتنسب
فعائشة ميمونة وصفية	وحفصة تلو هن هند وزينب
جويرية مع رملة ثم سودة	ثلاث وست ذكرهن مهذب

روح وريحان :

نعمت ريحانة رحمته الله بضع سنين في ظلال البيت النبوي الطاهر، ورأت في
خلال حياتها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الشرف والكرامة والسمو الروحي ، ونور الله
الذي أضاء نفسها، فأحالها إلى امرأة سعيدة بما أفاء الله عليها من نعم كثيرة ،
ظاهرة وباطنة - ورأس هذه النعم الإيمان بالله ، والحياة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم
محمد، وأدركت ضلال اليهود وإضلالهم ، وما كانوا يعيشون خلاله في جحيم
الباطل وأوهامه .

أضحت ريحانة تشعر بلذة الهدى والهداية ، في البيت العتيق النبوي ،
وأضحت ذات جوهر فريد يتألق بأنوار اليقين بعد أن اعتنقت الإسلام ، ومن
ثم أضحت شعارها : ﴿ الْعَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

لم تكن حياة ريحانة طويلة في رحاب البيت النبوي الطاهر ، وإنما لقيت وجه

رَبِّهَا فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَمَاتَتْ عِنْدَمَا رَجَعَ مِنْ حُجَّةِ الْوُدَاعِ فِي السَّنَةِ الْعَاشِرَةِ مِنَ الْهَجْرَةِ ، وَدَفِنَهَا فِي الْبَقِيعِ ، إِلَى جِوَارِ السَّلَفِ الصَّالِحِ وَإِلَى جِوَارِ نِسَاءِ أَهْلِ الْبَيْتِ الطَّاهِرِ .

وَبِهَذَا تَنْتَهِي حَيَاةُ هَذِهِ الْمَرْأَةِ الَّتِي سَعِدَتْ بِالْإِسْلَامِ ، وَنَعِمَتْ بِهِ ، وَسَعِدَتْ بِالْدُخُولِ إِلَى رِحَابِ الْبَيْتِ النَّبَوِيِّ ، فَكَانَتْ مِنَ الْخَالِدَاتِ ، وَمِنَ النِّسَاءِ اللَّوَاتِي لَهُنَّ فِي تَارِيخِ الْإِسْلَامِ نَصِيبٌ .

رَضِيَ اللَّهُ عَنْ رِيحَانَةَ ، وَأَكْرَمَهَا بِالرُّوحِ وَالرِّيحَانِ ، وَرَضِيَ اللَّهُ عَنْ أَهْلِ الْبَيْتِ النَّبَوِيِّ جَمِيعًا ، وَأَكْرَمَنَا بِحُبِّهِمْ ، وَحَشَرْنَا مَعَهُمْ ، وَجَعَلْنَا مِنْ رَفَقَائِهِمْ وَحَسَنَ أَوْلَئِكَ رَفِيقًا .



حفصة بنت سيرين

قال إياس بن معاوية :

ما أدركت أحدًا أفضله على حفصة .

وقال يحيى بن معين :

حفصة بنت سيرين ثقة حجة عابدة زاهدة .

حفصة بنت سيرين

الميراث الحقيقي :

ورثت هذه المرأة عن أسرتها حب العلم والدأب في القراءة ، فقد نشأت في بيت ثقي ، وعلم وورع وزهد ، وتخرجت في مدرسة الصحابة ، تلك المدرسة التي أثرت الدنيا بأعلام حلقوا في سماء المكرمات ، وزينوا جيدَ الدهر بعلومهم ، وأسسوا الحضارة العلمية بأعمالهم التي ما تزال حية تحفُّقُ بيننا حتى الآن .

وقد شهد لهذه السيدة الفاضلة بالفضل أهل الفضل ، وأولو المعرفة ، وأثنوا عليها ثناءً عطراً حقيقياً رفعتها مكاناً علياً بين نسوة عصرها ، أبان فضلها وكشف عن مكانتها الكبيرة في العلم ، فهذا إياس بن معاوية المشهور يقول عنها : ما أدركت أحداً أفضله عليها ، وحسبك بشهادة إياس لها لتجعلها سيدة نساء عصرها في زمانها دون منازع .

ولم يكن في عصرها من يستطيع أن يجاريها في الفقه أو العلم ، حتى أضحت علماً يشار إليها بالبنان ، إنها حفصة بنت سيرين الفقيهة الأنصارية أم الهذيل ^(١) ، أخت التابعي الشهير محمد بن سيرين - رحمه الله تعالى .

بداية موفقة :

قبل أن ندخل الأجواء العطرة لحفصة بنت سيرين ، تعالوا نقف وقفة لطيفة نتعرف خلالها على تلك البداية الكريمة التي أحاطت بها .

(١) الطبقات (٨ / ٤٨٤) ، وسير أعلام النبلاء (٤ / ٥٠٧) ، وتهذيب التهذيب (١٢ / ٥٠٩) .

كان أبوها «سيرين» مولى لسيدنا أنس بن مالك الأنصاري رضي الله عنه - وقد اشتراه من سيدنا خالد بن الوليد رضي الله عنه - وكان قد أسره في «عين التمر» في بادية العراق قرب الأنبار، إلا أن أنسا رضي الله عنه كاتب سيرين على شيء من المال، فأدى كتابته وأصبح حرًا.

عزم «سيرين» على أن يستكمل شطر دينه، بعد أن حرر أنس بن مالك رضي الله عنه رقبته، وبعد أن غدت حرفته تُدر عليه الربح الوفير والخير الكثير، فقد كان نحاسًا ماهرًا يتقن صناعة القدور.

وقد وقع اختياره على مولاة «أمة» لأمير المؤمنين أبي بكر الصديق رضي الله عنه، تدعى «صفية» لتكون زوجة له.

كانت «صفية» جارية في بواكير الشباب، وضيئة الوجه، ذكية الفؤاد، كريمة الشائل، نبيلة الخصال، محببة إلى كل من عرفها من نساء المدينة، لا فرق في ذلك الشواب اللواتي تربطهن بها وشائج اليفاعة، وبين المسنات اللواتي كن يرينها صنواهن في رجاحة العقل، وحصانة السلوك وكانت أشد النساء حبًا لها زوجات الرسول صلوات الله وسلامه عليه، ولاسيما السيدة عائشة رضي الله عنها.

تقدم «سيرين» إلى أمير المؤمنين فخطب منه مولاته «صفية»، فبادر الصديق رضي الله عنه إلى البحث عن دين الخاطب وحلقه، كما يبادر الأب الشفيق الحاني للبحث عن حال خاطب بنته.

ولا غرو فقد كانت صفية تحتل من نفس أبي بكر منزلة الولد من أبيه، ثم

إنها بعد ذلك كله أمانة أودعها الله في عنقه .

فمضى يستقضي أحوال «سيرين» أشد الاستقصاء ، ويتتبع سيرته أدق التتبع ، وكان في طليعة من سألهم عنه أنس بن مالك رضي الله عنه فقال له أنس :

زوّجها منه يا أمير المؤمنين ، ولا تحش عليها بأسًا ، فما عرفته إلا صحيح الدين رضي الخلق موفور المروءة .

وافق الصديق رضي الله عنه على تزويج «صفية» من «سيرين» ، وعزم على أن يبرها كما يبر الأب الشفيق ابنته الأثيرة ، فأقام لتزويجها حفلًا ، قلما ظفرت بمثله فتاة من فتيات المدينة .

وقد شهد تزويجها طائفة كبيرة من كرام الصحابة ، وكان فيهم ثمانية عشر بدريةً ، ودعا لها كاتب وحي رسول الله صلى الله عليه وآله أبي بن كعب ، وأمن على دُعائه الحاضرون ^(١) ، وطيبتها وزيتها ثلاث من أمهات المؤمنين رضوان الله عليهن حين زفت إلى زوجها .

وقد أثمر هذا الزواج الميمون المبارك ثمارًا طيبة عندما رزق هذان الزوجان «حفصة» ^(٢) .

نشأة «حفصة» :

هذا وقد نشأت حفصة في هذا البيت الفاضل ، وكفيها من الفخر أن يكون مولى أسرتها كلها الصحابي الجليل أنس بن مالك رضي الله عنه ، فقد صنعت على عينه

(١) الطبقات (٧/١٩٣) ، وتهذيب الأسماء واللغات (١/٨٣) .

(٢) البداية والنهاية (٩/٢٧٩) .

وتخرجت في مدارس عدد من أجلاء الصحابة والصحابيات، وفي مقدمتهم :
 أمنا عائشة ، وأم عطية الأنصارية رضي الله عنهما ، لقد كان جو البيت مشبعًا بالعلم
 والأسرة كلها طلابه وأساتذته من بعد ، وكانت حفصة - رحمها الله - تحمل بين
 ضلوعها قلبًا واعيًا وفي رأسها ذهنًا وقادًا ، ويشع الذكاء من عينيها ، أما
 روحها فكانت دائمة الصلة بالله تعالى ، ولقد انصهر كل ذلك في ذاتها وفي
 ذرات كيانها .

حفظت القرآن الكريم وهي ابنة اثنتي عشرة سنة ، وفهمت معانيه
 وأغراضه وأحكامه فهمًا دقيقًا ، وتلبست به ، كما حفظت الحديث الشريف
 ووعت آدابه وحدوده ، وأصبحت وهي ما تزال في طور الصبا - علمًا في وسط
 النساء رضي الله عنهن - ومرجعًا مؤتمنًا موثوقًا ، وهذا ما جعل المصنفين ،
 وكبار المؤرخين والناقدين يعدونها من الطبقة الأولى .

شهادة العلماء لها :

كان محمد بن سيرين رضي الله عنه إذا أشكل عليه شيء من القرآن قال : اذهبوا
 فسلوا حفصة كيف تقرأ ؟

هذه شهادة زاكية تشهد لحفصة بعلو الكعب في معرفة علوم القرآن ،
 وتشهد لها أيضًا بجودة فهم وحفظ كتاب الله عز وجل ، وليس غريبًا أن يذهب
 الناس لسؤال حفصة عما يصادفهم من مسائل ، فقد قرأت القرآن وهي ابنة
 اثنتي عشرة سنة ، وعاشت في رحابه آناء الليل وأطراف النهار ، وتفيأت
 بظلاله في الغدو والآصال .

وكانت - رحمها الله - موصولة القلب بالله ﷻ دائماً ، وكان وردها القرآن إذ لم يكن يتبين الخيط الأسود من الخيط الأبيض من الفجر في كل ليلة إلا وقد قرأت نصف القرآن الكريم ، ولم تترك هذا الورد المبارك إلى آخر حياتها .

وعن عبد الكريم بن معاوية قال : «ذكر لي عن حفصة أنها كانت تقرأ نصف القرآن في كل ليلة ، وكانت تصوم الدهر وتفطر العيدين وأيام التشريق» .

وعن هشام قال : كانت حفصة تدخل في مسجدها فتصلي فيه الظهر والعصر والمغرب والعشاء والصبح ، ثم لا تزال فيه حتى يرتفع النهار ، وعن مهدي بن ميمون قال : مكثت حفصة في مُصَلَّاهَا ثلاثين سنة لا تخرج إلا لحاجة أو لقائلة^(١) .

أما فهمها لآيات الذكر الحكيم ، فكان شيئاً رائعاً يدل على مدى سعة علمها وفقهها ، وقد أورد ابن الجوزي في «صفة الصفوة» أن عاصمًا الأحول البصري قال : كنا ندخل على حفصة بنت سيرين ، وقد جعلت الجلباب هكذا ، وتنقبت به فنقول لها : رحمك الله ، قال الله : ﴿ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ ﴾ [النور: ٦٠] ، وهو الجلباب ، قال عاصم : فكانت تقول لنا : أي شيء بعد ذلك؟ فنقول : ﴿ وَأَنْ يَسْتَغْفِرْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ﴾ ، ثم تقول : «إثبات الجلباب» .

عبادتها وصلاتها :

كانت حفصة - رحمها الله - من سروات النساء عبادة ودينًا وعفة وكرمًا

(١) صفة الصفوة (٤/ ٢٤-٢٦) ، وسير أعلام النبلاء (٤/ ٥٠٧) .

وطيبًا، وكان لها خلوات تقيم فيها الليالي الكثيرة للتعبد؛ ولذا فقد كان لها في مجال العبادة حظ عظيم، وبلغت مبلغًا رائعًا لم يبلغه إلا كبار الزهاد في عصرها.

قال عنها مهدي بن ميمون : مكثت حفصة بنت سيرين ثلاثين سنة لا تخرج من مصلاها إلا لقائلة أو قضاء حاجة^(١) .

ولم تتوقف - رحمها الله - في عبادتها عند هذا الحد فحسب ، بل كانت تطيل الوقوف في صلاتها ، تذرّف الدمع سخياً من خشية الله ﷻ ، وهذا مما لفت انتباه جارية لها سنديّة قد اشترتها فقيل للجارية : كيف رأيت مولاتك حفصة ؟ قالت الجارية : إنها امرأة صالحة كأنها أذنبت ذنباً عظيماً فهي تبكي الليل كله وتصلي .

ولهذا كانت حفصة - رحمها الله - تحض على طاعة الله سبحانه في مرحلة الشباب ؛ لأن الشباب قوة على الطاعة ، وكثيراً ما كانت تحاطب الشباب ، من إناث وذكور بقولها المأثور :

يا معشر الشباب ، خذوا من أنفسكم وأنتم شباب ، فإنني رأيت العمل في الشباب .

وإلى جانب عبادة حفصة وصلاتها وصلاتها ، كانت واحدة ممن سردن الصيام ، ومنذ أن عقلت لم تفطر يوماً واحداً ، إلا العيدين وأيام التشريق ، وهي الأيام التي يحرم صومها ، ومما يدلُّ على صومها الدهر ما ورد من أن ابنها

(١) صفة الصفة (٤/ ٢٤-٢٦) ، وسير أعلام النبلاء (٤/ ٥٠٧) .

الهدليل كان له ناقة حلوب ، وكان يبعث لها بحلبة بالغداة ، فتقول له : يا بني إنك لتعلم أني لا أشربه أنا صائمة ، فيقول : يا أماه ، إن أطيب اللبن ما بات في ضروع الإبل اسقيه مَنْ شئت ، ولكن حفصة تؤثر بذلك مرضاة الله ﷻ ، فتبعث باللبن إلى الفقراء .

حفصة وابنها الهدليل :

كان الهدليل ابن حفصة بارًّا بوالدته أشد البر ، فكان يعمل على راحتها وكل ما يدخل الرضا والسرور إلى نفسها ، ولحفصة وابنها الهدليل أخبار رائعة تشير إلى حُسن تربيتهما له ، وإلى بره بها من ذلك ما حكاه هشام بن حسان قال :

كان الهدليل ابن حفصة يجمع الحطب في الصيف ، فيقشره ويأخذ القصب فيفلقه ، وكانت حفصة تشعر بوطأة البرد إذا جاء الشتاء ، فكان ابنها يأتي بالكانون فيضعه خلفها وهي في مُصلاها ، ثم يقعد فيوقد بذلك الحطب المقشر ، وذلك القصب المفلق وقودًا لا يؤذي دخانه حتى تشعر أمه بالدفء ، ويظل يفعل ذلك ما شاء الله برًّا واعترافًا بفضلها .

إلا أن المنية وافت الهدليل ، وألهمها الله ﷻ السلوان ، وقد وصفت ذلك فقالت :

لما مات - ابني الهدليل - رزق الله عليه من الصبر ما شاء أن يرزق ، غير أني كنت أجد غصة لا تذهب ، وبيننا أنا ذات ليلة أقرأ سورة النحل ، إذ أتيتُ على هذه الآية : ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ مَاعِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ

بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿ [النحل: ٩٥، ٩٦].

قالت : فأعدتها فأذهب الله ما كنتُ أجِدُ من مرارة فقدته .

استعدادها للموت :

لئن بلغت حفصة الذروة في مقام العبادة والزهد والنسك والصلاح ، لقد ضربت أروع الأمثلة في الاستعداد الدائم للقاء الله ﷻ ، فقد ذكر الذين عرفوا أمورها وأحوالها ، أنه كان لها كفن قد أعدته للموت ، فإذا حجت وأحرمت لبسته لتذكر نفسها أنها تودُّ لقاء الله ﷻ في بيته الحرام ، كما كانت تودُّ أن تذكر من حولها أن الموت أقرب للإنسان من حبل الوريد ، فليغتنم المرء هذه الساعات المباركات في بيت الله الحرام .

وإذا فرغت حفصة من حجها أو عمرتها ورجعت وضعت ذلك الكفن بالقرب منها ، فإذا كانت العشر الأواخر من رمضان قامت من الليل فلبست ذلك الكفن ، ووقفت بين يدي الله ﷻ تتضرع إليه بين الخشية والرجاء ، وتدعوه خوفاً وطمعاً أن يتقبل منها أعمالها .

ولم يكن ذكر الموت يفارقها طرفة عين ، ولا أقل من ذلك ، بل كانت تود لو تموت شهيدة بالطاعون ، فقد أخرج ابن سعد رضي الله عنه بسنده عن حفصة قالت : سألني أنس بن مالك بأي شيء تحبين أن تموتي ؟ قلت : بالطاعون ، قال : فإنه شهادة لكل مسلم ^(١) .

(١) الطبقات (٨ / ٤٨٤) ، رواه الشيخان عن أنس مرفوعاً .

وهذا يدل على فقه حفصة فإن الوفاة بالطاعون مكرمة يختص بها الله من يشاء من عباده ، وقد روت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ما يشبه هذا فقالت : سألت رسول الله ﷺ عن الطاعون فأخبرني : «أنه عذاب يبعثه الله على من يشاء من عباده ، وأن الله جعله رحمة للمؤمنين» .

وعاشت حفصة قرابة سبعين سنة ، كانت فيها مثالا حقيقيا للمرأة المسلمة في ورعها ودينها وصلاتها وتقاها ، حتى أورثت الصالحين صلاحها وخلدتها الأيام مع التابعيات اللاتي أمتعن سمع التاريخ وبهرن بصره .

وفي سنة (١٠١هـ) اختار الله ﷻ إلى جواره الكريم سيدة النساء التابعيات «حفصة بنت سيرين» ، وحضر جنازتها جمع كريم من سادة تابعي البصرة ، وفي مقدمتهم الحسن البصري ، وأخوها محمد بن سيرين .

رحم الله حفصة وآل سيرين ، وجعلهم في عليين في جنات النعيم ، إنه ولي ذلك والقادر عليه .



حبيبة بنت سهل الأنصارية رضي الله عنها

قال لها رسول الله ﷺ حين أرادت فراق زوجها :

«أتردين عليه حديقته؟» .

قالت : نعم .

فردت الحديقة و فرق بينهما ، فكان أول خُلع في الإسلام .

حبيبة بنت سهل الأنصارية رضي الله عنها

فجر جديد :

بدأت نسماتُ الإسلام تفوحُ بأريجها العطر في أم القرى ، وبدأ أصحاب العقول الواعية يتقبلون هذه الدعوة بقلوب صافية متعطشة للتخلص من براثن الجاهلية ، وأسفر نور الإسلام فأضاء للنساء عن فجر جديد مشرق ، وأسلوب من الحياة يختلف عن ذي قبل ، فيعتبر مكانة المرأة ويضعها في المكان اللائق والمناسب .

صحيح أنه كان للمرأة في عهد الجاهلية بعض فضائلها المكسوبة ، ومواهبها الموروثة ، وحقوقها التي تم لها بعضها ، بيد أن الظلم وسوء نظام الحياة الاجتماعية قد سلبا بقية حقوق المرأة ، وجعلها من فصيلة المتاع ليس غير ، ولكنه عندما رسخت أصول الإسلام نعمت هي تحت ظله بوثوق الإيمان ، فشرع لها من الحقوق ما جعلها تعيش الحياة الكريمة التي ينبغي أن تكون ، ونحن الآن مع صحابية ممن ناصرهن الإسلام ، وأظهر لهن حقوقهن وكرمهن ، ترجم لها الإمام النووي فقال : حبيبة بنت سهل بن ثعلبة الأنصارية ^(١) ، وأمها عمرة بنت مسعود بن قيس النجارية الأنصارية ، وأسلمت حبيبة منذ بزوغ فجر الإسلام بالمدينة ، وبايعت رسول الله ﷺ ، وكان لحبيبة أخت اسمها

(١) تهذيب الأسماء واللغات (٢/٣٣٧) ، وأسد الغابة (٥/٤٢٣) ، وتهذيب التهذيب

«رغينة» بنت سهل^(١)، قد أسلمت أيضًا، وبايعت رسول الله ﷺ .

زواجها ﷺ :

أخرج ابن سعد بسنده ، عن يحيى بن سعيد قال : كان النبي ﷺ قد همَّ أن يتزوج حبيبة بنت سهل ، وهي إحدى عماتي ، ثم ذكر غيرة الأنصار فكره أن يسوءهم في نسائهم^(٢) .

وتشير هذه الواقعة إلى مدى احترام رسول الله ﷺ لمشاعر الأنصار ، وإلى المحافظة على حُسن الروابط بين المهاجرين والأنصار .

هذا وقد تزوج حبيبة سيدنا ثابت بن قيس خطيب الأنصار ، دعونا نعطر الأجواء ، ونؤنس القلوب ، بذكر خطيب الأنصار سيدنا ثابت بن قيس ، عليه سحائب الرضوان والرحمة .

الخطيبُ ذو السيادة :

عَلِمَ من أفذاذ قومه في الفصاحة والبلاغة والبيان ، جمع أغصان الألفاظ ، وثمار المعاني ، تلذ لكلامه الأسماع ، وتطرب من جزالته القلوب ، وسيد من سادات الخزرج المرموقين ، ووجه من وجوه «يثرب» المعدودين ، وكان إلى جانب ذلك ذكي الفؤاد ، حاضر البديهة ، رائع البيان ، جهير الصوت ، إذا خطب أسر السامعين .

وهو أحد السابقين إلى الإسلام في «يثرب» ، إذ ما كاد يستمع إلى أي الذكر

(١) الطبقات (٨ / ٤٤٥) ، والإصابة (٤ / ٢٩٥) .

(٢) الطبقات (٨ / ٤٤٥) ، وتهذيب الأسماء واللغات (٢ / ٣٣٧) .

الحكيم يرتلها الداعية المكي الشاب مصعب بن عمير ، بصوته الشجي ،
وجرسه الندي ، حتى أسر القرآن سمعه بحلاوة وقعه ، وملك قلبه برائع بيانه ،
وخلب لبه بما حفل به من هدى وتشريع ، فشرح الله صدره للإيمان ، وأعلى
قدره ، ورفع ذكره بالانضواء تحت لواء نبي الإسلام .

ولما قدم الرسول صلوات الله وسلامه عليه إلى المدينة مهاجرًا استقبله ثابت
ابن قيس في كوكبة كبيرة من فرسان قومه أكرم استقبال ، ورحب به وبصاحبه
الصديق أجمل ترحيب ، وخطب بين يديه خطبةً بليغة افتتحها بحمد الله جل
وعلا والثناء عليه، والصلاة والسلام على نبيه .

واختتمها بقوله : «وإننا نُعاهدك - يا رسول الله - على أن نمنعك مما نمنع منه
أنفسنا وأولادنا ونساءنا فما لنا لقاء ذلك؟» .

فقال عليه الصلاة والسلام : «الجنة» .

فما كادت كلمة «الجنة» تُصافحُ آذان القوم حتى أشرقت وجوههم بالفرحة ،
وزهت قسائمهم بالبهجة وقالوا :

رضينا يا رسول الله ... رضينا يا رسول الله .

ومنذ ذلك اليوم جعل الرسول - صلوات الله وسلامه - عليه ثابت بن قيس
خطيبه ، كما كان حسان بن ثابت شاعره .

تنفيذ وصيته بعد موته :

لما استشهد ثابت رضي الله عنه رآه رجل من المسلمين في منامه ، فقال للرجل : أنا

ثابت بن قيس ، فهل عرفتنني ؟ قال : نعم .

قال : إني أوصيك بوصية ، فإياك أن تقول : هذا حُلْم فتضيعها .
 إني لما قُتِلْتُ بالأمس ، مر بي رجل من المسلمين صفته كذا وكذا ، فأخذ
 درعي ، ومضى بها نحو خبائه «خيمته» ، في أقصى المعسكر من الجهة الفلانية
 ووضعها تحت قَدْرِ له ، ووضع فوق القدر رَحْلاً ، فَأَتِ خالد بن الوليد وقل
 له :

أن يبعث إلى الرجل من يأخذ الدرع منه ، فهي ما تزال في مكانها ،
 وأوصيك بأخرى فإياك أن تقول : هذا حُلْم فتضيعها .

قل لخالد : إذا قدمت على خليفة رسول الله ﷺ في المدينة فقل له : إن على
 ثابت بن قيس من الدِّين كذا وكذا ، وإن فلاناً وفلاناً من رقيقه عتيقان ،
 فليقض ديني وليحرر غلاميّ .

فاستيقظ الرجلُ فَأَتَى خالد بن الوليد فأخبره بما سمع وما رأى ، فبعث
 خالد من يُحضر الدرع من عند أخذها ، فوجدها في مكانها وجاء بها كما هي .
 ولما عاد خالد إلى المدينة حدث أبا بكر ﷺ بخبر ثابت بن قيس ووصيته ،
 فأجاز الصديق وصيته .

وما عُرف أحد قبله ولا بعده أُجيزت وصيته بعد موته سواه ، رضي الله عن
 ثابت بن قيس وأرضاه ، وجعل جنة الفردوس مثواه .

ويبدو أن أمور الحياة بين حبيبة وثابت بن قيس زوجها لم تكن صافية ،
 ذلك الصفاء الذي يمكنهما من الاستمرار في حياتهما ، فجاء القرآن الكريم
 والحديث الشريف ، وحسم الخلاف وجعل الحياة الكريمة سبيل كل واحدٍ

منها .

فإلى الفقرات التالية نتعرف خبر حبيبة وزوجها، ونعرف إلى القول الفصل في ذلك .

أتردين عليه حديقته ؟

هذه قاعدة الحياة الزوجية في الإسلام الحنيف : ﴿فَأَمْسَاكُ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩] .

فإن تلاشى المعروف ، ودبت النفرة ، وساءت العشرة ، وامتنع التوفيق بين الزوجين سواء أكان سبيل ذلك الزوج أم الزوجة ، أم هما معاً فما خير تلك الحياة ؟

فالحياة الزوجية لا تقوم إلا على السّكن ، والرحمة ، والمودة ، وحسن المعاشرة ، وأداء كل من الزوجين ما عليه من حقوق ، قد يحدث أن يكره الرجل زوجته ، أو تكره هي زوجها ، ففي هذه الحال يوصي الإسلام بالصبر والاحتمال ، وينصح بعلاج ما عسى أن يكون من أسباب الكراهية ، قال ﷺ : ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩] .

وفي الحديث الصحيح : « لا يفرك - لا يبغض - مؤمن مؤمنة ، إن كره منها خلقاً رضي منها خلقاً آخر » .

إلا أن البغض قد ينمو ويشتد الشقاق ، ويصبح العلاج عسيراً ، وينفذ الصبر ، وتصبح الحياة الزوجية جحيمًا ، حينئذ يرخص الإسلام بالعلاج

الوحيد الذي لا بد منه ، فإذا كانت الكراهية من جهة الرجل فييده الطلاق ، وإن كانت الكراهية من جهة المرأة فقد أباح لها الإسلام أن تتخلص من أساها بطريقة الخلع .

والخلع الذي أباحه الإسلام مأخوذ من خلع الثوب إذا أزاله ؛ لأن المرأة لباسُ الرجل ، والرجل لباس لها ، كما يُسمى الفداء ، لأن المرأة تفتدي نفسها بما تبذله لزوجها ، وقد عرفه العلماء والفقهاء بأنه : فراق الرجل زوجته ببدل يحصل له .

وهذا ما حدث مع حبيبة وزوجها ثابت - حيث وقع بينهما الشقاق إلى الحد الذي لم تعد فيه حبيبة تطيق العيش مع زوجها ، فقد ورد أنها أتت النبي ﷺ تشكو زوجها ثابتاً .

فقلت : يا رسول الله ، ما أعيبُ على ثابت في خلق ولا دين ، ولكن أكره الكفر في الإسلام ، ولا أطيقه بغضاً ، فقال لها رسول الله ﷺ : «أتردين عليه حديثه؟» ، قالت : نعم ، فردت الحديقة وفرق بينهما ، وكان أول خلع في الإسلام^(١) .

هذا المعنى دقيق ، وتريد حبيبة منه أنها لا تريد مفارقة زوجها لسوء خلقه ، ولا لنقصان دينه ، فثابت من فضلاء الصحابة ، ولكنها كانت تكرهه لدمامته ، فقد ذكرت المصادر أنه كان قصيراً دميماً ، يميل إلى اللون الأسود ، وفي رواية تقول حبيبة : كنت جانب الخباء «الخيمة» ، فجاء ثابت في مجموعة من الرجال ،

(١) الحديث رواه البخاري ، وأبو داود ، وابن ماجه والنسائي ، وجميعهم في «الطلاق» ، وانظر :

فرايته أقصرهم قامه ، وأقبحهم وجهًا ، وأسودهم لونًا ، فلا تجتمع رأسي ورأس ثابت في مكان ، وهي تكره أن تحملها الكراهية له على التقصير فيما يجب له من حقوق الزوجية ، والمقصود بالكفر : كفران العشير .

وهكذا حصلت حبیبۃ على الحرية التي تريدها ، ضمن حدود الإسلام الذي يعتبر أن المرأة هي عماد البيت ، ودعامة الحياة العامة ، ولهذا فقد قضى لها النبي ﷺ بأن تترك له الحديقة التي أعطاها من قبل ، وفي هذا نزل قوله تعالى : ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ [البقرة: ٢٢٩] ^(١) .

ثم إن حبیبۃ ﷺ تزوجت بعد انقضاء عدتها الصحابي الكريم سيدنا أبي بن كعب ؓ ، الصحابي الجليل ، سيد القراء ، شهد العقبة وبدرا ، وجمع القرآن في حياة النبي ﷺ ، وكان رأسًا في العلم والعمل ، قال له النبي ﷺ : «إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن» ، قال : والله سماني لك ؟ وقد ذكرت عند رب العالمين ؟ قال : «نعم» ، فذرفت عيناه بالدموع ، روى (١٦٤) حديثًا ، وتوفي سنة (٣٠هـ) ، وفضائله كثيرة مشهورة ﷺ ^(٢) .

حبیبۃ ورواية الحديث :

كانت حبیبۃ تتردد على بيت النبي ﷺ ، وتزور زوجاته الطاهرات رضي الله

(١) تفسير الخازن بهامشه البغوي (١/٢٢٨) ، وانظر : تفسير القرطبي وابن كثير للآية (٢٢٩) من سورة البقرة ، والطبقات (٨/٤٤٥) ، وأسد الغابة (٥/٤٢٣) ، والإصابة (٤/٢٦٢) ، وزاد المعاد (٥/١٨٩) .

(٢) تهذيب الأسماء واللغات (١/١٠٨، ١٠٩) ، وسير أعلام النبلاء (٣٨٩-٤٠٢) .

عنهن ، وكانت ذات فضل في رواية الحديث الشريف ، فقد روى حديثها أهل المدينة، وروى حديثها يحيى بن سعيد الأنصاري ، عن عمرة بنت عبد الرحمن ^(١) .
ومن مروياتها ما ذكره التابعي الجليل محمد بن سيرين رضي الله عنه ، قال : حدثني حبيبة بنت سهل رضي الله عنها ، أنها كانت في بيت النبي صلى الله عليه وسلم ، فجاء النبي حتى دخل فجلس ، فقال : « ما من مسلمين يموت لهما ثلاثة أطفال ، لم يبلغوا الحنث إلا جيء بهم يوم القيامة حتى يوقفوا على باب الجنة ، فيقال لهم : ادخلوا الجنة ، فيقولون : حتى يدخل أبوانا » .

قال ابن سيرين : فلا أدري في الثانية أو في الثالثة « فيقال : ادخلوا أنتم وآبائكم » .

فقلت عائشة - أم المؤمنين - للمرأة : أسمعت ؟

قالت : نعم ^(٢) .

هذه هي حبيبة بنت سهل التي عشنا معها في رحاب سيرتها العطرة ، لحظات طيبة ، ويبدو من أخبارها أن حياتها امتدت خلال الخلافة الراشدة ، أو ما بعدها بقليل ، وأننا لا نملك تاريخًا دقيقًا عن وفاتها .

فرضي الله عن حبيبة بنت سهل ، وجعلها في الجنة مع الذين يحبهم ويحبونه ، إنه ولي ذلك والقادر عليه .



(١) الاستيعاب (٤/٢٢٦) ، وتهذيب التهذيب (١٢/٤٠٨) .

(٢) الطبقات (٨/٤٤٦) ، والإصابة (٤/٢٦٢) .

أم عاصم بنت عاصم رضي الله عنها

تقية ، نقية ، محبة للخير والعلم .

محسنة كريمة ، هي أم عمر بن عبد العزيز .

أم عاصم بنت عاصم رضي الله عنها

إن رب عمر يرانا :

تعالوا نشهد هذه الليلة الشاتية الخالدة من ليالي المدينة المنورة في عهد سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

ففي ليلة ساكنة قد أوى الناس فيها إلى دورهم ومضاجعهم ، يلتمسون الدفء من ذلك البرد الزاحف ؛ إلا أن رجلاً واحداً أفزعته مسؤولياته فكشف عنه غطاءه، وخرج يجوب طرقات المدينة التي خلت من الناس ، ولم يبق بها سوى قطع الظلام الدامس ولفحات الريح الباردة .

خرج ذاك الرجل وحده يعسُّ في الليل فلعل هناك ابن سبيل لا يجد مأوى ، أو مريضاً أسهره الألم ، أو جائعاً لا يجد ما يسد به رمقه ، ولعل هناك شاتناً من شؤون رعيته قد غاب عنه، وهو مسؤول عن شاة قد تتعثر بعيداً في شاطئ الفرات والله سبحانه سائله عن ذلك ومحاسبه عليه .

كان ذاك الرجل أمير المؤمنين ، نعم قَلِمَ الاستغراب ؟

إنه خليفة المسلمين عمر بن الخطاب، رضوان الله عليه .

وطال تطواف عمر رضي الله عنه في ذلك الليل البهيم ، وكاد يستولي على جسمه ، فاستند إلى جدار دار صغيرة في طرف المدينة ، ووقف يستريح بعض الشيء ليتابع خطوه بعد قليل نحو المسجد ، فقد أوشكت خيوط الفجر بالظهور ، وأخذت جيوش الظلام تعد العدة لتترك مكانها لضياء النهار .

في تلك اللحظات ترمى إلى سمعه صوت امرأتين داخل الدار الصغيرة ،
كان ذلك حوارًا بين أم وابنتها ، وكانت البنت تُجادل أمها وترفض أن تمزج
اللبن - الحليب - بالماء ، كانت الأم تقول : امزجي اللبن بالماء .

فقالت الفتاة : إن أمير المؤمنين عمر منع مذاق اللبن ، ألم تسمعي مناديه
بالأمس ينهى عن ذلك ؟

فقالت لها الأم : إن عمر لا يرانا ، ولا يدري بنا الآن في هذه الساعة المتأخرة
من الليل .

فردت البنت على الفور : يا أمي ، إن كان عمر لا يرانا فإن رب عمر يرانا ،
والله ما كنت لأفعله وقد نهى عنه .

كانت عبارة هذه الفتاة بردًا وسلامًا على قلب سيدنا عمر ، تملكه العجب
من جوابها لأمها الذي يجمع الصدق والإيمان والخوف من الله ﷻ ، ومراقبة
النفس له سرًا وعلانية .

وأسرع لتوه إلى المسجد النبوي الشريف ، وصلى بأصحابه ثم عاد إلى بيته ،
وكلمات الفتاة الصادقة تعاود سمعه : إن كان عمر لا يرانا ، فإن رب عمر يرانا .
ودعا عمر ابنه عاصمًا ، وكان مزعمًا على الزواج ، وأرشده إلى بيت الفتاة
وحدثه بما سمع ، وقال قولته المشهورة : اذهب يا بني فتزوجها ، فما أراها إلا
مباركة ، ولعلها تلدُ رجلًا يسود العرب .

وتزوج عاصم تلك الفتاة الفقيرة الورعة ، واسمها أم عمارة بنت سفيان بن
عبد الله بن ربيعة الثقفي ، وقيل : من بني هلال ، فأنجبت له ابنة سمّوها ليلى ،

وكنوها «أم عاصم»، وهي ضيفتنا في هذه الصفحات، كما أنجبت لعاصم ابنة أخرى اسمها حفصة^(١).

أم عاصم ونشأة عُمرية :

نشأت «أم عاصم» بنت عاصم بن عمر بن الخطاب القرشية العدوية ، نشأة تقية نقية، ودرجت في شبابها على حب الخير وحب العلم، فتلقت عن أبيها عاصم وحدثت عنه .

وكان أبوها ممن ولد في حياة الرسول ﷺ ، وكان خيرًا فاضلاً فصيحًا ، وقد ورثت أم عاصم هذه الفضائل والخصال الحسنة عنه ، وتوفي عاصم سنة (٧٣هـ) ﷺ .

وكانت أم عاصم - رحمها الله - من أكمل أهل دهرها أخلاقًا وأكرمهن خللاً، فأمها - أم عمارة الثقفية - تلك المرأة التي اتخذها عمر زوجًا لابنه عاصم، وليس لها ما تعتزُّ به من نسب وحسب إلا ما جرى على لسانها من قول الصدق في نصحتها لأمها ، وليس لها من نسب أيضًا إلا دينها وإسلامها .

أبي الإسلام لا أب لي سواه إذا افتخروا بقبس أو تميم واقتبست أم عاصم الخلال الحميدة والخصال الكريمة من أبويها ومن جدها عمر ﷺ ، فكانت من صفوة الصفوة ومن خيار النساء التابعيات ممن يؤخذ عنهن العلم ، ويؤثر عنهن الصدق .

(١) نسب قريش (ص ٣٦١)، وتاريخ دمشق (ص ٥٣٧)، ووفيات الأعيان (٦/٣٠٢)، ومناقب عمر لابن الجوزي (ص ٨٤) بتصرف .

المال الطيب والزواج الموفق :

ذكر النبي ﷺ أن الناس معادن يتفاوتون في الخير والشر ، والشرف والوضاعة ، فقال ﷺ : «الناس معادن في الخير والشر ، فخيرهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام ، إذا فقهوا» (١) .

ولهذا حث النبي الكريم ﷺ الراغب في الزواج أن يكون اختياره للمرأة - الزوجة - على أساس الخلق الكريم القويم ، والصلاح والأصالة ، وأن يبحث عن الفتاة ذات التربية الحسنة ، فقال ﷺ : «تخيروا لنطفكم ، وأنكحوا الأكفاء» . من هذا المنطلق السليم ، ندرك توجيه رسول الله ﷺ أنظار الراغبين في الزواج كي يختاروا زوجاتهم من بيئة صالحة ، قد انحدرن من أصول عريقة ذات عروق سليمة ، ليكتسب أولادهم العادات الأصيلة والأخلاق الكريمة ، فالولد ينزع إلى أصل أمه وطباعها ، وهذا ما كان لعبد العزيز بن مروان الذي كان ينظر نظرة فاحصة فيمن حوله من الفتيات ومن ذوات الصلاح والفلاح ، لتكون قرينة له ، فكان ذلك .

وكان عبد العزيز بن مروان - هذا - أميرًا من أمراء بني مروان ، وكان ولي العهد بعد أخيه عبد الملك بن مروان ، وعندما أراد أن يتزوج طلب من خازن ماله أن يتخير من أطيب ماله وصالحه ، ليكون مهرًا لزوجته فقال له : اجمع لي أربعمئة دينار من طيب مالي ، فإني أريد أن أتزوج إلى أهل بيت لهم صلاح . ولم يشترط عبد العزيز ما يشترطه الأمراء الأثرياء من الجمال ، أو المنزلة ،

(١) رواه الطيالسي في مسنده (٣٢٤) .

إنما طلب العرق الطيب في المنبت الطيب ، فأصهر إلى آل الخطاب واختار «ليلي» أم عاصم بنت عاصم بن عمر ، ومن يصاهر آل الخطاب فإنه يتقرب منهم لمكانتهم ، فأل الخطاب لم يسعوا لمجد مؤثّل عريض ، بل اتجهت الأسرة العمرية إلى العلم والزهد ، ومن يصهر إليهم فإنما يرجو لأولاده حياة كحياة آل الخطاب ، فالولد ينزع نحو أخواله .

ولئن فاتنا - نحن - النسب إلى آل الخطاب فلا يفوتنا الانتساب إليهم في الحديث عنهم ، فقد كانت أم عاصم - رحمها الله - محسنة كريمة صالحة ، ورثت التقوى عن أمها وأبيها ، كما كانت تقية نقية النفس ، طاهرة القلب ، مؤمنة بالله على أساس صحيح ، لذلك قيض الله لها الجمع الطيب ، والمال الحلال ، ليكون مهرًا لها ، وكان من ثمرة زواجها بعبد العزيز بن مروان أن ولدت له عمر بن عبد العزيز الخليفة الزاهد ، والتقي الورع .

أم عاصم وتربية عمر :

في المدينة المنورة كان مولد عمر بن عبد العزيز ، ومن ينابيع علومها نهل ما يشاء له أن ينهل ، وأسسته أمه على التقوى من أول يوم ميز فيه بين الخير والشر ، وزرعت في نفسه الحكمة التي صاحبته إلى أن لقي الله ﷻ ، زاهدًا ، تقيًا ، نقيًا ، كما حبيت إليه العلم ، وزيتته في قلبه ، فنشأ نشأة العلماء في المدينة ، والمدينة يومئذ منارة للعلم والصلاح ، تزخر بالعلماء والفقهاء والعُباد والصالحين ، وعكف بإشراف أمه على حفظ كتاب الله ﷻ ، حتى حفظه في زمن قصير وجيز ، ولما يشتدَّ عوده بعد أو يبلغ مبلغ الرجال .

ولقد كان لتأثير القرآن الكريم في نفسه الصغيرة أن امتلأ قلبه النقي بخشية

الله ، وتمسك بأسباب التُّقى ، فارتقى فكانت عيناه تفيضان بالدمع من خشية الله
 ﷻ ، فيبكي وينتحبُ .

وكانت أم عاصم - رحمها الله - تعجب من ولدها الصغير الورع البكاء ،
 فيحرك في قلبها كوامن الخشية فتبكي هي أيضًا ذكر ابن عساكر رحمته الله أن عمر
 بن عبد العزيز بكى وهو غلام صغير ، وقد جمع القرآن ، فأرسلت إليه أمه : ما
 يبكيك ؟

قال : لا شيء يا أماه ، ذكر الموت ، ذكر الموت ، فبكت أمه من ذلك
 وأشفقت عليه ^(١) .

ولقد جنت أم عاصم غراس التُّقى بابنها في وقت مبكر ، وآتت أكلها في
 شخص ابنها عمر بن عبد العزيز ، الذي أثار إعجاب أستاذه وشيخه صالح
 ابن كيسان الذي قال عن طفولة عمر : ما خبرت أحدًا الله أعظم في صدره من
 هذا الغلام .

كل هذه الفضائل كانت ثمرة جهد الورعة التقية أم عاصم ، نعم فقد كان
 ذلك سببًا في نجابة ابنها في طفولته الغضة النضيرة ، والله در القائل :

نعم الإله على العباد كثيرة وأتمهن نجابة الأولاد

وماذا بعد عن أم عاصم أم الغلام السعيد النجيب ؟

فقد كانت تحوطه برعايتها ما استطاعت إلى ذلك سبيلًا ، لكنه أفلت منها
 مرة ، ودخل إلى إصطبل الخيل - وهي لا تشعر - فرمحته - ضربته - دابة فشجته

(١) تاريخ دمشق (ص ٥٣٩) ، بتصرف يسير جدًا .

في جبينه ، وبصرت به أم عاصم عن جنب فأسرعت وضمته إلى صدرها ، وجعلت تمسح الدم عن وجهه ، ودخل أبوه عليها على تلك الحال ، فأقبلت أم عاصم عليه ، وجعلت تعذله وتلومه وتقول :

ضيعت ابني ، ولم تضم إليه خادماً ولا حاضناً يحفظه من مثل هذا ، ومضت هنيات إذ طافت بخاطره ذكرى ألفت على ثغره ابتسامة رضا ، ورسمت على وجهه علائم سرور ، وقال لها :

اسكتي يا أم عاصم ، فطوباك إن كان - ابنك - أشج بني أمية ^(١) .

وفي رواية : إن تكن أشج بني أمية إنك إذا لسعيد .

والآن فما الذكرى التي أثارها هذه الحادثة في نفس عبد العزيز بن مروان ؟ إنها رؤيا سيدنا عمر بن الخطاب العبقرى الملهم ، الذي رأى في نومه ذات ليلة رؤيا نهض من فراشه على إثرها يعجب ويقول :

من هذا الأشج من بني أمية ومن ولد عمر ، يُسمى عمر ، يسيرُ بسيرة عمر ، ويملاً الأرض عدلاً ؟

وتوفي عمر رضي الله عنه وظل حلمه هذا يدوي بين أهله وذويه الذين راحوا يتلمسون تلك العلامة في وجوه أبنائهم ، إلى أن كانت هذه الحادثة التي توقعها عبد العزيز بن مروان في ابنه عمر ، فلم تخطئ فراسته بذلك .

فقد كان عمر بن عبد العزيز هو ذلك الأشج الذي حوّل شهقات اليائسين وحرقتهم إلى بسامات متهللة تمرح تحت ظلال عدله وبره ﷺ ، وكان مردُّ تلك

(١) عن تاريخ الطبري (٦٨/٤) ، وتاريخ دمشق (ص ٥٣٤) بتصرف يسير .

التربية الفريدة إلى أمه أم عاصم، رحمها الله تعالى .

كرُمها وبرها :

غادرت أم عاصم المدينة المنورة لاحقة بزوجها عبد العزيز بن مروان في مصر - إذ كان والياً عليها - وأقامت هناك .

هذا وعُرفت أم عاصم بالجود والكرم والرحمة والبر بالضعفاء ، وقد كان بمصر إنسان به خبل وسذاجة ، فكانت أم عاصم قد مرت به فتعرض لها فأعطته وأحسنت إليه ، وكانت تحسن إليه دائماً كلما مرت به ، وتوفيت أم عاصم عند عبد العزيز بن مروان ، فأصهر مرة أخرى من آل الخطاب ، وتزوج حفصة بنت عاصم أخت أم عاصم ، وحملت إليه وهو بمصر .

وخرجت حفصة بنت عاصم ذات يوم فمرت بذاك الرجل الساذج البسيط ، فلم ترفع إليه رأساً فقال : ليست حفصة من رجال أم عاصم ، يريدُ ليست حفصة من زمرة أم عاصم في كرمها وبرها وجودها فصارت كلمته مثلاً^(١) .

وقبل الوداع من نفحة السيرة العمرية وسيرة أم عاصم سليلة عمر بن الخطاب نسمع لهذا الكلام من غلام بربري ، لما ردَّ عمر بن عبد العزيز مظالم أهل بيته ، وأخذهم بالحق قال مولى لآل مروان بربري يخاطبهم : وأنتم أيضاً فتزوجوا بنات عمر ابن الخطاب .

رحم الله أم عاصم بنت عاصم ، ونصّر قبرها وعصمنا من الزلل، إنه سميع مجيب .

رحم الله ليلى أم عاصم رضي الله عنها ، وأدخلها الجنة مع الصابرين .

(١) عن نسب قريش (ص ٣٦١) ، والمعارف لابن قتيبة (ص ١٨٨) ، بتصرف يسير جداً .

حبيبة بنت خارجة رضي الله عنها

حبيبة بنت خارجة الخزرجية ، وهي أخت سعد بن الربيع لأمه .
وزوج أبي بكر الصديق .
وعندما كانت حاملاً ، قال الصديق لابنته عائشة :
استوصي بها خيراً وجنينها .

حبيبة بنت خارجة رضي الله عنها

من الرعيّل الأول :

بدأت نسمات الإسلام تفوح بأريجها العطر في أم القرى ، وبدأ أصحاب العقول الواعية يتقبلون هذه الدعوة بقلوب صافية متعطشة للتخلص من براثن الجاهلية ، وكان أبو بكر الصديق من الذين سمعوا دعوة الحق ، فكان أول الرجال إيماناً بدعوة الحق ، وسرعان ما بادرت الأسرة إلى إعلان إسلامها .

ثاني اثنين إذ هما في الغار ، ومجمع كل فضيلة ، الصديق الأكبر ، والخليفة الأول ، سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، الذي قال فيه القائل فأجاد :

لا تُفضل على العتيق صديقاً فهو صديق أحمد المختار
وإن ارتبت في الأحاديث فاقراً ثاني اثنين إذ هما في الغار

لم تكن هذه المرأة معروفة في صدر الإسلام إلا بين أهلها وعشيرتها الأقربين، ولكن رحلة الشهرة بدأت من ذلك اليوم الذي أصبحت فيه زوجة للخليفة الراشد الأول أبو بكر الصديق، عليه سحائب الرحمة والرضوان .

هي حبيبة بنت خارجة بن زيد الخزرجية ^(١) .

وأماها : خولة بنت عمرو بن قيس ، وهي أخت سعد بن الربيع لأمه .

ولما آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار ، آخى بين أبي بكر الصديق وخارجة بن زيد والد حبيبة .

وخرج أبو بكر الصديق مع رسول الله ﷺ وخارجة بن زيد إلى أحد ، فنال

(١) الطبقات (٨/٤٦٢) ، وتاريخ الإسلام (٤/١٣٦) ، وتهذيب التهذيب (١٢/٤٧٧) .

خارجة بن زيد الشهادة في سبيل الله ، وتكلم بعد موته ﷺ .

ورأى رسول الله ﷺ رجلاً يمشي أمام أبي بكر فقال له : «أتمشي أمام من هو خير منك ؟ إن أبا بكر خير من طلعت عليه الشمس وغربت» .

وشهد الصديق مع رسول الله ﷺ وقعة الخندق ، وبني قريظة ، وصلاح الحديبية ، وعمرة القضاء ، وأعطى رسول الله ﷺ خادمه ربيعة بن كعب الأسلمي أرضاً ذات نخل ، وأعطى أبا بكر الصديق أرضاً .

فاختلفا في حد ربيعة بن كعب ، فكان بينه وبين أبي بكر كلام ، فقال أبو بكر لربيعة كلمة كرهها وندم وقال : يا ربيعة ، ردّ علي مثلها حتى تكون قصاصاً .

فقال ربيعة بن كعب : لا أفعل .

فقال الصديق : لتقولن أو لأستعدين عليك برسول الله ﷺ .

فقال ربيعة بن كعب : ما أنا بفاعل .

ورفض أبو بكر الأرض ، وانطلق النبي ﷺ ، وانطلق ربيعة وراءه ، فجاء ناس من أسلم ، فقالوا : يرحم الله أبا بكر ، في أي شيء يستعدي عليك رسول الله ﷺ ، وهو الذي قال لك ما قال ؟

فقال ربيعة بن كعب الأسلمي :

أتدرون من هذا ؟ هذا أبو بكر الصديق ، وهو ثاني اثنين ، وهو ذو شيبة في الإسلام ، فإياكم أن يلتفت فإياكم تنصروني عليه ، فيغضب فيأتي رسول الله ﷺ ، فيغضب لغضبه ، فيغضب الله لغضبهما فيهلك ربيعة بن كعب .

فقالوا: فما تأمرنا؟ قال ربيعة: ارجعوا.

فانطلق أبو بكر الصديق إلى رسول الله ﷺ وتبعه ربيعة، فحدثه الصديق بما كان، فرفع الرسول ﷺ رأسه وقال: «يا ربيعة، مالك وللصديق؟»، قلت: يا رسول الله، إنه قال لي كلمة كرهتها، ثم طلب إليّ أن أردّها عليه، فتكون قصاصًا، فأبيت، فقال الرسول ﷺ: «أحسن يا ربيعة، لا تردّها عليه، ولكن قل: غفر الله لك يا أبا بكر»، فولى أبو بكر وهو يبكي (١).

استوصي بها خيرًا:

جاءت اللحظات الأخيرة في حياة أبي بكر الصديق ﷺ، حيث الاحتضار وحصول السكرات، ومفارقة الأهل والأحباب، وترك الأسباب، ومواجهة الحساب.

وفي شدة تلك اللحظات لا يغفل الصديق عن كلام رب الأرض والسماء، ويذكر ابنته عائشة ؓ بعظيم الآيات، تقول عائشة ؓ: لما حضرت أبا بكر الوفاة قلت كلمة من قول حاتم:

لعمرك ما يغني الثراء عن الفتى إذا حشرت يوما وضاق بها الصدر
فقال أبو بكر: لا تقولي هكذا يا بُنية، ولكن قولي:

﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ١٩].

انظروا ثوبَي هذين، فإذا مت فاغسلوهما وكفنوني فيهما، فإن الحي أحوج إلى الجديد من الميت (٢).

(١) إيقاظ الهمم، د/ توفيق (ص ١٢٠).

(٢) أخرجه أحمد في الزهد (ص ١٣٦)، وابن سعد في الطبقات (٣/ ١٩٦).

وكان سيدنا أبو بكر الصديق، عليه سحائب الرضوان قد وهب لابنته عائشة رضي الله عنها أرضاً بالعالية، وكان النبي صلى الله عليه وآله أعطاه إياها فأصلحها وغرس فيها، ثم جعلها لابنته أم المؤمنين رضي الله عنها، فلما حضرته الوفاة، وكانت زوجته حبيبة بنت خارجة حاملاً، ففكر في رد المال على ورثته، وكان شديد الحرص على أن يدع هذه الدنيا بريئاً، وعلى أن يلقي الله تعالى، وقد ألقى عن نفسه ما يخشى أن يؤاخذ به، عندئذ دعا ابنته عائشة رضي الله عنها وقال لها:

يا بنية إني كنت نحلّتك - أعطيتك - أرضي التي تعلمين، وإنك لم تحوزيها، وأنا أحب أن تردّيها عليّ، فيكون ذلك قسمة بين ولدي على كتاب الله تعالى، فإنما هو مال الوارث، وإنما هما أخواك وأختاك.

قالت عائشة - رضوان الله عليها: هذه أختي أسماء قد عرفتها، فمن الأخرى؟ قال رضوان الله عليه: ذو بطن ابنة خارجة، فقد ألقى في روعي أنها جارية، فاستوصي بها وأمها خيرًا.

فكانت كما قال الصديق رضي الله عنه، وقد ولدت حبيبة بنت خارجة أم كلثوم بنت أبي بكر رضي الله عنه (١).

أم كلثوم وتربية عائشة:

حافظت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها على وصية أبيها، وحفظتها في أختها «أم كلثوم»، وكانت بها مستوصية، فلما شبت أم كلثوم عن الطوق، أخذت

(١) انظر: الطبقات (٣/١٩٤، ١٩٥)، ونسب قريش (ص ٢٧٨)، والحيوان للجاحظ

(٥٠/٦)، وتاريخ الإسلام للذهبي (٣/١٢٠).

عائشة رضي الله عنها ترعاها رعاية الأم الرؤوم ، وتحفظها من كل ما يدعو إلى إزعاجها ، وراحت تعلمها وتلقنها المعارف ، حتى تخرجت في مدرستها الفقهية والحديثية ، وروت عنها ، وأضحت من حافظات حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن النسوة الثقات اللاتي يؤخذ عنهن الحديث .

وقد روى عن أم كلثوم بنت أبي بكر جمع من أهل العلم والمعرفة والفضل ، وفي مقدمتهم : سيدنا جابر بن عبد الله الأنصاري الصحابي المشهور .

وروى عنها ابنها: إبراهيم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي ، وطلحة بن يحيى بن طلحة ، والمغيرة بن حكيم الصنعاني ، وجبير ابن حبيب وغيرهم ^(١) .

أترغبين عن أمير المؤمنين؟

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه صاحب الأمر في الجزيرة العربية ، وصاحب الغلبة على ملك الأكاسرة والقياصرة والفراعنة ، ومدبر الحكم في المدينة المنورة ، وكان يعيش عيشة الكفاف بحظ لا يتمناه كثير من الرجال ، ويزهد فيه كثير من النساء .

وهذا ما كان وحدث لأم كلثوم بنت أبي بكر مع أمير المؤمنين عمر ، فقد خطب سيدنا عمر بن الخطاب أم كلثوم إلى أختها عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ، وأرسل لعائشة في ذلك فقالت له : الأمر إليك ، ثم سألت أختها أم كلثوم ، فأبته وقالت : لا حاجة لي فيه ، فزجرتها عائشة وقالت : أترغبين عن أمير

(١) تهذيب التهذيب لابن حجر (١٢/٤٧٧) .

المؤمنين؟

قالت : نعم ، إنه خشن العيش ، شديد على النساء ، ولا طاقة لي بذلك .
وكرهت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، أن تجيبه بالرفض ، فأرسلت عائشة إلى عمرو بن العاص رضي الله عنه ، فأخبرته ووسطته أن يحتمل لعمر برفقه وحسن تدبيره ، فقال عمرو : أكفيك ^(١) .

فأتاه عمرو وقال له : يا أمير المؤمنين ، بلغني خبر أعوذ بالله منه .

قال : وما هو؟

قال : خطبتُ أم كلثوم بنت أبي بكر .

قال : نعم ، أفرغبت عني ، أم رغبتَ بها عني؟

قال : لا واحدة منهما، ولكنها حدثت نشات تحت كنف أم المؤمنين في لين ورفق ، وفيك غلظة ونحن نهابك ، وما نقدر أن نردك عن خلق من أخلاقك ، فكيف بها إن خالفتك في شيء فسطوت بها ، كنت قد خلفت أبا بكر في ولده بغير ما يحق عليك؟

ولكن عمر العبقرى الذكى فهم أن عمرو بن العاص لا يقدم على هذه الوساطة بغير موسط ، وأن الأمر ممانعة على نحو من الأنحاء ، فسأله كأنه يستطلع ما وراءه من هذه الممانعة وقال : فكيف بعائشة وقد كلمتها.

قال : يا أمير المؤمنين ، أنا لك بها ، وأدلك على خير منها أم كلثوم بنت علي

(١) الأغانى (١٣/١٣٩) ، والعقد الفريد (٦/٨٩ ، ٩٠) .

ابن أبي طالب ، تعلق منها بنسبٍ من رسول الله ﷺ .

زواج مبارك :

تزوج أم كلثوم بنت أبي بكر سيدنا طلحة بن عبيد الله ﷺ ، فولدت له زكريا ، ويوسف ، وعائشة بنت طلحة .

وعاشت أم كلثوم مع زوجها طلحة عيشة المؤمنة العابدة الراضية ، وكانت خير زوجة ، وخير أم .

فقد كانت أم كلثوم - رحمها الله - ورثت عن أبيها الكرم ، ومن كأبي بكر في الكرم والجود ؟ كما نشأت في تربية أختها عائشة ﷺ ، وعائشة مشهورة بالجود والكرم ، مشهود لها بهذه الفضيلة ، ثم إن طلحة - زوج أم كلثوم - قد سماه النبي ﷺ طلحة الخير ، وطلحة الفياض ، وطلحة الجود ، وبين هذه الخصال الحميدة عاشت أم كلثوم تشجع زوجها على المضي في الإنفاق في وجوه الخير ، وشهد شاهد من أهل طلحة لأم كلثوم بهذا ، فقد ذكر موسى بن طلحة بن عبيد الله أن أبا طلحة ﷺ أتاه مالٌ من حضر موت سبعمئة ألف فبات ليلته يتململ .

فقال له أم كلثوم : ما لك يا أبا محمد ؟

قال : تفكرتُ منذ الليلة ، فقلتُ : ما ظنُّ رجلٍ بربه يبيت وهذا المال في بيته ؟

فقلت : فأين أنت من بعض أخلائك ، فإذا أصبحت فاقسمها ، فقال لها ،

وقد سُر برأيها ، وذهب عنه ما كان يجده : رحمك الله إنك موفقة بنت موفقي ،

قال موسى : وهي أم كلثوم بنت أبي بكر ، فلما أصبح دعا بجفان فقسمها بين

المهاجرين والأنصار ، فبعث إلى علي بن أبي طالب منها بجفنة .

فقال له أم كلثوم : يا أبا محمد ، ما كان لنا في هذا المال نصيب ؟

قال : فأين كنت منذ اليوم ؟ فشأنك ما بقي .

قالت أم كلثوم : فكانت صرة فيها نحو ألف درهم ^(١) .

ولا شك في أن أم كلثوم قد سارعت هي الأخرى بالإنفاق لتحوز فضيلة الكرم ، فبعثت بالدرهم إلى مستحقيها .

وظلت أم كلثوم مع زوجها طلحة إلى أن قُتل شهيداً يوم الجمل سنة (٣٦هـ) ، عندئذٍ أخرجتها عائشة إلى مكة ، وورد أن عائشة رضي الله عنها حجت بأختها أم كلثوم في عدتها من طلحة ^(٢) .

بعد طلحة :

بعد مقتل طلحة رضي الله عنه تزوجت أم كلثوم عبد الرحمن بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي ، عم الشاعر المشهور عمر بن أبي ربيعة ، فولدت له عثمان ، وموسى ، وإبراهيم ، وأم حميد ، وأم عثمان .

وظلت أم كلثوم بنت أبي بكر - رحمها الله - تتابع حياتها في المدينة تحت ظلال فقه أختها عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها .

ولم تُشر المصادر التي معنا إلى تحديد وفاة أم كلثوم ، ولكن الدلائل تُشير إلى

(١) سير أعلام النبلاء (٣١ / ١) بتصرف يسير .

(٢) الطبقات الكبرى (٨ / ٤٦٢) .

أن وفاتها كانت بعد سنة (٥٨هـ) ، أي بعد وفاة أختها عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ، وكانت الوفاة في المدينة المنورة ، ودفنت بالبقيع رضي الله عنها .

رحم الله أم كلثوم بنت أبي بكر ، وأسكنها الفردوس الأعلى من الجنان ، وما أجمل قول الإمامين النووي - والسبكي عنها: إنها خير معلمة ، ومحدثة ، وحق لها أن تكون قدوة لغيرها من أهل الجود والفضل والكرم ، ورضي الله عنها وعن آبائها الكرام .



الزرقاء بنت عدي رضي الله عنها

فصيحة ، بليغة ، شجاعة ، جريئة .

وفدت على معاوية بن أبي سفيان ، وكان بينهما حوار مشهور .

الزرقاء بنت عدي رضي الله عنها

عام الجماعة :

عندما يُذكر عام الجماعة ^(١) تغمر الإنسان مشاعر غير محدودة السرور والابتهاج ، ويمسُّ كأن الدنيا قد اتسعت من حوله بعد أن كانت تضيق به - أو يضيق بها - ويحسُّ أن العالم كله كان ينتظر بزوغ هلال العيد ، فغمرته الفرحة برؤيته .

وإذا ذكر عام الجماعة ، فلا بد أن يُذكر معه سيدنا معاوية رضي الله عنه ، لأن جماعة المسلمين التفت حوله ، ورضيت به أميراً عليها ، وابتهج خيار المسلمين بهذه الوحدة الجامعة بعد تلك الفرقة المشتتة ، التي استمرت حيناً من الدهر ، تعصفُ بالناس ذات اليمين وذات الشمال ، وظلت الفرقة تُعَبِّثُ بالأهواء وتفرق الكلمة ، وتزرع الضغائن في النفوس إلى أن قبض الله ﷻ لهذه الفتنة أن تُدفن وتزول ، ومن ثم أجرى الله سبحانه الصلح على يدي سيدنا الحسن بن علي رضي الله عنه ، والتأمت وحدة المسلمين ، وبهذا تحققت نبوءة رسول الله ﷺ في حفيده الحسن في الحديث الذي رواه أبو بكر قال : رأيت رسول الله ﷺ على المنبر ، والحسن إلى جنبه وهو يقول : «إن ابني هذا سيد ، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين» ^(٢) .

(١) كان عام الجماعة في سنة (٤٤١هـ) .

(٢) أخرجه البخاري (٤٧/٧) ، والترمذي (٣٧٧٥) ، والنسائي (١٠٧/٣) ، وأبو داود (٤٦٦٢) ، وأحمد (٣٨/٥ ، ٤٤ ، ٤٩ ، ٥١) .

وأصلح الله ﷻ بالحسن بين أصحاب علي ومعاوية ؓ، إلا أن هذا الصلح لم يؤثر شيئاً في تلك القلوب التي أُسست على حب سيدنا علي رضوان الله عليه، وكان معاوية ؓ يعرف هذا من محبي علي ؓ، رجالاً كانوا أو نساء، فقد روى صاحب «العقد الفريد» قال :

قدم أبو الطفيل على معاوية فقال له : ما بلغ من حبك لعلي ؟

قال : حب أم موسى لموسى .

قال : فما بلغ من بكائك عليه ؟

قال : بُكاء العجوز الثكلى ، والشيخ الرقوب، وإلى الله أشكو التقصير .

هذا ولم تكن النساء بمعزل عن المشاركة في الأحداث التي مرت في صدر الإسلام ، وخلال العصر الراشدي ، وخصوصاً في خلافة علي ؓ، فقد كان للمرأة نصيب في ذلك التاريخ ، وكان لها كذلك صوت مسموع ، ورأي نافذ في الخلافة والخلفاء والأمراء والولادة ، وعقيدة تنافح عنها بالسنان إن استطاعت ، أو باللسان ، وتردد في الجو الاجتماعي في ذاك العصر أصوات نسائية كان لها الأثر البالغ في ميادين القتال ، والأثر البالغ في ميادين البلاغة ، وفي مجالس معاوية ؓ .

وقد عرفنا عددًا من النساء الوافدات على معاوية، وهن كثيرات منهن : سودة بنت عمارة ، وأم الخير بنت الحريش البارقية ، وأم سنان بنت خيثمة وغيرهن ممن أمتعن الأسماع ، وملائن الدنيا ، وشغلن الناس ، وأخذن حيزًا من صفحات التاريخ سجلن فيها آثارهن التي خلدت ذكراهن على مرّ الأيام .

واليوم نتعرف أخبار واحدة من هؤلاء ، لا تقل مكانة وشهرة عمن سبقنها
 ألا وهي الزرقاء بنت عدي بن مرة الهمدانية الكوفية ، وهي من ذوات
 الشجاعة والبسالة ، وعمن خضعت لها البلاغة ، وانقادت لها مقاليد الكلام ،
 وكان لها مع معاوية خبر دل على مكنون فصاحتها وشجاعتها^(١) .

أيكم يحفظُ كلام الزرقاء ؟

كان مجلس معاوية بدمشق يجمع عددًا من وجوه بني أمية ومن غيرهم ، ممن
 عُرف بالمكانة والأصالة والصدارة بين الناس ، فلا خير فيمن صدرته المجالسُ
 إذا لم يكن من سادة الناس وأشرفهم ، كان للخلفاء والولاة مجالس يجتمع
 إليهم فيها أهل سُوراهم ، كما كانت لهم مجالس عامة يأذنون للناس في الدخول
 عليهم ، روي أن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتب إلى أبي موسى الأشعري
 وهو بالبصرة قال : بلغني أنك تأذن للناس جمعًا غفيرًا ، فإذا جاء كتابي هذا
 فاذن لأهل الشرف ، وأهل القرآن والتقوى والدين ، فإذا أخذوا مجالسهم
 فاذن للعامة ، فكان معاوية يسمر مع هؤلاء الأعلام ، يتذكرون ويتذكرون
 من الأخبار - أحيانًا ما مضى منها وغبر ، وذات ليلة ... سمر مع جماعة من
 وجوه قومه ، فذكر كلامًا للزرقاء بنت عدي الكوفية ، وما كانت تنشره من
 حكم بين معترك الصفوف ولمعان الأسنة والسيوف ، كانت تقول :

إن المصباح لا يضيء في الشمس ، والكواكب لا تبصر في القمر ، من استرشدنا
 أرشدناه ، ثم طافت بمخيلته صورتها وهي راكبة على جمل أحمر ، وهي تخطب

(١) تاريخ دمشق (ص ١٠٩) ، والأعلام (٣/ ٤٤) .

في بني همدان - قومها - ، وكيف كانت تؤجج حماستهم وتحضهم على النزال في يوم صفين .

وانتبه معاوية من استغراقه الذي لم يدم لحظات ، وعرض ما يدور بخلده على جلسائه ، وتذاكر معهم نُتفاً من كلامها ، فإذا بعددٍ من الحاضرين يحفظون كلامها ، وبعضهم لا تزال في جعبته أثارةً من قول الزرقاء يومئذٍ عندها توجه إليهم قائلاً :

أتذكرون الزرقاء بنت عدي الكوفية ؟

قالوا : نعم يا أمير المؤمنين .

فقال : أيكم يحفظُ كلامها يوم صفين ؟

فأجاب بعض الحاضرين : كلنا نحفظه يا أمير المؤمنين ، ولا نغادر معناه ، وما كانت تقوله يوم ذلك .

وصمت معاوية رضي الله عنه وهو يتفرس في وجوه القوم ، ثم قال لهم : إذا فما تشيرون عليّ في أمر الزرقاء ؟ فقال بعضهم : نشيرُ عليك بقتلها .

فقال معاوية بهدوء : بس الذي أشرتُم به عليّ .

ثم تابع مستدركاً : أيحسُنُ بمثلي أن يتحدث الناس عليّ أني قتلت امرأة بعد أن ملكت ، وصار الأمر إليّ ، لا والله لا يكون هذا أبداً .

ولم ينتظر معاوية رضي الله عنه حتى يتنفس صُبحُ تلك الليلة ، بل دعا كاتبه في الليل وأمره أن يكتب إلى واليه بالكوفة ، أن أوفد عليّ الزرقاء بنت عدي الهمدانية

مع ثقةٍ من محارمها، وعدة من فرسان قومها، وأمره أن يمهد لها وطاءً - فراشاً -
لينا ، ويسترها بستر خصيف - غليظ - ويوسع لها في النفقة .

فلما ورد الكتاب إلى عامل الكوفة ، ركب إلى الزرقاء ، وأقرأها كتاب
معاوية رضي الله عنه ، فقالت : أما أنا فغيرُ زائغةٍ عن طاعة أمير المؤمنين ، وإن كان جعل
الخيار لي فإني لا أبرح عن بلدي هذا ، وإن كان حتم الأمير فالطاعة له وهو
أولى بها .

فقال الوالي : الأمرُ أمر أمير المؤمنين .

عندئذٍ حملها الوالي وأحسن جهازها ، ثم أحسن صحبتها ، كما أمره معاوية ،
وسيرها إلى دمشق مقر الخلافة ومناط الحكم .

الزرقاء ومعاوية :

لما قدمت الزرقاء على معاوية بدمشق ، استأذنت عليه ، فأذن لها ، فدخلت
وأفشت السلام على من كان .

فقال لها معاوية : وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ، مرحباً بك وأهلاً ،
قدمت خير مقدم قدمه وافد ، كيف حالك يا خالة ؟ وكيف كان مسيرك ؟

قالت : بخير يا أمير المؤمنين ، أدام الله عليك النعمة ، فقد كان مسيري خير
مسير إذ كنتُ ربيبة بيت أو طفلاً ممهداً له .

قال : بذلك أمرتهم .

وبعد أن اكتمل المجلس ، وأخذ كل واحد مكانه ، قال لها معاوية : هل

تعلمين لم بعثتُ إليك يا خالة؟ قالت: سبحان الله - يا أمير المؤمنين - وأنتى لي بعلم ما لم أعلم، وهل يعلم ما في القلوب إلا الذي خلقها؟ قال: بعثتُ إليك لأسألك هل أنت الراكبة الجملة الأحمر يوم صفين، وأنت بين الصفين توقدين الحرب، وتحضين على القتال، وتحطبين في الناس؟ فما حملك على ذلك؟

قالت: يا أمير المؤمنين، مات الرأس وبُتر الذنْبُ، ولن يعود ما ذهب والدهر ذو غير - أحداث - ومن تفكر أبصر، والأمر يحدث بعده الأمر.

فقال لها معاوية: فهل تحفظين كلامك يوم صفين؟

قالت: لا والله، لا أحفظه، ولقد أنسيته فإني قد: ﴿وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاسْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم: ٤]، ﴿وَقَدْ بَلَغْتَ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم: ٨]، وقد ولت الأيام يا أمير المؤمنين.

قال: ولكنني أحفظه لله أبوك يا زرقاء، لقد سمعتك يومئذ حين كنت تقولين:

أيها الناس، ارجعوا وارجعوا، قد أصبحتم في فتنَةٍ غشتكم جلايب الظلم، وحادت بكم عن قصد المحجة - الطريق - فيا لها من فتنَةٍ عمياء صماء لا يُسمعُ لقائلها ولا يُنقادُ لسائقها.

أيها الناس: إن المصباح لا يضيء في الشمس، والكوكب لا يبصر في القمر، وإن البغل لا يسبق الفرس، ولا يقطع الحديد إلا الحديد ألا من استرشدنا أرشدناه، وأخبرناه أن الحق كان يطلبُ ضالته فأصابها فصبراً يا معشر المهاجرين والأنصار، فكأن قد اندمل شعب الشتات، والتأمت كلمة العدل،

وغلب الحق على باطله ، فلا يعجلن أحدا فيقول : كيف وأنى ؟ ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: ٤٤] .

ألا وإن خضاب النساء الحناء ، وخضاب الرجال الدماء ، وللصبر في خير الأمور عواقب .

إيهاً حسبك - إلى الحرب قدمًا غير ناكسين ولا متناكسين ، وهذا يوم ما له بعده (١) .

وتوقف معاوية عن الكلام ، بينما كان المجلس بأكمله قد غرق في صمت وهدوء ، يسمع لما يقوله ويعيده معاوية من كلام الزرقاء وهي أمامه لا تحفظه .
اذكري حاجتك :

بعد أن سرد معاوية رضي الله عنه خطبة الزرقاء وكلامها يوم صفيين قال لها : يا زرقاء لقد شكرت علياً في كل ما فعل .

فقالت : أحسن الله بشارتك يا أمير المؤمنين ، وأدام سلامتك فمثلك والله بَشْرٌ بخيرٍ وسرٍّ جليسه .

فقال لها متعجباً : أو قد سرّك ذلك يا زرقاء ؟

قالت : نعم ، والله لقد سرني قولك فأنى لي بتصديق الفعل ؟

فضحك معاوية رضي الله عنه وقال لها : والله يا زرقاء لوفاءكم لعليٍّ بعد موته أعجب

(١) عن تاريخ دمشق (ص ١١٠، ١١١)، والعقد الفريد (٢/١٠٦، ١٠٨) وأعلام النساء (٢/٣٣، ٣٤) .

إليّ من حبكم له في حياته .

ثم ساد الصمتُ في المجلس وألقى معاوية رضي الله عنه نظرات فاحصة في وجوه الحاضرين ، فألفاها قد أُعجبت بفصاحة هذه المرأة البدوية التي تتحدثُ دون خوف أو تهيب، لا بل تقولُ رأيها في جرأة وصراحة تامةٍ ، عندئذٍ قال لها معاوية رضي الله عنه : والآن اذكري حاجتك يا خالة .

وأجابته بكلام موجز يجمع بين الفصاحة والمديح فقالت : يا أمير المؤمنين ، إني امرأة آليتُ ألا أسأل امرأاً أمراً أعنت عليه شيئاً .

فأعجب معاوية رضي الله عنه بإجابتها ، وسرَّ لفصاحتها وقال : صدقت يا زرقاء .

ثم أمر لها وللذين جاؤوا معها بجوائز وكساء وأحسن عطاءها - خاصة - وردها مكرمة بعد أن أقطعها ضيعة - في الكوفة - أغلتها أول سنة ستة عشر ألف درهم .

ويصمت التاريخُ بعد هذه المحاورة فلم يعد ينقل لنا من أخبار الزرقاء شيئاً ، إلا أنه نعاها في سنة ستين من الهجرة وقال : إنها توفيت ودُفنت في الكوفة .

وبعد فهذه امرأة فريدة بين نساء عصرها ، كان صوتها مسموعاً في بلاط الخلفاء ، وتركت حديثاً مدوياً في أسماع التاريخ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

رحم الله الزرقاء بنت عدي ، وأنعم عليها في جنات النعيم .



الرَّبِيعُ بِنْتُ النَّضْرِ الْأَنْصَارِيَّةُ

قال رسول الله ﷺ :

«إنها جنان في الجنة ، وإنَّ ابنك أصاب الفردوس الأعلى» .

أم الشهيد .

وأخت الشهيد .

الربيع بنت النضر الأنصارية رضي الله عنها

البداية الخيرة:

الإيمان هبة الله سبحانه يمنُّ بها على من يشاء من عباده ، وقد شاء الله أن يجعل الخير في أهل المدينة الذين استجابوا لدعوة الإسلام ، وتكونت منهم ومن المهاجرين جماعة خيرة نمت نموًّا طبيعيًّا سليمًا ، على أساس من التقوى كما تنمو الشجرة الباسقة الطيبة ذات الأصل الثابت والجذر العميق .

هذه الجماعة النادرة حففتها العناية الإلهية ، وعززتها بالصبر والإيمان لتحقيق مشيئة الله بها في الأرض ، فكانت خير أمة أخرجت للناس ، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر .

في المدينة المنورة وفي تلك المجموعة الفريدة السعيدة نشأت الصحابية الجليلة الربيع بنت النضر الأنصارية الخزرجية النجارية ^(١) ، إحدى السابقات إلى الإسلام من نساء الأنصار الفاضلات وإحدى النساء الشهيرات من ذوات الشأن في الإسلام ، ومن اللاتي رباهن الإسلام تربيةً خيرةً مباركة ، فجادت بالعطاء والخير ، فكانت من كرائم الأنصار ، تتعلم النساء من سيرتها المعطارة صدق الإيمان ، وجلال الصبر والإخلاص لله الواحد القهار ، فقد كان ولاؤها للإيمان يفوق حد الإعجاب .

الشجرة الطيبة :

الربيع بنت النضر ، من الصحابيات اللاتي عشن في ظل الإسلام ، ونبتن

(١) الطبقات (٨/ ٤٢٤) ، وتهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٢٤٤) ، والإصابة (٤/ ٢٩٤) .

نباتًا حسنًا من شجرة دانية القطوف ، مباركة الثمر ، فهي أخت أنس بن النضر الصحابي المشهور ، وعمة أنس بن مالك بن النضر خادم النبي ﷺ .

وكانت الرُبَيْعُ متزوجة من الحارث «سراقة بن الحارث النجاري» ، فولدت له حارثة ، وبه تكنى ، وأم عمير ، وكان للرُبَيْعِ أخت صحابية تُدعى : أم حكيم بنت النضر ، ثم أسلمت أم حكيم وبايعت رسول الله ﷺ .

ولما أسفر نور الإسلام عن ضيائه نعمت أم حارثة بريعه ، وانضمت إلى مواكب السابقات ففاحت فضائلها ، وتألقت بمواهبها الرائعة في المواقف الإيمانية ، ودوّن التاريخ أعمالها لتبقى زادًا وضياء لمن يُردن السّير على نهجها ، والتأسي بصدقها وإيمانها .

تربية فريدة :

الرُبَيْعُ ﷺ ممن أكرمهن الله - سبحانه - وأحسن مثوبتهن ، فقد أحسنت تربية ابنها وابنتها ، وأعدت حارثة ليكون من جند الحق ، فغرست فيه الفضيلة وفي مقدمتها حب النبي ﷺ ، وحب الاستشهاد في سبيل الله ﷻ .

وكان حارثة بن سراقة - ابنها - من الفتيان الذين عمر الإيمان قلوبهم ، وشغلتهم محبة الشهادة في سبيل الله عما سواها ، فقد أثار أن رسول الله ﷺ قال له يومًا وقد استقبله :

«كيف أصبحت يا حارثة؟» .

قال : أصبحت مؤمنًا بالله حقا .

قال : «انظر ماذا تقول فإن لكل قول حقيقة» .

قال : يا رسول الله ، عزفت نفسي عن الدنيا ، فأسهرت ليلي ، وأظمأت نهاري ، فكأنني بعرش ربي بارزًا ، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأني أنظر إلى أهل النار يتعاونون فيها .

قال : «أبصرت فالزم عبد» ، أي أنت عبد بذر الله الإيمان في قلبه .

فقال حارثة : ادع الله لي بالشهادة .

فدعا له رسول الله ﷺ بذلك ^(١) .

وجاءت غزوة بدر وخرج حارثة مصحوبًا بدعوات أمه ، وكان حارثة يدرج في باكر شبابه ، أو في منتصف الطريق بين الصبا والشباب ، خرج مع النبي ﷺ منضويًا تحت لواء التوحيد ، فقد كان رغم حداثة سنه يتحين فرصة سانحة لنصرة قضية الإسلام ، سالكًا في ذلك مسالك الرجال ، فلم يكن هو أقل حماسة منهم ، ولا كانوا هم أكثر حرصًا على نُصرة القضية .

كان يعي دواعي الخروج إلى بدر ، ويدرك هواتفه ، فانطلق مع الجيش تسبقه سعادته ، وعند بئر بدر خرج في مهمة استكشافية لجيش العدو ، وتأمين الحوض الذي بناه المسلمون قبل الحرب ، وفي هدوء ووداعة رفع بعض الماء إلى فيه ، وارتشف منه شيئًا ، وإذا بسهم يرمز إلى مهارة راميه يقع في حنجرتة ، يقطع عليه شربته وأنفاسه وحياته .

ووسط نظرات من حوله التي عانقتة في دهش ترنحت ساقاه من تحتته ، وسقط تذرته جموع الملائكة ثم زفته في رحلة الصعود وهو ينشد مقعده في

(١) عن السيرة الحلبية (٢/٤٠٥) ، بتصرف يسير جدًا .

الفردوس الأعلى .

كان أوّل قتيل من المسلمين في المعركة ، مهجعُ مولى عمر بن الخطاب رمي بسهم فقتله ، ثم رمي بعده حارثة بن سراقة بسهم غرب «أي لا يُعرف راميه» ، فأصاب نحره فقتله .

وطار الخبر في آفاق المدينة الطيبة ، ووصل إلى مسامع أمه الرُّبيع شجياً شقيّاً، طعن سمعها ، ومزق نياط قلبها ، وجلل دنياها بحزن ممرور ، فكيف يتزع حارثة من دنياها بهذه السهولة وهذا البدار ؟ وكيف يُحال بينها وبينه إلى الأبد ؟

«يا أم حارثة إنها جنانُ» :

بلغ أم حارثة وابتتها خبر استشهاد حارثة وهما بالمدينة ، فقالت أمه : والله لا أبكي حتى يقدم رسول الله ﷺ فأسأله إن كان ابني في الجنة لم أبك عليه ، وأصبر وأحتسب ، وإن كان في النار بكيتة .

وقدم النبي ﷺ من بدر منصوراً فجاءته - كما في صحيح البخاري - وقالت : يا رسول الله ، ألا تحدثني عن حارثة ، فإن كان في الجنة صبرتُ ، وإن كان في غير ذلك اجتهدتُ عليه في البكاء ؟

فقال ﷺ : «يا أم حارثة ، إنها جنان في الجنة ، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى»^(١) .

ورجعت أم حارثة وهي تضحكُ وتقول : بخٍ بخٍ لك يا حارثة ، ثم دعا رسول الله ﷺ بإناء من ماء فغمس يده فيه ومضمض فاه ، ثم ناوله أم حارثة

(١) رواه البخاري (٢٦/٦) ، في الجهاد (٣٠٤/٧) ، وفي المغازي و(١١/٤١٥) في الرقاق .

فشربت ، ثم ناولت ابنتها فشربت ثم أمرهما ينضحان في جيوبهما ففعلتا ، فرجعتا من عند النبي ﷺ وما بالمدينة امرأتان أقر عيناً منها ولا أسر^(١) .

وذلك لعلمها بشرف مصيره ، فهنيئاً لهما حُسن الصبر وقوة الإيمان ، ومثل أم حارثة فلتكن النساء .

أتكسر ثنية الربيع؟

جرى خلاف بين الربيع أم حارثة وبين جارية من الأنصار ، فكسرت الربيعُ ثنية تلك الجارية ، فطلب أهلها القصاص ، وطلب أهل الربيع العفو فأبوا ، فأتوا النبي ﷺ فأمر بالقصاص ، فقام أخوها أنس بن النضر ﷺ فقال : يا رسول الله ، أتكسر ثنية الربيع؟ لا والذي بعثك بالحق ، لا تكسر ثنيها ، فألهم الله ﷻ القوم فعفوا وصفحوا بعد أن امتنعوا ، فقال رسول الله ﷺ : « إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره ، منهم أنس بن النضر »^(٢) .

أخت الشهيد :

لم يشهد أنس بن النضر بدرًا ، فشق عليه ذلك وقال : أول مشهدٍ شهده رسول الله ﷺ غبت عنه ، ولئن أراني الله مشهدًا فيما بعد مع رسول الله ﷺ ليرين الله ﷻ ما أصنع .

وتحقق ما أراد ، روى أنس بن مالك ﷺ فقال :

« غاب عمي أنس بن النضر عن قتال بدر فقال : يا رسول الله ، غبت عن

(١) عن السيرة النبوية لأحمد زيني دحلان (١/٣٣٧) بتصرف يسير .

(٢) أسد الغابة (٥/٤٥٢) ، والإصابة (٤/٢٩٤) ، والسيرة الحلبية (٥٢٧) ، وانظر : صحيح

البخاري (٥/٢٢٤) ، ومسلم (٥/١٠٥ ، ١٠٦) .

أول قتال قاتلت فيه المشركين ، لئن أشهدني الله قتال المشركين ليرين الله ما أصنع .

فلما كان يوم أحد، وانكشف المسلمون قال : اللهم إني أعتر إليك مما صنع هؤلاء - يعني أصحابه - وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء - يعني المشركين - ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ رضي الله عنه فقال له أنس بن النضر : يا أبا عمرو - كنية سعد - أين وأها - يعجب - لريح الجنة إني أجدها دون أحد ، فقَاتلهم حتى استشهد رضي الله عنه، فوجد في جسده بضع وثمانون بين ضربة وطعنة ورمية ، فقالت أخته عمتي الربيع بنت النضر : فما عرفت أخي إلا بينانه ، قال : فنزلت هذه الآية : ﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَجْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ وَمَا بَدَّلُوا بَدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣] .

قال : فكانوا يرون أنها نزلت فيه وفي أصحابه رضي الله عنهم ^(١) .

ورغم وقع الحدث المزلزل على نفس الربيع الحساسة إلا أنها استشرفت مقعد أنس في الفردوس .

ألم يذهب عن دنياه شهيداً سيّداً ، كما ذهب ولدها حارثة، إذأ لها أن تستدعي كلمات النبي صلى الله عليه وسلم :

«إنها جنان كثيرة إنه في جنة الفردوس» .

(١) أخرجه الإمام أحمد ، ورواه مسلم والترمذي ، والنسائي عن أنس بنحوه ، وانظر تفسير الخازن وبهامشه البغوي (٥/ ٢٤٧) ، وتفسير ابن كثير والقرطبي للآية (٢٣) من سورة الأحزاب .

واحتسبت أم حارثة أخاها أيضًا عند الله ﷻ ، ورجت الله أن يجعله رفيق ابنها في الجنة .

وتابعت أم حارثة رحلة العطاء والخير في حياتها فكانت مثال المرأة القدوة في الصبر والوفاء .

وقبل أن نودع أم حارثة ما أجمل أن نذكر أنها ممن روت الحديث الشريف ، وروى عنها ابن أخيها أنس بن مالك ﷺ .

وفي الختام نقول: رضي الله عنها وأرضاها، وجعلها في مستقر رحمته مع الصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا - وجعلها مع ابنها وأخيها - في الفردوس الأعلى .



الصَّعْبَةُ بنت الحضرمي رضي الله عنها

هي زوجة أبي سفيان بن حرب ، وأم طلحة بن عبيد الله .
قالت لابنها طلحة عندما حُصر الخليفة عثمان بن عفان :
إن عثمان قد اشتدَّ حصره ، فلو كلمته حتى ترد عنه .

الصَّعْبَةُ بِنْتُ الْحَضْرَمِيِّ رضي الله عنها

من حضرموت إلى مكة :

هل تعرفون هذا الفتى القرشي التيمي أحد العشرة المشهود لهم بالجنة ؟

عن عبد الرحمن بن عوف وسعيد بن زيد رضي الله عنهما ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
«عشرة في الجنة : أبو بكر في الجنة ، وعمر في الجنة ، وعثمان في الجنة ، وعلي في
الجنة ، والزبير في الجنة ، وطلحة في الجنة ، وعبد الرحمن بن عوف في الجنة ،
وسعيد بن زيد في الجنة ، وأبو عبيدة بن الجراح في الجنة» ^(١) .

وكان طلحة أحد أصحاب الشورى ، وكُتِّبَ الوحي .

عن طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه قال : سماني رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد «طلحة
الخير» ، وفي غزوة ذي العشيرة : «طلحة الفياض» ، ويوم حنين : «طلحة
الجود» ^(٢) .

إنه من قال فيه ، وفي حقه رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من أراد أن ينظر إلى شهيد يمشي
على رجليه ، فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله» .

ونحن الآن في رحاب سيرة أم طلحة «الصعبة بنت الحضرمي» ^(٣) ، وقبل
أن نتعرف على حياتها دعونا نلقي الأضواء على أسرتها واسم والدها .

(١) صحيح : رواه الترمذي (٣٧٤٧، ٣٧٤٨) ، وغيره .

(٢) رواه الطبراني في الكبير (١٩٧ - ٢١٨) ، والحاكم (٣/٣٧٤) ، وأسد الغابة (٢/٤٩١) .

(٣) أسد الغابة (٥/٤٨٩) ، والإصابة (٤/٣٣٧) .

الحضرميُّ : نسبة إلى حضرموت ، وحضرموت بلد باليمن ، والحضرمي هو عباد الله بن عماد ^(١) .

جاء من حضرموت إلى مكة المكرمة ، وسكنها .

وفي مكة لجأ إلى بني أمية وحالف حرب بن أمية والد أبي سفيان ، وكان لعبد الله الحضرمي ثلاثة أولاد : العلاء بن الحضرمي الصحابي المشهور ، من رجال الفتوح في صدر الإسلام ، يقال : إنه أول مسلم ركب البحر للغزو ، وولاه رسول الله ﷺ البحرين سنة (٨هـ) ، وجباية الصدقة ، وتوفي النبي ﷺ فأقره أبو بكر الصديق ، ثم عمر رضي الله عنه .

قيل : كان مجاب الدعوة ، وأنه خاض البحر بكلمات قاهن ، وكان يقول في دعائه : يا عليم ، يا حلیم ، يا عليُّ ، يا عظيم ، فيستجاب له .

عن سهم بن منجاب قال : غزونا مع العلاء بن الحضرمي دارين فدعا بثلاث دعوات فاستجيب له فيهن : نزلنا منزلاً فطلب الماء ليتوضأ ، فلم يجده ، فصلى ركعتين وقال : اللهم إنا عبيدك ، وفي سبيلك نقاتل عدوك ، اللهم اسقنا غيثاً نتوضأ منه ونشرب ، فإذا توضأنا لم يكن لأحد فيه نصيب غيرنا ، فسرنا قليلاً فإذا نحن بهاء حين أقلعت عنه السماء ، فتوضأنا منه وتزودنا ، وملأت إداوتي ، وتركتها مكانها حتى أنظر هل استجيب له أم لا ؟ فسرنا قليلاً ثم قلت لأصحابي : نسيت إداوتي ، فجئت إلى ذلك المكان فكأنه لم يصبه ماء قط ، ثم سرنا حتى أتينا دارين والبحر بيننا وبينهم ، فقال : يا عليم ، يا حلیم ، يا عليُّ ، يا

(١) تهذيب الأسماء واللغات (١/٢٥٢) .

عظيم ، إنا عبيدك ، وفي سبيلك نقاتل عدوك ، اللهم فاجعل لنا إليهم سبيلاً ،
فتقحم البحر فخذنا ما يبلغ لبودنا ، فخرجنا إليهم ، فلما رجع أخذه وجع
البطن فمات ، فطلبنا ماء نغسله فلم نجده ، فلففناه في ثيابه ودفناه ، فسرنا غير
بعيد ، فإذا نحن بهاء كثير فقال بعضنا لبعضنا: لو رجعنا فاستخرجناه فغسلناه،
فرجعنا فطلبناه فلم نجده ، فقال رجل من القوم : إني سمعته يقول : يا علي يا
عظيم ، يا حليم ، أخف عليهم موتي أو كلمة نحوها ، ولا تطلع على عورتي
أحداً ، فرجعنا وتركناه ^(١) .

قال ابن كثير في «البداية والنهاية»: إن العلاء بن الحضرمي كان يدعو : يا
أرحم الراحمين ، يا حكيم يا كريم ، يا أحد يا صمد ، يا حي يا محيي الموتى ، يا
قيوم يا ذا الجلال والإكرام ، لا إله إلا أنت يا ربنا .
وعامر بن الحضرمي وقد قتل يوم بدر كافرًا .

وعمر بن الحضرمي وهو أول قتيل من المشركين قُتل في سرية نخلة بقيادة
الصحابي عبد الله بن جحش ، وكان ماله أول مال خُمس في المسلمين ، وبسببه
كانت غزوة بدر الكبرى ، وضيقتنا أختهم وهي الصعبة بنت الحضرمي هي أم
طلحة رضي الله عنها .

الصعبة وأبو سفيان :

كانت الصعبة متزوجة من أبي سفيان بن حرب ، وكانت هند بنت عتبة

(١) تهذيب الأسماء واللغات (٢/٣٤٢) ، وشذرات الذهب (١/١٧٥) ، صفة الصفوة (ج ١ ،

ضَرَّتْهَا ، ويبدو أن الصعبة أوتيت قسطاً من البهاء جعل هنداً تلحُّ على أبي سفيان أن يطلقها ، ولم تنزل به حتى طلقها وفارقها ، وتشير أخبار الصعبة إلى أن أبا سفيان قد ندم ندمًا شديدًا على فراقها وتبعتها نفسه ، فأنشأ يقول :

إني وصعبة فـيـا يُـرى بـعـيـدان والـوـدُّ وُدُّ قـريـب
فإن لم يكن نسب ثاقب فعند الفتاة جمال وطيب
فيا لقصي أفاعجبوا فللوبر صار الغزال الريب

وبعد طلاق الصعبة تزوجها عبيد الله بن عثمان التيمي ، فولدت له طلحة وإخوته^(١) ، وبسبب طلحة طارت شهرتها ، وحلقت في سماء الصحابيات رضي الله عنهن .

من الظلمات إلى النور :

كان طلحة رضي الله عنها سباقاً إلى ساحة الإسلام ، وأحد جنوده الأوائل ، أما والدته فلم تكن في عداد الرعيل الأول ، وقضت سنواتٍ عجافاً مع الأوثان والأصنام في ظلمات الشرك ، وكانت تعترض سبيل ابنها بكل الوسائل الممكنة حتى ترده عن النور الذي اتبعه ، ولكن أنى يكون لها ذلك ؟

إن طلحة والثلة المؤمنة كانوا طلاب حق وهدى وإيمان ، ولعل عاطفة الأمومة لم تتحرك في قلبها بادئ ذي بدء ، حيث كانت تزجره وتكلمه بغضبٍ وقسوة وشدة ، فقد أخرج البخاري رضي الله عنه في التاريخ عن مسعود بن حراش قال : بينما نحن نطوف بين الصفا والمروة ، إذ أناس كثير يتبعون فتى شاباً

(١) انظر : المعارف (ص ١٢٢٩) ، وعيون الأخبار (٤ / ١٠١) ، والروض الأنف (٣ / ٢٩) ، والاستيعاب (٣ / ١٤٧) ، وأسد الغابة (٤ / ٧) ، ومنح المدح لابن سيد الناس (ص ٣١٧) .

موثقاً بيده في عنقه .

قلتُ : ما شأنه ؟

قالوا : هذا طلحة بن عبيد الله صبياً ، وامرأة وراءه تدمدمُ - تغضب -

وتسبه .

قلت : من هذه ؟

قالوا : الصعبة بنت الحضرمي أمُّه ^(١) .

ولم تطل حياة الصعبة بنت الحضرمي على هذه الشاكلة ، إذ بدأت بذورُ الإيمان تنبت في قلبها والهداية تحل في أعضائها ، فركنت إلى الحق ، واستجابت للخير ، وانضمت إلى صفوف المؤمنات وأعلنت إسلامها ، وعندما بدأت الهجرة النبوية إلى المدينة آثرت الخروج مهاجرة في سبيل الله ﷻ ، وكتبت في قائمة المهاجرات .

نعمة الإيمان :

ذكر عدد من كُتَّاب التراجم أن الصعبة بنت الحضرمي أم طلحة أسلمت ^(٢) ، وأورد الإمام النووي - رحمه الله تعالى - أنها أسلمت وهاجرت ^(٣) .

وشهدت الصعبة الأحداث الإسلامية في المدينة ، وسعدت ببطولات ابنها ، وخصوصاً يوم أحد ، إذ كان «طلحة الخير» ، ويوم غزوة ذات العشيرة «طلحة

(١) عن الإصابة (٣/٣٩٠) .

(٢) الرياض النضرة للمحب الطبري (٤/٢٤٥) ، وصفة الصفوة (١/٣٣٦) .

(٣) تهذيب الأسماء واللغات (١/٢٥٢) .

الفياض» ، ويوم حنين كان «طلحة الجود» ، وهذه الأوسمة الطيبة منحها النبي ﷺ طلحة لحسن بلائه وصدقه ﷺ ، وتوفي رسول الله ﷺ وهو راضٍ عن طلحة وأم طلحة .

في ظل الخلفاء الراشدين :

قضت الصعبة بنت الحضرمي ؓ حياتها في العهد الراشدي تعبد الله ﷻ ، وتقوم بواجباتها على أكمل وجه ، وكان لها أثر كريم في خلافة عثمان بن عفان ؓ . لما اشتد عليه الحصار - فقد أخرج البخاري ﷺ في «التاريخ الصغير» ، عن عبد الله بن رافع ، عن أمه قالت : خرجت الصعبة بنت الحضرمي فسمعتها تقول لابنها طلحة : إن عثمان قد اشتد حصره ، فلو كلمته حتى ترد عنه ^(١) .

وفي رواية ابن الأثير : فلو كلمته فيه حتى يُرد عنه ^(٢) .

وكان طلحة شديد البر بأمه ، حتى إنه سمي إحدى بناته الصعبة بنت طلحة ، وكان لطلحة عشرة بنين وأربع بنات : وبناته هن : أم إسحاق ، وعائشة ، ومريم ، والصعبة - إحياءً وبراً بوالدته ﷺ - ومما يدل على بره لها ما رواه علي بن زيد قال :

جاء أعرابي إلى طلحة يسأله ، ويتقرب إليه برحم أمه ، فقال طلحة : إن هذه لرحم ما سألتني بها أحد قبلك ؟ إن لي أرضاً أعطاني بها عثمان ثلاثمائة ألف ،

(١) أسد الغابة (٥/٤٨٩) .

(٢) الإصابة (٢/٣٧٧) .

فإن شئت فاقبضها، وإن شئت بعثها من عثمان، ودفعتُ إليك ثمنها .
فقال الأعرابي : الثَّمن .

فباعها من عثمان ودفع إليه الثمن ^(١) .

ولله در من قال في طلحة :

عليك رضا الرحمن يا طلحة الندى ولا زلت بين الأكرمين إماما
وأخيراً تسكت المراجع فلا تحدثنا عن تحديد وفاة الصعبة بنت الحضرمي ،
ولكننا نستنتج أنها عاشت بعد خلافة عثمان رضي الله عنه من خلال الخبر السابق .

وقبل أن نودع سيرة الصعبة أم طلحة تعالوا نقرأ سوياً قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ
الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٤﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يُنظَرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِنْ
رَحِيقٍ مَّخْثُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتْمُهُ مِسْكٌَ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ [المطففين: ٢٢-٢٦] .

فرضي الله عن الصعبة وأرضاهها وجعلها وابنها في جنات النعيم في
الفردوس الأعلى يوم يقوم الناس لرب العالمين .



حمنة بنت جحش

زوج الصحابي مصعب بن عمير .

قال لها رسول الله ﷺ عندما قتل خالها وأخوها وزوجها :

« يا حمنة احتسبي » .

حمنة بنت جحش رضي الله عنها

زوج السفير النبوي :

مصعب بن عمير رضي الله عنه سفير النبي ﷺ إلى الأنصار في المدينة ، فسجل أعظم نجاح في تاريخ البشرية ، وقبل أن نبدأ الحديث عن زوجه دعونا نعطر الأجواء ، ونؤنس القلوب بذكرى مصعب الخير ، عليه من الله سبحانه الرحمة والرضوان . كان مصعب فتى مكة شاباً وجمالاً ، وكان أبواه يجبانه حباً يفوق كل تصور ، فقد كانت أمه خُناس بنت مالك كثيرة المال ، تكسوه أحسن ما يكون من الثياب ، وكان مصعب أعطر أهل مكة ، ويلبس الحضرمي - نسبة لحضرموت - من النعال ، وكان رسول الله ﷺ يذكره ، ويقول : « ما رأيت بمكة أحداً أحسن لمة ، ولا أرق حلة ، ولا أنعم نعمة من مصعب بن عمير » ^(١) .

كان من الرجال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وهو من السابقين إلى الإسلام ، ومن رجالات الرعيل الأول في مكة المكرمة ، وكان لعظيم فضله ، وجيل خلائقه ، وكريم أخلاقه ، يُلقب بين المسلمين «مصعب الخير» ، وحقق جمع الخير من أطرافه فهو هاشمي منافي ، عبدري في عليا بيوتات قريش ، وذروة أرومتها وسنام شرفها .

في هذا الجو الممتلئ نضرةً ورياً وهواً ، نُمنى إلى مصعب الخير - وهو في معية الصبا والشباب النضير - أن الأمين الصادق المصدوق ﷺ يدعو إلى الله قرب

(١) أسد الغابة (٤/٤٠٦) ، ترجمة رقم (٤٩٢٩) .

الصفاء في دار الأرقم بن أبي الأرقم ، فأحس بطمأنينة تتفشى في نفسه ، فدلّف إلى دار الأرقم المباركة متخفياً من أبويه ومن قومه ، وألقى بنفسه وقلبه وعقله وروحه بين يدي رسول الله ﷺ ، فأسلم إسلام الأصفياء ، وشهد شهادة الحق والنجاة ، ومفتاح الجنة ، وكنم إسلامه عن حوله من الأهل والعشيرة .

أحب سيدنا مصعب الخير دين الله حبا خالط روحه ومشاعره ، ولامس كل ذرة من كيانه ، فأخذ يختلف إلى سيدنا رسول الله ﷺ فيمن آمن معه متسللاً تحت أجنحة الخفاء ، وأستار الظلام ، مستهدياً بآيات الله تُتلى ، وبالأحاديث النبوية تجلى ، فأشرب قلبه حب الإيمان ، وحلت الهداية قلبه الريان ، فعكف على العبادة ساهراً ، وقطف من العلم أزهراً ، وأضحى ممن تربوا في مدرسة النبوة ، وصُنِعُوا على عيني رسول الله ﷺ ، فغدوا سادة الدنيا ، وغدا مصعب سفير رسول الله ﷺ .

هذا الصحابي الجليل النجيب ، هو زوج حمنة بنت جحش بنت رباب الأسدية ^(١) ، التي نصحب سيرتها في هذا اللقاء ، وما أحلاها من سيرة صحابية مجاهدة صابرة كريمة .

وحمنة ذات صلة قرابة برسول الله ﷺ ، فهي ابنة عمته أميمة بنت عبد المطلب ، وأخت زوجه زينب أم المؤمنين رضي الله عنها وأرضاها .

في طليعة السابقات :

كانت حمنة في الثلة الأولى من نساء الصحابة ، ممن أسلمن مع المبكرين ،

(١) الطبقات (٨/ ٢٤١) ، والاستيعاب (٤/ ٢٦٢) ، وجمهرة أنساب العرب (١/ ١٩١) .

وكان أهل حمنة مسلمين ، وعندما اضطهدتهم قريش وظلمهم المشركون هاجروا جميعاً إلى المدينة رجالاً ونساءً ، فمن رجالهم : عبد الله بن جحش ، وأخوه أبو أحمد ، وعكاشة بن محصن ، ومن نسائهم : زينب بنت جحش ، وأم حبيب بنت جحش ، وجدامة بنت جندل ، وأم قيس بنت محصن ، وأم حبيبة بنت ثمامة ، وضيقتنا حمنة رضي الله عنهن جميعاً^(١) .

وفي المدينة كانت حمنة كغيرها من المؤمنات تقوم بما يرضي الله ﷻ ، وتنهل من المعين النبوي الصافي ، وتقتبس من أخلاق زوجها ومن شمائله ما يزيد لها مكانة ورفعة ، وقد ولدت له ابنته زينب بنت مصعب^(٢) .

ولما بدأت مغازي رسول الله ﷺ كان لحمنة المواقف المحمودة التي تشهد بفضلها وتزيد من رصيدها .

يا حمنُ احتسبي :

في غزاة أحد خرجت حمنة بصحبة المجاهدين مع ثلة النساء بواجبها ، ذكر شاهد عيان دور حمنة في أحد ، والشاهد هو كعب بن مالك ﷺ قال : رأيت أم سليم بنت ملحان ، وعائشة أم المؤمنين على ظهورهما القرب يحملانها يوم أحد ، وكانت حمنة بنت جحش تسقي العطشى ، وتداوي الجرحى ، وكانت أم أيمن تسقي الجرحى^(٣) .

(١) السيرة النبوية (١/٤٧٢) ، ودر السحابة (ص٥٥٦) .

(٢) الطبقات (٣/١١٦) ، وأنساب الأشراف (١/٤٣٧) .

(٣) المغازي (١/٢٤٩ ، ٢٥٠) ، ودر السحابة (ص٥٥٦) .

ويوم أحد اتخذ الله ﷺ مصعب بن عمير وسبعين من المؤمنين «شهداء» :
 ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا﴾ [الأحزاب: ٢٥] ، وفي هذه اللحظات
 أقبلت حمنة ؓ فقال لها رسول الله ﷺ : «يا حمنُ احتسبي» .

قالت : مَنْ يا رسول الله ؟

قال : «خالك حمزة» .

قالت : إنا لله وإنا إليه راجعون ، غفر الله له ورحمه ، هنيئاً له الشهادة .

ثم قال لها : «احتسبي» .

قالت : من يا رسول الله ؟

قال : «أخوك» .

قالت : إنا لله وإنا إليه راجعون غفر الله له ورحمه هنيئاً له الجنة .

ثم قال النبي ﷺ : «احتسبي» .

قالت : من يا رسول الله ؟

قال : «بعلك مصعب بن عمير» .

فصاحت وَوَلَوْتُ وَقالت : واحزنانه .

فقال رسول الله ﷺ : «إن للزوج من المرأة مكاناً ، ما هو لأحد» ، وذلك لما

رأى من تثبتها عند أخيها وخالها وصياحها على زوجها .

ثم قال لها رسول الله ﷺ : «لم قلت هذا؟» .

قالت حمنة : يا رسول الله ، ذكرت يُتم بنيه فراعني ذلك .

فدعا رسول الله ﷺ أن يُحسَنَ عليهم من الخلف، فتزوجت طلحة بن عبيد الله، فولدت له محمد بن طلحة، وكان أوصل الناس لوالده^(١)، فمن الموافقات لطلحة ﷺ ما ذكره ابن السكن حيث قال: إن طلحة بن عبيد الله ﷺ تزوج أربع نسوة عند النبي ﷺ أخت كل منهن:

أم كلثوم بنت أبي بكر الصديق، أخت عائشة أم المؤمنين، وحمنة بنت جحش، أخت زينب أم المؤمنين، والفارعة بنت أبي سفيان أخت أم حبيبة أم المؤمنين، ورقية بنت أبي أمية أخت أم سلمة أم المؤمنين رضي الله عنهن جميعاً^(٢).

ومن الفوائد المهمة في هذا ما ذكره ابن حفص الزهري قال: أدركت أربعة من أبناء الصحابة كل واحد منهم يسمى محمداً، ويكنى أبا القاسم وهم:

محمد بن أبي بكر الصديق.

ومحمد بن علي بن أبي طالب.

ومحمد بن سعد بن أبي وقاص.

ومحمد بن طلحة بن عبيد الله رضي الله عنهم جميعاً^(٣).

وتابعت حمنة ﷺ رحلة الجهاد، فخرجت مع رسول الله ﷺ إلى خيبر، ولما فرغ - عليه الصلاة والسلام - من فتحها أطعمها ثلاثين وسقاً^(٤).

(١) الإصابة (٢/٢٢١).

(٢) عن المغازي (١/٢٩١، ٢٩٢)، والسيرة النبوية (٢/٨٩).

(٣) الإصابة (٣/٣٥٧) بشيء من التصرف.

(٤) السيرة النبوية (٢/٣٥٢)، والطبقات (٨/٢٤١).

سَمَّه يا رسول الله :

ذكرت المصادر أن حمنة رضي الله عنها لما ولدت ابنها محمد بن طلحة جاءت رسول الله ﷺ ، فقالت : سَمَّه يا رسول الله .

فمسح النبي ﷺ برأسه وسماه محمدًا ، وكناه : أبا القاسم ، ويقال : هذا السجاد لكثرة سجوده ، وكان زاهدًا عابدًا صالحًا ، قُتل في وقعة الجمل في جمادى الأولى سنة (٣٦هـ) رضي الله عنه وعن أبيه وأمه ، وولدت حمنة لطلحة أيضًا ابنه عمران بن طلحة ، رضي الله عنهم جميعًا ^(١) .

من مواقفها مع رسول الله ﷺ :

عن إبراهيم بن محمد بن طلحة ، عن عمه عمران بن طلحة ، عن أمه حمنة بنت جحش ، لقد ابتلاها الله ﷻ بدم الاستحاضة ، أي : بعدم انقطاع الدم - دم الحيض - عنها ، حتى بعد الحيض ، ولترك الحديد لحمنة تحدثنا به فتقول : كنت أستحاض حيضة كثيرة شديدة ، فأتيت النبي ﷺ أستفتيه وأخبره ، فوجدته في بيت أختي زينب ، فقلت له : يا رسول الله ، إني أستحاض حيضة كثيرة شديدة ، قد منعتني من الصلاة فما تأمرني فيها ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : «أنعت لك الكرسف» ، أي : أصف لك القطن ، فإنه يذهب الدم ، قلت : هو أكثر من ذلك ، قال : «فتلجمي - ضعي - خرقة على هيئة اللجام» ، قلت : هو أكثر من ذلك ، قال : «فاتخذني ثوبًا» ، قلت : هو أكثر من ذلك ، إنها أئج ثجًا ، أي : يصب صبًا ، فقال النبي ﷺ : «سأمرك أمرين أيهما صنعت أجزأ

(١) الطبقات (٥/١٦٦) ، والإصابة (٤/٣٠٨) .

عنك» ، وذكر لي إما أن أجمع بين الصلاتين بغسل واحد ، أو أن أغتسل عند كل صلاة .

ومما روت عن النبي ﷺ : «ألا إن الدنيا حلوة خضرة ، فَرُبَّ متخوض في الدنيا ليس له يوم القيامة إلا النار» .

من فضائلها :

ولحمنة فضيلة باهرة خصتها أختها زينب أم المؤمنين بها ، فقد ورد أن زينب لما حضرتها الوفاة قالت : إني أعددت كفني وإن عمر سيعث إليّ بكفن ، فتصدقوا بأحدهما ، فلما توفيت أرسل عمر ﷺ بخمسة أثواب ، فكفنت منها ، وتصدقت حمنة بكفنها الذي أعدته ^(١) ، وبذلك نفذت وصية أختها ﷺ .

وعاشت حمنة ﷺ حميدة تتابع عبادتها وطاعتها لله ﷻ ، وقد توفي رسول الله ﷺ وهو راضٍ عنها وعن زوجها .

وتشير الأخبار أن حمنة عاشت إلى ما بعد سنة عشرين من الهجرة ؛ لأن وفاة أختها زينب أم المؤمنين كانت في سنة عشرين من الهجرة .

وبعد فهذه نفحات ولمحات من سيرة صحابية مجاهدة صابرة محتسبة ، كانت ترجو الله واليوم الآخر ، فحظيت بالرضوان وفازت بمرضاة الله سبحانه وتعالى .

فرضي الله عنها وعن أختها وعن زوجها وابنها ، وصلى الله وسلم على من

(١) أنساب الأشراف (١/ ٤٣٥) ، والإصابة (٤/ ٣٠٨) .

رباهم .

وقبل أن نودع سيرة حمنة رضي الله عنه تعالوا نتلوا قول الحق سبحانه في حسن جزاء الصابرين : ﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿ [البقرة: ١٥٦، ١٥٧] .



أميمة بنت خلف رضي الله عنها

هي زوجة خالد بن سعيد بن العاص رضي الله عنه .

مؤمنة ، مهاجرة ، زوجة شهيد ، صابرة .

أميمة بنت خلف رضي الله عنها

رُؤيا مباركة :

أخذت الدعاية للإسلام تنتشر في أم القرى - مكة - وتعمل عملها في أصحاب الأفتدة الكبيرة فسرعان ما يطرحون جاهليتهم العمياء ، ويسرعون إلى الإيمان الذي أضاء نفوسهم وصاغ منهم قادة البشرية ، فكانت أميمة بنت خلف بن أسعد الخزاعية ^(١) ، ممن صادفت همسات الإيمان قلبها خالياً نقياً ، فتمكنت منه إذ حدثها زوجها خالد بن سعيد بن العاص عن إيمانه واتباعه لرسول الله ﷺ ، فأسلمت وصدقته .

ولإسلام أميمة وزوجها قصة شائقة :

تقول القصة : رأى خالد بن سعيد في النوم أنه وقف على شفير نار عظيمة ، وأبوه من خلفه يدفعه يُريد أن يرميه فيها ، فإذا بخالد يرى رسول الله ﷺ يمسكه من ثوبه ، ويجذبه بعيداً عن النار .

فلما أصبح قال : أحلف بالله إنها لرؤيا ، وأسرع إلى سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وكان أعبر الناس ، وقصَّ عليه رؤياه ، فقال له الصديق : أريد بك الخير ، هذا رسول الله ﷺ فاتبعه ، وإنك ستتبعه في الإسلام الذي يحجزك من أن تقع في النار ، وأبوك واقع فيها ، فجاء خالد رسول الله ﷺ فأسلم ^(٢) ، فلقي

(١) الاستيعاب (٤/٢٣٤) ، والإصابة (٤/٢٣٤) .

(٢) الطبقات (٤/٩٤) ، والاستيعاب (١/٤٠) ، والإصابة (١/٤٠٦) بتصرف .

رسول الله ﷺ بأجساد فقال: يا رسول الله، يا محمد، إلام ما تدعو؟

قال: «أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، وتخلع ما أنت عليه من عبادة حجر لا يسمع، ولا يضر، ولا يبصر، ولا ينفع، ولا يدري من عبده ممن لا يعبد»، قال خالد: فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله، فسّر رسول الله بإسلامه، وتغيب خالد، وعلم أبوه بإسلامه، فأرسل في طلبه، فأُتي به فضربه بمقرعة في يده حتى كسرها على رأسه، وقال: والله لأمنعك القوت، فقال خالد: إن منعتني فإن الله يرزقني ما أعيش به، وانصرف إلى رسول الله ﷺ، فكان يكرمه ويكون معه (١).

فكان خالد بن سعيد خامس خمسة أسلموا لله جل وعلا، فعن أم خالد قالت: كان أبي خامسًا سبقه أبو بكر وعلي وزيد بن حارثة وسعد بن أبي وقاص (٢).

وعن أم خالد قالت: أبي أول من كتب بسم الله الرحمن الرحيم (٣).

وزف خالد نبأ إسلامه لزوجته أميمة فسارعت هي الأخرى لتفوز بقصب السبق إلى الساحة الإيمانية المباركة.

ومنذ أن أسلم هذان الزوجان بدأت المحن تنصب عليهما صبا، فقد سبق خالد إخوته إلى الإسلام، مما أثار غضب والده سعيد بن العاص، فأرسل إليه مولاه «رافعًا» وأخويه «أبان وعمرًا»، فأرأوه يصلي، فامتلات قلوبهم نورًا لهذا

(١) البداية والنهاية لابن كثير (٣/٣١، ٣٢).

(٢) الإصابة للحافظ ابن حجر (٢/٢٠٣).

(٣) السير للإمام الذهبي (١/٢٦٠).

المشهد المهيب الذي رأوه ، وعاد معهم خالد إلى أبيه فلما علم بإسلامه أمره بأن يترك هذا الدين العظيم ، فأبى خالد بكل عزة .

فقال له أبوه : إذن أحرمك من رزقي .

فقال له خالد : الله خير الرازقين .

فطفق والده يضربه ضرباً شديداً حتى سالت الدماء الشريفة من هذا الجسد الطيب المبارك ، ثم أوثقه وزجَّ به في غرفة مظلمة ، ومنع عنه الطعام والشراب ثلاثة أيام ، ثم جاءه في اليوم الرابع نفر من أهله وقالوا : كيف أنت يا خالد ؟ قال : إني أتقلب في نعم الله ﷻ .

فقالوا : أما آن لك أن تثوب إلى رشدك وتطيع أباك ؟

فقال : أما رشدي فما فارقتني وما فارقته .

وأما أبي فلا أطيعه في معصية الله ﷻ .

فقالوا : قل لأبيك كلمة تُرضيه في اللات والعزى يفرج عنك .

فقال : اللات والعزى حجران أصمان أبكمان .

وإني لا أقول فيها إلا ما يُرضي الله ورسوله ، وليفعل بي ما يشاء ، فشد أبوه وثاقة خالد ، وأمر أتباعه أن يخرجوا به كل يوم عند الهاجرة إلى بطحاء مكة ، وأن يُلقوه بين الحجارة حتى تصهره الشمس .

فكان خالد كلما أخرجوه وألقوه في الهاجرة يقول :

« الحمد لله الذي أكرمني بالإيمان ، وعزني بالإسلام » .

إن ذلك كله أهون عليّ من لحظة عذابٍ في جهنم التي أراد أن يلقيني فيها
«أبو أحيحة» أبوه .

وجزى الله نبيه وصفيه عني وعن المسلمين أكرم الجزاء .

ثم حانت لخالد فرصة فتفلت من سجن أبيه ، ومضى إلى نبيه ﷺ ثم ما لبث
أن لحق به أخواه «عمرو وأبان» ، وانضما إلى موكب الخير والنور .

المهاجرةُ الولودُ :

شاركت أميمة زوجها ﷺ في تحمل الشدائد من جانبيين من قريش ومن
حماها - والد زوجها - وراحت تقهر العذاب بالترضحية ، وتتفوق على الحرمان
بزاد الإيمان الذي لا ينفدُ ، وكان زوجها خالد قد تغيب عن أبيه في نواحي
مكة ، وحين أمر الرسول الكريم ﷺ أصحابه بالمهجرة إلى أرض الحبشة ، كان
خالد وزوجه أميمة أول من هاجر إليها ، وقد أقام فيها بضع عشرة سنة داعيًا
إلى الله ، ولم يُغادرها إلى المدينة إلا بعد أن فتح الله على المسلمين «خيبر» ، فسر
رسول الله ﷺ بمقدمه أبلغ السرور ، وقسم له من غنائم «خيبر» كما قسم
للمحاربين ، ثم ولاةُ «اليمن» فظل واليًا عليها إلى أن لحق الرسول الكريم ﷺ
بجوار ربه ﷻ .

وقد ولدت أميمة لخالد ابنه سعيد بن خالد ^(١) ، ثم ولدت له أمة بنت خالد
التي اشتهرت بكنيتها أم خالد بنت خالد ، وكان لهذين المولودين شأن في
تاريخ عصر النبوة .

(١) الطبقات (٤/٩٤) ، وأسد الغابة (٢/٣٠٥) .

وأقامت أميمة رضي الله عنها في المدينة تتابع الأحداث الإسلامية ، وتوفي رسول الله صلى الله عليه وآله وهو راضٍ عنها وعن زوجها الذي كان قد ولاةً على اليمن .

زوج الشهيد التقيّ :

لما انطلق المسلمون لقتال الروم في الشام ، ودّع خالد زوجته أميمة وانخرط في صفوفهم ، وكان من أشجع الفرسان ، وكان معه أخواه « عمرو وأبان » فأما عمرو البطل فلقد استشهد البطل في معركة « فحل » رُئي وهو مضروب على حاجبيه بالسيف وقد ملأ الدم عينيه ، وهو لا يستطيع أن يطرف ولا أن يفتح جفنه من الدم ، وكان الروم قد حنقوا عليه لما رأوا من شدة قتاله ، فجردوا له فريقتًا ، فمشى إليهم بسيفه ، فضاربهم ساعة ، وثار بينهم الغبار ، فشد عليهم المسلمون وإذا الروم قد قطعوه بسيوفهم ووجد به أكثر من ثلاثين ضربة ^(١) .

وما يضيره وقد مضى إلى ربه ، ومنح الله إخوانه المسلمين أكتاف الروم ، وقتلوا قائدهم « سنقلار سكلاريوس » وقتلوا منهم زهاء عشرة آلاف ^(٢) .

وفي موقعة مرج الصفر بالشام استشهد خالد بن سعيد ، وفاز بمرضاة الله صلى الله عليه وآله ، ووصل خبر استشهاده إلى زوجته المؤمنة الصابرة أميمة بنت خلف ، فاحتسبته عند الله وخصوصًا لما سمعت عن كرامته عقب استشهاده ، فقد ورد أن خالدًا لما استشهد قال الذي قتله - بعد أن أسلم : من هذا الرجل ؟ فإني رأيت له نورًا ساطعًا إلى السماء ، ثم يتلألأ فوق خالد وبين يديه ، فندم على قتله أشد الندم ^(٣) .

(١) الطريق إلى دمشق (ص ٣٤٤) .

(٢) علو الهمة د/ سيد حسين العفاني (٣/ ٤١٣) .

(٣) سير أعلام النبلاء (١/ ٢٦٠) ، وتاريخ الإسلام للذهبي (٣/ ٩٢) .

ويتوقف التاريخ إلى هنا فلا يحدثنا بعد ذلك عن آخر حياة هذه الصحابية ولا وفاتها، ولكنه خلف لنا سيرة امرأة مؤمنة صابرة عملت على إعلاء كلمة الله، وكانت لزوجها خير معين، فحبذا اقتداء الناس بمثل هؤلاء النسوة .

فرضي الله عن أميمة بنت خلف، وأسكنها فسيح جناته مع الفائزين والفائزات .



مارية بنت شمعون

أم إبراهيم رضي الله عنها

مارية سُرية النبي ﷺ وأم ولده إبراهيم .

كان لها منزلة كريمة عند النبي ﷺ ، وكانت طاهرة تقية .

نعمت مارية بنعيم الإسلام وعاشت في كنف النبي ﷺ مرعية

الجانب ، وُعِدَّت من نساء أهل البيت .

ضربت مثلاً كريماً في الصبر والتسليم لقضاء الله ﷻ .

وأوصى النبي ﷺ بالأقباط خيراً إكراماً لمارية .

توفيت مارية (١٦ هـ) بالمدينة المنورة .

مارية بنت شمعون رضي الله عنها

من شهيرات التاريخ :

تأتي هذه المرأة اليوم - من مصر لتكون في المدينة المنورة ، ولتدخل البيت النبوي الطاهر ، ولتنجب طفلاً لرسول الله ﷺ ، ولتجدد ذكرى هاجر المصرية أم العرب التي كانت زوج نبي الله إبراهيم ، وأم نبي الله إسماعيل عليهما السلام .

فمن تكون هذه المرأة ؟ ومتى وكيف دخلت البيت النبوي ؟

ذكر المفسرون والمؤرخون وكتاب السيرة والطبقات أن اسمها مارية بنت شمعون ^(١) القبطية إحدى نساء البيت النبوي اللواتي كتب هُنَّ الخلود في دنيا الخلود ، وساء الشهرة .

فكيف قدمت هذه المرأة المصرية لتحل درة في العقد الفريد ، وتستظل في ظلال البيت النبوي الطاهر ، وتغدو واحدة ممن أسهمن في إثراء التاريخ النسوي في عصر النبوة ؟

السطور التالية تفصح عن ذلك .

قدمت مارية بنت شمعون المدينة المنورة بعد صلح الحديبية ، وذلك في سنة سبع من الهجرة على أرجح الأقوال .

(١) الاستيعاب (٤/٣٩٦-٣٩٨) ، والإصابة (٤/٣٩١) ، ودلائل النبوة للبيهقي (٥/٤٢٩) ، و(٦/٤٢٢) ، وتهذيب الأسماء واللغات (٢/٣٥٤) ، وأسد الغابة (٦/٢٦١) ، ترجمة رقم (٧٢٦٨) ، وزاد المعاد (١/١١٣، ١١٤، ١١٦، ١٢٢) ، و(٣/٣٩٢) و(٥/١٦، ١٧) ، (١٧٨) .

لما تم الصلح في الحديبية بين رسول الله ﷺ وبين المشركين في مكة ، سرى الهدوء على الجزيرة العربية عقب الصلح ، وإذ ذاك وجدت الدعوة الإسلامية متنفساً ومجالاً لتعم نفحاتها أرجاء الأرض ، ويتم إبلاغ الإيمان إلى الناس كافة .

بدأ الحبيب المصطفى ﷺ هذه الخطوة المباركة في الدعوة الحكيمة ، وأراد أن يكتب إلى ملوك العالم وأمراء العرب ، فقبل له : لا يقبلون كتاباً إلا بخاتم ، فصاغ رسول الله ﷺ خاتماً من فضه نقشه : محمد رسول الله ﷺ ، وكان هذا النقش ثلاثة أسطر : محمد سطر ، رسول سطر ، الله سطر ، وكان على النحو التالي :

الله

رسول

محمد (١)

وكتب رسول الله ﷺ كتباً يدعوهم فيها إلى الإسلام وإلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، واهتم بذلك اهتماماً كبيراً ، فاختر من أصحابه الكرام رسلاً لهم معرفة وخبرة ، وأرسلهم إلى الملوك ، ومن هؤلاء الملوك : «هرقل» ملك الروم وإمبراطورهم ، وكسرى «أبرويز» ملك فارس و«المقوقس» ملك مصر ، و«النجاشي» ملك الحبشة ، وغيرهم من الملوك والأمراء .

ويتبادر إلى الذهن الآن سؤال وهو : كيف تلقى هؤلاء الملوك هذه الرسائل الكريمة؟ .

أقول : «إن هرقل والنجاشي والمقوقس تلقوا رسائلهم فتأدبوا وردوا رداً

(١) رواه البخاري في كتاب الجهاد ، باب دعوة اليهود والنصارى وعلى ما يُقاتلون .

جميلًا رقيقًا رقيقًا ، وتحديثنا كُتبت السيرة أن النجاشي أكرم مثوى رسول رسول الله ﷺ ، وأما المقوقس فقد أرسل هدايا منها مارية القبطية أم إبراهيم بن رسول الله ﷺ ، وأما كسرى «أبرويز» فقد مزق الكتاب لما قرئ عليه ، وقال في استكبار و صلف : «يكتب إليّ هذا وهو عبدي ؟» ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : «مزق الله ملكه» (١) .

وتحققت دعوة المصطفى ﷺ ، وتمزق مُلك كسرى ، وتلاشى إلى الأبد قبل أن ينقضي عقد من الزمن ، وبذلك تحققت نبوءة أخرى للرسول الكريم ﷺ عندما قال : «إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده» (٢) .

مارية هدية المقوقس :

قبل أن نتحدث عن هدية المقوقس إلى النبي الكريم ﷺ ، دعونا نلقي الضوء على المقوقس ذاته حتى تتضح الصورة بشكل أجود .

فالمقوقس هو حاكم الإسكندرية والنائب العام للدولة البيزنطية في مصر ، واسم المقوقس جُريج بن مينا أو جريج بن متى ، والمقوقس لقب له ، والمقوقس نوع من أنواع الطيور .

كانت مصر ذاك من أغنى ولايات الدولة البيزنطية وأكثرها خصوبة وإنتاجًا وعمرانًا ، فقد ذكر ابن تغري بردي في كتابه «النجوم الزاهرة» أن عمرو بن العاص قد وصفها بقوله : «مصر تربة غبراء ، وشجرة خضراء ، طولها شهر ، وعرضها شهر» .

ولما أراد رسول الله ﷺ أن يرسل كتابًا للمقوقس اختار من أصحابه حاطب

(١) صحيح البخاري ، باب كتاب النبي إلى قيصر وكسرى .

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٩١٩) .

ابن أبي بلتعة ، وكان حاطب معروفًا بحكمته وحسن منطقه ، وبلاغته وفصاحته ، وذكر كتاب «المصباح المضيء» بأن حاطبا شاعر بليغ ، وأورد له نموذجا من شعره .

كتب رسولُ الله ﷺ إلى المقوقس ملك مصر والإسكندرية كتابًا نصه :
«بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد : فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم ، وأسلم يؤتك الله أجرًا مرتين ، فإن توليت فإن عليك إثم القبط : ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤] .

أخذ حاطب كتاب رسول الله ﷺ ، وسار حتى وصل مصر ، ودخل على المقوقس ، فرحب به ، وأحسن نزلهُ ، فخاطبه حاطب بحكمة ولطف ، وقال :
«إنه كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى ، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ، فانتقم به ثم انتقم منه ، فاعتبر بغيرك ولا يعتبر بغيرك بك» .

كان المقوقس يستمع إلى كلمات حاطب ، واستبان صدق ما يقوله ، فقال له :
«يا هذا ، إن لنا دينًا لن ندعه إلا لما هو خير منه» .

فأجاب حاطب وقد لمح من المقوقس شيئًا من أدب الخطاب ، فانتهز الفرصة وبين له محاسن الإسلام ، وقال : «ندعوك إلى دين الإسلام الكافي به الله ، وترك ما سواه ، إن هذا النبي ﷺ دعا الناس فكان أشدهم عليه قريش ، وأعداهم له اليهود ، وأقربهم منه النصارى ، ولعمري ما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد ، وما دعاؤنا إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى

الإنجيل ، فكل نبي أدرك قومًا فهم أمته ، فالحق عليهم أن يطيعوه ، وأنت ممن أدرك هذا النبي ﷺ ، ولسنا ننهاك عن دين المسيح ولكننا نأمرك به .

وكان المقوقس قد أعجب بكلام حاطب ، وحسن منطقته ، وبلاغته ، ووافق كلامه موقعًا من قلبه ، فقال لحاطب : «إني قد نظرتُ في أمر هذا النبي فوجدته لا يأمر بمزهود فيه ، ولا ينهى عن مرغوب فيه ، ولم أجده بالساحر الضال ، ولا الكاهن الكاذب ، ووجدت معه آية النبوة بإخراج الخبء ، والإخبار بالنجوى وسأنظر» ^(١) .

ثم إن المقوقس أخذ كتاب النبي ﷺ فجعله في حق من العاج ، وختم عليه ، ودفع به إلى جارية له ، ومن ثم دعا كاتبًا له يكتب بالعربية فكتب إلى النبي ﷺ : «بسم الله الرحمن الرحيم ، لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط ، سلام عليك ، أما بعد : فقد قرأتُ كتابك ، وفهمتُ ما ذكرت فيه وما تدعو إليه ، وقد علمت أن نبيًا بقي ، وكنت أظن أنه سيخرج بالشام ، وقد أكرمت رسولك وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم ، وبكسوة وأهديت إليك بغلة لتركبها ، والسلام عليك» ^(٢) .

ولم يزد المقوقس على هذا شيئًا ، ولم يسلم ، وإنما قال لحاطب : «أنت حكيم من عند حكيم ، وهذه هدايا أبعث بها معك إلى محمدٍ ، وأرسل معك من يبلغك إلى مأمك» .

كانت الهدية ثمينة لطيفةً ، وكان من الهدية جاريتان هما :

مارية بنت شمعون ، وأختها سيرين ، وبغلة بيضاء اسمها دُلْدُل - بقيت إلى

(١) انظر : السيرة الحلبية (٣/٢٩٦) ، وانظر : عيون الأثر (٢/٣٣٧) .

(٢) طبقات ابن سعد (١/٢٦٠) ، والمصباح المضيء في مواضع متعددة .

زمن سيدنا معاوية - وأثواب من قباطي مصر ، وكان مع الهدية أيضًا خصي يسمى مأبور ، وغير ذلك ^(١) .

توجه حاطب عائداً إلى المدينة ناجحاً بسفارته ، وفي طريق عودته عرض على مارية الإسلام ، ورغبها فيه ، فأسلمت ، وأسلمت أختها ومن معها ، وهدوا جميعاً إلى الطيب من القول ، وهدوا إلى صراط الحميد ، وأكرمها الله ﷻ بالإسلام ، ولنستمع إلى هذه السفارة الناجحة من سيدنا حاطب ، إذ صاغها شعراً جميلاً ذكره صاحب «المصباح المضيء» قال : قال حاطب : وقصدت المسجد وأنخت الناقة ، ودخلت وسلمت على رسول الله ﷺ وأنشأت أقول :

أنعم صباحاً يا وسيلة أمة
إني مضيتُ إلى الذي أرسلتني
حتى أتيت بمصر صاحب ملكهم
فقرأ كتابك حين فكَّ ختامه
قال البطارقة الذين تجمعوا
قال اسكتوا يا ويلكم وتثبتوا
قالوا وهمت فقال لستُ بواهم
في كل سطرٍ من كتاب محمد
هذا الكتابُ كتابه لك خاضعاً

ترجو النجاة غداً يوم الموقف
أطوي المهامه كالمجد المعنف
فبدا إلي بمثل قول المنصف
فاهتز منه كاهتزاز المرفف
ماذا أرا عك من كتاب المشرف
هذا كتاب نبي دين المصحف
بل قد قرأت بيان خط الأحرف
نور يلوح لناظر متوقف
يا خير مولود بحقك نكتفي ^(٢)

المنزل الكريم :

وصلت مارية وهدايا المقوقس المدينة المنورة ، وكانت مارية قد شهدت

(١) انظر : حياة الحيوان للدميري (٢/ ٣٢٠) ، بتصرف شديد .

(٢) المصباح المضيء (١/ ٢٨٣) .

شهادة الحق ، وهي في طريقها إلى عرين الأنصار .

في المدينة المنورة نعمت مارية برعاية رسول الله ﷺ الذي اختارها لنفسه ، أما أختها فقد وهبها لشاعره الكبير ، وشاعر الدعوة المحمدية ، وأمير شعراء الأنصار حسان بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه .

وأنزل رسول الله ﷺ مارية منزلاً كريماً في المدينة عند حارثة بن النعمان الأنصاري ، ثم حولها إلى مكان يحمل اسمها ، فكان يُقال له : مشربة أم إبراهيم في العالية .

كانت مارية رضي الله عنها بيضاء جميلة الطلعة ، ولم تكن زوجةً لرسول الله ﷺ ، بل كانت ملك يمينه ، وحلت له بهذه الملكية وأنزلها منزلاً خاصاً بها .

كانت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ترقبُ باهتمام مظاهر اهتمام رسول الله ﷺ بهذه المرأة التي أكثر من التردد عليها ، والمكوث عندها طويلاً عند فراغه .

تحدثت أمنا عائشة رضي الله عنها عما دار بنفسها فقالت : « ما غرت على امرأةٍ إلا دون ما غرت على مارية ، وذلك أنها كانت جميلة ، جعدة - أو دعجة - فأعجب بها رسول الله ﷺ ، وكان أنزلها أول ما قدم بها في بيت لحارثة بن النعمان ، فكانت جارتنا ، فكان عامة الليل والنهار عندها ، فجزعت ، فحولها إلى العالية ، وكان يختلف إليها هناك فكان ذلك أشد علينا » ^(١) .

يا بشراي هذا غلام :

مضى عام أو بعض عام على وجود مارية في المدينة المنورة كانت خلالها تلقى كل رعاية من رسول الله ﷺ .

(١) طبقات ابن سعد (٨/٢١٢، ٢١٣)، والإصابة (٤/٣٩١) .

وفي يوم من الأيام زفت مارية إلى الحبيب الأعظم ﷺ نبأ جميلاً ملاً قلبه سروراً ، قالت له بأنها حامل وستلد بعد حين .

كان رسول الله ﷺ قد قارب الستين من عمره الشريف ، وفقد أولاده خلا سيدتنا فاطمة الزهراء رضوان الله عليها ، ولعل هذه البشرى العظيمة قد أعادته إلى الماضي إلى أبيه إبراهيم عليه السلام وزوجه هاجر المصرية التي قصَّ الله خبرها وولدها إسماعيل في كتابه العزيز .

مضت شهور الحمل ومارية سعيدة بما في بطنها ، ولما أن جاءها المخاض أولدتها أم رافع سلمى مولاة رسول الله ﷺ ، وكانت أم رافع قابلة البيت النبوي الطاهر ، وخبيرة بأمور النساء ، بصيرة في شأنهنَّ في مثل هذه المجالات النسوية .

ولدت مارية طفلاً جميلاً شديد الشبه بأبيه سيدنا وحبينا رسول الله ﷺ ، وخرجت أم رافع إلى زوجها أبي رافع وأخبرته بولادة مارية ، فأسرع أبو رافع إلى الحبيب المصطفى ﷺ وبشره بأن مارية قد ولدت غلاماً سوياً ، فوهب له عبداً ^(١) لهذه البشرى التي أَلقت الطمأنينة والسرور في نفس رسول الله ﷺ ، ثم إن رسول الله ﷺ سماه إبراهيم ، تيمناً بأبيه إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام .

كان هذا الحدث السعيد - ميلاد إبراهيم ابن رسول الله ﷺ - في شهر ذي الحجة من السنة الثامنة للهجرة النبوية الشريفة ^(٢) ، وبهذه الولادة أصبحت مارية حرة .

قال ابن عباس رضي الله عنه : لما ولدت أم إبراهيم ، قال رسول الله ﷺ : «أعتقها

(١) عيون الأثر (٢/ ٣٦٧) .

(٢) الإصابة (٤/ ٣٩١) الفصول (ص ٢٤١) .

ولدها» (١) .

وعن ابن عباس أيضًا ، عن النبي ﷺ قال : «أيما أمة ولدت من سيدها ، فإنها حرة إذا مات إلا أن يعتقها قبل موته» .

سرى خبر هذه البشارة في المدينة المنورة أن قد ولد لرسول الله ﷺ غلام من مارية القبطية ، فأفعمت قلوب المؤمنين بفرح شديد وخصوصًا الأنصار الذين عرفوا حب رسول الله ﷺ لمارية ، وعلموا هواه فيها ووليدها إبراهيم ، فتنافسوا في رعاية الوليد المبارك ، وأحبوا بكل معاني الحب أن يقوموا برعايته (٢) .

أما رسول الله ﷺ فقد سرَّ بولده إبراهيم الذي رزقه الله ﷻ بعد انقطاع الولد من زوجه الطاهرة خديجة ، وكان مارية قد جددت بهذه الولادة ذكرى أمنا الحبيبة خديجة ، فأثنى عليها رسول الله ﷺ بكل خير وبكل ما هي أهله .

مارية أم إبراهيم :

حظيت مارية رضي الله عنها بالمكانة الكبيرة بين نساء البيت النبوي الطاهر وبين نساء الأنصار اللواتي تنافسن فيمن يرعاه ، وفيمن يحظى بمرضاة رسول الله ﷺ . واختار الحبيب المصطفى ﷺ مرضعًا من نساء الأنصار تُسمى أم سيف ، كما في الصحيحين ، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال :

قال النبي ﷺ : «وُلد لي الليلة غلام فسميته باسم أبي إبراهيم ، ودفعته إلى أم سيف امرأة في المدينة» (٣) .

(١) السمط الثمين (ص ١٦٦) ، وطبقات ابن سعد (٨ / ٢١٥) .

(٢) عن طبقات ابن سعد (٨ / ١١٢) ، بشيء من التصرف .

(٣) الإصابة (٤ / ٩٩) ، وللحديث أصل في البخاري ومسلم برقم (٢٣١٥) .

أكرم رسول الله ﷺ أم سيف مرضعة ولده إبراهيم ، وجعل عندها سبعة
أرؤس من الماعز حتى ترضع ولده إبراهيم ، إذا ما لزم الأمر ، ولتقر عين مارية
بوليدها حتى يشتد عوده .

وتصدق الحبيب المصطفى ﷺ على مساكين المدينة تعبدًا وفرحًا بميلاد
إبراهيم ، ففي اليوم السابع لمولده الكريم عق له بكبش ، وحلق رأسه أبو هند
الأنصاري ؓ ، وتصدق ﷺ بوزن شعر ابنه فضة على المساكين الذين فرحوا
أيضًا بمولده ، ثم أخذوا شعره ودفنوه في الأرض وسماه إبراهيم ، وكان
الحبيب المصطفى ﷺ قد سماه إبراهيم منذ ولادته .

عن سيدنا أنس بن مالك ؓ قال : ولدت مارية إبراهيم ، فجاء جبريلُ
ﷺ إلى النبي ﷺ فقال : السلام عليك يا أبا إبراهيم ، فاطمأن رسول الله ﷺ
إلى ذلك ^(١) .

وسُر رسول الله ﷺ بولده إبراهيم ، وصحبه مرةً إلى عائشة وقال لها :
«انظري إلى شبهه» ، ولكن الغيرة هي التي نطقت على لسان الصديقة عائشة
ﷺ ، فقالت : «ما أرى شيئاً» .

وتقبل رسول الله ﷺ ذلك من عائشة ، فعائشة نفسها أوضحت بلسان
الصدق بأن الله ﷻ قد رزق النبي ﷺ من خديجة ومارية الولد ، وحُرمت هي
وأمهات المؤمنين الأخريات ذلك .

كانت مارية رضوان الله عليها تحرص كل الحرص على اكتساب مرضاة
رسول الله ﷺ ، وتعمل كل ما يُدخل السرور إلى قلبه ، وكل ما يبهج نفسه ،
فقد كانت مارية تعلم مقدار حب الحبيب المصطفى ﷺ لابنه إبراهيم ، فكانت

(١) طبقات ابن سعد (٨/ ٢١٤) ، والسمط الثمين (ص ١٦٥) .

تحرص على أن يكون عندها كلما جاء لزيارتها في مشربتها ، فصغيرها إبراهيم قرة عينه ، ومصدر سعادته ، وإنه لما يبهجها أن ترى رسول الله ﷺ سعيداً مسروراً .

وكما أسلفنا فلم تعد مارية القبطية جارية ينطبق عليها أحكام الجوارى ، فقد حررها ولدها ؛ إذ الإسلام دين كريم يلمس الأسباب الكريمة لتحرير الرق ، وفك الرقاب .

وقد نعمت مارية بنعيم الإسلام ، وعاشت في كنف رسول الله ﷺ مرعية الجانب ، عزيزة المكانة ، لها في نفوس البيت النبوي كل التقدير والحب والاحترام .

الطاهرة التقية :

أخذت مارية ﷺ تسلك سبيل الهدى ، وتنعم بنعيم الإسلام ، وأحبت هذا الدين الذي رفعها عاليًا ، وجعل منها امرأة لها نصيب في تاريخ نساء أهل البيت وفي الفضائل والمكارم .

وقد كانت مارية ﷺ صافية النفس ، طيبة القلب ، نقية السريرة ، خالطت روحها طهارة الإسلام ، وغرست في قلبها محبة التقوى ، فغدت تنطق وتتحدث بنور الله ﷻ ، لذلك أكرمها رسول الله ﷺ لهذه الصفات الكريمة ، ولأدبها الرفيع معه ، مما جعل بعض أصحاب القلوب المريضة التي رانَ عليها الحسد أن يتكلموا في حق مارية بما لا يليق .

وكما تحدث المنافقون والمرجفون بالإفك عن أمنا عائشة ﷺ ، تحدثوا عن مارية بما يشبه ذلك ، لكن الله ﷻ لم يترك هذه الألسنة تسهبُ في الحديث ، وإنما قطعها بالحجة الدامغة ، وردَّ الله هؤلاء بغيظهم لم ينالوا خيرًا ، وأكرم الله

مارية وبرأ ساحتها .

رُوي عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه قوله : كانت أم إبراهيم سُرية النبي صلى الله عليه وسلم في مشربتها ، وكان قبطي يأوي إليها ويأتيها بالماء والخطب ، فقال الناس : عالج يدخل على علجة ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأرسل علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فوجده على نخلة ، ونظر علي إلى النخلة فرأى القبطي محبوبًا ، فرجع دون أن يقتله إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال : يا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أرأيت إذا أمرت أحدنا بالأمر ، ثم رأى غير ذلك أيراجعك ؟

قال : «نعم» ، وأخبر علي رضي الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أصبت إن الشاهد يرى ما لا يرى الغائب» ، ثم قال : «الحمد لله الذي يصرف عنا أهل البيت»^(١) .

وهكذا لم تنجح هذه الشائعة ، وكبت المرجفون بما جاءهم به علي بن أبي طالب رضي الله عنه من الحقائق التي دمغتهم وكشفت عن سوء طويتهم ، ورفعت مكانة مارية عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وعند المسلمين ، وشهد جميعهم بالتقوى والطهر ، وحسبنا قول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم : «الحمد لله الذي يصرف عنا أهل البيت» .

مارية وموت إبراهيم :

كانت سعادة مارية رضي الله عنها بوليدها إبراهيم سعادة غامرة ، فقد أصبحت تشعر بأنس وألفة بما أكرمها الله من الذرية ، وزاد الولد العزيز إبراهيم من حب رسول الله صلى الله عليه وسلم لمارية ، وتردده عليها ، ورعايته لها ، واهتمامه بأمرها ،

(١) عن السمط الثمين (ص ١٦٥) ، وأزواج النبي صلى الله عليه وسلم للصالحى (ص ١٣١) ، وللحديث أصل عند مسلم برقم (٢٧٧١) ، وأحمد (٣/٢٨١) .

وأمر قومها .

وعاش إبراهيم ابن رسول الله ﷺ سنة وبعض السنة ، وهو يحظى برعاية رسول الله ﷺ قبل أن يتتصف عامه الثاني ، فجزعت مارية لذلك جزعاً شديداً ، ولكنها لا تملك شيئاً تدفع به المرض عن وحيدها وحبيبها إبراهيم .

وذاث يوم اشتد المرض بالصغير إبراهيم وإذ ذاك ذهب البراء بن أنس زوج مرضعته إلى مسجد رسول الله ﷺ ، باسر الوجه ، ثقیل الخطوات ، تكاد نفسه أن تذهب شعاعاً وكان يتلفت دون أن تستقر عيناه على شيء يحس ، كأنها يحمل أثقال الدنيا بأسرها ، يظهر على لسانه خبر أليم مفرج ، خبر يود لو يستطيع أن يفديه بنفسه ، أو بولده لفعل دون أن يتردد أو يتأخر .

ورأى بعينين زائغتين الحبيب المصطفى ﷺ جالساً في المسجد عند المحراب ، وعنده سيدنا عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه ، فاشتد وجيب قلبه واضطربت أنفاسه ، وشحب لونه للخبر الأليم الذي يحمله ، وتقدم وهو يترنح من الاضطراب حتى إذا بلغ رسول الله ﷺ استمسك حتى لا ينهار ثم قال في صوت تخنقه العبرات : «يا رسول الله ﷺ ، إن إبراهيم ابن مارية يموت» .

وسبقت الدموع إلى وجنتيه ، وأجهش بالبكاء ، وأحس رسول الله ﷺ بأن قلبه يكاد أن ينصدع أسى على ابنه الحبيب إبراهيم ، ونزل بصدرة حزن عميق ، فلم يستطع أن يقوم فاعتمد على يد عبد الرحمن بن عوف حتى نهض ، ثم انطلق نحو مشربة أم إبراهيم معتمداً على يد صاحبه من شدة ما به من الألم والحزن .

وطار هذا الخبر إلى سيدتنا فاطمة الزهراء رضي الله عنها ، خبر احتضار أخيها إبراهيم ، وأن أباهما ﷺ قد ذهب إلى بني مازن ، فتسلل الحزن إلى نفسها ،

وشعرت بغصة في حلقها فإبراهيم كان سلوى الحبيب المصطفى ﷺ عن إخوته الذين ماتوا: زينب، ورقية، وأم كلثوم، والقاسم، وعبد الله، إنها فاجعة تمزق نياط القلب، وتؤجج في النفس نيران الأحران.

ورأت عن كئيب سيدنا أنس بن مالك خادم الرسول ﷺ، فنادته وأخبرته الخبر، والتمست منه أن يبلغ صحابة أبيها، فإذا أسامة بن زيد يعدو إلى مشربة أم إبراهيم، وإذا بأبي بكر وعمر وكبار الصحابة يسرعون إلى العالية ومعهم الفضل بن عباس، وقد لاذ جميعهم بالصمت، وارتسم الأسى على وجوههم، واعتمل الحزن في صدورهم يود كل واحد منهم لو يفتدي ابن رسول الله ﷺ بأعز أولاده، إن لم يكن يفتديه بنفسه وماله وأهله.

وبلغ سيرين ابنة شمعون أخت مارية وزوج حسان بن ثابت أن إبراهيم ابن أختها يجود بأنفاسه، فهرعت إلى دار أختها، وبين حناياها نار تأجج في الضلوع.

دخل رسول الله ﷺ على مرضعة ابنه إبراهيم، فإذا بها وضعت إبراهيم في حجرها، فمال رسول الله ﷺ على فلذة كبده، ونظر في وجهه الصغير فألفاه ذابلاً ذبول الموت، فنزل به حزن لو نزل على جبل لتصدع، ثم قبله قبله عنوانها: «الامتثال لأمر الله ﷻ، والرضا بقضائه».

وخرجت مرضعة إبراهيم تحمله بصحبة رسول الله ﷺ ومن معه إلى مشربة مارية أم إبراهيم، ودخلت المرضعة على مارية، فهرعت مارية إليها ملهوفة وأخذت ابنها منها، وقلبيها يخفق بخلجات الحزن، ونظرت مارية في وجه إبراهيم فإذا بها تنوء بآلامها، تكاد أن تموت كمدًا، فابنها بين ذراعيها يجود بأنفاسه، ولا يقوى عن التعبير عما به من الآلام.

جلست مارية ووضعت إبراهيم في حجرها ، وتدفق الدمع الحزين من عينيها ، وأحس رسول الله ﷺ ما تعاني مارية من آلام فما بها بعض ما به ، فأخذه ووضعها في حجره الشريف وهو ممتثل أشد الامتثال لأوامر العزيز الحميد .

ولكن الله ﷻ لم يرد لإبراهيم الحياة وقدر الله - وكان أمره قدرًا مقدورًا - ألا يكون رسول الله ﷺ أبا أحد من الرجال كما نص في كتابه العزيز : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٤٠] ، فالله ﷻ وحده هو العليم بذلك وهو الحكيم فلا راد لقضائه وقدره ومشيتته .

توفي إبراهيم ابن مارية في شهره الثامن عشر^(١) - على رواية - وكانت وفاته يوم الثلاثاء لعشر ليال خلت من ربيع الأول سنة عشر من الهجرة النبوية المباركة .

مات الزكي الطاهر ابن النبي المصطفى ﷺ ، أجل لقد مات إبراهيم ، يا لها من كلمة موحشة تقوض الأمان ، وتبعث الآلام في النفوس ، ولكنه أمر الله ﷻ .
بكت مارية بكاء سخيًا ، وحزنت حزنًا شديدًا ، وكادت نفسها تذوب لولا عناية الله ﷻ ، ولولا الذي رأت من رسول الله ﷺ من الصبر والتسليم لقضاء الخالق البارئ المصور ، إذ شعار المؤمن في هذا الموقف قول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٦] .

يسرد جابر بن عبد الله رضوان الله عليه قصة تلك اللحظات الحزينة فيقول

(١) أنساب الأشراف (١/ ٤٥١) .

كما جاء في «الاستيعاب»: أخذ النبي ﷺ بيد عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه ، فأتى النخل فإذا إبراهيم في حجر أمه ، وهو يجود بنفسه ، فأخذه رسول الله ﷺ فوضعه في حجره ثم قال : «يا إبراهيم ، إنه أمر الله لا نغني عنك من الله شيئاً» ، ثم ذرفت عيناه وقال : «يا إبراهيم ، لولا أنه أمر حق ، ووعد صدق ، وأن آخرنا سيلحق أولنا ، لحزنا عليك حزناً هو أشد من هذا ، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون تبكي العين ، ويحزن القلب ، ولا نقول ما يسخط الرب» .

كانت وفاة إبراهيم في بني مازن بن النجار حيث كان يرضع ، وتوفي لدى أم بردة ^(١) ابنة المنذر النجارية ، وغسلته الصحابية أم بردة الأنصارية ، وحمل من بيتها على سرير صغير ، وسارت الجنازة إلى البقيع ورسول الله ﷺ بين الأكبرين العُميرين - أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، والناس يذرفون الدمع حزناً على حزن نبي الله الذي قطع هذا الطريق مرات ومرات ، فإن جنازات بناته الطاهرات لتعود إلى ذاكرته ، وربما طافت بذهنه ذكريات أخر .

بلغ الجثمان الطاهر البقيع ، فصلى عليه أبوه رسول الله ﷺ ، وكبر عليه أربعاً : «ندفنه عند فرطنا عثمان بن مظعون» ، أو قال : «الحق بسلفنا الصالح عثمان بن مظعون» ^(٢) .

نزل في قبره الفضل بن العباس وأسامة بن زيد رضي الله عنهما ، ورسول الله ﷺ جالس على شفير القبر ، ثم رشه بهاء وأعلم عليه علامة .

وقيل : «إن رسول الله ﷺ أضجعه بيده الشريفة في قبره ، ثم سوى عليه

(١) دلائل النبوة للبيهقي (٤٢٩/٥) .

(٢) عيون الأثر (٣٦٧/٢) .

التراب ، ونداه بالماء» (١) .

فسلام على إبراهيم ، وصلاة وسلام على أبي إبراهيم سيدنا محمد رسول الله ﷺ إمام الصابرين وإمام المتقين ، معلم الناس الخير .

مارية ووصية نبوية :

مارية القبطية واحدة من النساء الخالدات اللواتي ضربن مثلاً كريماً في الصبر والتسليم؛ إذ كان فقد ابنها إبراهيم أليماً على قلبها ، وترك فيه من الحزن والأسى ما جعلها تشعر بألم الفراق ، ولكن رسول الله ﷺ هو الذي وصفه ربه بأنه : ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] ، هون على مارية فقال لها مواسياً : «إن له مرضعاً يتم رضاعه في الجنة» (٢) .

أخرج مسلم رحمه الله أن الرسول ﷺ قال : «إن إبراهيم ابني ، وإنه مات في الثدي ، وإن له لظئرين تكملان رضاعه في الجنة» (٣) .

ومن المصادفات العجيبة التي حصلت يوم موت إبراهيم أن كسفت الشمس ، فظن قوم من المسلمين أن كسوفها إنما كان لموت إبراهيم ابن رسول الله ﷺ وقالوا : كسفت الشمس لموت إبراهيم .

ولما بلغ رسول الله ﷺ ما قاله الناس ، نهض فيهم خطيباً ، وصحح مفهومهم الخاطيء ، وقال كلمته المشهورة : «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ، لا تخسفان لموت أحد ولا لحياته ، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر الله والصلاة» رواه مسلم .

(١) عيون الأثر (٢/ ٣٦٧) ، وأنساب الأشراف (١/ ٤٥١) .

(٢) أخرجه البخاري برقم (٦١٩٥) .

(٣) أخرجه مسلم برقم (٢٣١٦) .

وفي مجال الوصايا أكرم الحبيب المصطفى ﷺ القبط في حديثه ، وأمر أصحابه أن يحسنوا إليهم وأمرهم أن يستوصوا بهم ، وذلك كرامة لمارية وإكرامًا لإبراهيم .

ففي معرض وصاياه ﷺ يقول : «لو عاش إبراهيم لأعتقت أخواله ، ولو وضعت الجزية عن كل قبطي» .

وأخرج مسلم في «صحيحه» بسنده عن رسول الله ﷺ أنه قال : «إذا دخلتم مصر فاستوصوا بالقبط خيرًا ، فإن لهم ذمة ورحمًا» .

وفي رواية أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ : «إنكم ستفتحون مصر ، وهي أرض يُسمى فيها القيراط ، فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها ، فإن لهم ذمة ورحمًا» .

وهذا الحديث النبوي الشريف علامة من علامات النبوة ودلائلها ، فقد تنبأ رسول الله ﷺ بفتح مصر قبل أن يتم بسنواتٍ ، ولما فتحت مصر على يد عمرو بن العاص رضي الله عنه حافظ على وصية رسول الله ﷺ ، وعامل الأقباط في ساحة ومروءة ، وبهذا أثمرت وصية الرسول ﷺ في أهل مصر .

وقد أورد «ياقوت الحموي» رحمه الله في «معجم بلدانه» ، أن الحسن بن علي رضي الله عنه طلب إلى معاوية في مفاوضات الصلح بينها أن يرفع الخراج عن أهل قرية «حفن» المصرية التي يعود أصل مارية القبطية إليها ، وفيها أخوال إبراهيم ابن رسول الله ﷺ (١) .

وقد جاء في الأخبار أيضًا أن سيدنا عبادة بن الصامت رضي الله عنه ، قدم مصر بعد فتحها ، وسأل عن قرية «حفن» ، وسأل عن موضع بيت مارية ، ومن ثم بنى

(١) انظر : معجم البلدان لياقوت الحموي (٣/٣٠٢) ، مادة «حفن» .

مسجدًا وفاء لذكراها وإحياء لسنة المصطفى ﷺ .

إشارة القرآن الكريم إلى مارية :

لمارية أم إبراهيم ؑ شأن مهم في أحداث السيرة النبوية ، كما لها شأن عظيم في الآيات المباركات التي تُتلى في المحاريب إلى ما شاء الله .

فقد أنزل الله ﷻ صدر سورة التحريم بسبب مارية القبطية هذه ، وقد أوردتها العلماء والفقهاء والمحدثون والمفسرون في أحاديثهم وتصانيفهم .

ففي تفسيره الجامع نقل الإمام الطبري رَحِمَهُ اللهُ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِمَ تَحْرِمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [التحريم: ١-٣] .

عن ابن عباس قال : «كانت حفصة وعائشة متحابتين ، وكانتا زوجتي النبي ﷺ ، فذهبت حفصة إلى بيت أبيها ، فتحدثت عنده ، فأرسل النبي ﷺ إلى جاريتته مارية فضلت معه في بيت حفصة ، وكان اليوم الذي يأتي فيه عائشة ، فرجعت حفصة فوجدتها في بيتها ، فجعلت تنتظر خروجها ، وغارت غيرة شديدة ، فأخرج رسول الله ﷺ جاريتته ، ودخلت حفصة فقالت : قد رأيت من كان عندك والله لقد ساءتني .

فقال النبي ﷺ : «لأرضينك ، فإني مُسر إليك سرًا فاحفظيه» .

قالت : ما هو ؟

قال : «إني أشهدك أن سُرَّيتي هذه عليَّ حرام رضًا لك» .

وكانت حفصة وعائشة تظاهران على نساء النبي ﷺ ، فانطلقت حفصة إلى عائشة ، فأسرت إليها أن أبشري أن النبي ﷺ قد حرم عليه فتاته .

فلما أخبرت بسر النبي ﷺ أظهره الله ﷻ للنبي ﷺ فأرسل الله على رسوله لما

تظاهرتا عليه : ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحْرِمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾ إلى قوله : ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [التحریم: ١، ٢] ^(١) .

وفي هذه إشارة كريمة إلى مكانة مارية التي بسببها أنزل الله ﷻ آيات مبینات ، وفي هذه الآيات الباهرة أحكام عديدة بسطها أهل العلم والمعرفة في كتبهم ، ذاكرين خلاها فضل مارية أم إبراهيم رضوان الله عليها ، ونزول الذكر الحكيم كرامة لها ، وإكرامًا للحبيب الأعظم ﷺ .

وقد توفي رسول الله ﷺ وهو راضٍ عن مارية التي تشرفت بالبيت النبوي الطاهر ، وُعِدت من أهله الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرًا ، ولقد رأينا معالم تلك الطهارة في حياتها المثمرة بالخير والبركة والعبادة .

كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ :

الصديق الأكبر سيدنا أبو بكر ﷺ ، السباق والسابق إلى كل فضيلة ، كان ينفق في خلافته على السيدة مارية القبطية أم إبراهيم برًا بها وتنفيذًا لوصية حبيبه المصطفى ﷺ ، فكان ينزلها منزلًا كريمًا من نفسه ويعرف حقها ، ويحسن إليها غاية الإحسان ، إذ عُرفت بدينها وورعها وصيانتها وعبادتها ، فكانت بعد الرسول الكريم ﷺ تؤنس وحدتها بالصلاة والذكر ، وكانت تجد في الذكر سلواها وراحتها ، وكذلك المؤمنون الذين وصفهم الله بقوله : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨] .

كانت عناية الصديق ورعايته تحفُّ مارية حتى توفي ﷺ ، وجاء عمر الفاروق فسلك السلوك نفسه الذي سلكه الصديق ، وكان ينفق عليها ويرعى

(١) تفسير الطبري (٢٨/١٥٥، ١٥٩)، وتفسير القرطبي (١٨/١٧٧-١٨٦)، والتفسير

الكبير للرازي (٣٠/٣٧، ٣٨)، ومختصر تفسير ابن كثير (٣/٥١٩-٥٢٢) .

شؤونها .

ظلت مارية رضي الله عنها تعيش في ظلال الخلافة الراشدة قرابة خمس سنين ، ولما كان المحرم من السنة السادسة عشرة ^(١) من الهجرة الميمونة ، أحست بقرب اللقاء مع الله ودنو الأجل ، ولم تمض أيام قلائل حتى صعدت روحها إلى بارئها راضية مرضية ، وهي تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .

ونادى منادٍ في المدينة المنورة : أن توفيت مارية أم إبراهيم .

ورئي سيدنا عمر بن الخطاب عليه سحائب الرضوان وهو يدعو الناس ويجمعهم لشهود الصلاة عليها ^(٢) .

وفي البقيع اجتمع عدد كبير من الصحابة الكرام من المهاجرين والأنصار كي يشهدوا جنازتها وصلى عليها سيدنا عمر رضي الله عنه ، ودفنها بالبقيع ^(٣) في المدينة المنورة إلى جانب نساء أهل البيت النبوي ، وإلى جانب ابنها إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

تركت مارية بنت شمعون وراءها ذكراً عطراً ، وسيرة حسنة تشهد بمحاسن فضائلها ، تركت مارية سيرة كريمة تصلح أن تكون بهجة المجالس ، وأنس المجالس ، تُعطرُ الأسماع ، وتقندي بها النساء في كل العصور والأزمان .

وقبل أن نقول : وداعاً أم إبراهيم ، تعالوا نتلو قول الله تعالى : ﴿ وَيَسِّرِ الْمُخْبِتِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ ﴾

(١) طبقات ابن سعد (٢١٦/٨) ، والمعرفة والتاريخ (٣٠٥/٣) ، والمواهب اللدنية (١٠١/٢) ، أسد الغابة (٢٦١/٦) .

(٢) أسد الغابة (٢٦١/٦) ، وطبقات ابن سعد (٢١٦/٨) .

(٣) طبقات ابن سعد (٢١٦/٨) ، وتاريخ الإسلام للذهبي (ص ١٦٣) .

وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣٤﴾ [الحج: ٣٤، ٣٥].

رضي الله عن مارية أم إبراهيم وأكرمها برحمته ، وجعلها مع الذين أنعم الله عليهم ، وجعلنا في معية أهل البيت ، وعفا عنا ، وأكرمنا بفضله وإحسانه ، وغفر لنا ، وجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه .

رَفَعُ

عبد الرحمن العنزي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

أهم المصادر والمراجع

أهم المراجع والمصادر

- ١- القرآن الكريم .
- ٢- تفسير القرطبي .
- ٣- تفسير ابن كثير .
- ٤- الدر المنثور في التفسير بالمأثور - للسيوطي .
- ٥- تفسير القاسمي .
- ٦- أسباب النزول للواحدي .
- ٧- صحيح البخاري .
- ٨- صحيح مسلم .
- ٩- جامع الأصول - لابن الأثير .
- ١٠- الموطأ - للإمام مالك .
- ١١- سنن أبي داود .
- ١٢- فضائل الصحابة - الإمام أحمد .
- ١٣- مجمع الزوائد - الهيثمي .
- ١٤- تهذيب الأسماء واللغات - الإمام النووي .
- ١٥- تهذيب التهذيب - لابن حجر .
- ١٦- سير أعلام النبلاء - للذهبي .
- ١٧- أسد الغابة - ابن الأثير .
- ١٨- الإصابة - ابن حجر .
- ١٩- الطبقات الكبرى - ابن سعد .

- ٢٠- حلية الأولياء - أبو نعيم الأصبهاني .
- ٢١- صفة الصفوة - ابن الجوزي .
- ٢٢- الاستيعاب - ابن عبد البر .
- ٢٣- أعلام النساء - رضا كحالة .
- ٢٤- شذرات الذهب - ابن العماد الحنبلي .
- ٢٥- الأعلام - الزركلي .
- ٢٦- تاريخ الإسلام - الذهبي .
- ٢٧- البداية والنهاية - ابن كثير .
- ٢٨- النجوم الزاهرة - ابن تغري بردي .
- ٢٩- وفاء الوفاء - السمهودي .
- ٣٠- شفاء الغرام - الفاسي .
- ٣١- السيرة النبوية - ابن هشام .
- ٣٢- السيرة الحلبية - ابن برهان الحلبي .
- ٣٣- الفصول في السيرة - ابن كثير .
- ٣٤- جوامع السيرة النبوية - ابن حزم .
- ٣٥- دلائل النبوة - للبيهقي .
- ٣٦- حياة الصحابة - الكاندهلوي .
- ٣٧- فتوح البلدان - البلاذري .
- ٣٨- بهجة المجالس وأنس المجالس - لابن عبد البر .
- ٣٩- تاريخ بغداد - للخطيب البغدادي .

- ٤٠- التفسير الكبير - للفخر الرازي .
 ٤١- تراجم سيدات النبوة لعائشة عبد الرحمن .
 ٤٢- التبصرة - لابن الجوزي .
 ٤٣- الرحيق المختوم للمباركفوري .
 ٤٤- الروض الأنف - للسهيلى .
 ٤٥- زاد المعاد - لابن القيم .
 ٤٦- الطبقات الكبرى - لابن سعد .
 ٤٧- العقد الفريد - لابن عبد ربه .
 ٤٨- في ظلال القرآن لسيد قطب .
 ٤٩- أمهات الأنبياء - مصطفى حسين المكبر .
 ٥٠- مختصر منهاج القاصدين - لابن قدامة المقدسي .
 ٥١- تاريخ الأمم والملوك - محمد بن جرير الطبري .
 ٥٢- تفسير روح المعاني - إسماعيل حقي البرسوي .



رَفَعُ

عبد الرحمن البخاري
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
٣	مقدمة الشيخ محمد حسان.....
٥	الإهداء.....
٧	مقدمة المؤلف.....
١٠	زينب بنت النبي ﷺ.....
٤٢	زينب بنت علي (عقيلة بني هاشم ﷺ).....
٦٧	عائشة بنت طلحة ﷺ.....
٩١	رقية بنت النبي ﷺ.....
١١١	أم كلثوم بنت النبي ﷺ.....
١٣١	سكينة بنت الحسين ﷺ.....
١٥١	أسماء بنت يزيد بن السكن ﷺ.....
١٦٩	هند بنت عتبة ﷺ.....
١٨٧	أمّنة بنت وهب (أم الرسول ﷺ).....
٢٠٣	رملة بنت الزبير بن العوام ﷺ.....
٢١٩	رملة بنت معاوية ﷺ.....
٢٣٤	سلمى مولاة رسول الله ﷺ.....
٢٥١	أمّة بنت خالد بن سعيد ﷺ.....

٢٦٧	الخنساء بنت عمرو <small>رضي الله عنها</small>
٢٨٢	أم الدحداح الأنصارية <small>رضي الله عنها</small>
٢٩٨	زينب بنت خزيمة <small>رضي الله عنها</small>
٣١٣	فاطمة بنت عبد الملك <small>رضي الله عنها</small>
٣٢٧	أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث <small>رضي الله عنها</small>
٣٤٢	أمامة بنت حمزة <small>رضي الله عنها</small>
٣٥٧	جميلة بنت سعد بن الربيع <small>رضي الله عنها</small>
٣٧٢	جميلة بنت عبد الله بن أبي ابن سلول <small>رضي الله عنها</small>
٣٨٧	أم الدرداء الصغرى <small>رضي الله عنها</small>
٤٠٠	أم معبد الخزاعية <small>رضي الله عنها</small>
٤١٣	سلمى بنت خفصة <small>رضي الله عنها</small>
٤٢٥	فاطمة بنت الخطاب <small>رضي الله عنها</small>
٤٣٨	أم هانئ بنت أبي طالب <small>رضي الله عنها</small>
٤٥١	عاتكة بنت زيد <small>رضي الله عنها</small>
٤٦٣	معاذة بنت عبد الله <small>رضي الله عنها</small>
٤٧٤	سفانة بنت حاتم الطائي <small>رضي الله عنها</small>
٤٨٦	زينب بنت أبي سلمة <small>رضي الله عنها</small>
٤٩٩	زينب بنت أبي معاوية <small>رضي الله عنها</small>

٥١١ الشفاء بنت الحارث السعدية <small>رضي الله عنها</small>
٥٢٢ درة بنت أبي لهب <small>رضي الله عنها</small>
٥٣٥ خولة بنت حكيم <small>رضي الله عنها</small>
٥٤٦ أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان <small>رضي الله عنها</small>
٥٥٩ سلمى بنت عميس <small>رضي الله عنها</small>
٥٦٩ ریحانة بنت زيد <small>رضي الله عنها</small>
٥٧٩ حفصة بنت سيرين <small>رضي الله عنها</small>
٥٩٢ حبيبة بنت سهل الأنصارية <small>رضي الله عنها</small>
٦٠٣ أم عاصم بنت عاصم <small>رضي الله عنها</small>
٦١٣ حبيبة بنت خارجة <small>رضي الله عنها</small>
٦٢٥ الزرقاء بنت عدي <small>رضي الله عنها</small>
٦٣٥ الربيع بنت النضر الأنصاري <small>رضي الله عنها</small>
٦٤٤ الصعبة بنت الحضرمي <small>رضي الله عنها</small>
٦٥٤ حمنة بنت جحش <small>رضي الله عنها</small>
٦٦٥ أميمة بنت خلف <small>رضي الله عنها</small>
٦٧٣ مارية بنت شمعون <small>رضي الله عنها</small>
٦٩٧ أهم المراجع والمصادر.....
٧٠١ فهرس الموضوعات.....

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

www.moswarat.com

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

